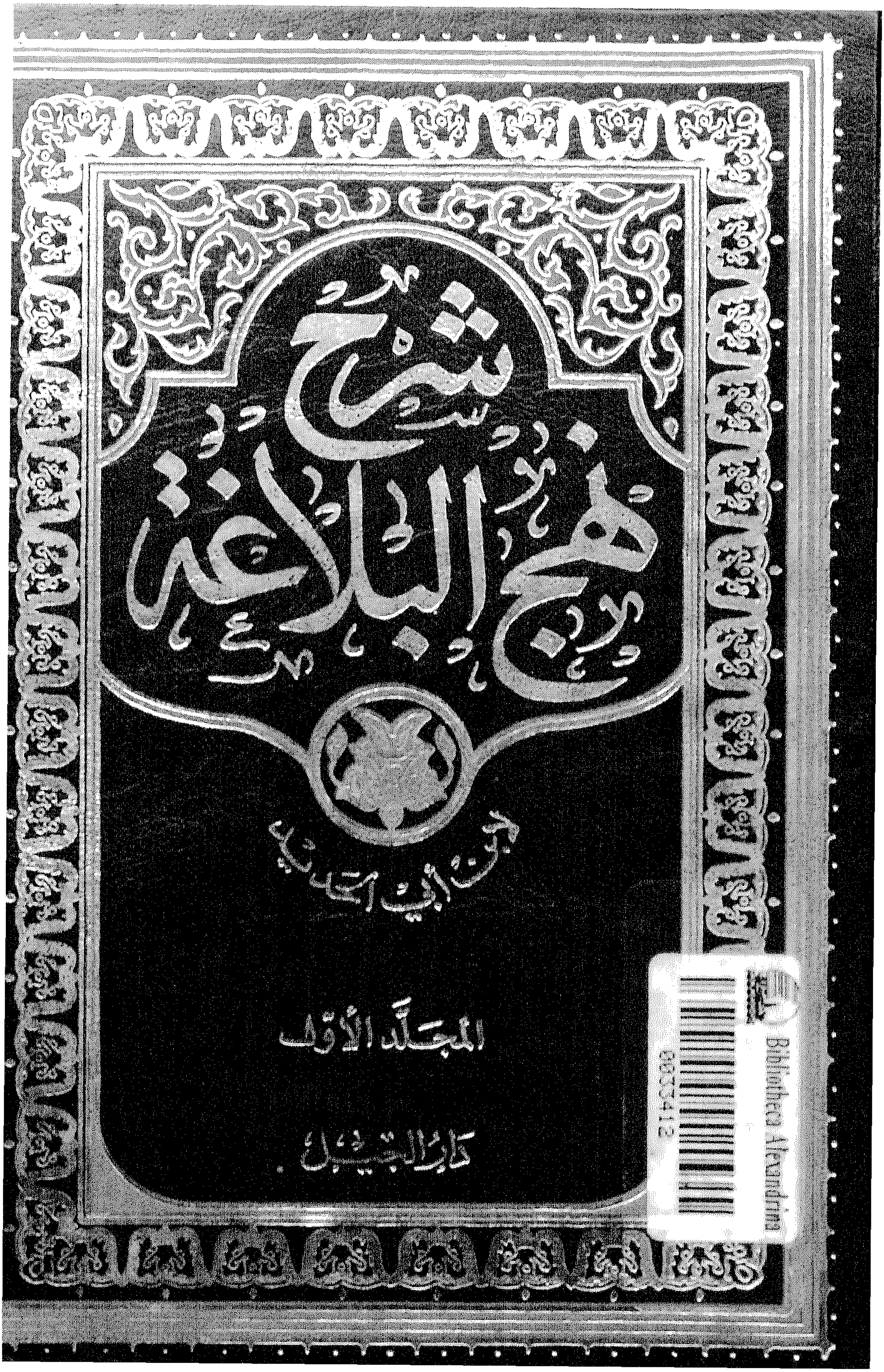

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

المجلد الأول

دار الجيل

Bibliotheca Alexandrina
0655412

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الأول

دار الجيل

بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناشر

طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة *

١ — نهج البلاغة

اجتمع للإمام علىّ بن أبى طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشمائل والخِلال ، وسناء الحسب وباذخ الشرف ؛ مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية ، مالم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

(*) مصادر البحث والترجمة :

١ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير ـ ١٣ : ١٩٨ ـ ١٩٩ ، (مطبعة السعادة) .

٢ ـ تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى ـ الجزء الرابع الورقة ٩ ، (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .

٣ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، لابن الفوطى ص ٣٣٦ ، (طبعة المكتبة العربية ببغداد)

٤ ـ درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ لابن حبيب الحلبي ـ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مصورة دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ ح) .

٥ ـ روضات الجنات لمحمد باقر الخوانسارى ٤٠٦ ـ ٤٠٩ ، (طبع العجم ١٣٠٤ هـ) .

٦ ـ عقد الجمان للعينى ـ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية ١٥٨٤ تاريخ) .

٧ ـ عيون التواريخ لابن شاكر ـ وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ) .

٨ ـ فوات الوفيات ١ : ٥١٩ ـ ٥٢٢ (مطبعة السعادة) .

٩ ـ كشف الظنون ١٢٧٣ ، ١٢٩١ ، ١٥٧٦ ، ١٦١٥ ، ١٩٩١ ، (طبع إستانبول ١٩٤٣) .

١٠ ـ ماهو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستانى ، (مطبعة العرفان بصيدا) .

١١ ـ مجمع الآداب لابن الفوطى ، (فى ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ـ طبعة الحلبى) .

١٢ ـ نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحيى الصنعانى ، الورقة ٢٦٠ ـ ٢٦٢ (مصورة دار الكتب المصرية ١٣٨٤٩ ح) .

تحدّر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ؛ فأبوه أبو طالب عظيم المشيَخَة من قريش . وجدّه عبد المطلب أمير مكّة وسيّد البطحاء ؛ ثم هو قبل ذلك من هَامات بنى هاشم وأعيانهم؛ وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ : «مِلْح الأرض، وزينة الدنيا ، وحَلْى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهِل الأعظم ؛ ولُباب كلّ جَوْهرٍ كريم ، وسرّ كلّ عنصُر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرِس المبارك ، والنِّصاب الوثيق، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم . . . » (١) .

واختصّ بقرابته القريبة من الرّسول عليه السلام ؛ فكان ابنَ عمّه ، وزوج ابنته، وأحبّ عِتْرته إليه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقربَ الناس إلى فصاحته وبلاغته ، وأحفظهم لقوله وجوامع كَلِمه ؛ أسلم على يديه صبيًّا قبل أن يمسّ قلبه عقيدةٌ سابقة ، أو يخالط عقله شَوْبٌ من شرك موروث ؛ ولازمه فتيًّا يافعا ؛ فى غدوّه ورواحه ، وسِلْمه وحربه ؛ حتى تخلّق بأخلاقه ، واتّسم بصفاته ، وفقِه عنه الدين ، وثقف مانزل به الرّوح الأمين؛ فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم، وأحفظهم وأوعاهم ؛ وأدقهم فى الفتيا؛ وأقربهم إلى الصّواب ؛ وحتى قال فيه عمر : لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن . وكانت حياته كلّها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور ؛ فعلى عهد الرسول عايه السلام ناضل المشركين واليهود؛ فكان فارس الحلبة ومِسْعَر الميدان ، صليب النَّبْع جميعَ الفُؤاد ؛ وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ؛ لقى فيها مالقىَ من تفرّق الكلمة واختلاف الجماعة ، وانفصام العُرْوة ؛ ماطوى أضالعه على الهمّ والأسى، ولاع قلبه بالحزن والشَّجن ؛ وفى كل مالقىَ من أحداث وأمور، وماصادف من محن وخطوب، بلا الناس وخَبَرهم، وتفطّن لمطاوى نفوسهم، واستشفّ ما وراء مظاهِرهم ؛ فكان العالم المجرّب الحكيم ، والناقد الصيرفىّ الخبير .

وكان لطيف الحِسّ ، نقىّ الجوهر ، وضاء النَّفس ؛ سليمَ الذّوق ، مستقيمَ الرأى ،

---

(١) زهر الآداب ١ : ٥٩

حسن الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ؛ حوّلا قُلّبًا ؛ عارفا بمهمّات الأمور إصدارا وإيرادا ؛ بل كان كما وصفه الحسن البصريّ : سهما صائبا من مرامى الله على عدوّه ، وربانيّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن بالنئومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمه ، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام مشرقة ، ذاك على بن أبى طالب .

* * *

كلّ هذه المزايا مجتمعة ، وتلك الصفات متآزرة متناصرة ؛ وما صاحبها من نَفْح إلهىّ ، وإلهام قُدسىّ ، مكّنت للإمام علىّ من وجوه البيان ، وملّكته أعنّة الكلام ، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، وهيّأت له أشرف المواقف وأعزّها، فجرتْ على لسانه الخُطب الرائعة ، والرسائل الجامعة، والوصايا النافعة ، والكلمة يرسلها عفو الخاطر فتغدو حِكْمة، والحديث يلقيه بلا تعمّل ولا إعنات فيصبح مثلا ؛ فى أداء محكم ، ومعنى واضح ، ولفظ عذب سائغ ؛ وإذا هذا الكلام يملأ السهل والجبل ، ويتنقل فى البدو والحضر ؛ يرويه على كثرته الرواة ، ويحفظه العلماء والدارسون ؛ قال المسعودىّ : والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيّف وثمانون خطبة ؛ يوردها على البديهة ؛ تداول عنه الناس ذلك قولا وعملا (١) .

ثم ظلّ هكذا محفوظًا فى الصدور مرويًّا على الألسنة ، حتى كان عصر التدوين والتأليف ؛ فانتثرت خطبه ورسائله فى كتب التاريخ والسّيَر والمغازى والمحاضرات والأدب

---

(١) تاريخ المسعودى ٢ : ٤٣١ .

على الخصوص ، كما انتُخبت كلماته ومأثور حكمه فيما وضعوه من أبواب المواعظ والدعاء ؛ وفى كتابَى الغريب لأبى عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة منه الشىء الكثير .

وإذْ كان لكلام الإمام علىّ طابع خاصّ يميزه عن غيره من الخطباء ، ونهج واضح يخالف غيره من البلغاء والمترسلين ؛ فقد حاول كثير من العلماء والأدباء على مرّ العصور أن يُفردوا لكلامه كتبا خاصة ودواوين مستقلّة ؛ بقىَ بعضها وذهب الكثير منها على الأيام ؛ منهم نصر بن مزاحم صاحب صفين، وأبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبىّ، وأبو مخنف لوط بن يحيي الأزدىّ ، ومحمد بن عمر الواقدىّ ، وأبو الحسن علىّ بن محمد المدائنى ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبو الحسن علىّ بن الحسين المسعودىّ ، وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعىّ ، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد التميمىّ ، ورشيد الدين محمد بن محمد المعروف بالوطواط ، وعزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد ؛ وغيرهم كثيرون .

إلّا أنّ أعظم هذه المحاولات خطرا ، وأعلاها شأنا ، وأحسنها أبوابا ؛ وأبعدها صيتا وشأوا ؛ هو مجموع ما اختاره الشريف الرضىّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ ؛ فى كتابه « نهج البلاغة » .

بناه على ما أفرده فى كتاب « خصائص الأئمة » من « فصل يتضمّن محاسن مانقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى الحِكَم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة(١) »؛ ثم جعله كتابا « يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه ومتشعّبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ؛ علما أن ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية مالا يوجد مجتمعا فى كلام ، ولا مجموع الأطراف فى كتاب » (١) .

---

(١) مقدمة الرضى للنهج .

وأدار اختياره على ثلاثة أقطاب: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ ؛ وأسماه كتاب « نهج البلاغة » « إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابَها ، ويقرّب عليه طِلابها ، وفيه حاجة العالم والمتعلم ، وبغية البليغ والزاهد »⁽¹⁾ .

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه سار فى الناس ذكره ، وتألق نجمه ؛ أشأم وأعرق ، وأنجد وأتهم ، وأُعجب به الناس حيث كان ، وتدارسوه فى كل مكان . لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق؛ وما احتواه من جوامع الكلم، ونوابغ الحكم فى أسلوب متساوق الأغراض ، محكم السّبك، يعد فى الذّروة العليا من النثر العربىّ الرائع.

* * *

ولم يذكر الشريف الرضىّ فى صدر كتابه المصادر التى رجع إليها ؛ أو الشيوخ الذين نقل عنهم ؛ إلا أنه ــ كما يبدو من تضاعيف الكتاب ــ نقل فى بعض ما نقل عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والمقتضب للمبرد ، وكتاب المغازى لسعيد بن يحيى الأموىّ، وكتاب الجمل للواقدىّ، والمقامات فى مناقب أمير المؤمنين لأبى جعفر الإسكافىّ، وتاريخ ابن جرير الطبرىّ، وحكاية أبى جعفر محمد بن علىّ الباقر ، ورواية اليمانىّ عن أحمد ابن قتيبة؛ وما وجد بخط هشام بن الكلبىّ وخبر ضرار بن حمزة الصدائىّ، ورواية أبى جحيفة، وحكاية ثعلب عن أبى الأعرابىّ⁽²⁾؛ ولعلّه فى غير ما نقل عن هؤلاء ، نقل من مصادر أخرى لم يصرح بها .

* * *

وعلى مرّ العصور والأزمان كانت نسبة ما فى كتاب نهج البلاغة إلى الإمام علىّ مثاراً للشكّ عند العلماء والباحثين ؛ المتقدمين والمتأخرين .

---

(١) مقدمة الرضى للنهج .

(٢) انظر نهج البلاغة ١ : ٣٦ ، ٦٢ ، ٨٩ / ٢ : ٥٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٩١

وقد تناول ابن أبى الحديد هذه القضية بالبحث ، فقال :

كثيرٌ من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلامٌ محدَث صَنَعه قوم من فُصحاء الشيعة ، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضىّ أبى الحسن أو غيره ؛ وهؤلاء أعمت العصبيّة أعيُنَهم فضلّوا عن النهج الواضح ، وركِبُوا بُنيّاتِ[1] الطريق ، ضلالا وقلة معرف بأساليب الكلام .

وأنا أوضح لك بكلام مختصر مافى هذا الخاطر من الغلط فأقول : لا يخلو إما أ يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعا منحولاً ، أو بعضه .

والأول باطل بالضرورة ؛ لأنا نعلم بالتواتر صحةَ إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عل السلام ، وقد نقل المحدّثون ـ كلّهم أو جلّهم ـ والمؤرخون كثيرا منه ، وليسوا من الشي لينسبوا إلى غرض فى ذلك .

والثانى : يدلّ على ماقلناه ؛ لأنّ من قد أنِس بالكلام والخطابة ، وشدَا طرَفاً من البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب ؛ لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد . وإذا وقف على كراس واحدٍ يتض كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط ، فلا بدّ أن يفرق بين الكلامين ، و بين الطريقتين ؛ ألا ترَى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ؛ لو تصفّحنا ديوانَ أبى تمام فوجد قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبى تمام ونف وطريقته ومذهبه فى القريض ؛ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصـ كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه فى الشعر ! وكذلك حذفوا من شعر أبى نواس كث

---

[1] بنيات الطريق : هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة ؛ وهى الترهات .

لما ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء ؛ ولم يعتمدوا فى ذلك إلا على الذوق خاصة .

وأنت إذا تأمّلت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدا ، ونفَسا واحدا ، وأسلوبا واحدا؛ كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقى الأبعاض فى الماهية ؛ وكالقرآن العزيز ، أوله كوسطه ، وأوسطه كآخره ؛ وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقى الآيات والسوَر .

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا ، وبعضه صحيحا ، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلالُ من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه مالا قِبَل له به ؛ لأنا متى فتحنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النحو ، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول : هذا الخبرُ منحول ؛ وهذا الكلام مصنوع ؛ وكذا ما نقل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والآداب وغير ذلك ، وكلّ أمرٍ جعله هذا الطاعن مستَندا له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء والمترسلين والخطباء ؛ فلناصرى أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مِثْله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره ؛ وهذا واضح »(١) .

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ — شرح نهج البلاغة

وقد تصدّر لشرح كتاب « نهج البلاغة » كثيرون من العلماء والفضلاء ؛ ذكر السيد هبة الله الشهرستانىّ (١) أنها تنوف على الخمسين شرحا ؛ ما بين مبسوط ومختصر؛ منهم أبو الحسين البيهقىّ ، والإمام فخر الدين الرازىّ ، والقطب الراوندىّ ، وكمال الدين محمد ميثم البحرانىّ ؛ من المتقدمين ، وحبيب بن محمد بن هاشم الهاشمىّ والشيخ محمد عبد ومحمد نائل المرصفى من المتأخرين .

ولكن أعظم هذه الشروح وأطولها ، وأشملها بالعلوم والآداب والمعارف وأملؤها هو شرح عزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد المدائنىّ ؛ صنفه برسم خزانة مؤيد الدين أبى طالب محمد بن أحمد العلقمىّ ، وزير المستعصم بالله ، آخر ملوك العباسيين . « كان من فضلاء الشيعة وأعيانهم ببغداد ، مائلا للآداب مقرّبا للأدباء ، وكانت له خزانة كتب فيها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب »(٢) .

شرع فى تأليفه فى غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة ، وأتمّه فى سلخ صف من سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ فقضى أربع سنين وثمانية أشهر ، وكانت كما يقول « مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام » ؛ وكسره على عشرين جزءا .

ولما فرغ من تصنيفه أنفذه على يد أخيه موفّق الدين أبى المعالى إلى ابن العلقمىّ فبعث إليه بمائة دينار وخلعة سنيّة وفرس ؛ فكتب إلى الوزير :

أياربَّ العباد رَفَعْتَ ضَبْعِى   وَطُلْتَ بمنكبى وبللتَ ريقى
وزيغَ الأشعرىّ كشفت عنّى   فلم أسْلُكْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ

---

(١) فى كتابه ماهو نهج البلاغة ٨ — ١٠
(٢) الفخرى ٢٩٥ .

أحبُّ الإعتزالَ وناصريهِ ذَوِى الْأَلْبابِ والنَّظَرِ الدَّقِيقِ
فأهلُ العدلِ والتوحيدِ أَهْلِي ونعم فريقهمْ أبداً فَرِيقى
وشرحَ النهْج لم أُدْرِكْهُ إلّا بِعَوْنِكَ بَعْدَ مَجْهَدَةٍ وَضِيقِ
تَمَثَّلُ إذ بَدَأْت بِهِ لِعَيْنِى هُنَاكَ كَذِرْوَةِ الطَّوْدِ السَّحِيقِ
فَتَمَّ بِحُسْنِ عَوْنِكَ وَهْوَ نَاءٍ مِنَ العَيُّوقِ أَوْ بَيْضِ الْأَنُوقِ
بِآلِ العلقمىِّ وَرَتْ زِنَادِى وَقَامَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْفَضْلِ سُوقِى
فَكَمْ ثَوْبٍ أَنِيقٍ نِلْتُ مِنْهُمْ وَنِلْتُ بِهِمْ وَكَمْ طِرْفٍ عَتِيقِ
أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَهُمْ وأَنْحَى عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِالْخَنْفَقِيقِ (١)

* * *

وقد ذكر فى صدر كتابه أنّه لم يسبقه أحَدٌ بشرح النهج سوى سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه ، المعروف بالراوندىّ ؛ وأنه قد تعرّض لهذا الشرح فيما ناقضه فيه ، فى مواضعَ يسيرة ، وأعرض عن كثير مما قاله . وقد التزم فى شرحه أن يقسّم الكلام فصولا ، فيشرح كلمات كلّ فصل شرحا دقيقا مشتملا على « الغريب والمعانى وعلم البيان ، وماعساه يشتبه ويُشكل من الإعراب والتصريف » (٢) ، ثم يُورد « مايطابقه من النظائر والأشباه نثراً ونظماً (٢) » ، ثم يستطرد إلى ذكر « مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث .. » (٢) ، ويشير إلى ماينطوى عليه هذا الفصل « من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفية (٢) » ، ويلوّح « إلى مايستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة » (٢) ، ويرصّعه بما يشاء « من المواعظ الزّهديّة ، والزواجر الدينية والحِكَم النفيسة ، والآداب الخلقية ، المناسبة لفِقَره ، والمشاكلة لدرره (٢) » .

ثم ينتقل إلى الفصل الذى يليه ؛ وهكذا .

---

(١) الخنفقيق : الداهية .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

وهو بهذا المنهج الذى التزمه ، والطريق الذى سلكه ، قد نقل إلى هذا الكتاب عُصارة ما فى كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازى والسير والفقه والجدل والمناظر؛ وعلوم الكلام ، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشى والتعاليق؛ وطرّزه بما اختاره من روائع الخطب ونوابغ الحكم ومصطفى الرسائل ؛ ممّا نطق به مصاقع الخطباء وبلغاء الكتاب وزعماء القول فى الجاهلية والإسلام ؛ ثم وشّاه بما انتخله من دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ؛ من فاخر القول وحُرّ الكلام ؛ فى متنوّع فنون الشعر ومذاهبه ، ومختلف أغراضه ومراميه .

وقد ارتفع أسلوبه فى جميع مراحل الكتاب عن الخلل والتعقيد ، وتجافَى عن الركاك والتعسف والإبهام، والتزم الأسلوب الرّصين ، والتعبير الفصيح ، واللفظ العربىّ الأصيل سوى بعض الألفاظ التى تدسّتْ فيما نقله عن المتكلمين وأصحاب المقولات؛ من نحو قولهم « المحسوسات » ، و « الكلّ والبعض » ، وقولهم : « الصفات الذاتية والجسمانيات » وقولهم : « أما أوّلا فالحال كذا » ؛ ونحو ذلك مما يأباه الفصيح من الألفاظ والسليم من الأساليب ؛ وقد اعتذر عن ذلك المؤلف بقوله : « استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم ؛ فمن كلّم قوماً كلمهم باصطلاحهم ، ومن دخل ظَفَارِ حَمَّر »⁽¹⁾ .

وما أحسن ما اعتذر به !

وبتلك المزايا المتنوعة للكتاب ، خرجَ « كتابا كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبنا جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ، جليلة فوائده ، شريفة مقاصدُه ، عظيما شأنُه ، عالية منزلة ومكانه »⁽²⁾ ؛ يرِد شِرْعَتَه العلماء ، وينهل من مورده الباحثون والأدباء .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٣٥٠ .
(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

٣ — ابن أبى الحديد

ومؤلف هذا الشرح هو عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبى الحديد المدائنىّ ؛ أحد جهابذة العلماء ، وأثبات المؤرخين ؛ ممن نجم فى العصر العباسى الثانى ؛ أزهى العصور الإسلامية إنتاجا وتأليفا ؛ وأحفلها بالشعراء والكتاب والأدباء والمؤرخين واللغويين وأصحاب المعاجم والموسوعات .

كان فقيها أصوليًّا ؛ وله فى ذلك مصنفات معروفة مشهورة ؛ وكان متكلّما جدليًّا نَظّارا ؛ اصطنع مذهب الاعتزال ؛ وعلى أساسه جادل وناظر ، وحاجّ وناقش ؛ وفى شرح النهج وكثير من كتبه آراء منثورة مما ذهب إليه ، وله مع الأشعرىّ والغزالىّ والرازىّ كتب ومواقف .

وكان أديبًا ناقداً ، ثاقبَ النظر ، خبيرا بمحاسن الكلام ومساوئه ، وكتابه ’’ الفَلَك الدائر على المثل السائر ‘‘ ؛ دليل على بعد غوْره ، وَرسوخِ قَدَمه فى نقد الشعر وفنون البيان .

ثم كان أديبا متضلّعا فى فنون الأدب ، متقنا لعلوم اللسان ، عارفا بأخبار العرب ، مطلعا على لغاتها ، جامعا لخطبها ومنافراتها ، راويا لأشعارها وأمثالها ، حافظا لُملحها وطُرفها ، قارئا مستوعبا لكلّ ما حوته الكتب والأسفار فى زمانه .

وكان وراء هذا شاعراً عذْب المورد ، مشرق المعنى ، متصرّفا مجيدا ؛ كما كان كاتبا بديع الإنشاء ، حسن الترسّل ، ناصع البيان .

* * *

ولد بالمدائن فى غرّة ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ؛ ونشأ بها ، وتلقى عن

شيوخها ، ودرس المذاهب الكلاميّة فيها ، ثم مال إلى مذهب الاعتزال منها ؛ وكان الغالب على أهل المدائن التشيّع والتطرّف والمغالاة ؛ فسار فى دربهم ، وتقيّل مذهبهم ، ونظم القصائد المعروفة بالعلويّات السبع على طريقتهم ، وفيها غالَى وتشيّع ؛ وذهب به الإسراف فى كثير من أبياتها كلّ مذهب ؛ يقول فى إحداها[1] :

عِلْمُ ٱلْغُيوبِ إِلَيْهِ غَيْرَ مُدَافَعٍ   والصُّبْحُ أَبْيَضُ مُسْفِرٌ لَا يُدْفَعُ
وَإِلَيْهِ فِي يَوْمِ ٱلْمَعَادِ حِسَابُنَا   وَهُوَ ٱلْمَلَاذُ لَنَا غَداً وَٱلْمَفْزَعُ
هٰذَا ٱعْتِقَادِي قَدْ كَشَفْتُ غِطَاءَهُ   سَيَضُرُّ مُعْتَقِداً لَهُ أَوْ يَنْفَعُ
يَا مَنْ لَهُ فِي أَرْضِ قَلْبِيَ مَنْزِلٌ   نِعْمَ ٱلْمَرَادُ ٱلرَّحْبُ والمسْتَرْبَعُ
وتكادُ نَفْسِي أَنْ تَذُوبَ صَبَابَةً   خلقًا وَطَبْعًا لَا كَمَنْ يَتَطَبَّعُ
وَرَأَيْتُ دِينَ الإعتزال وإنَّنى   أهوى لأجلكَ كُلَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ
ولقد علمت بأنّه لا بدّ من   مَهْدِيِّكم وَلِيَوْمِهِ أتوقّعُ
تحميه مِنْ جُنْد الإلٰه كتائبٌ   كاليمّ أقبل زاخراً يتدفّعُ
فيها لآل أبى الحديدِ صَوارِمٌ   مشهورة ورماح خَطٍّ شُرَّعُ
وَرِجَالُ مَوْتٍ مُقْدِمُونَ كأَنَّهُمْ   أُسْدُ العرين الرُّبْدُ لا تَتَكَعْكَعُ
تِلْكَ المنى إما أَغِبْ عَنْها فَلِي   نَفْسٌ تُنَازِعُنِي وَشَوْقٌ يَنْزِعُ
تا الله لا أنسى الحسين وشِلْوُهُ   تحت السَّنَابِكِ بالْعَراءِ مُوَزَّعُ
مُتَلَفِّعًا حُمْرَ الثِّياب وفى غدٍ   بالْخُضر من فِرْدَوْسه يتلفّعُ
تَطَأُ السَّنابِكُ صَدْرَهُ وجبينَه   والأَرْضُ تُرجف خيفة وتَضَعْضَعُ
والشَّمْسُ نَاشِرَةُ الذَّوَائِبِ ثاكلٌ   والدَّهْرُ مَشْقُوقُ الرِّدَاءِ مُقَنَّعُ

---

[1] العلويات السبع ١٦ ، ١٧ .

لَهْفِى عَلَى تِلْكَ الدِّمَاءِ تُرَاقُ فِى   أَيْدِى أُمَيَّةَ عَنْوَةً وَتُضَيَّعُ
يَأْبَى أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَـــدُ إِنَّهُ   خَيْرُ الْوَرَى مِنْ أن يُطَلَّ ويمنعُ(١)
فهو الولىّ لثأرِها وَهْـــوَ الحمو   ل لعبئها إذ كلّ عَوْد يَضْلَعُ(٢)
والدَّهْرُ طَوْعٌ والشبيبة غَضَّة   والسَّيْفُ عَضْبٌ والفُؤَادُ مُشَيَّعُ(٣)

وحينما انقضت أيام صباه ، وطوى رداء شبابه ، خفّ إلى بغداد ؛ حاضرة الخلافة ، وكعبة القصاد ، وعشّ العلماء ، وكانت خزائنها بالكتب معمورة ، ومجالسها بالعلم والأدب مأهولة ، فقرأ الكتب واستزاد من العلم ، وأوغل فى البحث ، ووعى المسائل ، ومحّص الحقائق ، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب ، ثم جنح إلى الاعتزال ؛ وأصبح كما يقول صاحب " نسمة السحر " : معتزليًّا جاحظيًّا ، فى أكثر شرحه للنهج ؛ بعد أن كان شيعيا غاليا .

وفى بغداد أيضاً نال الحظوة عند الخلفاء من العباسيين ومدحهم ، وأخذ جوائزهم ، ونال عندهم سنىّ المراتب ورفيع المناصب ، فكان كاتبا فى دار التشريفات ؛ ثم فى الديوان ، ثم ناظرا للبيمارستان ؛ وأخيرا فوّض إليه أمر خزائن الكتب فى بغداد ؛ وفى كلّ هذا كان مرموق الجانب ، عزيز المحلّ ؛ كريم المنزلة ، إلى أن مات .

* * *

وكان مع اشتغاله بالمناصب ، ومعاناته للتأليف شاعرا مجيدا ؛ ذكره صاحب " نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر " ؛ وله ديوان ، ذكر ابن شاكر أنه كان معروفاً مشهورا . وقد جال بشعره فى شتى المعانى ومختلف الأغراض ، فقال فى المدح والرثاء ؛ والحكم والوصف

---

(١) هو الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله المعروف بالناصر ، بويع بالخلافة سنة ٥٧٥ ، ومات سنة ٦٢٩ ، وكان يرى رأى الإمامية . الفخرى ٢٨٠

(٢) يقال : دابة مضلع ، أى لا تقوى أضلاعها على الحمل .   (٣) المشيع : الشجاع .

والغزل، إلا أن الغرضَ الذى غلب عليه واشتهر به هو المناجاة والمخاطبة على مسلك أرباب الطريقة ، أورد فى النهج كثيرا منه ، فمن ذلك قوله :

فَلَا واللهِ مَا وَصَلَ ابنُ سِينَا   وَلَا أَغْنَى ذَكَاهُ أبِى الْحُسَيْنِ (١)
وَلَا رَجَعَا بِشَىْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ   وتدقيقٍ سِوَى خُفَّىْ حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلُبُكُمْ ولكِنْ   يحول الوقتُ بينكُمُ وَبَيْنِى
فَهَلْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوقْتِ أَحْظَى   بِوَصْلِكُمُ غَداً وَتقَرّ عَيْنِى !
مُنًى عِشْنَا بِهَا زَمَناً وَكَانَتْ   تُسَوِّفُنَا بِصِدْقٍ أَوْ بِمَيْنِ
فإن أُكْذَبْ فَذَاكَ ضَيَاع دِينِى   وَإنْ أُجْذَبْ فَذَاكَ حُلُولُ دَيْنِى

وقوله :

وحقّك إن أدخلتنِى النار قلت للـــذين بها قد كنت ممن يُحبُّه
وأفنيتُ عُمْرِى فى علومٍ دقيقةٍ   وما بغيتى إلا رِضاهُ وقُرْبُهُ
هبونى مسيئاً أوْتَغَ الجهلُ قَلْبَهُ   وأوْبقَه بين البريَّةِ ذَنْبُهُ (٢)
أَمَا يَقْتَضِى شَرْعُ التَّكَرُّمِ عِتْقَهُ   أَيَحْسُن أَن يُنْسَى هَوَاهُ وحُبُّهُ !
أَمَا كَانَ يَنْوِى الحقَّ فيما يَقُولُه   أَلَمْ تَنْصُرِ التَّوْحِيدَ والْعَدْلَ كُتْبُهُ !
أَمَا ردّ زيغَ ابن الخطيب وشكَّه   وإلحاده إذ حلّ فى الدين خطبُهُ
أما قلتمُ : مَنْ كان فينا مجاهداً   سَيُكْرَمُ مثواه ويَعْذُب شِرْبُهُ
فأىّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً   وَقَدْ أَحْرَقَتْ زُرْقَ الشَّيَاطِين شُهْبُهُ
فإن تصفحوا نَغْنَمْ وإن تَتَجَرَّموا   فتعذيبُكُمْ حُلْوُ المذاقَةِ عَذْبُهُ
وآيةُ صدق الصّبِّ أن يَعْذِبَ الأذَى   إذا كان مَنْ يهوى عليه يصبُّهُ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ٧٩ – ٨٢ .

(٢) أوتغ : أهلك .

ونحو هذا من الشعر فى شرح النهج كثير .

ومن طريف ما أورد له صاحب نسمة السحر قوله :

لَوْلَا ثَلَاثٌ لَمْ أَخَفْ صَرْعَتِي   لَيْسَتْ كَمَا قَال فَتى العبْدِ(١)
أن أَنْصُر التوحيد والعدل فِي   كلّ مكانٍ باذلاً جُهْدِي
وأنْ أناجى اللهَ مُسْتَمْتِعاً   بخلوةٍ أخْـــــلَى مِن الشُّهْدِ
وأنْ أَتيــهَ الدَّهْرَ كِبْراً عَلَى   كُلِّ لَئــيمٍ أَصْعَرِ الْخدِّ
كذاكَ لا أَهْــوَى فتاةً وَلَا   خَمْراً ولاذا ميْعــةٍ نَهْدِ

* * *

وقد اضطرب المؤرخون فى تاريخ وفاته ؛ فذكر بعضهم أنه توفى فى سنة ٦٥٥ ؛ ذهب إلى ذلك ابن شاكر فى كتابيه : فوات الوفيات وعيون التواريخ ؛ وكذلك ابن كثير فى التاريخ ، والعينىّ فى عقد الجمان ، وابن حبيب الحلبى فى كتابه درة الأسلاك .

ونقل صاحب كتاب " نسمة السحَر " عن الدياربكرىّ أنه توفى قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوما . وكان دخولهم إليها فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٦ ؛ على ما ذكره المؤرخون . وقال الذهبى فى سير النبلاء(٢) : « إنه توفى فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة » .

---

(١) يشير بهذا البيت إلى ققول طرفة بن العبد فى معلقته :

وَلَوْلَا ثلاثٌ هُنّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى   وَحَقِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَام عُوّدى
فَمِنهُنّ سَبْقُ العَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ   كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالمــاءِ تُزْبِدِ
وَكَرِّىَ إذْ نادَ المضافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الْغَضَـا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَـاءِ الْمُعَمَّدِ

(٢) المجلد الثالث عشر ، الورقة ٣١٦ (مصورة دار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ ح) .

وذكر ابن الفُوَطِىّ فى كتاب مجمع الألقاب أنه أدرك سقوط بغداد ، وأنه كان م ،
خلص من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين العلقمىّ مع أخيه موفق الدين ؛ كما ذكر أي
فى كتابه الحوادث الجامعة ؛ فى وفيات سنة ٦٥٦ :

« توفى فيها الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمىّ فى جمادى الآخرة ببغداد . . .
والقاضى موفق الدين أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى فى جمادى الآخرة ، فر ،
أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله :

أأبا المعالى هل سَمِعْتَ تأوّهِى   فلقدْ عَهِدْتُكَ فى الحياةِ سميعا
عينى بكتْكَ ولو تطيقُ جوانحِى   وجوارحِى أجْرَتْ عليكَ نجيعاً
أنفاً غضبتَ على الزمان فلم تطِع   حَبْلًا لأسبابِ الوفاءِ قطوعاً
ووفيْتَ للمولى الوزيرِ فلم تَعِشْ   مِنْ بَعْدِهِ شَهْراً وَلَا أُسْبُوعا
وبقيتُ بعدكما فلو كان الرّدَى   بيدِى لفارقْنا الحياةَ جميعا

فعاش عز الدين بعد أخيه أربعة عشر يوما » .

* * *

وله من المصنفات :

١ ـ الاعتبار ؛ على كتاب الذريعة فى أصول الشريعة ، ذكره ابن الفوَطىّ وصاح ،
روضات الجنات .

٢ ـ انتقاد المستصفى للغزالى ، ذكره ابن الفوَطىّ .

٣ ـ الحواشى على كتاب المفصل فى النحو ، ذكره ابن الفوطىّ .

٤ ـ شرح المحصل للإمام فخر الدين الرازىّ ، وهو يجرى مجرى النقض له ؛ ذ
ابن الفوَطىّ .

٥ ــ شرح مشكلات الغرر لأبى الحسين البصرىّ فى أصول الكلام ؛ ذكره ابن الفوطىّ وصاحب روضات الجنات .

٦ ــ ديوان شعره ، ذكره ابن شاكر الكتبىّ .

٧ ــ زيادات النقضين ، ذكر المؤلف فى الجزء الأول ص ٦١ .

٨ ــ شرح نهج البلاغة ، وهو هذا الكتاب .

٩ ــ شرح الياقوت لابن نوبخت فى الكلام ، ذكره ابن الفوطىّ وصاحب روضات الجنات .

١٠ ــ العبقرىّ الحسان ، ذكره صاحب روضات الجنات ، وقال : وهو كتاب غريب الوضع قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار ، وأودعه شيئاً من إنشائه وترسلاته ومنظوماته .

١١ ــ الفلك الدائر على الملك السائر⁽¹⁾ ؛ ألّفه برسم الخليفة المستنصر ؛ بدأ فى تأليفه فى أول ذى الحجة سنة ٦٣٣ ، وفرغ منه فى خمسة عشر يوماً .

١٢ ــ القصائد السبع العلويّات⁽²⁾ ، ذكر ابن الفوطىّ أنه نظمها فى صباه وهو بالمدائن سنة ٦١١ .

١٣ ــ المستنصريات ؛ كتبها برسم الخليفة المستنصر ؛ ومنه نسخة بمكتبة السماوىّ بالنجف .

١٤ ــ نظم فصيح ثعلب ؛ ذكره ابن شاكر وصاحب كشف الظنون .

١٥ ــ نقض المحصول فى علم الأصول للإمام فخر الدين الرازىّ ؛ ذكره ابن الفوطىّ وصاحب روضات الجنات وصاحب كشف الظنون .

١٦ ــ الوشاح الذهبىّ فى العلم الأبى ، ذكره ابن الفوطى .

---

(١) طبع بالهند سنة ١٣٠٩ هـ .

(٢) طبع العجم سنة ١٣١٧

٤ — تحقيق الكتاب

وحينما شرعت فى تحقيق هذا الكتاب بذلت الجهد الممكن فى الحصول على النّ خ التى تعين على تحقيقه ، وقد وقع لى من ذلك مايأتى :

١ — نسخة كاملة تقع فى عشرين جزءا بخطوط معتادة مختلفة ، مصورة عن الأ المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ ويبدو أنها كتبت جميعها القرن الحادى عشر والثانى عشر ؛ وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

٢ — نسخة كاملة مطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٢٧١ هـ ، ورمزت لها بالحرف (ب) .

٣ — نسخة مصورة عن أصلها المخطوطة بالمكتبة الظاهرية ، محفوظ (٧٩٠٤ عام) ، تشتمل على عشرة أجزاء من الكتاب ، مكتوبة بخط دقيق ، مضبوطة بالشكل الكامل ، وعلى حواشيها شروح وتعليقات ؛ جاء آخرها : « وقد فرغ من تسويد هذا الكتاب بعون الملك الوهاب ، أ العباد ؛ محمد حسن الأبهرى الأصفهانى يوم الخميس ، ثالث صفر ، ختم با والظفر ، سنة اثنتين وثمانين بعد الألف ، من الهجرة النبويّة المصطفوية » ، و رمزت لها بالحرف (ج)(١) .

٤ — نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ — أدب ، تشتمل على عش أجزاء فى ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول يشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدا ؛ المجلد الأول يشتمل على الأجزاء : السادس والسابع والثامن . والمجلد الثانى يشت

---

(١) ذكرت فى مقدمة الجزء الثانى (من الطبعة الأولى) ، أنى رجعت إلى هذه النسخة من ص ١٥ ؛ وفى هذه الطبعة رجعت إليها من أول الكتاب .

على الجزأين: التاسع والعاشر؛ وهذان المجلدان مكتوبان بخط فارسى، بخط محمد مؤمن، سنة إحدى وأربعين وألف؛ أما المجلد الثالث فيشتمل على الأجزاء الخمسة الأخيرة؛ من الجزء السادس عشر إلى الجزء العشرين؛ تمت كتابتها سنة تسع وتسعين وألف، بخط محمد مزيد. وقد رمزت لها بالحرف (د)(١).

كما أنى رجعت فى تحقيق متن نهج البلاغة - فوق النسخ التى اعتمدت عليها فى شرحه - إلى نسخة منه مخطوطة محفوظة بمكتبة طلعت بدار الكتب برقم ٤٨٤٠ - أدب، وهى نسخة خزائنية كتبت بالقلم النسخ الجميل، مضبوطة بالشكل الكامل؛ ومحلاة بالذهب واللازورد، كتبت برسم «خزانة غياث الحق والدين»، سنة اثنتين وثمانين وستمائة، بخط الحسين بن محمد الحسنى.

* * *

وقد اقتضانى أيضا تحقيق هذا الكتاب الجامع أن أرجع إلى ما أمكننى الاطلاع عليه من الكتب التى رجع إليها المؤلف، كتاريخ الطبرى، والأغانى ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى، والحيوان والبيان والتبيين والعثمانية للجاحظ، والشافى للشريف المرتضى، والمغنى للقاضى عبد الجبار، وحلية الأولياء لأبى نعيم، وكتاب صفين للمنقرى، والكامل للمبرد، والأوائل لأبى هلال العسكرى، ونسب قريش للزبير بن بكار، والمنتظم لابن الجوزى

---

(١) ذكرت فى مقدمة الطبعة الأولى أنى حصلت على مصورات لأجزاء مختلفة من مكتبة المتحف البريطانى ومكتبة الفاتيكان؛ وبالرجوع إليها تبين أنها مضطربة يشيع فيها الخطأ والتحريف، فلم أر ما يدعو إلى الرجوع إليها؛ كما أن بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محفوظة برقم ٥٧٦ - أدب، تمت كتابتها فى صبيحة يوم الخميس التاسع من شهر شعبان سنة ١٢٩٢، لم أرجع إليها، إذ ترجح عندى أنها منسوخة عن مطبوعة طهران؛ أما النسخة المطبوعة فى مصر سنة ١٣٢٩، فيبدو أنها طبعت عن مطبوعة طهران أيضا فلم أرجع إليها.

والصحاح للجوهرى، وغيرها من كتب الأدب واللغة والتاريخ ؛ كما أنى رجعت فيما أورد
من الشعر إلى دواوين الشعراء والمجموعات المختارة منها . وحاولت أن أضبط الأعلا
والنصوص اللغوية والشعرية ضبطا صحيحاً ؛ وعلقت فى الحواشى ما اقتضاه إيضاح النص
تعليقاً وسطاً فى غير إسراف ولا تقصير .

كما أنى فصّلت موضوعاته بعناوين وضعتُها بين علامتى الزيادة لتتّضح معالم الكتاب وتسهل الإحاطة بما فيه .

وسيخرج الكتاب ـ بما أرجو من الله المعونة والتأييد ـ فى عشرين جزءا
وضعه مؤلفه ؛ أما الفهارس العامة المتنوعة فسأفرد لها جزءا خاصًّا فى آخر الكتاب
والله الموفق للصواب ﴿ ربَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإليك المصير ﴾ (*) .

القاهرة فى { ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

(*) هذه مقدمة الطبعة الأولى مع تعديل فى وصف النسخ .

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكد تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب لجميع أجزائه ؛ حتى أقبلت الجمهرة من العلماء والمتأدبين على اقتنائه ، ومدارسة فصوله وأبوابه ، واستيعاب ماحواه من صنوف الآداب وضروب الفنون والمعارف ؛ حتى نفدت أجزاؤه الأولى فى زمن يسير .

وحينما شرعت فى إعداد الطبعة الثانية ، وجدتها فرصة طيبة لأن أعيد النظر فى تحقيقه ، وأجيل الفكر لزيادة شرحه وتصحيحه ، وأن أستدرك ما فاتنى من التعليق ، أو جانبنى فيه وجه الصواب ؛ وقد أعاننى على ذلك أمور . .

منها أنه تسنّى لى بعد الفراغ من تحقيقه الاطلاع على كثير من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر مما لم يتيسر لى الاطلاع عليه فى الطبعة الأولى ؛ وقد كان عملى فى تحقيق تاريخ الطبرى وظهور معظم أجزائه ؛ مما حقق كثيرا من نصوصه ؛ إذ كان هذا التاريخ الكبير من أهم مراجع المؤلف ومصادره ؛ كما أن ماقمت به من تحقيق متن نهج البلاغة ، مراجَعا على نسخ خطية أصيلة وشرحه شرحا موجزا ؛ مما قوّم الكثير من ألفاظه ، وحقق بعض رواياته .

ومنها أن فريقا من العلماء حين وقع إليهم هذا الكتاب قابلوه بالاهتمام الشديد ، وتناولوه بالنقد النافع النزيه ؛ وقدّروا ما بذل فيه من جهد وعناء ؛ وكانت لهم ملاحظات قيمة كتبوا إلىّ بها ؛ أذكر منهم الأستاذ مكى السيد جاسم ؛ أحد علماء العراق وفضلائها ؛ فقد قرأ الكتاب جميعه ، وأرسل إلى ملاحظاته على كثير من أجزائه ؛ وقد انتفعت بهذا النقد الكريم ؛ وأثبتُّ ملاحظاته فى هذه الطبعة .

وأمر آخر ؛ هو أنى حينما أتممت تحقيق جميع أجزاء الكتاب ، وأخذت فى عمل فهارسه ومعاودة قراءته ، اتضحت لى معالمه وطرائقه ، وأنست إلى مراجعه ومظانه ، وعرفت مواطن الاستدراك والتعقيب ، وفطنت إلى مجالات أخرى للتصحيح والتعليق ، وتبينت الأخطاء المطبعية ؛ وأمكن لى أن أعمل الجديد والهام فى هذه الطبعة .

هذا ، وقد كان عملى فى إنجاز الكتاب على هذا النحو ؛ ثم اشتغالى مرة أخرى بإعادة تحقيقه - بعد أن خلت المكتبة العربية من أجزائه الأولى - معوّقا عن إنجاز الفهارس العامة فى حينها ؛ ولكننى دائم العمل فيها ، مهتم بإتمامها وإخراجها على الوجه الكامل ؛ وستظهر إن شاء الله فى الجزء الحادى والعشرين للطبعتين الأولى والثانية .

ومن الله أطلب هداية وتيسيرا ، وعونا وتوفيقا .

القاهرة فى { ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ
٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥

محمد أبو الفضل إبراهيم

نماذج من المخطوطات

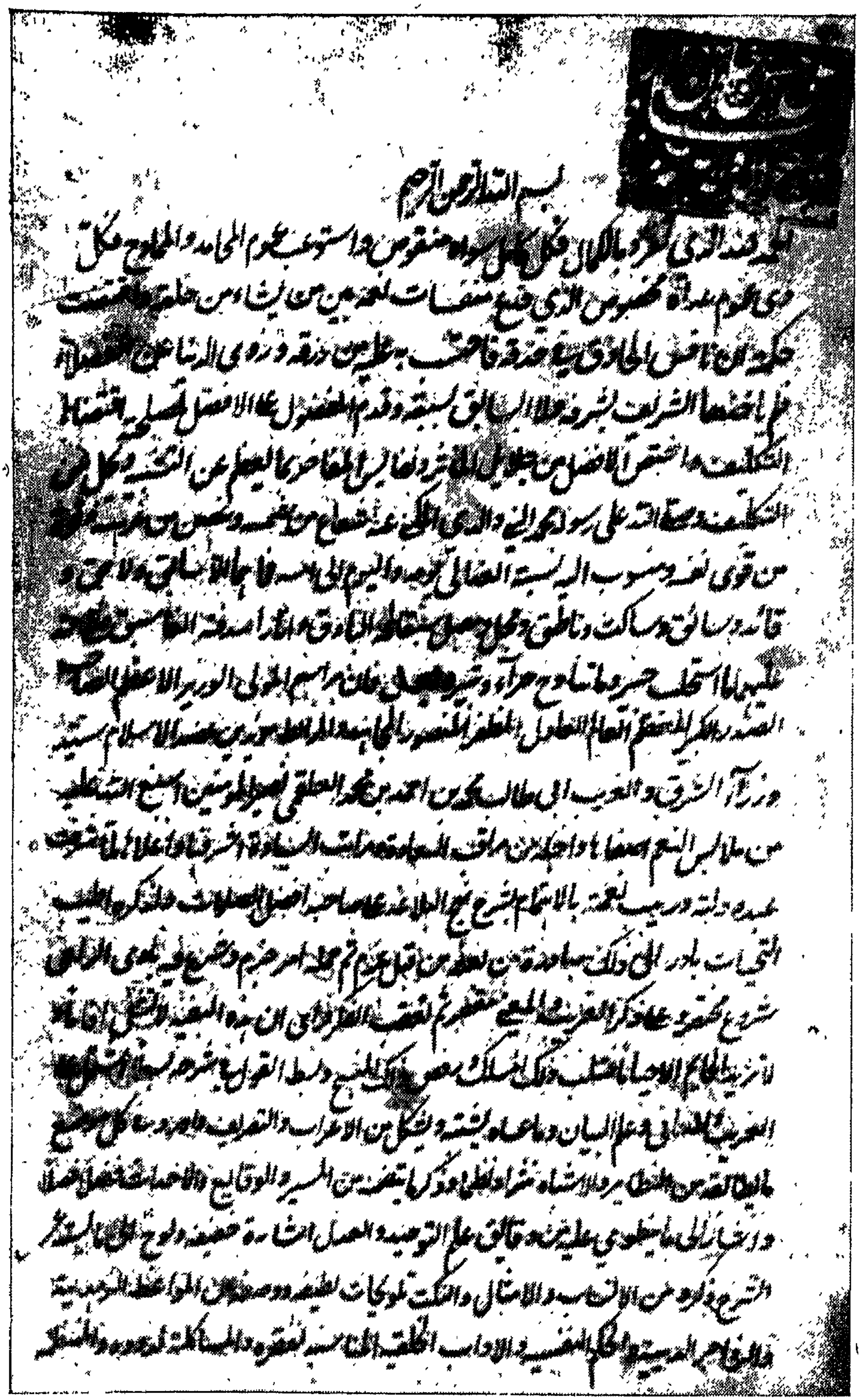

فاتحة الجزء الأول من شرح النهج نسخة « ا »

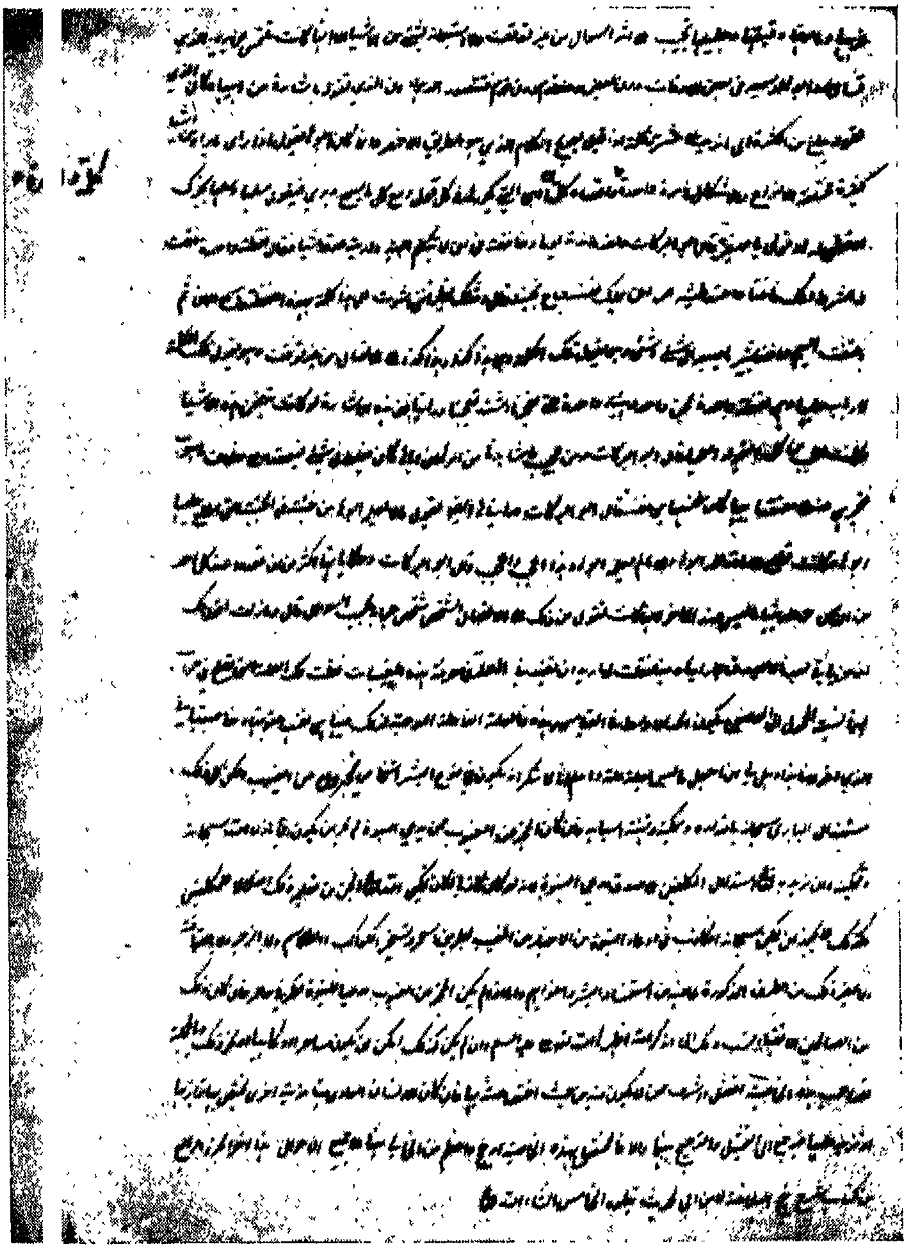

خاتمة الجزء الرابع نسخة « ا »

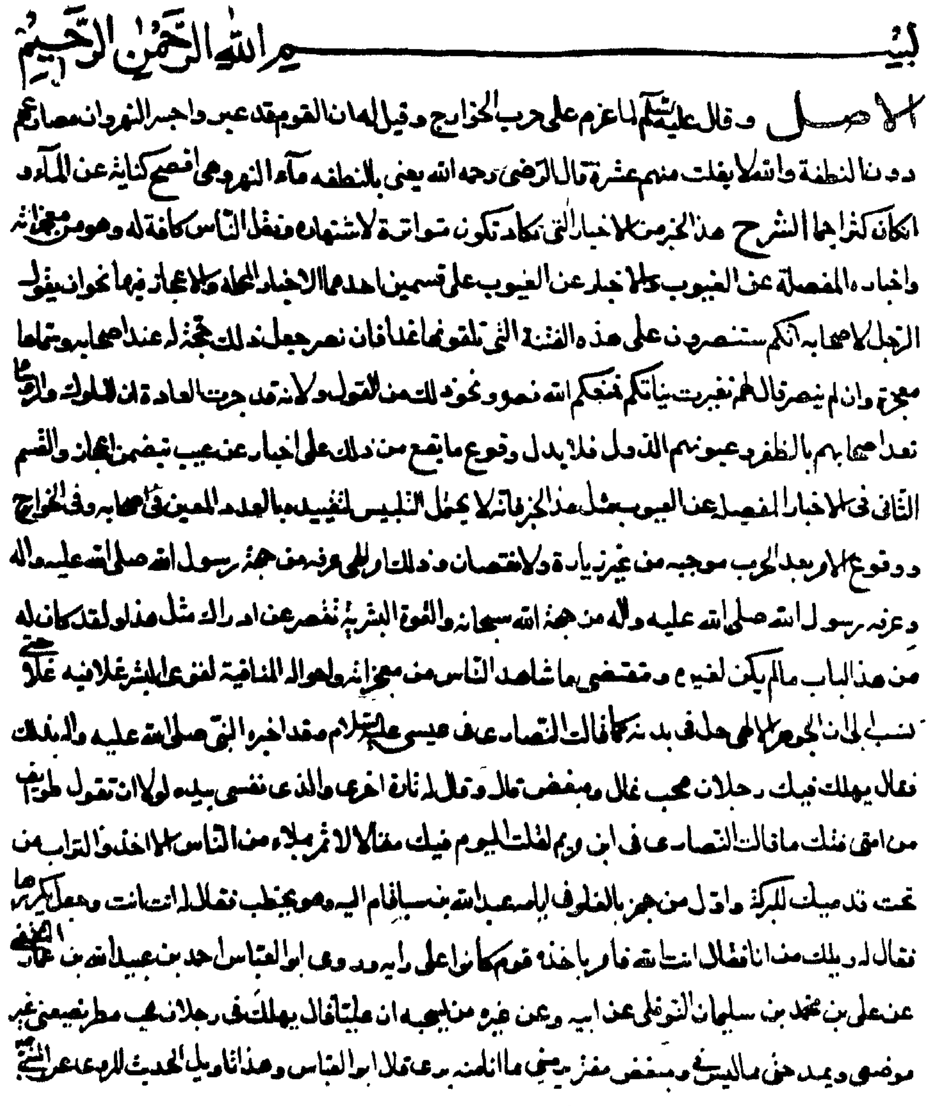

بسم الله الرحمن الرحيم

الاصل وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج وقيل له ان القوم قد عبروا جسر النهروان مصارعهم
دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة قال الرضي رحمه الله يعني بالنطفه ماء النهر وهي افصح كناية عن الماء و
ان كان كثيرا جما الشرح هذا الخبر من الاخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته
واخباره المفصلة عن الغيوب والاخبار عن الغيوب على قسمين احدهما الاخبار المجملة ولا اعجاز فيها نحو ان يقول
الرجل لاصحابه انكم ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غدا فان نصر جعل ذلك حجة له عند اصحابه وسماها
معجزة وان لم ينصر قال لهم تغيرت نياتكم فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول ولانه قد جرت العادة ان الملوك والرؤسا
يعدون اصحابهم بالظفر ويمنونهم الدول فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن اعجازا والقسم
الثاني في الاخبار المفصلة عن الغيوب مثل هذا الخبر فانه لا يحتمل التلبيس لتقييده بالعدد المعين في اصحابه وفي الخوارج
ووقوع الامر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان وذلك امر الهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه واله
وعرفه رسول الله صلى الله عليه واله من جهة الله سبحانه والقوة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا ولقد كان له
من هذا الباب ما لم يكن لغيره وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته واحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا حتى
نسب الى ان الجوهر الالهي حل في بدنه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام وقد اخبره النبي صلى الله عليه واله بذلك
فقال يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال وقال له تارة اخرى والذي نفسي بيده لولا ان تقول طوايف
من امتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالا لا تمر بملاء من الناس الا اخذوا التراب من
تحت قدميك للبركة واول من جهر بالغلو في ايامه عبد الله بن سبا قام اليه وهو يخطب فقال له انت انت وجعل يكررها
فقال له ويلك من انا فقال انت الله فامر باخذه قوم كانوا على رايه وروى ابو العباس احمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي
عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن ابيه وعن غيره من مشيخته ان عليا قال يهلك في رجلان محب مطر يضعني غير
موضعي ويمدحني بما ليس في ومبغض مفتر يرميني بما انا منه بريء قال ابو العباس وهذا تاويل الحديث المروي عن النبي

الصفحة الأولى من الجزء الخامس نسخة (ا)

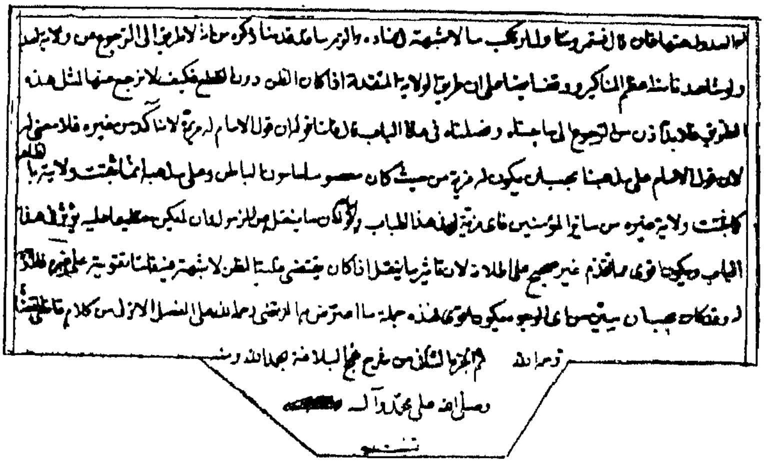

تم الجزء الثاني من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومنه

وصلى الله على محمد وآله

آخر الجزء الثاني من نسخة (ج)

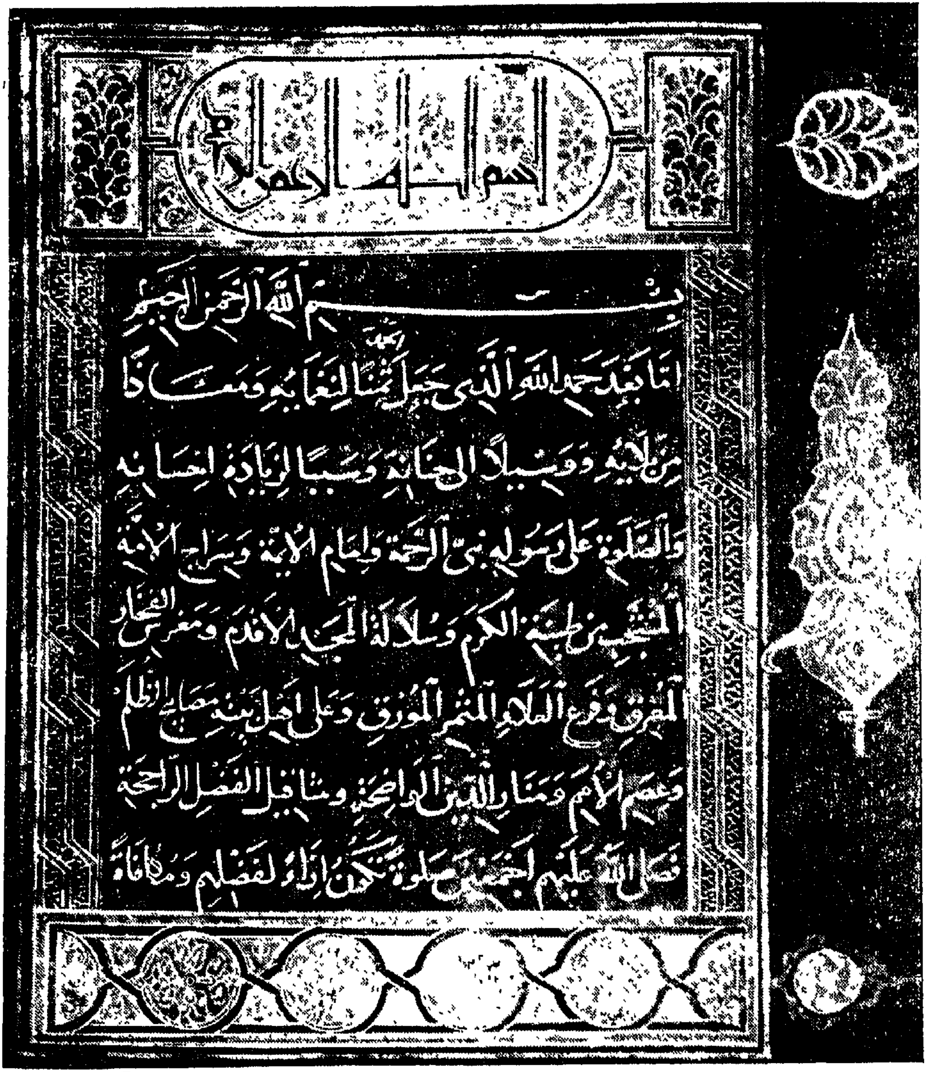

بسم الله الرحمن الرحيم
اما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه ومعاذا
من بلائه ووسيلا الى جنانه وسببا لزيادة احسانه
والصلوة على رسوله نبى الرحمة وامام الائمة وسراج الامة
المنتجب من طينة الكرم وسلالة المجد الاقدم ومغرس الفخار
المعرق وفرع العلاء المثمر المورق وعلى اهل بيته مصابيح الظلم
وعصم الامم ومنار الدين الواضحة ومثاقيل الفضل الراجحة
فصلى الله عليهم اجمعين صلوة تكون ازاء لفضلهم ومكافاة

فاتحة مخطوطة نهج البـــلاغة

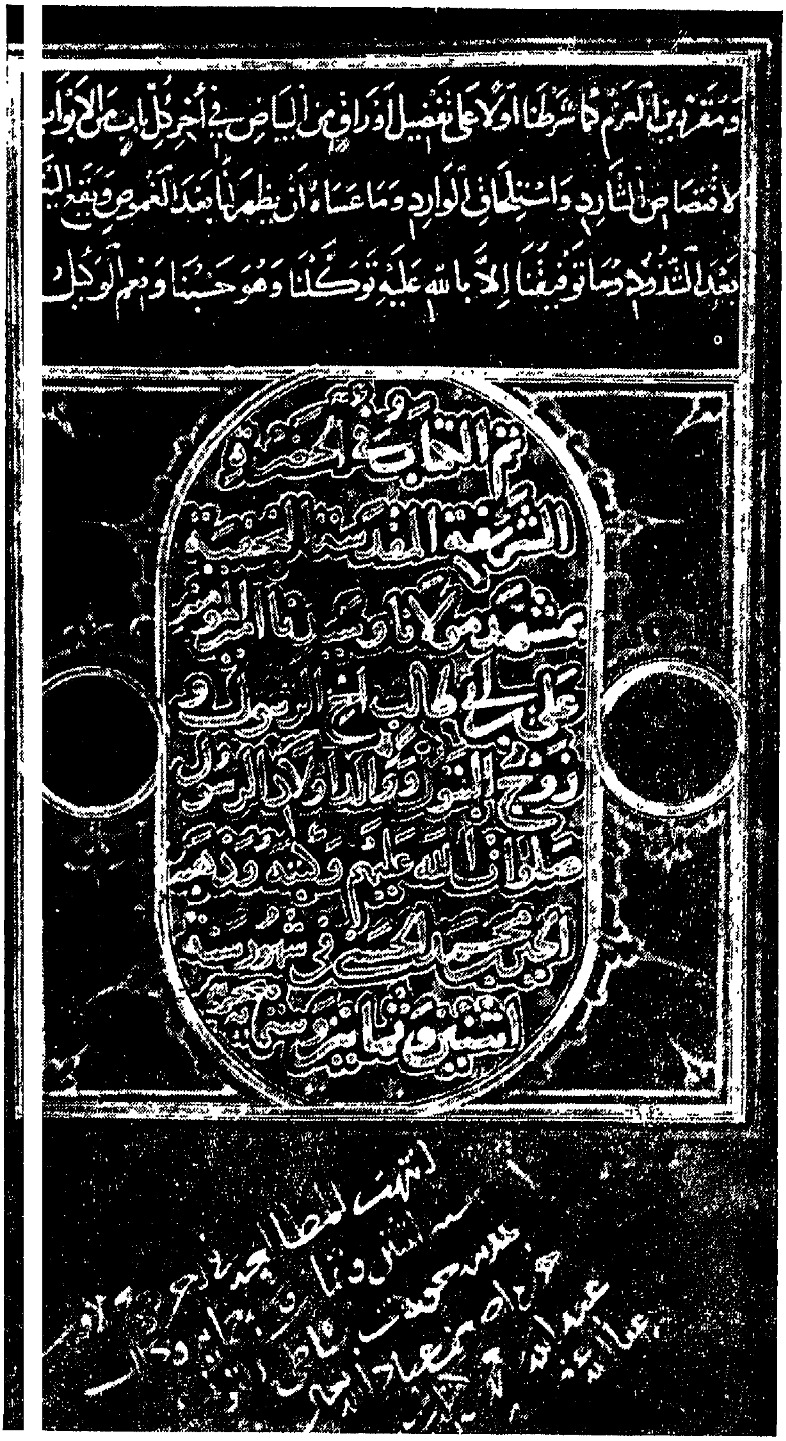

ومقرر العزم كما شرطنا أولاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر كل باب من الأبواب

لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا

بعد الشذوذ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم الكتاب في الحضرة
الشريفة المقدسة المحمية
بمشهد مولانا وسيدنا أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب أخي الرسول و
زوج البتول ووالد أولاد الرسول
صلوات الله عليهم وكتبه وذهبه
الحسن بن محمد الحسني في شهور سنة
اثنين وثمانين وستمائة

[illegible]

خاتمة مخطوطة نهج البـــلاغة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

الجزء الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله [الواحدِ العَدْل]⁽¹⁾ . الحمد لله الذى تفرّد بالكمال ؛ فكلٌّ كاملٍ سواه منقوص ، واستوعبَ عمومَ المحامد والمدائح ؛ فكلٌّ ذى عمومٍ عداه مخصوص ؛ الذى وزّع مُنْفِساتِ نعَمِه بين مَنْ يشاء من خَلْقه ، واقتضت حكمتُه أن نافسَ الحاذِقَ فى حِذْقه فاحتُسِب به عليه من رزقه ، وزَوَى⁽²⁾ الدنيا عن الفضلاء فلم يأخذْها الشريفُ بشرفه ، ولا السابق بسبْقه . وقدّم المفضولَ على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف ، واختصّ الأفضلَ من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظُم عن التشبيه ، ويَجِلّ عن التكييف . وصلّى الله على رسوله محمد ؛ الذى⁽³⁾ المكنىّ عنه شُعاع من شمسه ، وغصن من غَرْسه ، وقوة من قُوَى نفسه ، ومنسوب إليه نسبةَ الغدِ إلى يومه واليوم إلى أمسه ؛ فما هما إلّا سابق ولاحق ، وقائد وسائق ، وساكت وناطق ، ومُجَلٍّ ومُصَلٍّ ؛ سبقا لمحةَ البارق ، وأنارا سُدْفة الغاسق ؛ صلّى الله عليهما ما استُخْلِبَ⁽⁴⁾ خَبيرٌ ، وتناوح حِراء وثَبير⁽⁵⁾ .

وبعد ، فإنّ مراسمَ المولى الوزيرِ الأعظم ، الصاحب⁽⁶⁾ ، الصدرِ الكبيرِ المعظّم العالم العادل المظفّر المنصور المجاهد ، المرابط⁽⁷⁾ ، مؤيّد الدين عضد الإسلام ، سيد وزراء الشرق والغرب ، أبى طالب⁽⁸⁾

---

(١) تكملة من ب . (٢) زوى الدنيا : نحاها وصرفها . (٣) ى ا : « والذى » .

(٤) استخلب ، بالبناء المجهول : قطع . والخبير : النبات ، وورد فى حديث طهفة : « ونستخلب الخبير » ، قال ابن الأثير : الخبير : النبات والعشب ، شبه بخبير الإبل ؛ وهو وبرها . النهاية ١ : ٢٨٠

(٥) يقال : هما جبلان يتناوحان ؛ إذا كانا متقابلين ؛ وثبير : جبل شامخ بمكة يقابل حراء ؛ وهو أرفع من ثبير . ياقوت ٣ : ٢٤٠ (٦) ب : « صاحب » . (٧) ا : « والمرابط » .

(٨) فى الطبعة الأولى : « أبى محمد بن أحمد » ، وهو خطأ .

محمد بن أحمد بن محمد العلقميّ(١) ، نصير أمير المؤمنين ـ أسبغ الله عليه من ملابس النعم أضفاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفَها وأعلاها ـ لما شرّفتْ عبدَ دولته ، وربيبَ نعمته بالاهتمام بشرح " نهج البلاغة " ـ على صاحبه أفضل الصلوات ، وذكره أطيب التحيات ـ بادر إلى ذلك مبادرةَ مَنْ بعثه مِن قبلُ عزْم ، ثم حَمَله(٢) أمرٌ مُبْرَم ، وشرع فيه بادِىَ الرأى شروع مختصِر ، وعلى ذكْر الغريب والمعنى مقتصِر ؛ ثم مقّب الفِكر ، فرأى أنّ هذه النُّغْبة(٣) لاتَشفى أُواما ، ولاتزيد الحائمَ إلا حِياما ، فتنكّب ذلك المسلك ، ورفض ذلك المنهج ، وبسط القول فى شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعانى وعلم البيان ، وما عساه يشتبه ويُشْكِل من الإعراب والتصريف ، وأوْرَد فى كلّ موضع مايطابقه من النظائر والأشباه ، نثراً ونظماً ، وذكَر مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث فصلا فصلا . وأشار إلى ماينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة ، ولوّح إلى مايستدعى الشرحُ ذكرَه من الأنساب والأمثال والنّكت تلويحاتٍ لطيفة ، وضمّنه من المواعظ الزهدية ، والزواجر الدينية ، والحِكَم النفسية ، والآداب الخلقية ، المناسبة قَرِه ، والمشاكلة لِدُرره ، والمنتظمة مع معانيه فى سِمْط ، والمتّسقة مع جواهره فى لَطّ(٤) ، يهزأ بشنوف النُّضَار ، ويُخجِل قِطَع الرّوض غِبّ القِطار . وأوضحَ ما يومىٔ إليه من المسائل الفقهيّة ، وبرهن على أنّ كثيراً من فصوله داخل فى باب المعجزات المحمدية ؛ لاشتمالها على

---

(١) هو مؤيد الدين أبوطالب محمد بن أحمد بن العلقمى البغدادى ، وزير المستعصم بالله ، الخليفة العباسى . اشتغل فى صباه بالأدب ، ففاق فيه ، وكتب خطا مليحا ، وترسل ترسلا فصيحا ، وكان لبيبا كريما ، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأداوات السياسة ، محبا للأدب ، مقربا لأهل العلم ، اقتنى كتبا كثيرة نفيسة ، وصنف الناس له ؛ منهم الصغانى ، صنف له العباب ، وهذا المصنف الذى ألف باسمه ، وكان ممدحا ، مدحه الشعراء ، وانتجعه الفضلاء ، وأخباره الطيبة كثيرة وجلية . توفى سنة ٦٥٦ . الفخرى ٢٩٥ ، ٢٩٦ . (٢) ب ، ج : « حركه » . (٣) النغبة فى الأصل : الجرعة من الماء . وفى ا : « البغية » ، والأجود ما أثبته من ب . (٤) اللط ، بالفتح : القلادة .

الأخبار الغيبية ، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية . وَبَيَّن من مقامات العارفين ؛ التى يَرمِز إليها فى كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يُدرِكه إلا الروحانيون المقرّبون . وكشف عن مَقاصده عليه السلام فى لفظة يرسلها ، ومعضِلة(١) يَـكْنِى عنها ، وغامضة يعرّض بها ، وخفَايا يُجمجِم(٢) بذكرها ، وهَنَاتٍ تجيش فى صدره فينفثُ بها نَفْثَةَ المصدور ، ومُرْمِضاتٍ مؤلمات يشكوها فيستريح بشكواها استراحةَ المكروب .

فخرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً فى فَنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ؛ جليلةً فوائدُه ، شريفة مقاصدُه ، عظيماً شانه ، عالية منزلته ومكانه ؛ ولا عجبَ أن يُتقرّب بسيّد الكتُب إلى سيد الملوك ، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب ، وبواحد العصر إلى أوحد الدهر ؛ فالأشياء بأمثالها أليق ، وإلى أشكالها أقرب ؛ وشِبْهُ الشىء إليه منجذِب ، ونحوه دان ومقترب .

ولم يشرحْ هذا الكتاب قبلى — فيما أعلمه — إلا واحد ؛ وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراوندىّ(٣) ، وكان من فقهاء الإماميّة ، ولم يكن من رجال هذا الكتاب ، لاقتصاره مدّةَ عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده ، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة ، ويخوضَ فى هذه العلوم المتشعبة ! لا جَرمَ أنّ شرحه لا يخفى حالُه عن الذكىّ ، وجَرَى الوادى فطَمّ على القَرِىّ(٤) . وقد تعرّضتُ فى هذا الشرح لمناقضته

---

(١) كذا فى ج ، وجمجم بالكلام : لم يبينه ، وفى ا ، ب : « يحجم »

(٢) ا : « معضلة » ، بدون الواو . (٣) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى ، أحد فقهاء الشيعة ؛ وتصانيفه كثيرة متنوعة ؛ أسمى كتابه فى شرح النهج « منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة » ، وتوفى سنة ٥٧٣ . لسان الميزان ٣ : ٤٨ ، روضات الجنات ٢ ٣٠٢ . (٤) جرى الوادى فطم على القرى ، مثل ؛ قال الميدانى فى شرحه : أى جرى سيل الوادى فطم ، أى دفن ؛ يقال : طم السيل الركية ؛ أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة ، والجمع أقرية وقريان ، و «على» من صلة المعنى ؛ أى أتى على القرى ؛ يعنى أهلكه بأن دفنه ؛ يضرب عند تجاوز الشىء حده » . مجمع الأمثال ١ : ١٥٩

فى مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله ، [إذْ] لم أر فى ذكره ونقضه كبير فائدة .

* * *

وأنا قبل أن أشرعَ فى الشرح أذكر أقوالَ أصحابِنا رحمهم الله فى الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج . ومُتْبِـعٌ ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمع يسيرة من فضائله ، ثم أثلّث بذكر نسب الرضىّ أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ رحمه الله ، وبعض خصائصه ومناقبه . ثم أشرع فى شرح خطبة " نهج البلاغة " التى هى من كلام الرضىّ أبى الحسن رحمه الله⁽¹⁾ ؛ فإذا انتهيت من ذلك كلّه ابتدأت بعون الله وتوفيقه فى شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً فشيئاً .

ومن الله سبحانه أستمدّ المعونة ، وأستدرّ أسبابَ العِصْمة ، وأستميح غمائم الرحمة ، وأمترى أخلاف البركة ، وأشيمُ بارق النماء والزيادة ، فما المرجوّ إلا فضلُه ، ولا المأمول إلا طَوْله ، ولا الوثوق إلا برحمته ، ولا السكون إلا إلى رأفته ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾⁽²⁾ .

---

(١) ب : « رضى الله عنه » . (٢) سورة الممتحنة ٤ ، ٥ .

القول فيما ذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج

اتّفق شيوخُنا كافّة رحمهم الله ؛ المتقدّمون منهم والمتأخرون ، والبصريّون والبغداديون على أنّ بيعةَ أبى بكر الصديق بَيْعة صحيحة شرعية ، وأنّها لم تكن عن نصّ ، وإنما كانت بالاختيار الذى ثبتَ بالإجماع ، وبغير الإجماع كونُه طريقاً إلى الإمامة .

واختلفوا فى التفضيل ، فقال قدماء البصرين كأبى عثمان عمرو بن عُبيد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام ، وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى معن ثُمامة بن أشرس ، وأبى محمد هشام بن عمرو الفُوَطىّ ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، وجماعة غيرهم : إن أبا بكر أفضلُ من علىّ عليه السلام ؛ وهؤلاء يجعلون ترتيبَ الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخِلافة .

وقال البغداديّون قاطبة ؛ قدماؤهم ومتأخّروهم ، كأبى سهل بِشْر بن المعتمر ، وأبى موسى عيسى بن صبيح ، وأبى عبد الله جعفر بن مبشّر ، وأبى جعفر الإسكافىّ ، وأبى الحسين الخيّاط ، وأبى القاسم عبد الله بن محمود البلْخِىّ وتلامذته : إنّ علياً عليه السلام أفضلُ من أبى بكر .

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علىّ محمد بن عبد الوهاب الجُبّائىّ أخيرا ، وكان من قبلُ من المتوقّفين ، كان يميل إلى التّفضيل ولا يصرّح به ، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف فى مصنّفاته . وقال فى كثير من تصانيفه : إن صحّ خبرُ الطّائر فعلىٌّ أفضل (١) .

---

(١) يشير إلى مارواه الترمذى فى باب المناقب ١٣ : ١٧٠ ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير ، فقال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير » ، فجاء على فأكل معه . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لايعرف من حديث السدى إلا من هذا الوجه .

ثم إن قاضىَ القضاة رحمه الله ذكر فى شرح " المقالات " لأبى القاسم البلخىّ أنّ أبا علىّ رحمه الله ما مات حتى قال بتفضيل علىّ عليه السلام ، وقال : إنه نقل ذلك عنه سماعاً ؛ ولم يوجد فى شىء من مصنفاته . وقال أيضاً : إن أبا علىّ رحمه الله يوم مات استدنى ابنه أبا هاشم إليه ، ـ وكان قد ضَعُف عن رفع الصوت ـ فألقى إليه أشياء ، من جملتها قولٌ بتفضيل علىّ عليه السلام .

وممن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله الحسين ابن علىّ البصرىّ رضى الله عنه ، كان متحقّقاً بتفضيله ، ومبالغاً فى ذلك ، وصنّف فيه كتابا مفردا .

وممن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد رحمه الله ؛ ذكر ابنُ متّويه عنه فى كتاب " الكفاية " فى علم الكلام أنه كان من المتوقفين بين علىّ عليه السلام وأبى بكر ، ثم قطع على تفضيل علىّ عليه السلام بكامل المنزلة .

ومن البصريين الذاهبين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن متّويه صاحب " التذكرة " نصّ فى كتاب " الكفاية " على تفضيله عليه السلام على أبى بكر ؛ واحتجّ لذلك ، وأطال فى الاحتجاج .

فهذان المذهبان كما عرفت .

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقّف فيهما ؛ وهو قول أبى حذيفة واصل ابن عطاء ، وأبى الهُذَيل محمد بن الهُذَيل العلاّف ؛ من المتقدمين . وهما ـ وإن ذهبا إلى التوقّف(١) بينه عليه السلام وبين أبى بكر وعمر ـ قاطعان على تفضيله على عثمان .

---

(١) ب : « الوقف » .

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبى علىّ رحمهما الله والشيخ أبو الحسين محمد بن علىّ بن الطيّب البَصرىّ رحمه الله .

وأمّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون ؛ من تفضيله عليه السلام. وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل ؛ وهل المراد به الأكثر ثوابًا أو[١] الأجمعُ لمزايا الفضل والخلال الحميدة ، وبيّنا أنه عليه السلام أفضلُ على التفسيرين معا . وليس هذا الكتاب موضوعا لذكر الحِجَاج فى ذلك أو فى غيره من المباحث الكلاميّة لنذكرَه ، ولهذا موضع هو أملَك به .

* * *

وأمّا[٢] القول فى البغاة عليه[٣] والخوارج ، فهو على[٤] ما أذكره لك :

أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلا عائشة وطلحة والزبير ؛ [٥]رحمهم الله[٥] فإنهم تابوا ، ولولا التوبة لحُكِم لهم بالنار لإصرارهم على البغى .

وأما عسكر الشام بصِفّين فإنهم هالكون كلّهم عند أصحابنا لا يُحْكَم لأحد منهم إلاّ بالنار ؛ لإصرارهم على البغى وموتهم عليه ؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً .

وأما الخوارج فإنّهم مَرَقوا عن الدين بالخبر النبوىّ المجمَع عليه ؛ ولا يختلف أصحابنا فى أنهم من أهلِ النار .

وجملة الأمر أنّ أصحابنا يحكمون بالنار لكلّ فاسق مات على فِسْقه ؛ ولا ريب فى أنّ الباغىَ على الإمام الحقّ والخارجَ عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق ؛ وليس هذا مما يخصّون به عليًّا عليه السلام ، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام العدول[٦] لكان حكمُهم حكمَ من خرج على علىّ صلوات الله عليه .

وقد برِئ[٧] كثير[٨] من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم ؛ كالمغيرة بن شعبة

---

(١) ب : « أم » . (٢) ب ، ج : « فاما » . (٣) ساقطة من ا .

(٤) ا : « فعلى ماأذكره » . (٥–٥) ساقط من ب . (٦) ب ، ج : « من أئمة العدل » .

(٧) ب : « يرى » ، تصحيف . (٨) كذا فى ب ، ح ، وفى ا : « قوم » .

وكان شيخنا أبو القاسم البلخى إذا ذكر عنده عبد الله بن الزّبير ، يقول : لا خيرَ فيه . وقال مرة : لا يعجبنى صلاته وصومه ؛ وليسا بنافعيْن له مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « لا يُبغضك إلا منافق » . وقال أبو عبد الله البصرىّ رحمه الله لما سئل عنه : ما صحّ عندى أنه تاب من يوم الجمل ؛ ولكنه استكثر مما كان عليه .

فهذه هى المذاهب والأقوال ؛ أمّا الاستدلال عليها فهو مذكور فى الكتب الموضوعة لهذا الفن .

القول فى نسب أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام
وذكر لُمَع يَسيرة من فضائله

هو أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ــ واسمه عبدمناف ــ بن عبدالمطلب ــ واسمه شيبة ــ ابن هاشم ــ واسمه عمرو ــ بن عبد مناف بن قصىّ . الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان ابنه الحسنُ عليه السلام يدعوه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوَان رسول الله صلى الله عليه وآله أباهما ، فلما تُوفِّىَ النبىّ صلى الله عليه وآله (١) دعوَاه بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب ، وَجَدَه نائما فى تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جَسَدَه ، فجاء حتى جلس عند رأسه ، وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ؛ إنّما أنت أبو تراب (٢) . فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِىَ بها ، وكانت تُرَغِّب بنو أمية خطباءها (٣)

---

(١) ساقطة من ا .

(٢) رواية الخبر كما فى صحيح البخارى ، فى كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسلمة : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان ــ لأمير المدينة ــ يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ماسماه إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : ياأبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك؟ قالت : فى المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس ياأبا تراب ، مرتين » . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياض النضرة فى ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « فدعت بنو أمية » ، وماأثبته من .

أن يسبُّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصةً له ووصْمة عليه؛ فكأنّما كسوْه بها الحلْيَ والحلل؛ كما قال الحسن البصريّ رحمه الله .

وكان اسمه الأول الذى سمّته به أمه حَيْدَرة ، باسم أبيها أسد بن هاشم - والحيْدرة : الأسد - فغيّر أبوه اسمه ، وسمّاه عليًّا .

وقيل : إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمِّيه به . والقول الأول أصحّ ؛ يدلّ عليه خبرُه (١) يوم برز إليه مَرْحب ، وارتجز عليه فقال :

* أنا الذى سمّتْنِيَ أمِّى مَرْحَبًا (٢) *

فأجابه عليه السلام رجزاً :

* أنا الذى سمّتْنِيَ أمى حَيْدَرَهْ (٣) *

ورجَزُهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره .

وتزعم الشيعة أنه خوطب فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ «أمير المؤمنين»، خاطبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار ، ولم يثبتْ ذلك فى أخبار المحدّثين ؛ إلا أنهم قد رووا ما يُعطِى هذا المعنى ، وإن لم يكن اللفظَ بعينه، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمة »، وفى رواية أخرى: « هذا يعسوب المؤمنين »،

---

(١) الخبر رواه مسلم مفصلا بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه ، فى كتاب الجهاد والسير ص ٣٣ ١ - ١٤٤١ ، فى غزوة خيبر .

(٢) رواية مسلم :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبُ شَاكِى السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
* إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ *

(٣) بقيته ، كما رواه مسلم :

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

والسندرة : مكيال واسع .

وقائد الغرّ المحجّلين » (١) . واليعسوب : ذَكَر النَّحل وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانىّ فى " المسند " فى كتابه " فضائل الصحابة " ، ورواها أبو نُعَيم الحافظ فى " حلية الأولياء " (٢) .

ودُعِى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصىّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصيةً بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد .

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ ، أوّل هَاشمية وَلَدَت لهاشمىّ ، كان علىّ عليه السلام أصغرَ بنيها ، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين، وعَقِيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً .

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة (٣) بنت هرم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤىّ . وأمها حديّة بنت] (٤) وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان ابن محارب بن فهر . [وأمّها فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤىّ. وأمّها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر] (٤). وأمها عاتكة بنت أبى هَمْهَمَة ـ واسمه عمرو بن عبد العزّى ـ بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة (٥) بن الحارث ابن فِهر ، [وأمّها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤى] (٤) ، وأمها حبيبة؛ وهى أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم ابن قسىّ ؛ وهو ثقيف. وأمّها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع (٦) بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَيْن بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان

---

(١) ورواه أيضا الطبرانى فى الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٥٥ ؛ مع اختلاف فى اللفظ.

(٢) حلية الأولياء ١ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » .

(٣) فى مقاتل الطالبيين : « وتعرف بحبى بنت هرم » .

(٤) تكملة من مقاتل الطالبيين .   (٥) مقاتل الطالبيين : « ابن أبى وديعة » .

(٦) كذا فى ب ، وفى ا : « ضبيح » ، وفى مقاتل الطالبيين « صبح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن ثقيف . وأمها [illegible]ة(١) بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُبّى بنت الحارث بن النابغة بن عميرة ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج علىّ بن الحسن الأصفهانىّ فى كتاب ” مقاتل الطالبيين ،، (٢) .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظّمها ويدعوها : «أمى» ، وأوصتْ إليه حين حضرتها الوفاة ، فقَبِل وصيتَها ، وصلّى عليها ، ونَزَل فى لَحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصَه ، فقال له أصحابه : إنّا ما رأيناك صنعتَ يارسول الله بأحد ماصنعتَ بها ، فقال : « إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبى طالب أبرَّ بى منها ، إنما ألبستُها قميصى لتُكْسَى من حُلَل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر » .

وفاطمة أوّل امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النّساء .

وأمّ أبى طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ـ وهى أمّ عبدالله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّ الزبير بن عبدالمطلب ؛ وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى .

واختُلف فى مولد علىّ عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد فى الكعبة ، والمحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أنّ المولود فى الكعبة حكيم بن حِزام بن خُويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ .

واختلف فى سنّه حين أظهر النبىّ صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذْ تكلم له صلواتُ الله عليه أربعون سنة ، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر . وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخىّ وغيره من شيوخنا .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « كلية بنت قصية » .

(٢) فى ترجمة جعفر بن أبى طالب ص ٧ .

والأوّلون يقولون : إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ستّ وستين ، والروايات فى ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ وعلىّ بن الحسين الأصفهانىّ أنّ قريشاً أصابتْها أزمة وقَحْط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّيه ؛ حمزة والعباس : « ألا نحمل ثِقَلَ أبى طالب فى هذا المَحْل ! » ، فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولَده ليَكْفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لى عَقِيلا وخذوا مَنْ شئتم — وكان شديد الحبّ لعَقِيل — فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًّا ، وقال لهم : «قد اخترت — من اختاره الله لى عليكم — عليًّا » ، قالوا : فكان علىّ عليه السلام فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ستّ سنين .

وكان مايُسْدِى إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبِرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبى طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجعَله فى حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : لقد عبدتُ اللهَ قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين ، وقوله : كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أُذِنَ له فى الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ستّ ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز ، على أنّ عبادةَ مثله هى التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود فى الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان ، سنة أربعين فى

رواية أبى عبد الرحمن السُّلمىّ(١) ـ وهى الرواية المشهورة ـ وفى رواية أبى مِخْنف أنّها كانت لإحدى عشرة ليلةً بَقِين من شهر رمضان، وعليه الشيعةُ فى زماننا.

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هى ليلة بدر، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل فى ليلة بدر، عليه السلام.

وقبره بالغَرِىّ.

وما يدّعيه أصحاب الحديث ـ من الاختلاف فى قبره، وأنّه حُمِل إلى المدينة، أو أنه دفِن فى رحبة الجامع، أو عند باب قصر الإمارة، أو نَدّ البعير الذى حُمِل عليه فأخذته الأعراب ـ باطل كلّه، لا حقيقة له، وأولاده أعرفُ بقبره؛ وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب؛ وهذا القبر الذى زاره بنوه لما قَدِموا العراق، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرُه من أكابرهم وأعيانهم.

وروى أبو الفرج فى ” مقاتل الطالبيين “ بإسناد(٢) ذكره هناك أنّ الحسين عليه السلام لما سئل: أين دفنتم أمير المؤمنين؟ فقال: خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة، حتى مررنا(٣) به على مسجد الأشعث، حتى انتهينا به إلى الظَّهْر بجنب الغَرِىّ.

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد.

فأما فضائله عليه السلام؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمُجُ معه التعرّض لذكرها، والتصدّى لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد: رأيتُنى فيما أتعاطَى من وصف فضائلك، كالمخبِر عن ضَوْء النهار الباهر، والقمرِ الزاهر، الذى لا يخفى على الناظر؛ فأيقنت أنّى حيث انتهى بىَ القولُ منسوب إلى العَجْز، مقصّر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك.

وما أقولُ فى رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه،

---

(١) نقلها أبو الفرج فى مقاتل الطالبين ٤٠ (٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٢ : « الحسن »

(٣) كذا فى الأصول ومقاتل الطالبيين والأجود : « فررنا ».

ولا كتمانُ فضائله ، فقد علمتَ أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام فى شرق الأرضِ وغربها ، واجتهدوا بكلّ حيلة فى إطفاء نوره ، والتحريضِ عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعّدوا مادِحِيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظَروا أنْ يسمّى أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعةً وسُمُوًّا ؛ وكان كالمسك كلّما سُتِر انتشر عَرْفه ، وكلّما كُتِم تَضوّع نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُستَر بالراح ، وكضوْء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول فى رجل تُعْزَى إليه كلُّ فضيلة ، وتنتهى إليه كل فِرْقة ، وتتجاذبه كلُّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضمارها ، ومجلّى حَلْبتها؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفتَ أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلٰهىّ ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرفَ العلوم . ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ؛ ومنه ابتدأ ، فإنّ المعتزلة(١) ـ الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن ـ تلامذتُه وأصحابه ؛ لأنّ كبيرَهم واصل بن عطاء تلميذُ أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة(٢) ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعريّة فإنهم ينتمون إلى أبى الحسن علىّ بن [إسماعيل بن](٣) أبى بشر الأشعرىّ ، وهو تلميذ أبى علىّ الجبّائىّ ، وأبو علىّ أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بأخَرَةٍ إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم ، وهو علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

وأما الإمامية والزيديّة فانتماؤهم إليه ظاهر .

* * *

---

(١) انظر أمالى المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ فى كلام المؤلف عن سند المعتزلة إلى على عليه السلام .

(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بنى العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .

(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه في الإسلا فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحابُ أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأ ذوا عن أبي حنيفة ، وأما الشافعيّ فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حـ فة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعيّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ؛ وأبو حني ؛ قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكـ مة ، وقرأ عِكْرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على عليّ بن أبي طالب [1] ؛ وإن شئت فرددتَ(٢) إليه فقهَ الشافعيّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ ف لاء الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر . وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخ ـاب وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن عليّ عليه السلام . أما ابنُ عباس فظاهر ، وأ عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غير من الصحابة، وقولَه غير مرّة: «لولا عليٌّ لهلك عمر»، وقولَه: «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحس »، وقوله: «لا يُفتيَنَّ أحد في المسجد وعليّ حاضر»؛ فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقا ليه.

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم عليّ »(٣)، والقض هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقهُهم . وروى الكلّ أيضاً أنه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قا ياً : « اللهمّ اهدِ قلبه وثبِّت لسانه » ، قال : فما شككتُ بعدها في قضاء بين اثنين [4] ،

---

(١) ب : « عن علي » .
(٢) في الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطي في الجامع الصغير ١ : ٥٨ عن مسند أبي يعلى بلفظ : « أرأف أمتي بأمتي أبو ر ، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود في كتاب الأقضية ٣ : ٤٠٩ بسنده عن علي ، ولفظه : بعثني رسول الله صـ الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا فقلت : يارسول الله ، ترسلني وأنا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ا ق ل : « إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من خر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فما زلت قاضيا — أو ماشكـ ، في قضاء بعد .

وهو عليه السلام الّذى أفتى فى المرأة التى وضعت لستة أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية(١) ؛ وهو الذى قال فى المِنْبرِيّة(٢) : صار ثُمُنها تُسْعا . وهذه المسألة لو فكّر الفَرَضِىّ فيها فكراً طويلا لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنّك بمن قاله بديهة ، واقتضبه ارتجالا !

ومن العلوم علم تفسير القرآن ، وعنه أُخِذَ ، ومنه فُرِّع . وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس ، وقد علم الناس حالَ ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه ، وأنّه تلميذُه وخرّيجه . وقيل له : أين علمك من علم ابن عمّك ؟ فقال : كنِسْبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف ؛ وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرّح بذلك الشِّبْلِىّ ، والجُنَيد ، وسَرِىّ(٣) ، وأبو يزيد البِسْطامىّ ، وأبو محفوظ معروف الكرخىّ ؛ وغيرهم . ويكفيك دَلالة على ذلك الخِرْقة(٤) التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام .

---

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير روية ؛ وبيانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار ثُمنها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تعل كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلثان : ستة عشر سهما ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤

(٣) هو سرى بن المغلس السقطى ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخى ؛ وأول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)

(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١ وما بعدها — على هامش الإحياء) الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النّحو والعربية؛ وقد علم الناس كافة أنّه هو الذى ابتدعه وأنشأه، وأملَى على أبى الأسود الدؤلىّ جوامعَه وأصوله، من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم (١)، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات؛ لأن القوة البشريّة لا تفِى بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط.

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدتَه ابن جلاها وطَلّاع ثناياها (٢).

* * *

وأما الشجاعة فإنه أنسَى الناسَ فيها ذكر مَنْ كان قبله، ومحا اسمَ من يأتى بعده، ومقاماتُه فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة؛ وهو الشجاع الذى ما فرّ قطّ، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى ثانية؛ وفى الحديث: «كانَتْ ضَرَباته وتراً». ولما دعا معاويةَ إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدها، قال له عمرو: لقد أنصفك، فقال معاوية: ماغششتنى منذ نصحتنى إلا اليوم، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق! إلّا أنك طمعت فى إمارة الشام بعدى! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته، فأما قتلاه فافتخارُ رهطِهم بأنّه عليه السلام قتَلهم أظهرُ وأكثر، قالت أخت عمرو ابن عبد وَدّ ترثيه:

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِهِ بكيتُه أبَداً ما دُمْتُ فى الأبدِ (٣)

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٤٢ — ٥٠ (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى:

أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ ٱلْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِى

وابن جلا، أى الواضح الأمر؛ وطلاع الثنايا: كناية عن السمو إلى معالى الأمور، والثنايا فى الأصل: جمع ثنية، وهى الطريق فى الجبل. وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥، وروايته:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ بكيتُهُ ما أَقَامَ ٱلرُّوحُ فى جَسَدِى
لٰكِنّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ وَكَانَ يُدْعَى قديماً بيضة البَلَدِ

لكنّ قاتلَه مَنْ لا نظيرَ له   وكان يُدْعَى أبوه بَيْضةَ الْبَلَدِ (١)

وانتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد ، فقال له عبد الله يداعبه: ياأميرَ المؤمنين، لوشئت أن أفتِكَ بك لفعلت ، فقال: لقد شَجُعت بعدنا يا أبا بكر ! قال: وما الذى تنكره من شجاعتى وقد وقفتُ فى الصف إزاء علىّ بن أبى طالب ! قال : لا جَرَم ، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيتِ اليمنى فارغةً ، يطلب مَنْ يقتله بها .

وجملة الأمر أن كلَّ شجاع فى الدنيا إليه ينتهى ، وباسمه ينادى فى مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

وأما القوّة والأَيْد فبه يُضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة فى " المعارف " : ماصارعَ أحداً قطّ إلا صرَعه (٢). وهو الذى قلَع بابَ خَيْبَر، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ؛ وهو الذى اقتلع هُبَلَ من أعلى الكعبة، وكان عظيماً جداً ، وألقاه (٣) إلى الأرض. وهو الذى اقتلع الصخرة العظيمة فى أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجْز الجيش كله عنها، وأنبط (٤) الماء من تحتها .

* * *

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ وكان يصوم ويَطْوِى ويُؤْثِر بزاده ؛ وفيه أنزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (٥) . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم؛ فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيه : ﴿ الَّذِينَ

---

(١) بيضة البلد ، يريد على بن أبى طالب ، أى أنه فرد ليس مثله فى الشرف كالبيضة التى هى تريكة وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسره فى اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعدها : « شديد الوثب قوى الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » .   (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (١) .

وروى عنه أنّه كان يَسقِي بيده لنخْلِ قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت (٢) يده ، ويتصدق بالأُجْرة ، ويشدُّ على بطنه حجَرا .

وقال الشعبيّ وقد ذكره عليه السلام : كان أسخَى الناس ؛ كان على الخُلق الذى يحبّه الله : السخاء والجود ، ماقال : « لا » لسائل قطّ .

وقال عدوّه ومُبْغضِه الذى يجتهد فى وَصْمِه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لِمحْفَن (٣) بن أبى محْفَن الضبيّ لما قال له : جئتك مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنه أبخل الناس ، لو مَلَكَ بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنه .

وهو الذى كان يكنُس بيوت الأموال ويصلّى فيها . وهو الذى قال : ياصفراء ، ويابيضاء ، غرّى غيرى ، وهو الذى لم يخلِّفْ ميراثاً ، وكانت الدنيا كلّها بيده إلّا ما كان من الشام .

* * *

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنْب ، وأصفحَهم عن مسيء ؛ وقد ظهر صحّة ماقلناه يومَ الجمل ؛ حيث ظفِر بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له ، وأشدَّهم بغضاً ـ فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوَغْد (٤) اللئيم علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

---

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ، وللمفسرين فى هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبي فى التفسير ١٩ : ١٢٨ ، وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أى ثخن جلده وتعجر وظهر فيه مايشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكت إلى على مجل يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبي فى المشتبه ص ٥٧٣ ، وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) فى ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منّا أهلَ البيت حتى شبّ عبد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، وقال : اذهب فلا أرينّك ؛ لم يزده على ذلك .

وظفِر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ـ وكان له عدوًّا ـ فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً .

وقد علمتم ما كان من عائشة فى أمره ، فلما ظفِر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهنّ بالعمائم وقلّدهنّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به ، وتأفّفت وقالت : هتَك سترى برجاله وجنده الذين وكّلهم بى . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهنّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربُوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفِر بهم رفع السيف عنهم ، ونادَى مناديه فى أقطار العسكر : ألَا لا يُتْبَع⁽¹⁾ مُولٍّ ، ولا يُجهَزُ على جَريح ، ولا يُقتَل مستأسر ، ومَنْ ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالَهم ، ولا سبَى ذراريَّهم ، ولا غنِم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقيّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنْسَ .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علىّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا⁽²⁾ لهم شِرْبَ الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لامحالَة تقدّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حمَلاتٍ كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع ؛ سقطت منه الرءوس والأيدى ، وملكوا عليهم

---

(1) ا : « لا يتبع مول » .

(2) كذا فى ا ، وفى ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفَلَاة ، لا ماءَ لهم ، فقال له أصحابه وشيعتُه : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تَسقِهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، أَفسِحوا لهم عن بعض الشَّريعة ، ففى حدّ السيف ما يغنى عن ذلك . فهذه إن نَسبْتَها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام !

* * *

وأما الجهاد فى سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفتَ أنّ أعظمَ غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية فى المشركين بدر الكبرى ؛ قُتِل فيها سبعون من المشركين ، قَتَل علىّ نصفَهم ، وقَتَل المسلمون والملائكة النصف الآخر . وإذا رجعتَ إلى مغازى محمد بن عمر الواقدىّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرىّ وغيرهما علمت صحة ذلك ؛ دعْ مَن قتله فى غيرها كأُحُد والخندق وغيرهما ؛ وهذا الفصل لامعنى للإطناب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما .

* * *

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفى كلامه(١) قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين . ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن نُباته(٢) : حفظت من الخطابة كنزاً لايزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علىّ بن أبى طالب .

ولما قال مِحْفن بن أبى مِحْفن لمعاوية : جئتك من عند أعْيا الناس ، قال له : ويحك !

---

(١) ب : « وعن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارقى الجذامى.

كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكفى هذا الكتاب الذى نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارَى فى الفصاحة ، ولا يبارَى فى البلاغة . وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر مما دُوِّن له ، وكفاك فى هـذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ فى مدحه فى كتاب " البيان والتبيين " وفى غيره من كتبه .

* * *

وأما سجاحة الأخلاق ، وبِشْر الوجه ، وطلاقة المحيَّا والتبسم ، فهو المضروبُ به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال علىّ عليه السلام فى ذاك : عجباً لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنّى امرؤ تِلْعابة ، أعافِس وأمارس⁽¹⁾ . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أنّ عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لِين جانب ، وشدّة تواضع ، وسهولة قِياد ، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحِم الله أبا حسن ؛ فلقد كان هشًّا بشًّا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسِرّ حسْواً فى ارتِغاء⁽²⁾ ، وتعيبه بذلك ! أمَا والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيَبَ من ذى لِبدَتَيْن قد مسّه الطَّوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طَغامُ أهل الشام .

---

(١) التلعابة ، بفتح التاء وكسرها : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضا . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير فى النهاية ١ : ١١٧ ، و٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و٤ : ٥٩ ، ٨٩ ،

(٢) فى المثل : « هو يسر حسوا فى ارتغاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقىَ هذا الخُلُق متوارَثاً متناقَلا فى محبِّيه وأوليائه إلى الآن ، كما بقىَ الجفاء والخشونة والوعورة فى الجانب الآخر . ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك .

* * *

وأمّا الزهد فى الدنيا فهو سيّد الزهاد ، وبدَل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ؛ ما شبِعَ من طعام قطّ . وكان أخشنَ الناس مأكلا وملبساً ؛ قال عبد الله بن أبى رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدّم جِراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً ، فقدَّم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختمِه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلُتّاه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونعلاه من ليف . وكان يلبَس الكِرْباسَ(١) الغليظ ، فإذا وجد كمّه طويلا قطعه بشَفرة ، ولم يخِطْه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سَدًى لا لُحمَة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح ، فإن ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلّا قليلا ، ويقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشدّ الناس قوّةً وأعظمهم أيْداً ، لا يُنقِض(٢) الجوع قوّته ، ولا يُخوِّن(٣) الإقلالُ مُنّته . وهو الذى طلّق الدنيا ، وكانت الأموال تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها ويمزقها ، ثم يقول :

هــــذا جَنَاىَ وخِيارُه فيه ... إذْ كُلّ جانٍ يدُه إلى فيه(٤)

---

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفى ب : «يخور» ، وماأثبته عن ا ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدى حينما كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لايأكل منه ، ويأتى به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلّم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطُ له نِطَعٌ بين الصفّين ليلة الهرير ، فيصلى عليه ورْدَه ، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيهِ يميناً وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنَة البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأمّلت دعواتِه ومناجاتِه ، ووقفتَ على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزّته والاستخذاء له ، عرفتَ ماينطوِى عليه من الإخلاص ، وفهمت من أىّ قلبٍ خرجتْ ، وعلى أىّ لسان جرت!

وقيل لعلىّ بن الحسين عليه السلام ـ وكان الغايةَ فى العبادة : أين عبادتك من عبادة جَدّك ؟ قال : عبادتى عند عبادة جدّى كعبادة جدّى عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه فى هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمَعه ؛ نقلوا كلّهم أنه تأخّر عن بيعة أبى بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاجَ إلى أن يتشاغل(١) بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبى عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبى النّجود وغيرهما ؛ لأنهم يرجعون إلى أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ القارئ ،

---

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفنّ من الفنون التى تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

* * *

وأمّا الرأىُ والتدبير فكان من أسَدّ الناس رأياً ، وأصحّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرْس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث . وإنّما قال أعداؤه : لا رأىَ له ؛ لأنه كان متقيِّداً بالشريعة لا يرى خلافَها ، ولا يعمل بما يقتضى الدِّينُ تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدينُ والتّقى لكنتُ أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى مايستصلِحُه ويستوفقه ؛ سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه ، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومَن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتشار أقرب .

* * *

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة ، خشِناً فى ذات الله ، لم يراقب ابنَ عمّه فى عمل كان ولّاه إياه ، ولا راقب أخاه عَقيلا فى كلام جبَهه به . وأحرق قوماً بالنار ، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وقطع جماعةً وصلب آخرين .

ومن جملة سياسته فى حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان ، وفى أقلّ القليل منها مقْنَع ، فإنّ كلّ سائس فى الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مِمّا فعل عليه السلام فى هذه الحروب بيدِه وأعوانه .

فهذه هى خصائص البَشَر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه ، والرئيس المقتفَى أثره .

* * *

وما أقول فى رجلٍ تحبّه أهلُ الذّمة على تكذيبهم بالنبوّة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة ، وتصوِّرُ ملوك الفرنج والروم صورتَه فى بِيَعها وبيوت عباداتها ،

حاملا سيفَه ، مشمّراً لحربه ، وتصوّر ملوكُ الترك والدّيْلم صورته على أسيافها ! كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه رُكن الدولة صورتُه ، وكان على سيف إلب أرسلان وابنه مَلِكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ فى رجل أحبّ كلُّ واحدٍ أن يتكثّر به ، وودّ كلُّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوّة التى أحسن ماقيل فى حدّها ألّا تستحسنَ من نفسك ماتستقبحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، وجعلوا لذلك إسنادا أنهوْه إليه ، وقصَروه عليه ، وسَمَّوْه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروىّ ، أنه سُمِع من السماء يوم أُحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفقَا ... رِ ولا فَتَى إلا على

وما أقول فى رجل أبوه أبو طالب سيّد البطْحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة ، قالوا: قلّ أنْ يسوَّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسمّيه الشيخ.

وفى حديث عفيف الكندىّ ، لما رأى(١) النبىّ صلى الله عليه وآله يصلّى فى مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أىّ شيء هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام ـ وهو ابن أخى أيضاً ـ وهذه الامرأة ، وهى زوجته ـ قال : فقلتُ : ماالذى تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر مايفعل الشيخ ـ يعنى أباطالب. وأبو طالب هو الذى كَفَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركى قريش ، ولقىَ لأجله عَنَتاً عظيما ، وقاسى بلاء شديدا ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء فى الخبر أنّه لما توفّىَ أبو طالب أوحِى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوّة أنّ ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذى قال له رسول صلى الله عليه وآله : «أشبهْتَ خَلْقى وخُلُقى » ، فمرّ يحجل

---

(١) الخبر فى أسد الغابة ٣ : ٤١٤ مع اختلاف فى الرواية .

فرحاً ؛ وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فآباؤه آباء رسو ، الله ، وأمهاته أمهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم إلى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبد الله وأبى طالب ؛ وأمّهما واحدة ، فكان منه سيّدَا الناس ؛ هذا الأول وهذا التالى ، وهذا المنذر وهذا الهادى !

وما أقول فى رجل سَبَق الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من فى الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبِقْه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير مح رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهلِ الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعا لرسول الله صلى ا عليه وآله إيماناً به،ولم يخالف فى ذلك إلا الأقلّون.وقد قال هو عليه السلام : أنا الصدّي الأكبر؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصلّيت قبل صلاتهم ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقدى وابن جرير الطبرىّ ، وهو القول الذى رجحه ونصره صاحب كتاب " الاستيعاب "(١)

ولأنّا إنما نذكر فى مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنّت بالعَرض لا بالقصد وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفر يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق(٢) .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمرى القرطبي ٢:٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضا فى أسد الغابة ٤ : ١٦ــ٤٠ ،والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ــ١٣٣ والإصابة ٤ : ٢٦٩ ــ ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ ــ ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ـ ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ ــ ١٣٨ ، وتاريخ أبى الفدا ١ : ١٨١ ــ ١٨٢ ، وتار الطبرى ٦ : ٨٨ ــ ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٣٢ ــ ٣٦١ ، و ٨ : ١ ــ ١٣ ، وتذكر الحفاظ ١ : ١٠ ــ ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ ــ ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٤٠ ــ ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ ــ ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ ــ ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ــ٥١ ، وصفوة الصفوة ٣ : ١١٩ ــ ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ / ٣ : ١٩ ٦ : ١٢ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ١ : ٥٤٦ ــ ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ ــ ٥٠ والمعارف ٢٠٣ ــ ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ ــ ٥٠ ، ومعجم الشعراء ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبيين ٢٤ ــ ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ ــ ١٢٠.

القول فى نسب الرضى أبى الحسن رحمه الله وذكر طرف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليلَ القدر ، عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس ودولة بنى بُوَيْه، ولُقّب بالطاهر ذى المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطّاهر الأوحد، وولىَ نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو متقلّدها بعد أن حالفته الأمراض، وذهب بصره ، وتوفّىَ عن سبع وتسعين سنة ، فإن مولده كان فى سنة أربع وثلثمائة ، وتوفّى سنة أربعمائة . وقد ذكر ابنه الرضىّ أبو الحسن كمّيّة عمره فى قصيدته التى رثاه بها ، وأولها :

وَسَمَتْكَ حَالِيَةُ الربيع الْمرْهِمِ وسقَتْكَ ساقِيَةُ الغَمَامِ الْمرْزِمِ (١)
سَبْعٌ وتسعون اهتبلْنَ لك الِعدَا حتى مَضَوْا وغبرتَ غيرَ مذمَّمِ
لم يلحقوا فِيهاَ بشأوكَ بَعْدَ ماَ أمَّلُوا فعاقهمُ اعتراضُ الأزْلمِ (٢)
إلا بقايا من غُبارك أصْبَحت غُصَصاً وأقذاء لعينٍ أو فَمِ
إن يَتبعوا عَقِبَيْكَ فى طلب العلا فالذئب يَعْسِل فى طريق الضَّيْغَمِ (٣)

ودفن النقيب أبو أحمد أولا فى داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام .

وهو الذى كان السفيرَ بين الخلفاء وبين الملوك من بنى بُوَيه والأمراء من بنى حَمْدان وغيرهم وكان مباركَ الغرّة ميمونَ النّقيبة ، مَهيباً نبيلا ؛ ماشرع فى إصلاح أمر فاسد

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٥٣ .

(٢) الأزلم : الدهر .

(٣) عسل الذئب : مضى مسرعا واضطرب فى عدوه .

إلا وصَلَح على يديه ، وانتظم بحسن سفارته ، وبركة هِمّته ، وحسنِ تدبيره ووساطته . ولاستعظامِ عَضُد الدولة أمرَه ، وامتلاءِ صدرِه وعينه به حين قدم العراق ما(١) قبض عليه وحمله إلى القلعة بفارس ؛ فلم يزل بهـا إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة ، واستصحبه فى جملته حيث قدم إلى بغداد، وملك الحضْرة . ولما توفِّىَ عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضىّ أبى الحسن أربع عشرة سنة ، فكتب إلى أبيه وهو معتقَل بالقلعة بشِيراز :

أَبْلِغَا عَنِّىَ الحسينَ أَلُوكاً   أنّ ذا الطود بَعْدَ عَهْـدِكَ ساخا (٢)
والشِّهابَ الّذى اصطليتَ لظـاه   عَـكَسَتْ ضوءَهُ الخطوبُ فبَاخَا (٣)
والفَنِيقَ الّذِى تَذَرّع طـول الْ   أرضِ خوّى به الرّدَى وأناخَا (٤)
إن يَرِدْ موردَ القذى وهو راضٍ   فبما يـكرع الزلال النُّقَـاخا (٥)
والعُقَاب الشَّغْواءَ أهبطهـا النِّيـقُ   وقد أَرْعَتِ النجوم صِمَاخا (٦)
أعجلتهـا المنونُ عنّا ولـكن   خلّفت فى ديارنا أفراخـا
وعلى ذاك فالزمانُ بهمْ عا   دَ غُلاَماً من بعـد ما كان شاخا

وأمّ الرضىّ أبى الحسن فاطمة بنت الحسين [بن أحمد](٧) بن الحسن الناصر الأصمّ ، صاحب الدّيْلم ، وهو أبو محمـد الحسن بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن عمر بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السلام . شيخ الطالبيّين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ،

---

(١) ما هنا مصدرية .
(٢) لوحة ١٨٢ ، والألوك : الرسالة .
(٣) باخ : سكن وفتر .
(٤) الفنيق فى الأصل : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .
(٥) النقاخ : البارد العذب الصافى .
(٦) الشغواء من وصف العقاب ؛ قيل لها ذلك لفضل فى منقارها الأعلى على الأسفل . والنيق : حرف من حروف الجبل .
(٧) تكملة من ا ، ج .

ملكَ بلادَ الديْلم والجَبَل ، ويلقّب بالناصر للحقّ ، جرتْ له حروب عظيمة مع السامانيّة ، وتوفِّىَ بطَبَرِستان سنة أربع وثلاثمائة ، وسنُّه تسع وسبعون سنة . وانتصب فى منصبه الحسن ابن القاسم بن الحسين الحسَنىّ ؛ ويلقب بالداعى إلى الحق .

وهى أمّ أخيه أبى القاسم علىّ المرتضى أيضاً .

وحفظ الرضىّ رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة فى مدّة يسيرة ، وعَرَف من الفقه والفرائض طَرَفاً قويًّا . وكان رحمه الله عالما أديباً ، وشاعراً مُفْلِقاً ، فصيحَ النظم ، ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرّفاً فى فنونه ؛ إنْ قَصَدَ الرِّقّةَ فى النسيب أتى بالعجَب العُجاب ، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ فى المدح وغيره⁽¹⁾ أتى بما لا يُشَقُّ فيه غباره ، وإن قصَّدَ فى المراثى جاء سابقاً والشعراء منقطِعٌ أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسِّلا ذا كتابة قوية . وكان عفيفاً شريف النفس ، عالىَ الهمّة ، ملتزما⁽²⁾ بالدّين وقوانينه ، ولم يقبل من أحدٍ صِلة ولا جائزة ، حتى إنّه ردّ صِلات أبيه ؛ وناهيك بذلك شرفَ نفسٍ ، وشدّةَ ظَلَف⁽³⁾ . فأمّا بنو بُوَيه فإنهم اجتهدوا على قبوله صِلاتهم فلم يَقْبَل .

وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب . وكان الطائع⁽⁴⁾ أكثرَ ميلا إليه من القادر⁽⁵⁾ ؛ وكان هو أشدّ حبًّا وأكثر ولاء للطائع منه للقادر ؛ وهو القائل للقادر فى قصيدته التى مدحه بها ، منها :

---

(١) ساقطة من ا

(٢) ب ، ج : « مستلزما » وما أثبته عن ا

(٣) الظلف ، من ظلف نفسه عن الشىء يظلفها ظلفاً : منعها مما إليه تميل .

(٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائع لأمر الله ؛ بويع الخلافة له سنة ٣٦٣ ؛ ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وبويع لأخيه القادر ؛ فحمل إليه الطائع ، وبقى عنده إلى أن توفى سنة ٣٩٣ . الفخرى : ٢٥٤ ، وابن الأثير حوادث ٣٨١ .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المعروف بالقادر ؛ بويع له بالخلافة بعد خلع أخيه ؛ وتوفى سنة ٤٢٢ . الفخرى ٢٥٤ .

عَطْفـاً أمـيرَ المؤمنين فإنَّنـا في دَوْحَـةِ العَلْيـاءِ لا نتفرّق (١)
مابيننا يوم الفخارِ تفـاوتٌ أبداً كِلانا فى المعـالى مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ شرّفتكَ فإنّني (٢) أنا عاطِلٌ منهـا وأنتَ مطوّقُ

فيقال: إنّ القادر قال له: على رغم أنفِ الشريف!

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزىّ فى التاريخ فى وفاة الشيخ أبى إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن محمد الطبرىّ الفقيه المالكىّ، قال: كان شيخَ الشهود المعدّلين ببغداد ومتقدِّمَهم، وسمع الحديثَ الكثير، وكان كريماً مُفْضِلاً على أهل العلم، قال: وعليه قرأ الشريف الرضىّ رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَث [السنّ] (٣)، فقال له يوماً: أيّها الشريف، أين مقامك؟ قال: فى دار أبى بباب مُحَوّل (٤)، فقال: مثلك لا يُقيم بدار أبيه، قد نحلتُك دارى بالكرخ، المعروفة بدار البركة. فامتنع الرضىّ من قبولها وقال له: لم أقبلْ من أبى قطّ شيئاً، فقال: إن حقّى عليك أعظمُ من حقّ أبيك عليك؛ لأنى حفّظتك كتاب الله تعالى. فقبلها (٥).

وكان الرضىّ لعلو همّته تنازِعُه نفسُه (٦) إلى أمورٍ عظيمة يجيش بها خاطره، وينظِمُها فى شعره، ولا يجد من الدهر (٧) عليها مساعدة، فيذوب كمداً، ويفنى وجدًا، حتى توفّىَ ولم يبلغ غرَضاً.

فمن ذلك قوله:

مَا أنَا لِلْعَلْيَاءِ إنْ لم يَكُنْ مِنْ وَلَدِى ما كان من وَالِدِى (٨)
وَلَا مَشَتْ بِى الخيلُ إنْ لم أطأ سريرَ هـذا الأصْيَدِ المـاجدِ (٩)

---

(١) ديوانه، لوحة ٤٠ (٢) الديوان: « ميزتك وإنى ».
(٣) تكملة من ا
(٤) باب محول، بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو ولام: محلة كبيرة من محال بغداد؛ كانت متصلة بالكرخ.
(٥) المنتظم (حوادث سنة ٣٩٣). (٦) ا: « فى »، وما أثبته عن ب.
(٧) ا: « فى الدهر »؛ وما أثبته عن ب. (٨) ديوانه، لوحة ٨٩.
(٩) ديوانه: « الأغاب الماجد ».

ومنه قوله :

مَتَى تَرانِي مُشِيحاً فى أوائِلِهِمْ   يَطْفُو بىَ النَّقْعُ أحْيَاناً ويُخْفِينى (١)
[لَتَنْظُرَنِّى مُشِيحاً فى أوائلهــا   يغيب بِى النقع أحياناً ويُبْدِينى](٢)
لا تعرفونىَ إلا بالطّعــان وقَدْ   أضحى لِثَامِى مَعْصُوباً بِعِرْنِينى (٣)

ومنه قوله يعنى نفسه :

فواعَجَبا ممــا يَظُنّ محمــــدٌ   ولَلظنُّ فى بعض المواطن غَـدّارُ (٤)
يؤمّل أنّ الملكَ طوعُ يمينه (٥)   ومِنْ دون مايرجو المقدِّرُ أقدار
لئن هو أعْفَى للخـلافة لِمّةً   لهـا طُرَرٌ فوق الجبين وإطرارُ
ورام العلا بالشِّعرِ والشَّعر دائباً   ففى النــاس شُعْرٌ خاملون وشُعّارُ (٦)
وإنى أرى زنداً تواتر قَدْحُـه   ويُوشك يوماً أنْ تـكونَ له نارُ

ومنه قوله(٧)

لا هَمَّ قَلْبِى بِرُكُوبِ العُلَا   يَوْماً ولا بُلَّتْ يَدِى بالسَّماح (٨)

---

(١) ديوانه ص ٥٢٢ ـ (مطبعة نخبة الأخيار) ، من قصيدة يذكر فيها القبض على الطائع لله، ويصف خروجه من الدار سليما ، وأنه حين أحس بالأمر بادر ونزل دجلة ، وتلوم من تلوم من القضاة والأشراف والشهود ، فامتهنوا وأخذت ثيابهم . ومطلعها :

لَوَاعِجُ ٱلشَّوْقِ تُخْطِيهِم وَتُصْمِينِي   وَٱللَّوْمُ فِي ٱلْحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُغْرِينِي
وَلَوْ لَقُوا بَعْضَ مَا أَلْقَى نَعِمْتُ بِهِمْ   لٰكِنَّهُمْ سَلِمُوا مِمَّا يُعَنِّينِي

(٢) هذا البيت لم يذكر فى الأصول ؛ وهو فى المطبوعة المصرية والديوان .

(٣) الديوان : « إذا » .

(٤) ديوانه ، لوحة ٢١٤ ؛ وروايته : « غرار » ، وفى ا : « بعض المواضع » .

(٥) الديوان : « يقدر أن الملك » .   (٦) شعر : جمع أشعر ، وهو كثير الشعر طويله .

(٧) ديوانه ، لوحة ٨٤، من قصيدة أولها :

نَبَّهْتُهُمْ مِثْــلَ عَوَالِي ٱلرِّمَاحْ   إِلَى ٱلْوَغَى قَبْــلَ نُمُومِ ٱلصَّبَاحْ
فَوَارِس نَالُوا ٱلْمُنَى بِالْقَنــا   وَصَافَحُــوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحْ

(٨) الديوان : « ولا بل يدى » .

إنْ لم أنلها باشتراطٍ كما   شئتُ على بيضِ الظُّبى وَاقْتِراحْ (١)
أفوزُ مِنْها باللُّبابِ الَّذى   يُعْيِي الأمانى نَيْلُه والصُّرَاحْ
فَمَا الَّذِى يُقْعِدُنِى عَنْ مَدًى   ماهو بالبَسْلِ ولا باللَّقاحْ
يَطْمَحُ من لا مَجْدَ يَسْمُو بِهِ   إنِّى إذاً أعْذَرُ عند الطِّمَاحْ
أمَا فَتًى نال ٱلْمُنى فاشْتفى   أو بطلٌ ذاق الرَّدى فاستراحْ !

وفى هذه القصيدة ماهو أخْشَنُ مسًّا ، وأعظم نِكاية ؛ ولكنّا عدلنا عنه وتخطّيناه، كراهية لذكره . وفى شعره الكثير الواسع من هذا النَّمط .

* * *

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى (٢) الكاتب له صديقاً ، وبينهما لُحمة الأدب ووشائجه ، ومراسلات (٣) ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابى إلى الرضىّ فِى هذا النَّمَط :

أبا حَسَنٍ لى فى الرِّجالِ فِرَاسَةٌ   تَعوَّدْتُ مِنْهَا أن تقولَ فتصدُقَا (٤)
وَقَدْ خبَّرَتْنِى عَنْكَ أنّكَ ماجِدٌ   سَتَرْقَى إلى العلياء أبْعَدَ مُرْتقَى (٥)
فوفَّيْتُكَ التعظيمَ قَبْلَ أوانِه   وقلتُ : أطال الله لِلسَّيد البَقَا

---

(١) الظبى : جمع ظبة ؛ وهو حد السيف .

(٢) هو أبو إسحاق الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمى ؛ وكان صابئيا متشددا فى دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ؛ ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ، ويستعمله فى رسائله ؛ ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى ٱلْأَعْوَادِ   أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ ٱلنَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفا يرثى صابئا ؛ فقال : إنما رثيت فضله . توفى سنة ٣٨٤ . (ابن خلكان ١ : ١٢) .

(٣) ب : « وبينهما مراسلات » .

(٤) ديوان الرضى ، لوحة ١٩٤ .

(٥) الديوان : « من العلياء » .

وأضْمَرْتُ منه لفظة لم أبُحْ بهـــــا   إلى أن أرى إظهارَهـــــا لِيَ مُطْلَقا
فإن مِتُّ أو إن عشتُ فاذكر بِشارتى   وأوجِبْ بهـــــا حَقًّا عليكَ مُحَقَّقا
وكن لِيَ فى الأولاد والأهلِ حافظًا   إذا ما اطمأنَّ الجنبُ فى مَضْجَعِ الْبَقا

فـكتب إليه الرضىّ جوابا عن ذلك قصيدةً ، أولها :

سَنَنْتَ لهــــذا الرُّمح غَرْبًا مُذَلَّقًا   وأجْرَيْتَ فى ذَا الْهِنْدُوانىِّ رَوْنَقَا (١)
وَسوَّمْتَ ذا الطِّرفَ الجوادَ وإنّما (٢)   شَرَعْتَ لَهُ نَهْجًا فَخَبَّ وَأَعْنَقـــــا

وهى قصيدة طويلة ثابتة فى ديوانه ، يَعِدُ فيها نفسَه ، ويَعِدُ الصابئَ أيضًا ببلوغ آماله ، إن ساعد الدهرُ وتمّ المرام . وهذه الأبياتُ أنـكرها الصابى لما شاعتْ ، وقال: إنى عملتها فى أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ، كاتب الطائع ؛ وما كان الأمرُ كما ادّعاه؛ ولـكنه خاف على نفسه .

* * *

وذكر أبو الحسن الصابى (٣) وابنُه غرس النعمة محمد فى تاريخهما أنّ القادر بالله عقد مجلسا أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوىّ وابنه أبا القاسم المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء ، وأبرز إليهم أبيات الرضىّ أبى الحسن التى أولها :

مَامُقامِى عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِى   مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنفٌ حَمِىٌّ (٤)
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بى عَنِ الضَّيْـــــمِ كما زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِىٌّ
أىُّ عُـــــذرٍ له إلى المجد إن ذلّ غلامٌ فى غِمْـــــدِه المَشْرَفىُّ

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٩٤ .   (٢) الطرف : الفرس الأصيل .

(٣) هو هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى ، حفيد أبى إسحاق الصابى ، ذكر صاحب كشف الظنون ٢٩٠ أن ثابت بن قرة الصابى كتب تاريخا من سنة ١٩٠ إلى سنة ٣٦٣ ؛ وذيله ابن أخته هلال ابن محسن الصابى ، وانتهى إلى سنة ٤٤٧ ، وذيله ولده غرس النعمة محمد بن هلال ، ولم يتم .

(٤) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخيار) .

أَحمِلُ الضيمَ فى بلادِ الأعادى(١)   وبمصرَ الخليفـــــــةُ العَلَوِىُّ
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا   ىَ إذا ضامنى البعيـــدُ القَصِىُّ
لَفَّ عِرْقِى بِعِرْقِهِ سيِّـــدا النّا   سِ جميعاً : محمـــــدٌ وعَلِىُّ

وقال القادر للنقيب أبى أحمد : قل لولدك محمد : أىَّ هوانٍ قد أقام عليـه عندنا ! وأىُّ ضَيْمٍ لَقِىَ من جهتنا ! وأىّ ذلّ أصابه فى مملـكتنا(٢) ! وما الذى يعمل معه صاحبُ مصر لو مضى إليه ؟ أ كان يصنع إليه أكثرَ من صنيعنا(٣) ؟ ألم نولّه النّقابة ! ألم نولّه المظالم ! ألم نستخلفْه على الحرَمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحجيج ! فهل كان يحصُل له من صاحب مصر أكثرُ من هذا ! ما نظنّه كان يكون ـ لو حصل عنده ـ إلا واحداً من أبناء الطالبيِّين بمصر . فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فمّما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطّه ، ولا يبعد أنْ يكونَ بعضُ أعدائه نَحَلَه إياه ؛ وعَزَاه إليه ، فقال القادر : إن كان كذلك ؛ فلتكتب الآن محضراً يتضمّن القَدْح فى أنساب ولاة مصر ، ويكتب محمد خطّه فيه . فكَتَب(٤) محضراً بذلك ، شَهِد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس ؛ منهم النقيب أبو أحمد ، وابنه المرتضى ، وحُمِل المحضر إلى الرضىّ ليكتب خطّه فيه ، حَمَله أبوه وأخوه ، فامتنع من سَطْر(٥) خطّه ، وقال : لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، وأنكر الشعر ، وكَتَبَ خطّه ، وأقسم فيـه أنه ليس بشعره ؛ وأنه لا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يكتب(٦) خطّه فى المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخافُ دعاةَ المصريين وغِيلتَهم لى ، فإنهم معروفونَ بذلك ، فقال أبوه : ياعجباه ! أتخافُ مَنْ بينك وبينه ستمائة فرسخ ، ولا تخاف مَنْ بينك وبينه مائة ذراع ! وحلف ألّا يكلمه ؛ وكذلك المرتضَى ، فعَلا ذلك تقيّةً وخوفا من القادر ،

---

(١) الديوان : « ألبس الذل فى ديار الأعادى » .
(٢) ب : « فى ملكنا » .   (٣) ب : « ضيعتنا » .
(٤) ب : « فكتب محضر » ، بالبناء للمجهول .
(٥) ب : « تسطير » .   (٦) ب : « يسطر » .

وتسكيناً له . ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره ، وبعد ذلك بأيام صرَفه عن النّقابة ، وولاها محمد بن عمر النّهرسابسىّ (١) .

* * *

وقرأت بخطّ محمد بن إدريس الحلىّ الفقيه الإمامىّ، قال : حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسْفرَايينىّ الفقيه الشافعىّ ، قال : كنتُ يوماً عند فخر الملك أبى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة ، وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضىّ أبو الحسن ، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته ، وخلّى ما كان بيده من الرّقاع والقصص ، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلكَ المرتضَى أبو القاسم رحمه الله ؛ فلم يعظّمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغَل عنه برقاع يقرؤها ، وتوقيعات يُوقّع بها، فجلس قليلاً، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمتُ إليه وقلت له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضَى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون، وهو الأمثل والأفضل منهما؛ وإنما أبو الحسن شاعر. قال : فقال لى: إذا انْصرف الناس وخلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة .

قال : وكنت مجمِعاً على الانصراف، فجاءنى أمرٌ لم يكن فى الحساب، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحداً فواحداً ، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابه، دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثرُ غلمانه ، ولم يبق عنده غيرى قال لخادم: هات الكتابين اللذيْن دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتُك أن تجعلَهما فى السَّفَط (٢) الفلانىّ . فأحضرَهما، فقال : هذا كتاب الرضىّ، اتصل بى أنه قد ولد له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلت له : هذه للقابلة ، فقد جرتِ العادة أن يحمل الأصدقاء

---

(١) النهرسابسى منسوب إلى نهرسابس ، فوق واسط بيوم (ياقوت) .

(٢) السفط بالتحريك ، كالجوالق .

إلى أخِلّائهم وذوى مودّتهم مثلَ هذا فى مثل هذه الحال ؛ فردّها وكتب إلىّ هذا الكتاب فاقرأه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرّد ، وفى جملته : إنّنا أهلَ بيت لا نُطلع على أحوالنا قابلةً غريبة؛ وإنما عجائزنا يتولّين هذا الأمرَ من نسائنا ، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلَة ؛ قال : فهذا هذا .

وأما المرتضَى فإنّنا كنا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك ببادوريا تقسيطاً نصرفه فى حَفْر فُوّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضَى بالناحية المعروفة بالدّاهرية من التقسيط عشرون درهماً ، ثمَنُها دينار واحد ، قد كتب إلىّ منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب ، فاقرأه . فقرأته ؛ وهو أكثر من مائة سَطْر ، يتضمّن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها مايطول شرحه .

قال فخر الملك : فأيّهما ترَى أولَى بالتعظيم والتّبجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذى لم يُشْهَرْ إلا بالشعر خاصّة، ونفسُه تلك النفس ! فقلت: وفّق الله تعالى سيدَنا الوزير، فما زال موفّقاً؛ والله ماوضع سيدنا الوزير الأمرَ إلا فى موضعه، ولا أحلّه إلا فى محلّه . وقمت فانصرفت .

* * *

وتوفِّىَ الرضىّ رحمه الله فى المحرّم من سنة أربع وأربعمائة ، وحضر الوزير فخرُ الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازتَه والصلاة عليه، ودفن فى داره بمسجد الأنباريّين بالكَرْخ، ومضى أخوه المرتضَى من جزَعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظرَ إلى تابوته ودفنه ، وصلّى عليه فخرُ الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى ، فألزمه بالعوْد إلى داره .

ومما رثاه به أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التي من جملتها(١) :

ياللرِّجال لِفَجْعَةٍ جذَمَتْ يدى   ووددت لوْ ذهبت علىّ براسِى(٢)
مازلتُ آبَى وِرْدَها حتى أَتَتْ(٣)   فحسوتُها فى بعض ما أنا حَاسى
ومَطَلْتُهَا زمناً فَلَمَّا صمّمت   لم يَثْنِها مَطْلِى وطولُ مِكاسى
لله عُمْرُكَ من قصـــير طاهرٍ   ولربّ عُمْرٍ طال بالأدناس !

* * *

وحدثنى فخار بن معدّ العلوىّ الموسوىّ رحمه الله ، قال : رأى المفيد أبو عبد الله محمد ابن النعمان الفقيهُ الإمام فى منامه كأنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو فى مسجده بالكَرْخ ، ومعها ولداها : الحسن والحسين عليهما السلام ، صغيرين ، فسلّمتهما إليه ، وقالت له : علِّمهما الفقه . فانتبه متعجّباً من ذلك ، فلما تعالى النهار فى صبيحة تلك الليلة التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر ، وحولها جواريها ، وبين يديها ابناها : محمد الرضىّ وعلىّ المرتضى صغيرين ، فقام إليها وسلّم عليها ، فقالت له : أيّها الشيخ ، هـذان ولدَاى قد أحضرتُهما لتعلِّمهما الفقه ، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام ، وتولّى تعليمهما الفقه(٤) ، وأنعم الله عليهما ، وفتحَ لهما من أبواب العلوم والفضائل مااشتهر عنهما فى آفاق الدنيا ؛ وهو باقٍ ما بَقىَ الدهر(٥)

---

(١) ب : « التى من جملة مرثيته » ؛ وما أثبته عن ا .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣١ .
(٣) الديوان : « يازلت أحذر وردها » .
(٤) ساقطة من ب
(٥) وانظر ترجمة الشريف الرضى أيضا فى أخبار المحمدين من الشعراء ٨٨ ـ ٨٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١١٤ ـ ١١٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ١٤٥ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٣ ـ ٤ ، وابن خلكان ٢ : ٢ ـ ٤ ، ودمية القصر ٧٣ ـ ٧٥ ، وروضات الجنات ٥٧٣ ـ ٥٧٩ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٨٢ ـ ١٨٤ ، وعيون التواريخ (وفيات ٤٠٦) ، ولسان الميزان ٥ : ١٤١ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٨ ـ ٢٠ ، والمنتظم لابن الجوزى (وفيات ٤٠٦) ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٣٧٤ ـ ٣٧٩ ، ويتيمة الدهر ٣ : ١١٦ ـ ١٣٥ . وله أيضا ترجمة فى مقدمة كتابه المجازات النبوية (طبع بغداد) منقولة عن كتاب « تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام » ، بتحقيق السيد حسن صدر الدين .

القول فى شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضىّ رحمه الله :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمّا بعدَ حَمْدِ(١) الله الّذى جَعَلَ الحمدَ ثمناً لنعمائِه ، ومَعاذاً مِنْ بَلائه ، ووَسيلًا إلى جنانِه ، وسَبَباً لزيادَةِ إحسانه . والصَّلاةُ على رسُوله نبىّ الرَّحْمة ، وإمام الأئمة ، وسِرَاجِ الأمّة ، المنتجَب مِنْ طينة الكَرَم ، وسُلالةِ المجْد الأقدَمِ ، ومَغرِس الفَخار المُعْرِق ، وفَرْع العلاء المُثمِر المورِق ؛ وعلى أهلِ بيته مصابيح الظُّلَم ، وعِصَم الأمَم ، ومَنَار الدِّين الْوَاضِحَة ، ومثاقيلِ الفَضْل الرَّاجِحَة . فصلّى الله عليهم أجْمعينَ ، صَلَاةً تكونُ إزاءً لِفَضْلِهِمْ ، ومُكافَأةً لِعَمَلِهِمْ ، وكِفاءً لِطِيب أصْلِهِمْ وفَرْعِهِمْ ، ما أنار(٢) فَجْرٌ طَالِعٌ ، وخَوَى نَجْمٌ سَاطِعٌ(٢) .

* * *

الشَّرْح :

اعلم أنى لا أتعرّضُ فى هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمةُ العربية ، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف ؛ كما فعل القُطْب الرّاوندىّ ؛ فإنه شَرَعَ أولا فى تفسير قوله : « أمّا بعد » ، ثم قال : هذا هو فصل الخطاب ، ثم ذكر ما معنى الفصل ، وأطال فيه ، وقسّمه أقساماً ، يشرح ماقد فرّغ له منه ، ثم شرح الشرح . وكذلك أخذ يفسّر قوله : « من بلائِه » ، وقوله : « إلى جنانه » ، وقوله : « وسبباً » ، وقوله : « المجد » ، وقوله :

---

(١) ا : « حمداً » .

(٢ ـ ٢) ب : « ما أنار فجر ساطع ، وخوى نجم طالع » . وكذا فى مخطوطة النهج .

« الأقدم » ، وهذا كلّه إطالةٌ وتضييعٌ للزّمان من غير فائدة ؛ ولو أخذنا بشرح(١) مثلِ ذلك لوجب أن نشرح لفظة « أمّا » المفتوحة ، وأنْ نذكر الفصل بينها وبين « إمّا » المكسورة ، ونذكر : هل المكسورة من حروف العطف أولا ؟ ففيه خلاف ، ونذكر هل المفتوحة مركبة أو مفردة ؟ ومهملة أو عاملة ؟ ونفسّر معنى قول الشاعر :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ   فإنّ قومِيَ لَمْ تأكلْهُمُ الضَّبُعُ(٢)

بالفتح ؛ ونذكر « بَعْدُ » لِمَ ضُمّت إذا قطعت عن الإضافة ؟ ولِمَ فتحت ها هنا حيث أضيفت ؟ ونخرج عن المعنى الذى قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابُها .

ونبتدئُ الآن فنقول : قال لى إمام من أئمة اللغة فى زماننا : هو الفِخار ، بكسر الفاء ، قال : وهذا ممّا يغلَط فيه الخاصّة فيفتحونها ، وهو غير جائز ، لأنه مصدر « فاخر » ، وفاعَل يجىء مصدره على « فِعال » بالكسر لاغير ، نحو : قاتلت قِتالا ، ونازلت نِزالا ، وخاصمت خِصاماً ، وكافحت كِفاحاً ، وصارعت صِراعاً . وعندى أنّه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء ، وتكون مصدر « فَخَر » لا مصدر « فاخر » ، فقد جاء مصدر الثلاثى — إذا كان عينه أو لامه حرف حلق — على « فَعال » ، بالفتح ، نحو سَمَح سَماحا ، وذهب ذَهابا ؛ اللهمّ إلا أن يُنقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به نقلاً صريحاً ، فتزول الشبهة .

والعِصَم : جمع عِصْمة ، وهو ما يعتصم به . والمنار : الأعلام ، واحدها مَنارة ، بفتح الميم . والمثاقيل : جمع مثقال ، وهو مقدار وَزْن الشىء ، تقول : مثقال حبّة ، ومثقال قِيراط ، ومثقال دينار ؛ وليس كما تظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة ؛ فقوله : « مثاقيل الفضل » ، أى زِنات الفضل ، وهذا من باب الاستعارة . وقوله : « تكون إزاءً لفضلهم » ، أى مقابلة له . ومكافأة ، بالهمز ، من كافأته أى جازيته ، وكِفاء ، بالهمز والمد ، أى نظيراً .

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصواب ، وفى باقى الأصول : « لشرح » .
(٢) البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة — (اللسان ٨ : ١٨٣) .

وخوى النجم ، أى سقط . وطينة الكرَم ؛ أصله . وسلالة المجد فرعه . والوَسِيل : جمع وسيلة وهو ما يُتقرَّب به ، ولو قال : « وسَبيلا إلى جِنانه » لكان حسنا ، وإنّما قصد الإغراب ، على أنا قد قرأناه كذلك فى بعض النسخ . وقوله : « ومكافأة لعملهم » إنْ أراد أن يجعلَه قرينة « لفضلهم » كان مستقبَحاً عند مَنْ يريد البديع ، لأنّ الأولى ساكنة الأوسط ، والأخرى متحرّكة الأوسط ، وأمّا من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقبَح . وإن لم يُرِدْ أن يجعلَها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية ، وجعل القرينة « وأصلهم » ، فهو جائز ، إلاّ أنّ السجعة الثانية تطول حدًّا . ولو قال عِوَض « لعمَلهم » ، « لِفعْلهم » لكَان حسناً .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

فإنى كنتُ فى عُنْفوان السنّ ، وغضاضة الغُصْن ، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ فى خَصائِصِ الأئمة عليهم السلام ، يَشْتَمِل على محاسِن أخْبارِهِمْ ، وجواهِر كَلاَمِهِمْ ، حَدَانى عَلَيْه غرضٌ ذكرتُه فى صَدْر الكتاب ، وجعلتُه أمَامَ الكَلام . وفرغْتُ من الخصائصِ التى تَخُصّ أميرَ المؤمنين عليًّا ، صلواتُ الله عليه ، وعاقَتْ عن إتمامِ بقيَّة الكتابِ مُحاجزاتُ الأيّام ، ومُمَاطَلاَتُ الزَّمان . وكنتُ قد بَوَّبْتُ ماخرج من ذلك أبواباً ، وفَصّلتُه فصولًا ، فجاء فى آخرِها فَصْلٌ يتضمّن محاسنَ ما نُقل عنه عليه السلام ؛ من الكَلاَمِ القَصير ، فى المواعِظِ والحِكَمِ والأمثال والآدابِ ؛ دُونَ الخُطَبِ الطَّوِيلة ، والكُتبِ المبْسُوطة ؛ فاستحسنَ جماعةٌ من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدّم ذكره ، معجَبين ببدائِعِه ، ومتعجِّبين من نواصِعِه ؛ وسألونى عِنْدَ ذلك أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوى على مُخْتَارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام فى جميعِ فُنونه ، ومتشعِّبات غُصونه ، من خُطَبٍ وكُتب ، ومواعظَ وأدبٍ ؛ علماً أنّ ذلك يتضمّن من عَجَائب الْبَلاغةِ ، وغَرائبِ الفَصاحَةِ ، وجواهِر العربية ، وثواقبِ الكَلِم الدينية والدُّنياوِيَّة ؛ مالا يوجدُ مجتمعاً فى كلامٍ ، ولا مجموعَ الأطراف

فى كتاب ؛ إذْ كانَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلاَم مَشْرَع الْفَصَاحَة ومَورِدَها ، ومَنْشَأ الْبَلاَغَةِ ومَوْلِدها ؛ ومنه عليه السلام ظهرَ مَكْنُونُها ، وعنه أُخِذَتْ قوانينُها ، وعلى أمثلته حَذَا كلّ قائِل خطيبٍ ، وبكلامه استعانَ كلّ واعظٍ بليغ ؛ ومع ذَلك فقد سَبَق وقصّروا ، وتقَدّم وتأخّروا ؛ لأنّ كلامَه عليه السلام الكلامُ الذى عليه مَسْحة من العلم الإلهىّ ، وفيه عَبقةٌ من الكلام النبوىّ .

* * *

الشّرح :

عُنْفوان السنّ : أوّلها . ومُحاجزات الأيام : ممانعاتها . ومُماطلات الزمان: مدافعاته. وقوله : «معجَبين» ثم قال : و « متعجِّبين » ، فـ « معجَبين » من قولك : أعجب فلان برأيه وبنفسه فهو معجَب بهما ، والاسم العُجْب بالضم ؛ ولا يكون ذلك إلا فى المستحسَن، و « متعجِّبين » من قولك : تعجّبت من كذا ، والاسم العَجَب . وقد يكون فى الشىء يُستحسن ويُستقبح ويُتهوّل منه ويستغرب ؛ ومراده هنا التهوّل والاستغراب ؛ ومن ذلك قول أبى تمام :

أَبدَتْ أَسًى إذْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ الْقَصَبِ وآلَ ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبِ (١)

يريد أنها كانت معجَبة به أيام الشبيبة لحسنه ؛ فلما شاب انقلب ذلك العُجْب عَجَباً ؛ إما استقباحاً له أو تهوّلاً منه واستغراباً . وفى بعض الروايات : « معجِّبين ببدائعه » ، أى أنّهم يعجّبون غيرهم . والنواصع : الخالصة . وثواقب الكلم : مضيئاتها ؛ ومنه الشهاب الثاقب . وحذا كلّ قائل : اقتفى واتّبع . وقوله : «مَسْحة» يقولون : على فلان مَسْحة من جمال ؛ مثل قولك : شىء ، وكأنه هاهنا يريد ضوءاً وصِقالا . وقوله : « عَبْقة » ، أى رائحة ،

---

(١) ديوانه ١ : ١١٥ ؛ مطلع قصيدة يمدح فيها الحسن بن سهل . المخلس ، من قولهم : أخلس رأسه إذا صار فيه بياض وسواد . والقصب : جمع قصبة ؛ وهى خصلة من الشعر تجعل كهيئة القصبة الدقيقة . (من شرح الديوان) .

ولو قال عِوض « العلم الإلٰهىّ » : « الـكتاب الإلٰهىّ » لـكان أحسن .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

فأجَبتهم إلى الابتداء بِذَلِكَ ، عالماً بما فيه من عَظِيمِ النَّفْعِ ، وَمَنْشُور الذِّكْرِ ، وَمَذْخُورِ الأجْرِ . واعتمدتُ بِهِ أن أبيّن مِنْ عظيم قَدْر أمير المؤمنين عليه السَّلَامُ فى هذهِ الْفَضِيلةَ ، مُضَافةً إلى المحاسنِ الدَّثِرة ، والفَضائل الجمّة ، وأنّه انفرَدَ ببلوغ غايَتِها عن جَميع السَّلَفِ الْأوَّلِينَ ، الَّذِين إنَّما يُؤثَرُ عَنهُمْ مِنهَا القليلُ النَّادِرُ ، والشَّاذّ الشارِدُ ؛ فأمّا كلامُه عليه السلام فهو الْبَحْرُ الَّذى لا يُساجَل ، والجمّ الذى لا يُحافَل ، وأردْتُ أن يسوغَ لِى التمثُّل فى الافتخارِ بهِ صلواتُ الله عليه بقول الفَرَزْدَق :

أُولئِكَ آبائى فجِئْنِى بمِثْلِهِمْ   إذَا جَمَعَتْنَا ياجَرِيرُ الْمَجَامِعُ

* * *

الشَّرْح :

المحاسن الدَّثِرَة : الـكثيرة ، مالٌ دَثِر ، أى كثير ، والجمّة مثله . ويؤثَر عنهم ، أى يحـكَى وينقل ، قلتهُ آثراً ، أى حاكياً . ولا يساجَل ، أى لا يكاثَر ، أصلُه من النزْع بالسَّجْل ، وهو الدّلو الملىء (١) ، قال :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُسَاجِلْ ماجِداً   يملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الـكَرَبْ (٢)

ويروى : « ويساحَل » ، بالحاء ، من ساحل البحر وهو طرَفه ، أى لا يشابه فى بُعْد ساحِله . ولا يحافَل ، أى لا يفاخَر بالـكثرة ، أصلُه من الحفْل ، وهو الامتلاء ، والمحافلة : المفاخرة بالامتلاء ، ضرع حافل ، أى ممتلئ .

---

(١) الدلو ، تذكر وتؤنث .

(٢) للفضل بن عبـاس بن عتبة بن أبى لهب ، اللسان ١٣ : ٣٤٦ ، ونقل عن ابن برى : « أصل المساجلة ، أن يستقى ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله مثل مايخرج الآخر ؛ فأيهما نـكل فقـد غلب ؛ فضربته العرب أصلا للمفاخرة » .

والفرزدق ، همّام بن غالب بن صعصعة التميميّ . ومن هذه الأبيات (١) :

ومنّا الّذى اختيرَ الرجالَ سَمَاحَــةً   وجُـوداً إذا هبّ الرياحُ الزعازعُ (٢)
ومنّا الّذى أحيا الوئيــــدَ وغالبٌ   وعَمْرٌو ؛ ومنّا حاجِبٌ والأقارعُ (٣)
ومنّا الذى قاد الجيادَ على الوجا (٤)   بنجْرَان حــــتّى صبّحته الترائعُ
ومنّا الذى أعطى الرّسُولُ عَطيّــةً   أسارى تميمٍ والعيـــونُ هوامعُ

الترائع : الـكرام من الخيل . يعنى غزاةَ الأقرع بن حابس قبـل الإسلام بنى تغْلِب بنَجْران ، وهو الذى أعطاه الرسولُ يوم حُنَين أسارى تميم –

ومنّا غـــدَاةَ الرّوْع فرسانُ غارةٍ   إذا مَنَعتْ بعد الزّجاج الأشَاجِعُ (٥)
ومنّا خطيب لا يعاب وحَامِــــلٌ   أغرّ إذا التفتْ عليـــهِ المجامعُ (٦)

– أى إذا مُدّت الأصابع بعد الزّجاج إتماماً لها ؛ لأنها رماح قصيرة . وحامل ، أى حاملٌ للدّيات –

---

(١) من نقيضته لقصيدة جرير التى أولها :

ذَكَرْتُ وِصَالَ ٱلْبِيضِ وَٱلشَّيْبُ شَائِعُ   وَدَارُ ٱلصِّبَا مِنْ عَهْـدِهِنَّ بَلَاقِــعُ

وهما فى النقائض ٦٨٥ ـ ٧٠٥ ؛ ويخلف ترتيب القصيدة هنا عن ترتيبها هناك .

(٢) رواية النقائض : « منا الذى اختير » ؛ بحذف الواو ؛ وهو مايسمى بالخرم ؛ فتحذف الفاء من « فعولن » ؛ فى أول البيت من القصيدة . وانظر خبر غالب بن صعصعة أبو الفرزدق ، مع عمير بن قيس الشيبانى وطلبة بن قيس بن عاصم المنقرى فى الأغانى ١٩ : ٥ (طبعة الساسى) .

(٣) الذى أحيا الوئيد ؛ هو جده صعصعة بن ناجية بن عقال ، وغالب أبوه ، وعمرو بن عمرو بن عدس ، والأقارع : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال ؛ وانظر أخبار هؤلاء جميعا فى شرح النقائض .

(٤) الوجا : الحفا .

(٥) منعت ، يريد ارتفعت بالسيوف بعد الطعان بالرماح . والأشاجع : عصب ظاهر الـكف . وفى الديوان « فتيان غارة » .

(٦) قوله : « خطيب » يعنى شبة بن عقال بن صعصعة . والحامل ، يعنى عبد الله بن الحـكيم بن نافذ من بنى حوى بن سفيان بن مجاشع ، الذى حمل الحمـلات يوم المربد حين قتل مسعود بن عمرو العتـكى ، وكان يقال له القرين . والأغر من الرجال : المعروف ، كما يعرف الفرس بغرته فى الخيـل ؛ يقول : فهو معروف فى الـكرم والجود . (من شرح النقائض) .

أولئكَ آبائي فجئني بمثلِهم   إذا جمعتْنا يا جَريرُ المجامعُ
بهم أعتلي ما حمّلتنيهِ دارمٌ (١)   وأَصْرَعُ أقراني الّذين أصارعُ
أخَذْنا بآفاقِ السّماءِ عليكُمُ   لنا قمراها والنُّجُومُ الطَّوالعُ (٢)
فوَاعجبا حتى كُليبٌ تَسبُّني   كأنّ أباها نَهْشَلٌ أو مُجاشعُ !

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

ورأيت كلامَه عليه السَّلام يدورُ على أقطاب ثلاثة : أوّلها الخطَب والأوامر ، وثانيها الكُتُب والرّسائلُ ، وثالثُها الحِكَم والمواعظ ؛ فأجمعْتُ بتوفيقِ الله سُبْحانَهُ على الابْتِداء باختيارِ محاسِنِ الخطَبِ ، ثُمَّ محاسِنِ الكُتُبِ ، ثم محاسِنِ الحِكَمِ والأدَبِ ، مُفْرِداً لكلّ صِنفٍ من ذلك باباً ، ومفصِّلا فيه أوراقاً ، ليكونَ مقدّمة لاستدراكِ ما عَساهُ يشذّ عَنّي عاجلاً ، ويقَعُ إليّ آجلا . وإذا جاء شيءٌ من كلامهِ الخارجِ في أثناء حِوارٍ ، أو جوابِ سؤالٍ ، أو غرضٍ آخرَ من الأغراض في غَيْرِ الأنحاء التي ذكرتُها ، وقرّرْتُ القاعدةَ عليها ، نَسَبْتُهُ إلى ألْيَقِ الأبواب بِهِ ، وأشدِّها ملائمةً لغرَضِهِ . وربّما جاء فيما أختاره من ذلك فصولٌ غيرُ مُتّسقة ، ومَحَاسنُ كَلِمٍ غير مُنتظمة ، لأنّي أوردُ النُّكَتَ واللُّمَعَ ، ولا أقصِدُ التّتَالِيَ والنَّسَقَ .

الشّرْحُ :

قوله : « أجمعت على الابتداء » ، أى عزمت . وقال القُطب الراونديّ : تقديره : أجمعتُ عازماً على الابتداء ، قال : لأنه لا يقالُ إلا أجمعت الأمرَ ، ولا يقال : أجمعت على الأمر ، قال سبحانه : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) النقائض : « ماحملتنى مجاشع » .

(٢) قمراها : الشمس والقمر ، فذاب المذكر مع حاجته إلى إقامة البيت .

(٣) سورة يونس ٧١ .

هذا الذى ذكره الرّاوندىّ خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّه جائز ، نصّ صاحب " الصّحاح "(١) على ذلك .

والمحاسن : جمع حَسَن ، على غير قياس ، كما قالوا : الملامح والمذاكر(٢) ؛ ومثله المقابح . والحِوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورتُه ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد . وأشدّها مُلامحة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظرا إليه ، من لمحت الشىء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانىّ ، أى يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلْمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

ومِنْ عجائبه عليه السلام الّتى انفرد بها ، وأمِنَ المشاركةَ فيها ؛ أنّ كلامَه الواردَ فى الزّهد والمواعظ ، والتّذكير والزّواجر ؛ إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المُفكِّر(٣) ، وخلَع من قلبه أنّهُ كلامُ مثلِه ، ممّن عظُم قَدْرُه ونفَذ أمرُه ، وأحاطَ بالرّقاب مُلْكه ، لم يعترضْه الشكّ فى أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له فى غيرِ الزّهادة ، ولا شُغْلَ له بغيرِ العِبادة ، قد قَبع فى كِسْرِ بيتٍ ، أو انقطع إلى(٤) سَفْح جبلٍ ، لا يَسْمعُ إلا حسَّه ، ولا يَرى إلا نفسَه ؛ ولا يكادُ يوقِن بأنّه كلامُ مَنْ ينغمِس فى الحرب ، مُصْلِتاً سيفَه ، فيَقُطُّ الرّقابَ ، ويُجدِّلُ الأبطالَ ، ويعودُ به ينْطُفُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ؛ وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد ، وبَدَلُ الأبْدال . وهذه من فضائله العجيبة ، وخَصائصه اللّطيفة ، التى جَمع بها بين الأضْداد ، وألّف بين الأشْتات ، وكثيراً ما أذاكِرُ الإخوان بها ، وأستخرجُ عجَبَهم منها ؛ وهى موضع العِبْرة بها(٥) ، والفِكرة فيها .

---

(١) الصحاح ٣ : ١١٩٨

(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبته عن ا .

(٣) ب : « المتفكر » وما أثبته عن ا

(٤) مخطوطة النهج : « فى سفح » .

(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى ا .

الشَّرْحُ :

قَبَع القُنفذ يَقْبَع قُبوعاً ، إذا أدخل رأسَه فى جلده ، وكذلك الرّجل إذا أدخل رأسه فى قميصه ؛ وكلّ مَنِ انزوى فى جُحْر أو مكان ضيِّق فقد قَبَع . وكِسْر البيت : جانب الخِباء . وسفْح الجبل : أسفله ، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء . ويقطّ الرقاب : يقطعها عَرْضاً ـ لا طولا كما قاله الرّاوندىّ ـ وإنما ذاك القَدّ ، قددته طولا ، وقططتُه عرضاً . قال ابن فارس صاحب " المجمل " : قال ابنُ عائشة : كانتْ ضربات علىّ عليه السلام فى الحرب أبكاراً ، إن اعتلى قَدّ ، وإن اعترض قَطّ . ويُجَدِّل الأبطال : يُلْقِيهم على الجَدالة ، وهى وجهُ الأرض . وينطُف دما : يقطر . والأبدال : قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات أحدُهم أبدَل الله مكانه آخر ، قد وَرَدَ ذلك فى كثير من كُتب الحديث .

كان أمير المؤمنين عليه السّلامُ ذا أخلاقٍ متضادّة :

فمنها ما قد[1] ذكره الرضىّ رحمه الله ، وهو موضع التعجّب ؛ لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِى قلوب قاسية ، وفَتْكٍ وتمرُّد وجَبَرِيّة ، والغالب على أهل الزهد ورفضِ الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ ، أن يكونوا ذوى رقّة ولين ، وضَعْفِ قلْب ، وخَوَرِ طَبْع ؛ وهاتان حالتان متضادتان ، وقد اجتمعتا له عليه السلام .

ومنها أنّ الغالبَ على ذوى الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوى أخلاق سَبُعيّة ، وطِباع حوشيّة ، وغرائز وحشيّة ، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِى انقباض فى الأخلاق ، وعُبوس فى الوجوه ، ونِفار من الناس

---

(١) كلمة « قد » ساقطة من ب .

واستيحاش ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا ، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيّام الله ومَثُلاته ، وأشدّهم اجتهاداً فى العبادة وآداباً لنفسه فى المعاملة . وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً ، وأسفرَهم وجهاً ، وأكثرهم بِشْراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدَهم عن انقباض موحِش ، أو خُلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس ، أو يتكدّر معهما قلب . حتى عِيب بالدُّعابة ؛ ولمّا لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلَّقوا بها ، واعتمدوا فى التنفير عنه عليها .

* وتلكَ شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها(١) *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطْرُس ؛ خصوصاً إذا أضيف إلى شَرَفِه من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى ؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسبا بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حَصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينَهم عَرِيكة ، وأسمحَهم خُلُقا ، وأبعدَهم عن الكِبْر ، وأعرفهم بحقّ ، وكانت حاله هذه فى كِلاَ زمانَيْه : زمان خلافته ،

---

(١) « الشكاة توضع موضع العيب والذم ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها *

أراد أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عنك عارها » ، أى ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل فى أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها » . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، وديوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وعيّرها الواشون أنى أحبّها *

والزمان الذى قبله ، لم تغيِّره الإمْرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تُحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميرا لم يستفدْ بالخلافة شرفا ، ولا اكتسبَ بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف "بالمنتظم" : تذاكروا عند أحمد خلافةَ أبى بكر وعلىّ وقالوا فأكثروا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتُم ! إنّ عليًّا لم تزِنْه الخلافة ؛ ولكنه زانها . وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتمّمَتْ نقصَه ، وأن عليًّا عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمَّم بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص فى نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أنْ يكونوا قليلى الصّفح ، بعيدى العفو ؛ لأن أكبادَهم واغرة ، وقلوبَهم ملتهبة ، والقوّة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام فى كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مِهْيار فى قوله (١) :

حَتَّى إذا دارَتْ رَحى بَغْيِهِمُ   عليهمُ وسبقَ السيفُ العَذَلْ
عاذوا بعفوِ ماجدٍ معوّدٍ   للعفو حَمَّالٍ لهمْ على العِلَلْ
فَنَجَّت البُقْيَا عليهم مَنْ نجا   وأكلَ الحديدُ مِنْهم مَنْ أكَلْ
أطَّتْ بهم أرحامُهمْ فلم يُطِعْ   ثائرةَ الغَيْظ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعًا جوادًا قطّ ؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعًا وكان أبخلَ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعًا وكان شحيحًا ؛ قال له عمر : لو وُلِّيتَها لظلْتَ تُلاطِمُ الناس

---

(١) من قصيدة فى ديوانه ٣ : ١٠٩ — ١١٦ ، يذكر فيها مناقب الإمام على وما منى به من أعدائه .

فى البطحاء على الصاع والمُدّ . وأراد علىّ عليه السلام أن يحجُر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزُّبيرَ فى أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أمَا إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجُر عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلّف من الأموال مالا يأتى عليه الحصْر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل فى الشحّ ، وسمى رَشْح الحجر لبخله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّجاعة والسخاء كيف هى ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

وربّما جاء⁽¹⁾ فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد ، والمعنى المكرّر ؛ والعُذْر فى ذلك أنّ روايات كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتفق الكلامُ المختارُ فى روايةٍ فنُقِل على وجهه ، ثم وُجِد بعد ذلك فى روايةٍ أخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل ؛ إمّا بزيادة مختارة ، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة ؛ فتقتضى الحالُ أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغيرةً على عقائل الكلام . وربّما بَعُدَ العهد أيضاً بما اختير أوّلا ؛ فأعيد بعضُه سهواً ونسيانا ، لا قَصْداً أو اعتماداً . ولا أدّعِى مع ذلك أننى أحِيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام ؛ حتى لا يشذّ عنّى منه شاذّ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أُبعِد أن يكون القاصرُ عنّى فوق الواقع إلىّ ، والحاصلُ فى رِبْقتى دونَ الخارج من يدىّ ؛ وما علىّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغةُ الوسع ، وعلى الله سبحانه نَهْجُ السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ ’’ نهج البلاغة ،، ؛ إذْ كان يَفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابَها ، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم ، وبُغية البليغ والزّاهد ، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التّوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلق ، ما هو بلال كلّ غُلّة ، وشفاء كلّ عِلّة ، وجلاء كلّ شبهة . ومن الله أستمدّ التوفيق والعِصْمة ، وأتنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأستعيذه من خطأ الجَنان قبل خطأ

---

(١) ب : « كان » .

اللّسَان ، ومِنْ زَلّة الـكَلِم قبل زلّة القَدَمِ ، وهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الشّـرْحُ :

فى أثناء هذا الاختيار : تضاعيفه ، واحدها ثِنْى كعِذْق وأعْذاق . والغَيْرة ، بالفتح والـكسر خطأ . وعقائل الكلام : كرائمه ، وعَقِيلة الحىّ : كريمتُه ، وكذلك عقيلة الذّوْد . والأقطار : الجوانب ، واحدها قُطْر . والنادّ : المنفرد ؛ ندّ البعير يَنِدّ . الرِّبقة : عُروة الحبل يجعل فيها رأس البهيمة . وقوله : « وعلى الله نَهج السبيل » ، أى إبانته وإيضاحه، نهجت له نهجاً . وأما اسْم الـكتاب فـ « نهج البلاغة » ، والنهج هنا ليس بمصدر ، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه . والطِّلاب ، بكسر الطاء : الطلب . والبُغية : ما يُبتغى . وبِلال كلّ غُلة ، بكسر الباء : ما يُبَلّ به الصدى ، ومنه قوله : انضحوا الرّحم ببِلالها ، أىّ صلوها بصلتها وندّوها⁽¹⁾ ، قال أوس :

كأنّى حَلَوْتُ الشّعر حين مدحتُه   صَفاصَخْرَةٍ صَمّاء يَبْسٍ بِلالُها⁽²⁾

وإنما استعاذ من خطأ الجَنان قبل خطأ اللسان ؛ لأنّ خطأ الجَنان أعظم وأفحشُ من خطأ اللسان ، ألا ترى أنّ اعتقاد الـكُفْر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفرُ الإنسان بلسانه وهو غير معتقد للـكفر بقلبه ؛ وإنما استعاذ من زَلّة الـكَلِم قبل زلّة القدَم ؛ لأنه أرَاد زلّة القدم الحقيقية ؛ ولا ريب أنّ زلّة القدم أهونُ وأسهل ؛ لأن العاثر يستقيل من عثرته ، وذَا الزّلة تَجِدُهُ ينهض من صَرْعته ؛ وأما الزّلة باللسان فقد لا تستقال عَثْرَتُها ، ولا يَنْهض صريعُها ، وطالما كانت لا شَوَى⁽³⁾ لها ، قال أبو تمام :

يَازَلّةً ماوُقِيتمْ شَرّ مَصْرَعِها   وزَلّة الرأى تُنْسِى زَلّةَ الْقَدَمِ⁽⁴⁾

---

(١) اللسان ـ بلل ، وفى الطبعة الأولى «أنضجوا» ، تحريف .

(٢) يهجو الحـكم بن مروان بن زنباع ، ديوانه ١٠٠ ، واللسان ١٣ : ٦٧ ، ١٨ : ٢١٠ ، وحلا الرجل الشىء يحلوه ، أعطاه إياه ، أى جعل الشعر حلوانا له مثل العطاء .

(٣) لاشوى لها ، أى لا برء لها ، قال الـكميت :

أجيبُوا رُقَى الآسِى النّطاسِىّ واحذروا   مطفئة الرّضْفِ الّتى لا شَوَى لهـــا

(٤) ديوانه ٣ : ١٩٤ ، وروايته : « ياعثرة ماوقيتم » .

باب

الخطب والأوامر

قال الرضيّ رحمه الله :

باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره

ويدخل فى ذلك المختار من كلامه الجارى مجرى الخطب ، فى المقامات المحضورة والمواقف المذكورة ، والخطوب الواردة

الشَّرْحُ :

المقامات : جمع مَقامة ، وقد تكون المقامة المجلس والنادى الذى يجتمع إليه الناس ، وقد يكونَ اسمًا للجماعة ، والأول أليق هاهنا بقوله : «المحضورة» ، أى التى قد حضرها الناس.

ومنذ الآن نبتدئ بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ونجعل ترجمة الفصل الذى نروم شرحه «الأصل» فإذا أنهيناه قلنا : «الشرح» ، فذكرنا ما عندنا فيه ، وبالله التوفيق .

* * *

(١)

الأَصْلُ :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِى لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ ٱلْقَائِلُونَ ، وَلَا يُحْصِى نَعْمَاءَهُ ٱلْعَادُّونَ ، وَلَا يُؤَدِّى حَقَّهُ ٱلْمُجْتَهِدُونَ ؛ ٱلَّذِى لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ ٱلْفِطَنِ . ٱلَّذِى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ، وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ . وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ ؛ فَطَرَ ٱلْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَنَشَرَ ٱلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ .

الشَّرحُ :

الّذى عليه أكثر الأدباء والمتكلّمين أنّ الحمد والمدح أخَوَان ، لا فَرْق بينهما ، تقول : حَمِدتُ زيداً على إنعامه ، ومدحته على إنعامه ، وحَمِدته على شجاعته ، ومَدَحْته على شجاعته ؛ فهما سواء، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان ، وفيما ليس من فعله ، كما ذكرناه من المثالين ، فأمّا الشكر فأخصُّ من المدح ، لأنه لا يكون إلّا على النعمة خاصَّة ؛ ولا يكون إلا صادراً من مُنعَم عليه ، فلا يجوز عندهم أن يقال : شكر زيد عمراً لنعمةٍ أنعمها عمرو على إنسان غير زيد .

إن قيل : الاستعمال خلاف ذلك ؛ لأنهم يقولون : حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معروفه عند زيد ، قيل : ذلك إنّما يصحّ إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجبَ سرور فلان ، فيكون شكرُ إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد ، وتكون لفظة « زيد » التى استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمّاها كناية لا حقيقة ، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السّرور المذكور ، ومدحاً باعتبار آخر ، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه .

ثم إنّ هؤلاء المتكلمين الّذين حكينا قولَهم يزعمون أنّ الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم ، فإن استعمِل شىء من ذلك فى الأفعال بالجوارح كان مجازاً . وبقىَ البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان ؛ فإنّ الاستعمال لا يساعدهم ، لأن أهلَ الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره ، أو شكره رياء وسمعة : إنّه قد مدحه وشكره وإن كان منافقاً عندهم . ونظير هذا الموضع الإيمان ، فإنّ أكثرَ المتكلّمين لا يُطلقونه على مجرد النطق اللسانىّ ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبىّ ، فأما

أن يقصروا به عليه كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الأشعرية(١) والإمامية(٢) ، أو تؤخذ معه أموراً أخرى وهى فعل الواجب وتجنّب القبيح كما هو مذهب المعتزلة(٣) ، ولا يخالف جمهورَ المتكلمين فى هذه المسألة إلا الكرّامية(٤) فإنّ المنافق عندهم يسمى مؤمناً ، ونَظروا إلى مجرد الظاهر ، فجعلوا النطق اللسانىّ وحده إيماناً .

والمِدْحة : هيئة المدح ، كالرّكْبة ، هيئة الركوب ، والجِلْسة هيئة الجلوس(٥) ؛ والمعنى مطروق جداً ، ومنه فى الكتاب العزيز كثير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾(٦) وفى الأثر النبوىّ : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك » ، وقال الكتّاب(٧) من ذلك ما يطول ذكره ، فمن جيّد ذلك قول بعضهم : الحمدُ لله على نِعمه التى منها إقدارُنا على الاجتهاد فى حَمْدها ، وإن عَجَزْنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

فما بَلَغَتْ كَفُّ امرئٍ متناولٍ   بها المجدَ إلا والّذى نِلْتَ أطولُ(٨)

---

(١) الأشعرية : هم أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى جماعة الصفاتية ، الذين يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية ، كالعلم والقدرة والحياة وغيرها . وانظر الكلام عليهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٨٥ ـ ٩٤ .

(٢) الإمامية : هم القائلون بإمامة على رضى الله عنه بعد النبي عليه السلام ، وهم فرق متعددة ذكرهم الشهرستانى فى الملل والنحل ١ : ١٤٤ ـ ١٥٤ .

(٣) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، انظر أيضا الكلام عليهم ، وتعداد فرقهم فى المصدر السابق ١ : ٤٩ ـ ٧٨ .

(٤) الكرامية : هم أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام ؛ عدهم الشهرستانى من جماعة الصفاتية ؛ لأنهم كانوا ممن يثبتون الصفات ؛ إلا أنهم انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه ، الملل والنحل ١ : ٩٩ ـ ١٠٤

(٥) ا : « كالركبة والجلسة هيئة الركوب والجلوس »

(٦) سورة إبراهيم ٣٤ ، النحل ١٨

(٧) ب : « فى الكتاب » ؛ وكلمة « فى » مقحمة .

(٨) ديوانها ١٨٤ ؛ والرواية هناك :

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ ٱمْرِئٍ مُتَنَاوِلٍ   بِهَا ٱلْمَجْدَ إِلَّا حَيْثُ مَا نِلْتَ أَطْوَلُ
وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً   وَلَا صِفَةً إِلَّا ٱلَّذِى فِيكَ أَفْضَلُ

ولا حَبَّرَ المثنُون فى القول مِدْحةً   وإن أطنَبُوا إلا وَمَا فِيكَ أفضلُ

* * *

ومن مستحسَنِ ماوقفتُ عليه من تعظيم البارئ عزّ جلالُه بلفظ[1] « الحمد » قولُ بعض الفضلاء فى خطبة أرجوزة علمية :

الحمــدُ لله بِقَــدْرِ اللهِ   لا قدرِ وُسْعِ العبدِ ذِى التَّنَاهِى
والحمــدُ لِلهِ الّذِى برهانُهُ   أن ليسَ شأنٌ ليس فيه شأنُهُ
والحمد للهِ الذى مَنْ يُنْكِرُهْ   فإنمــا يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهْ

وأما قوله : « الذى لا يدركه » ، فيريد أنّ هِمَم النُّظار وأصحاب الفكر وإن عَلَتْ وبَعُدت فإنّها لا تدرِكه تعالى ، ولا تحيطُ به . وهذا حقّ ، لأنّ كلّ متصوَّر فلا بُدّ أن يكون محسوساً ، أو متخيَّلا ، أو موجوداً من فطرة النَّفْس ، والاستقراء يَشْهد بذلك . مثال المحسوس السّواد والحموضة ؛ مثال المتخيَّل إنسان يطير ، أو بحر من دمٍ . مثال الموجود من فطرة النّفس تصوّر الألم واللذة . ولمّا كان البارئ سبحانه خارجاً عن هذا أجمع[2] لم يكن متصوراً .

فأما قوله : « الذى ليس لصفته حد محدود » ، فإنه يعنى بصفته هاهنا كُنْهَه وحقيقته ، يقول : ليس لكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة ؛ لأنه ليس بمركّب ، وكلّ محدود مركب .

ثم قال : « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك[3] بالرسم ؛ كما تُدْرَكُ الأشياء برسومها ؛ وهو أن تعرف باللازم من لوازمها ، وصفة من صفاتها .

ثم قال : « ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » ، فيه ، إشارة إلى الردّ على من قال : إنّا

---

(١) ا : « بلفظة » .
(٢) ب : « جميعا » .
(٣) ب : « لايدرك » ، من غير واو .

نعلم كنهَ البارئ سبحانه لا فى هذه الدنيا بل فى الآخرة ؛ فإن القائلين برؤيته فى الآخرة يقولون : إنّا نعرف حينئذ كُنْهَه ، فهو عليه السلام ردّ قولهم ، وقال : إنه لا وقتَ أبداً على الإطلاق تُعرَف فيه حقيقته وكنهه ، لا الآن ولا بعد الآن ؛ وهو الحقّ ، لأنا لو رأيناه فى الآخرة وعرفنا كنهَه لتشخّص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يُتصوّر أن يتشخّص هذا التشخص إلا ما يُشار إلى جهته ، ولا جهةَ له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضع فى كتابى المعروف بـ « زيادات النّقْضين⁽¹⁾ » ، وبينت أنّ الرؤية المنزهة عن الكيفية التى يزعمها أصحاب الأشعرىّ لا بدّ فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجرى مجرى العلم ؛ لأن العلم لا يُشخِّص المعلوم ، والرؤية تشخّص المرئىّ ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخَّص ذا جهة .

واعلم أن نفىَ الإحاطة مذكور فى الكتاب العزيز فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾⁽²⁾ ، ومنها قوله : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾⁽³⁾ ، وقال بعض الصحابة : العجز عن دَرْك الإدراك إدراك ؛ وقد غلا محمد بن هانئ فقال فى ممدوحه المعزّ أبى تميم معد بن المنصور العلوى :

أَتْبَعْتُه فِكَرِى حتى إذا بلغتْ   غاياتِها بين تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيد⁽⁴⁾
رَأَيْتُ موضعَ بُرْهانٍ يلُوحُ وَمَا   رأيتُ مَوْضعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ⁽⁵⁾

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ، ولا يليق بالمخلوق .

فأما قوله : « فطر الخلائق ... » إلى آخر الفصل ؛ فهو تقسيم مشتقٌّ من الكتاب العزيز ، فقوله : « فَطَر الخلائق بقدرته » من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

---

(١) كذا فى ح ، وفى ب : « النقيضين » وفى ا : « زيادات التقصير » ، ولم أعثر له على ذكر له فى كتب التراجم والفهارس .

(٢) سورة طه ١١٠

(٣) سورة الملك ٤

(٤) ديوانه ٢١٠ .

(٥) الديوان : « برهان يبين » .

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾(١) ، وقوله : « ونَشَر الرياح برحمته » من قوله : ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾(٢) .

وقوله : « ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه » ، من قوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾(٣) . والمَيَدان : التحرّك والتموّج .

* * *

فأما القطب الرّاوندىّ رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبَر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمَد الله ، وذلك من ظاهر كلامه ، ثم أمرَ غيره من فحوى كلامه أن يحمَد الله ، وأخبرَ عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنّه يجب على المكلّفين ثبوتُهم عليه ما بقُوا ؛ ولو قال : « أحمد الله » لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمدُ أعمّ من الشكر ؛ والله أخصّ من الإله . قال : فأما قوله : « الذى لا يبلغ مدحته القائلون » ؛ فإنه أظهرَ العجز عن القيام بواجب مدائحه ، فكيف بمحامده ! والمعنى أنّ الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذى حَقّت العبادةُ له فى الأزَل ، واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النِّعَم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنّه ليس فى فحوى كلامه أنه أمرَ غيرَه أن يحمد الله ، وليس يُفهم من قول بعض رعيّة الملِك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتهم عليه ما بقُوا .

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندىّ ! فإنْ زعم أنّ العقل يقتضى ذلك فحق ؛ ولكن

---

(١) سورة الشعراء ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف ٥٧ ، وهى قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو (الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٢٢٩).

(٣) سورة النبأ ٧

ليس مستفاداً من الكلام ، وهو أنّه (١) قال : إن ذلك موجود فى الكلام .

فأما قوله : لو كان قال : أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك ؛ فإنه لافرق فى انتفاء دلالة « أحمد الله » على ذلك ودلالة « الحمد لله » ، وهما سواء فى أنهما لا يدلاّن على شىء من أحوال غير القائل ، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه فى حقّ غير القائل .

وأما قوله : الله أخصّ من الإله، فإن أراد فى أصل اللغة ؛ فلا فرق، بل الله هو الإله وفُخِّم بعد حذف الهمزة ، هذا قول كافة البصريين ، وإن أراد أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يُطلِقون على الأصنام لفظة « الآلهة » ، ولا يسمُّونها « الله » فحقّ، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم ، لا إلى أصل (٢) اللغة والاشتقاق ؛ ألا ترى أنّ الدابة فى العرف لا تطلق على القملة ، وإن كانت فى أصل اللغة دابة !

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده ! فكلام يقتضى أنّ المدح غير الحمد ، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإنّ الكلامَ لا يقتضى العجز عن القيام بالواجب، لا من الممادح ولا من المحامد؛ ولا فيه تعرّض لذكر الوجوب، وإنما نفى أن يبلغ القائلون مدحته ، لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذى حقت العبادة له فى الأزل واستحقّها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النعم ؛ فكلام ظاهره متناقض ، لأنه إذا كان إنما استحقّها حين خلق الخلق ، فكيف يقال : إنه استحقّها فى الأزل ! وهل يكون فى الأزل مخلوق ليستحقّ عليه العبادة !

واعلم أنّ المتكلمين لا يُطلقون على البارئ سبحانه أنه معبود فى الأزل أو مستحق للعبادة فى الأزل إلا بالقوة لا بالفعل (٣) ، لأنّه ليس فى الأزل مكلّف يعبده تعالى ، ولا أنعم على أحد فى الأزل بنعمة يستحق بها العبادة ، حتى إنهم قالوا فى الأثر الوارد : « ياقديم

---

(١) ب : « وهو إنما » .

(٢) ساقطة من ب .

(٣) ا : « ولا بالفعل » .

الإحسان » : إن معناه أنّ إحسانه متقادِم العهد، لا أنه قديم حقيقة ، كما جاء فى الـكتا ،
العزيز : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾(1)، أى الذى قد توالت عليه الأزمنة المتطاو .

* * *

ثم (2) قال الراوندىّ : والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل ، والألف واللام
« القائلون » لتعريف الجنس ، كمثلهما فى الحمد . والبلوغ : المشارَفة ، يقال: بلغتُ المكا
إذا أشرفتَ عليه ؛ وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فكيف توصل إليه بالفعل
والإله : مصدر بمعنى المألوه .

ولقائل أن يقول: الذى سمعناه أنّ التعظيم يكون بالقول والفعل وبترك القول والفع ،
قالوا : فمن قال لغيره: ياعالم فقد عظّمه، ومَنْ قام لغيره فقد عظّمه، ومن ترك مدّ رجله بحض ة
غيره فقد عظّمه، ومَنْ كفّ غَرْب لسانه عن غيره فقد عظّمه . وكذلك الاستخفاف والإه ة
تكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ماقدمنا ذكره فى التعظيم .

فأما الحمدُ والمدح فلا وجه لكونهما بالفعل ، وأما قوله : إنّ اللام فى « القائلون »
لتعريف الجنس ؛ كما أنها فى الحمد كذلك فعجيب ؛ لأنّها للاستغراق فى « القائلون »
لا شبهة فى ذلك كالمؤمنين والمشركين ، ولا يتمّ المعنى إلا به ؛ لأنّه للمبالغة ، بل الحقّ المحـ
أنه لا يبلغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم. وجَعْل اللاّم للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أر د
بالجنس المعهود ، وإن أرادَ الجنسيَّة العامة، فلا نزاع بيننا وبينه ، إلا أن قوله : « كما أ
فى الحمد كذلك » يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح ؛ لأنها ليست فى ا د
للاستغراق ، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أنْ يُحمَد رسول الله صلى الله ع ه
وآله ولا غيره من الناس ، وهذا باطل .

---

(1) سورة يس ٣٩
(2) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرّف بلام الجنس ، والأصل فى مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة ، ولا يفيد الاستغراق ، فإن جاء منه شىء للاستغراق ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾(١) ، وأهلك الناسَ الدِّرهمُ والدينار ، فمجاز ، والحقيقة ماذكرناه.

فأما قوله : البلوغ المشارفة ؛ يقال : بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه . فالأجود أن يقول : قالوا : بلغتُ المكان ؛ إذا شارفتَه ؛ وبين قولنا : « شارفته » ، و « أشرفت عليه » فرق.

وأما قوله : « وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل ! » ، فكلام مبنىّ على أنّ الحمد قد يكون بالفعل ، وهو خلاف مايقوله أرباب هذه الصناعة .

وقوله : والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف ؛ أمّا أوّلا ، فإنه ليس بمصدر ؛ بل هو اسم ، كوِجَار للضبع وسِرار للشهر(٢) ؛ وهو اسم جنس كالرّجل والفرس ، يقع على كل معبود بحقّ أو باطل ، ثم غلَب على المعبود بالحقّ ، كالنجم اسم لكلّ كوكب ثم غلب على الثريا ، والسّنَة : اسم لكل عام ثم غلب على عام القَحْط . وأظنه رحمه الله لما رآه « فِعالا » ظن أنه مصدر كالحِصاد والجِذاذ وغيرهما . وأما ثانياً ؛ فلأنّ المألوه صيغة « مفعول » وليست صيغة مصدر إلا فى ألفاظ نادرة ، كقولهم : « ليس له معقول ولا مجلود » ، ولم يسمع « مألوه » فى اللغة ، لأنه قد جاء : أَلِهَ الرجل إذا دهِش وتحيّر ؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه « مفعول » .

* * *

ثم قال الراوندىّ : وفى قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ، بلفظ الإفراد ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يحصى نعماءه العادّون » بلفظ الجمع سرٌّ عجيب ، لأنه تعالى أراد أنّ نعمةً واحدة من نِعَمه لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة ، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أصول نعمه لا تحصى لكثرتها ، فكيف تعدّ

---

(١) سورة العصر ١

(٢) السرار : بالفتح والكسر : آخر ليلة من الشهر

وجوه فروع نعمائه ! وكذلك فى كون الآية واردة بلفظة « إن » الشرطية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر ، تحته لطيفة عجيبة ؛ لأنّه سبحانه يريد أنكم إنْ أردتم أن تعدُّوا نِعمه لم تقدروا على حصرها ، وعلىّ عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر ، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نِعمه تعالى .

ولقائل أن يقول : الصحيح أنّ المفهوم من قوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ »الجنس؛ كما يقول القائل : أنا لا أجحد إحسانك إلىّ ، وامتنانك علىّ ، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً ، بل جنس الإحسان .

وما ذكره من الفرْق بين كلام البارئ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بيِّن ، فإنه لو قال تعالى : وإن تعدوا نعم الله ، وقال عليه السلام : ولا يحصى نعمته العادّون ، لكان كلّ واحد منهما سادًّا مسدّ الآخر .

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة ؛ لأنه لو انعكس الأمر؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام علىّ عليه السلام بصيغة الشرط ، لكان مناسباً أيضاً ، حسب مناسبته، والحالُ بعكس ذلك ، اللهم إلاأنْ تكون قرينة السجعة من كلام علىّ عليه السلام تنبو عن لفظة الشرط ، وإلا فمتى حذفتَ القرينة السجعيّةَ عن وهمك لم تجد فرقاً ؛ونحن نعوذُ بالله من التعسّف والتّعجرُف (١) الداعى إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة .

* * *

ثم قال الراوندىّ : إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الذى لا يَعُدّ نعمَه الحاسبون » لم تحصل المبالغةُ التى أرادها بعبارته ؛ لأنّ اشتقاق الحساب من الحِسبان ؛ وهو الظن . قال : وأمّا اشتقاق العدد فمن العِدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّة ، والإحصاء : الإطاقة ؛ أحصيته ، أى أطقته ؛ فتقدير الكلام : لا يطيق عدّ نعمائه العادّون ؛ومعنى ذلك

---

(١) التعجرف : ركوب الأمر من غير ترو .

أنّ مدائحه تعالى لا يُشرِف على ذكرها الأنبياء والمرسلون ؛ لأنها أكثرُ من أن تعدّها الملائكةُ المقرّبون ، والكرام الكاتبون .

ولقائل أن يقول : أمّا الحساب فليس مشتقا من الحِسبان بمعنى الظنّ ؛ كما توهّمه ، بل هو أصل برأسه ؛ ألا ترى أنّ أحدَهما حَسِبت أحْسَب ، والآخر حَسِبْت أحْسُب وأحسَب بالفتح والضم ؛ وهو من الألفاظ الأربعة التى جاءت شاذة . وأيضاً فإن « حَسِبت » بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لايجوز الاقتصارُ على أحدهما ، و « حَسِبت » من العدد يتعدى إلى مفعول واحد . ثم يقال له : وَهَبْ أنّ « الحاسبين » لو قالها مشتقةً من الظنّ لم تحصل المبالغة ، بل المبالغة كادت تكون أكثر ؛ لأن النعم التى لا يحصرها الظانّ بظنونه أكثر من النعم التى لا يعدّها العالِم بعلومه .

وأمّا قوله : العدَد مشتق من العِدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّةٌ ، فليس كذلك ، بل هما أصلان . وأيضاً لو كان أحدهما مشتقا من الآخر لوجب أنْ يكون العِدّ مشتقا من العدد ؛ لأن المصادر هى الأصول التى يقع الاشتقاق منها ؛ سواء أكان المشتق فعلا أو اسما⁽¹⁾ ، ألا تراهم قالوا فى كتب الاشتقاق : إنّ الضَّرْب : الرجل الخفيف ؛ مشتق من الضَّرْب ، أى السير⁽²⁾ فى الأرض للابتغاء ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾⁽³⁾ ، فجعل الاسم منقولا ومشتقًّا من المصدر .

وأمّا الإحصاء فهو الحصر والعَدّ وليس هو الإطاقة كما ذكَر ؛ لا يقال : أحصيت الحجر ، أى أطقت حمله .

وأمّا ما قال إنه معنى الكلمة فطريف ؛ لأنّه عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا

---

(١) كذا عطف بأو بعد همزة التسوية ؛ قال ابن هشام : وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا : سواء أكان كذا أو كذا ، والصواب العطف بأم . المغنى ١ : ٣٩ .

(٢) كذا فى ج .

(٣) سورة البقرة ٢٧٣ .

الملائكة ، لا مطابقة ولا تضمّناً ولا التزاماً ، وأىّ حاجة إلى هذا التقدير الطريف الذى لا يشعر الكلام به ! ومراده عليه السلام ؛ وهو أنّ نعمه جلّتْ لكثرتها أنْ يُحْصيها عادّ ما ، هو نفىٌ لمطلق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص .

* * *

قال الراوندىّ : فأمّا قوله : « لا يدرِكه بُعْد الهمم » ؛ فالإدراك هو الرؤية والنَّيل والإصابة ، ومعنى الكلام : الحمد لله الذى ليس بجسم ولا عَرَض ؛ إذ لو كان أحدَهما لرآه الراءون إذا أصابوه ؛ وإنما خَصّ « بُعْد الهمم » بإسناد نفى الإدراك « وغَوْص الفِطَن » بإسناد نفى النّيْل لغرض صحيح ؛ وذلك أن الثّنَويّة(١) يقولون بقدم النور والظلمة ، ويثبتون النّور جهة العلوّ والظلمة جهة السُّفْل ، ويقولون : إنّ العالم ممتزج منهما ، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه : إنّ النور والظلمة جسمان ، والأجسام محدَثة ، والبارئ تعالى قديم .

ولقائل أن يقول : إنه لم يَجْرِ للرؤية ذكر فى الكلام ؛ لأنه عليه السلام لم يقل : الذى لا تدركه العيون ولا الحواسّ ، وإنما قال : « لا يدركه بُعْدُ الهمم » ، وهذا يدلّ على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته .

وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية ، لكان لمحاجّ أن يحاجّه فيقول له : هبْ أنّ الأمر كما تزعم ، ألست تريدُ بيانَ الأمر الذى لأجله خصّص بُعْد الهمم بنفى الإدراك ، وخَصص غَوْصَ الفِطن بنفى النَّيل ! وقلت : إنما قَسّمَ هذا التقسيم لغرض صحيح ، وما رأيناك أوضحت هذا الغرض ؛ وإنما حكيت مذهب الثَّنَويّة ، وليس يدلُّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعْد الهمم بنفى الإدراك دون نفى النَّيل ، ولا يوجب تخصيص غَوْص الفطن

---

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . الشهرستانى ١ : ٢٢٤ .

بنفى النَّيْل دون نفى الإدراك، وأكثر مافى حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلٰهَىِ العالَم: النور والظلمة ، وهما جسمان ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول : لو كان صانع العالم جسما لَرُئىَ ، وحيث لم يُرَ لم يكن جسما ؛ أىّ شىء فى هذا مما يدلّ على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذى زعمتَ أنَّه إنما خصّصه وقسّمه لغرض صحيح !

* * *

ثم[1] قال الراوندىّ : ويجوز أن يقال: البعدُ والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل، كقولهم : فلان عَدْل ، أى عادل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾[2] ، أى غائرا ، فيكون المعنى : لا يدركه العالم البعيد الهمم فكيف الجاهل ! ويكون المقصد بذلك الردّ على من قال : إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربَّه ليلة الإسراء؛ وإن يونس عليه السلام رأى ربَّه ليلة هبوطه إلى قعر البحر .

ولقائل أن يقول : إن المصدر الذى جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة ، لا يجوز القياس عليها ، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل ؛ لأنه مصدر مضاف ، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل. ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحْمَل كلامه عليه السلام على الرّدّ على من أثبت أن البارئ سبحانه مرئىّ ؛ لأنه ليس فى الكلام نفى الرؤية أصلا، وإنما غَرَضُ الكلام نفى معقوليّته سبحانه، وإن الأفكار والأنظار لا تحيط بكنهه ، ولا تتعقّل خصوصية ذاته ، جَلَّتْ عظمته !

* * *

ثم قال الراوندىّ : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود » ، فالوقت: تحرّك الفلك ودَوَرانه على وجه، والأجل:

---

[1] (١) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

[2] (٢) سورة الملك ٣٠ .

مدّة الشيء ؛ ومعنى الكلام أنّ شكرى لله تعالى متجدّد عند تجدّد كلّ ساعة ، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التى قبلها وهى الثانية ، كما أبدل الثانية من الأولى .

ولقائل أن يقول : الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفَلَك ، لا نفس حركته ، والأجل ليس مطلق الوقت ، ألا تراهم يقولون: جئتك وقتَ العصر ، ولا يقولون : أجَلَ العصر ! والأجَل عندهم هو الوقت الذى يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطُل فيه، مأخوذ من أجَل الدَّيْن ، وهو الوقت الذى يحلّ قضاؤه فيه .

فأما قوله : ومعنى الكلام أنّ شكرى متجدّد لله تعالى فى كلّ وقت ، ففاسد ، ولا ذِكْرَ فى هذه الألفاظ للشكر، ولا أعلم من أين خطر هذا للراوندىّ ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط ، لأنها صفات ، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى ، كما تقول: مررت بزيد العالم ، الظريف ، الشاعر (١) .

* * *

قال الراوندىّ: فأما قوله: « الذى ليس لصفته حدّ »، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة ، كما يثبتها الأشعرية ؛ لكنهم يجعلونه على حال ، أو يجعلونه متميزاً بذاته ؛ فأمير المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه ــ وإن أثبت له صفة ــ إلا أنّ من له أنسٌ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة. وقد سألنى سائل فقال: هاهنا كلمتان ؛ إحداهما كفر، والأخرى ليست بكفر؛ وهما : لله تعالى شريك غير بصير. ليس شريك الله تعالى بصيراً ، فأيهما كلمة الكفر؟ فقلت له : القضية الثانية؛ وهى « ليس شريك الله تعالى بصيراً » كُفْر؛ لأنها تتضمّن إثباتَ الشريك، وأمّا الكلمة الأخرى ، فيكون معناها لله شريك غير بصير ؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة .

---

(١) من نسخة بحاشية ج : « الفاضل » .

ثم أخذ فى كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى ، ويُبطِل مذهب الأشعريّة بما يقوله المتكلمون من أصحابنا ، وأخذ فى توحيد الصفة : لِمَ جاء وكيف يدلّ نفى الصفة الواحدة على نفى مطلق الصفات ؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام فى الصفة الخامسة التى أثبتها أبو هاشم(١) ؛ ثم خرج إلى مذهب أبى الحسين(٢) ، وأطال جدًّا فيما لا حاجة إليه(٣) .

ولقائل أن يقول : الأمر أسهلُ مما تظنّ ، فإنا قد بيّنّا أنّ مراده نفى الإحاطة بكنهه ، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف ، فيكون المعنى : لا ينتهى الواصف إلى حدّ إلّا وهو قاصر عن النعت ، لجلالته وعظمته ، جلّت قدرته .

فأما القضيّتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما ، وهو أن القضيّة الأولى كفر ، لأنها صريحة فى إثبات الشريك ، والثانية لا تقتضى ذلك ، لأنه قد ينفى قول الشريك بصيراً على أحد وجهين ؛ إما لأن هناك شريكا لكنّه غير بصير ؛ لأن الشريك غير موجود ، وإذا لم يكن موجودا لم يكن بصيرا ؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثانى مرادا لم يكن كفرا ، وصار كالأثر المنقول : « كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته » ؛ أى لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى ، (٤ وليس أنه كان ٤) المراد فى مجلسه هفوات إلّا أنها لم تؤثر .

* * *

قال الراوندىّ : فإن قيل : تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فَطَر الخليقة قبل خَلْق السموات والأرض .

---

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء

(٢) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء

(٣) ب : « فيه » (٤ ـ ٤) ب : « وليس المراد أنه قد كانت » .

قلنا : قد اختُلف فى ذلك فقيل : أوّل مايحسن منه تعالى خلقه ذاتا حيّة ، يخلق فيها شهوةً لمدرك تدركه فتلتذّ به ، ولهذا قيل : تقديم خَلْق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح . وقيل : لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا عُلم أنّ علم بعض المكلّفين فيما بعد بخَلْقه قَبْلَه لطف له .

ولقائل أن يقول : أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس فى الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى فطر خَلْقه قبل خَلْق السموات والأرض . وإنّما قد يُوهم تأمّل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك ، لما قال : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ؛ على أنا إذا تأملنا لم نجد فى كلامه عليه السلام مايدلّ على تقديم خَلْق الحيوان ؛ لأنه قبل أنْ يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فَطَر الخلائق . وتارة قال : « أنشأ الخلق » . ودلّ كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح ، وأنه خلق الأرض وهى مضطربة فأرساها بالجبال ؛ كلّ هذا يدلّ عليه كلامه ، وهو مقدّم فى كلامه على فَتْق الهواء والفضاء وخلق السماء ، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيره فلم يتعرض كلامه عليه السلام له ، فلا معنى لجواب الراوندىّ وذِكْره مايذكره المتكلّمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا !

* * *

الأصْلُ :

أَوَّلُ ٱلدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ ٱلتَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ ٱلتَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ ٱلْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَكَمالُ ٱلْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ ٱلصِّفَاتِ عَنْهُ ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ ٱلْمَوْصُوفِ ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ ٱلصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ ٱللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ ، وَمَن قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ ،

وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ ، ومن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « فِيمَ » فقدْ ضَمَّنَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « عَلَامَ » فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ .

* * *

الشرح :

إنما قال عليه السلام : « أول الدّين معرفته » ، لأنّ التقليد باطل ، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة . ويمكن أن يقول قائل : ألستم تقولون فى علم الكلام : أول الواجبات النظرُ فى طريق معرفة الله تعالى ؛ وتارة تقولون : القصد إلى النظر ؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام ؟ !

وجوابه أن النّظَر والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعَرَض لا بالذات ؛ لأنهما وُصْلة إلى المعرفة ، والمعرفة هى المقصود بالوجوب ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد : أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفةُ البارئ سبحانه ؛ فلا تناقضَ بين كلامه وبين آراء المتكلمين .

وأما قوله : « وكمال معرفته التصديق به » ؛ فلأنّ معرفته قد تكون ناقصة ، وقد تكون غير ناقصة ، فالمعرفة الناقصة هى المعرفة بأن للعالَم صانعاً غيرَ العالم ؛ وذلك باعتبار أن الممكنَ لا بدّ له من مؤثر ، فمن علم هذا فقط عَلِم الله تعالى ولكنّ علماً ناقصاً ، وأمّا المعرفة التى ليست ناقصة فأنْ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات ، والخارجُ عن كلّ الممكنات ليس بممكن ، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود ؛ فمن عَلِم أنّ للعالم مؤثراً واجبَ الوجود فقد عرفه عرفاناً أكملَ من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط ؛ وهذا الأمر الزائد هو المكنىّ عنه بالتصديق به ؛ لأن أخصّ ما يمتاز به البارئ عن مخلوقاته هو وجوب الوجود .

وأما⁽¹⁾ قولُه عليه السلام : « وكمال التصديق به توحيدُه » ، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدِّق بالبارئ سبحانه ، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً ، وقد يكون غير ناقص ؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط ، والتصديق الذى هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه ، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين ؛ لأن فرض واجبَىِ الوجود يُفْضِى إلى عموم وجوبِ الوجود لهما وامتياز كلٍّ واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك ؛ وذلك يُفضِى إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبَىِ الوجود ؛ فمن علم البارئ سبحانه واحداً ، أى لا واجب الوجود إلا هو يكون أكملَ تصديقاً ممن لم يعلم ذلك ؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط .

وأما قوله : « وكمال توحيده الإخلاصُ له » ؛ فالمراد بالإخلاص له ها هنا هو نَفْىُ الجسميّة والعَرَضيّة ولوازمهما عنه ؛ لأن الجسم مركب ، وكل مركب ممكِن ، وواجب الوجود ليس بممكن . وأيضاً فكل عَرَضٍ مفتقِر ، وواجب الوجود غير مفتقر ؛ فواجب الوجود ليس بعَرَض . وأيضاً فكل جِرْم محدث ، وواجب الوجود ليس بمحدَث ، فواجب⁽²⁾ الوجود ليس بجرم . وأيضاً فكل حاصل فى الجهة ، إما جِرْم أو عرَض ، وواجب الوجود ليس بجِرْم ولا عرَض ، فلا يكون حاصلا فى جهة ؛ فمن عرف وحدانية البارئ ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً ، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص فى عِرْفانه جلّ اسمه ، ومعرفته تكون أتمّ وأكمل .

وأما قوله : « وكمالُ الإخلاص له نَفْىُ الصفات عنه » ، فهو تصريحٌ بالتوحيد الذى تذهب إليه المعتزلة ، وهو نفىُ المعانى القديمة⁽³⁾ التى تُثْبِتها الأشعرية وغيرهم ، قال عليه السلام :

---

(1) ب : « فأما » .

(2) ب : « وواجب » .

(3) ا : « التقدمية » .

« لشهادة كلِّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة » ؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينه،قالوا : لو كان عالماً بمعنى قديم؛ لـكان ذلك المعنى إمّاهو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره . والأوّل باطل ؛ لأنا نعقل ذاته قبل أن نعقل أو نتصوّر له علما ؛ والمتصوَّر مُغايِر لما ليس بمتصوَّر . والثالث باطل أيضاً ، لأنّ إثبات شيئين : أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره ، معلوم فسادُه ببديهة العقل،فتعيّن القسم الثانى وهو مُحال ، أما أوّلًا فبإجماع أهلِ الملّة ،وأمّا ثانيا فلما سبق من أنّوجوب الوجود لا يجوز أنْ يكون لشيئين؛ فإذا عرفْتَهذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاوقد لا يكون ، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده ، وأنه واحد ليس بجسمولا عَرَض ، ولا (١) يصحّعليهما يصحّ على الأجسام والأعراض . والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لاتقوم به المعانى القديمة، مضافا إلى تلك العلوم السابقة ؛ وحينئذ تتمّ المعرفة وتـكمل .

ثم أكّد أميرُالمؤمنين عليه السلام هذهالإشارات الإلٰهية بقوله : « فمَنْ وَصَفَ الله سبحانه فقد قرَنه » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ الموصوفَ يقارن الصفة ، والصفة تقارنه .

قال : « ومن قرنه فقد ثنّاه » ، وهـذا حقّ ، لأنه قد أثبت قديمين ، وذلك محض التثنية .

قال : «ومن ثنّاه فقد جزّأه» ؛ وهذا حقّ،لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزئة ، كإطلاق لفظ « الأسود » على الذات التى حلّها سواد .

قال : « ومن جزّأه فقد جهله » ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشىء على خلاف ماهو به .

قال : « ومن أشار إليه فقدحدّه » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ كلّ مشارٍ إليه فهو محدود؛

---

(١) ب : « فلا يصح » .

لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون فى جهة مخصوصة ، وكلّ ماهو فى جهة فله حدّ وحدود ؛ أى أقطار وأطراف .

قال : « ومَنْ حدّه فقد عدّه » ، أى جعله من الأشياء المحدثة ، وهذا حقّ ، لأنّ كلّ محدود معدود فى الذوات المحدَثة .

قال : « ومن قال : فِيمَ ؟ فقد ضمّنه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه فى شىء فقد جعله إما جسماً مستتِراً فى مكان ، أو عرَضاً سارياً فى محلّ ، والمكان متضمّن للتمكّن ، والمحلّ متضمّن للعرَض .

قال : « ومن قال : علامَ ؟ فقد أخْلَى منه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه تعالى على العرش ، أو على الكرسىّ ، فقد أخْلى منه غير ذلك الموضع . وأصحاب تلك المقالة يمتنعون من ذلك ؛ ومرادُه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم ؛ وإلّا فلو قالوا[1] : هب أنّا قد أخْلَيْنا منه غير ذلك الموضع ؛ أىّ محذور يلزمنا ؟ فإذا قيل لهم : لو خلا منه موضع دون موضع لكان جسماً ، ولزم حدوثه ، قالوا : لزوم الحدوث والجسمية إنّما هو من حصوله فى الجهة لا من خلوّ بعض الجهات عنه ؛ وأنتم إنما احتججتُم علينا بمجرّد خلوّ بعض الجهات منه ، فظهر أنّ توجيه الكلام عليهم إنّما هو إلزام لهم ، لا استدلال على فساد قولهم .

* * *

فأمّا القطب الراوندىّ فإنه قال فى معنى قوله : « نفْىُ الصفات عنه » : أى صفات المخلوقين ، قال : لأنه تعالى عالم قادر ، وله بذلك صفات ، فكيف يجوز أن يقال : لا صفة له ! وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفة أوّلا ، حيث قال : « الذى ليس لصفته حدّ محدود » ، فوجب أنْ يُحمل كلامه على مايتنزّه عن المناقضة .

---

[1] ب : « قال » .

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ فى صفة الملائكة : « إنهم لا يَصِفون الله تعالى بصفات المصنوعين » ، فوجب أن يحمل قوله الآن : « وكمالُ توحيده نفى الصفات عنه » على صفات المخلوقين ، حملاً للمطلق على المقيّد .

ولقائل أن يقول : لو أراد نفىَ صفات المخلوقين عنه لم يستدلّ على ذلك بدليل الغيريّة ، وهو قوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين ، بل كان ينبغى أن يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعَرَضيّة ، والبارئ ليس بجسم ولا عَرَض ، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعانى القديمة ، وهى المسماة بالصفات فى الاصطلاح القديم[1] ، ولهذا يسمّى أصحاب المعانى بالصفاتية . فأما كونه قادراً وعالما فأصحابها أصحاب الأحوال ، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله : « ليس لصفته حدّ محدود » ، أى لكنهه وحقيقته ، وأما كون الملائكة لا تصف البارئ بصفات المصنوعين فلا يقتضى أن يُحْمَلَ كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين ، لأجل تقييد ذلك فى ذكر الملائكة ، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيّد ! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضى ألا يكون المراد صفات المخلوقين .

وقد تكلّف الراونديّ لتطبيق تعليله عليه السلام نفى الصفات عنه بقوله : « لشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف » ، بكلام عجيب ؛ وأنا أحكى ألفاظَه لتعلم ؛ قال : معنى هذا التعليل أنّ الفعل فى الشاهد لا يشابه الفاعل ، والفاعل غيرُ الفعل ؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل ، كالضّارب والفَهِم ؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل ، والموصوف بهما فاعل ، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً ؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدَثة كانت معدومة ثم وجدت ، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبّرها .

---

[1] ساقطة من ج .

انقضى كلامه . وحكايته تُغْـنِي عن الرّد عليه .

ثم قال : « الأوّل » على وزن «أفعل» يستوى فيه المذكر والمؤنث ، إذا لم يكن فيه الألف واللام ، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث « الأُولى » .

وهذا غير صحيح ، لأنه يقال : كلّمت فُضْلاهنّ ، وليس فيه[1] ألف ولام ، وكان ينبغى أن يقول إذا كان منكرا مصحوبا بمن استوى المذكر والمؤنث فى لفظ « أفعل » ، تقول : زيد أفضل من عمرو ، وهند أحسن من دعد .

* * *

الأصْـلُ :

كائنٌ لا عَنْ حَدَثٍ ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ ، مَعَ كلِّ شَىءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ ، وَغَيْرُ كلِّ شَىءٍ لا بِمُزَايلَةٍ ، فَاعِلٌ لا بِمَعْـنَى ٱلحَرَكاتِ وَٱلآلَةِ ، بَصِيرٌ ؛ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيهِ مِنْ خَلْقِهِ ، مُتَوَحِّدٌ ؛ إِذْ لاسَكَنَ يَستَأْنِسُ بِهِ ، وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ . أَنْشَأَ ٱلخَلْقَ إِنْشَاءً ، وَٱبْتَدَأَهُ ٱبْتِدَاءً ، بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا ، ولَا تَجْرِبَةٍ ٱسْتَفَادَهَا ، وَلَا حَرَكةٍ أَحْدَثَهَا ، ولا هَمَامَةِ نَفْسٍ ٱضْطرَبَ فِيها . أَحَالَ ٱلْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِها ، ولَاءَمَ بيْنَ مُخْتَلِفَاتِها ، وَغَرَّزَ غَرَائِزَها ، وَأَلْزَمَها أَشْبَاحَها ؛ عَالِماً بِهَا قبلَ ٱبْتِدَائِهَا ، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَٱنْتِهائِهَا ، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله عليه السلام : « كائن » ، وإن كان فى الاصطلاح العرفىّ مقولا على ما ينزّه البارئُ عنه ؛ فمراده[2] به المفهوم اللغوىّ ؛ وهو اسم فاعل من « كان » ، بمعنى وجد ، كأنّه قال : موجود غير محدَث .

---

(١) ب : « فيهن » .

(٢) ا : « فراد » .

فإن قيل : فقد قال بعده : « موجود لا عن عدَم » فلا يبقى بين الكلمتين فرق .

قيل: بينهما فرق ، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفيُ إمكانه، لأنّ مَنْ أثبت قديماً ممكنا ؛ فإنه وإن نفى حدوثَه الزمانىّ فلم ينفِ حدوثَه الذاتىّ ، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن البارئ تعالى فى الكلمة الأولى الحدوثَ الزمانىّ ، ونفى عنه فى الكلمة الثانية الذاتىّ . وقولنا فى الممكن : إنه موجود من عدم ، صحيح عند التأمّل ، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زمانا ، بل سابق لوجوده ذاتا ، لأن الممكن يستحقّ من ذاته أنّه لا يستحق الوجود من ذاته .

وأما قوله : «مع كلّ شىء لا بمقارنة » ، فمراده بذلك أنّه يعلم الجزئيات والكلّيات، كما قال سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾(١) .

وأما(٢) قوله : «وغيرُ كلِّ شىء لا بمزايلة» فحقّ ، لأنّ الغَيْرين فى الشاهد هما ما زايلَ أحدُهما الآخر وباينه بمكان أو زمان ، والبارئ سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة عن المكان والزمان ، فصدَق عليه أنّه غير كلّ شىء لا بمزايلة .

وأمّا قوله : «فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة» ، فحقّ ؛ لأن فعله اختراع ، والحكماء يقولون : إبداع ، ومعنى الكلمتين واحد ؛ وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منّا ، ولا يوجد شيئاً من شىء .

وأما قوله : «بصير ؛ إذ لا منظورَ إليه من خَلْقه » ، فهو حقيقةُ مذهب أبى هاشم رحمه الله وأصحابه ، لأنهم يُطلقون عليه فى الأزَل أنه سميع بصير ، وليس هناك مسموع ولا مُبصَر ، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصَرات إذا وجدت؛

---

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) ا : « فأما » .

وذلك يَرجع إلى كونه حيًّا لا آفة به ، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر فى الأزَل ، لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة .

وأما قوله : « متوحّد ، إذْ لا سَكَنَ يستأنس به ، ويستوحش لفقده » ، فـ « إذ » هاهنا ظرف ، ومعنى الكلام أنّ العادة والعرف إطلاق « متوحّد » على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده فانفرد عنه ، والبارئ سبحانه يطلَق عليه أنّه متوحِّد فى الأزل ولا موجود سواه : وإذا صَدَق سَلْب الموجودات كلّها فى الأزَل صدق سلبُ ما يؤنس أو يوحِش : فتوحّده سبحانه بخلاف توحّد غيره .

وأما قوله عليه السلام : «أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء ؛ كقوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(١) . وقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٢) .

وقوله : « بلا رَوِيّةٍ أجالها » ، فالروية الفِكْرة ، وأجالها : ردّدها ؛ ومن رواه : « أحالها » بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : « ولا تجربةٍ استفادها » ، أى لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصَلت له التجربة التى أعانته على خَلْق هذه الأجسام .

وقوله : « ولا حركة أحدثها » ، فيه ردّ على الكرّامية الذين يقولون : إنّه إذا أراد أنْ يخلُق شيئاً مبايناً عنه أحدث فى ذاته حادثا ، يسمّى الإحداث ، فوقع ذلك الشىء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً .

وقوله : « ولا همامة نفس اضطرب فيها » ، فيه ردٌّ على المجوس والثَّنَوِيّة القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خَبْط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحّة مايقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدّمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلّها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام

---

(١) سورة فاطر ٣٥

(٢) سورة المائدة ٤٨

وأما قوله : « أحال الأشياء لأوقاتها » ، فمن روَاها : « أحَلّ الأشياء لأوقاتها » ، فمعناه جعل محلّ كلّ شيء ووقْته كمحلّ الدين. ومن رواها : « أحال » فهو من قولك: حال فى متْن فرسه ، أى وثب ، وأحاله غيرُه ، أى أوْثبه على متن الفرس ؛ عدّاه بالهمزة ، وكأنّه لما أقرّ الأشياء فى أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيرَه على فرسه .

وقوله . « ولاءم بين مختلفاتها » ، أى جعل المختلفات ملتئِمات(١) ، كما قَرَن النفس الروحانيةَ بالجسد الترابىّ ، جلّت عظمتُه !

وقوله : « وغرّز غرائزها » ، المروىّ بالتشديد ، والغريزة: الطبيعة ، وجَمْعها غرائز ، وقوله : « غرّزها » ، أى جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوّأ الأضواء ! ويجوز أنْ يكونَ من غرزتُ الإبرة بمعنى غرست . وقد رأيناه فى بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : « وألزمها أشباحها » ، الضمير المنصوب فى « ألزمها » عائد إلى الغرائز ، أى ألزم الغرائز أشباحَها ، أى أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حقّ ؛ لأن كلاًّ مطبوع على غريزة لازمة ، فالشّجاع لا يكون جبانا ، والبخيل لا يكون جوادا ؛ وكذلك كلّ الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : « عالماً بها قبل ابتدائها » ، إشارة إلى أنّه عالم بالأشياء فيما لم يزَل .

وقوله : « محيطا بحدودها وانتهائها » أى بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : «عارفاً بقرائنها وأحنائها»، القرائن: جمع قَرُونة(٢) ، وهى النفس .والأحناء: الجوانب ، جمع حِنْو ، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التى ألزمها أشباحَها، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلّقة بها والصادرة عنها .

* * *

---

(١) ب : « ملتئمة » ، وما أثبته عن ا .

(٢) ومنه قول أوس بن حجر :

فلاقَى امرأً من مَيْدعَانَ وأسْمَحَتْ   قَرُونَتُه باليأسِ مِنْها فَعَجّلَا

أى طابت نفسه بتركها .

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال : معنى قوله عليه السلام : « كائن لا عن حَدث ، موجود لا عن عَدَم » ، أنه لم يزل موجوداً ، ولا يزال موجوداً ، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أوّلا ؛ وهـذا ليس بجيّد ، لأنّ اللفظ لا يدلّ على ذلك ولا فيه تعرّض بالبقاء فيما لا يزال .

وقال أيضاً : قوله عليه السلام : «لا يستوحش» ، كلام مستأنف . ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً ، والهاء « فى فقده » ترجع إلى « السكن » المذكور أوّلا !

وقال أيضاً : يُقال : ماله فى الأمر هِمّة ولا هَمامة ؛ أى لا يهُمّ به ، والهمَامة : التردّد، كالعزم . ولقائل أن يقول : العزم هو إرادة جازمة حَصَلت بعد التردّد ، فبطل قوله : إنّ الهمامة هى نفس التردد كالعزم . وأيضاً فقد بيّنا مراده عليه السلام بالهمامة ؛ حكى زُرْقان(١) فى كتاب " المقالات " ، وأبو عيسى الوراق(٢) ، والحسن بن موسى(٣) ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلْخِىّ(٤) فى كتابه فى " المقالات " ، أيضاً عن الثنويّة: أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته فى غزو الظُّلمة والإغارة عليها، فخرجت من ذاته قطعة ـ وهى الهمامة المضطربة فى نفسه ـ فخالطت الظلمةَ غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه، وخرجت هَمامة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت همـامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان

---

(١) هو زرقان المتكلم ؛ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ؛ وقد حكى زرقان عن النظام أقوالا فى الفرق بين الفرق ٥٠ ـ ٥١ ، وذكره المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٤٢ .

(٢) هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ؛ كان من نظارى المعتزلة ؛ وله تصانيف على مذهبهم . توفى سنة ٢٤٧ . لسان الميزان ٥ : ٤١٢ .

(٣) هو أبو محمـد الحسن بن موسى النوبختى ؛ من متكلمى الإمامية ؛ وذكره الطوسى فى طبقاتهم ؛ عاش فى القرن الثالث . لسان الميزان ٢ : ٢٥٨ ، روضات الجنات ٣١ ، تنقيح المقال ١ : ٣١٢ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى الكعبي ؛ شيخ المعتزلة ، وكان على رأس طائفة منهم يقال لهم الكعبية ؛ توفى سنة ٣١٩ . ابن خلكان ١ : ٢٥٢

وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ؛ حتى انبنى منهما هذا العالَم المحسوس . ولهم فى الهمامة كلام مشهور ؛ وهى لفظة اصطلحوا عليها ، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهِمَّة ، والذى عرفناه الهِمَّة والهَمَّة ـ بالكسر والفتح ـ والمَهَمّة ، وتقول : لا هَمامِ لى بهذا الأمر ، مبنىّ على الكسر كقَطامِ ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

* * *

الأصلُ :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ ؛ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ ، فَأَجْرَى(١) فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِمًا تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ العَاصِفَةِ ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ ؛ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ . ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا ، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا ؛ فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ؛ تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ عَلَى(٢) مَائِرِهِ ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا ؛ وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَسَمْكًا مَرْفُوعًا ؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْتَظِمُهَا(٣) . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا ، وَقَمَرًا مُنِيرًا ، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ .

---

(١) ا : « فأجاز » ، وكذلك فى مخطوطة النهج .

(٢) ا ، ج: « إلى » ، وكذلك فى مخطوطة النهج .

(٣) ج : « ينظمها » .

الشرح :

لسائل أن يسأل فيقول : ظاهرُ هذا الكلام أنّه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خَلْق كلّ شىء ؛ لأنه قد قال قبل : «فَطَرَ الخلائق ، ونشر الرياح ، ووتّد الأرض بالجبال» ، ثم عاد فقال : أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، وهو الآن يقول : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ، ولفظة « ثمّ » للتراخى !

فالجواب أن قوله(١) : « ثم » هو تعقيب وتراخٍ ، لا فى مخلوقات البارئ سبحانه، بل فى كلامه عليه السلام ؛ كأنه يقول : ثم أقول الآن بعد قولى المتقدم : إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء . ويمكن أن يقال: إن لفظة « ثم » هاهنا تُعْطِى معنى الجمع المطلق كالواو ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(٢) .

* * *

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يشتمل على مباحث :

منها : أنّ ظاهرَ لفظه أنّ الفضاء الّذى هو الفراغ الذى يحصل فيه الأجسام خلقَه الله تعالى ولم يكن من قبل ؛ وهذا يقتضى كونَ الفضاء شيئاً ؛ لأن المخلوق لا يكون عدَماً محضاً . وليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام . ومنهم من جعله مجرّداً .

فإن قيل : هذا الكلام يُشعِر بأن خلْق الأجسام فى العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن ، وهذا ينافى العقل !

قيل : بل هذا هو محض مذهب الحكماء ، فإنهم يقولون : إنه لا يمكن وجودُ جسم

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فالجواب قوله » .

(٢) سورة طه ٨٢ .

ولا حركةُ جسم خارجَ الفلك الأقصى؛ وليس ذلك إلّا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلّا فى الفضاء .

ومنها : أن البارئ ــ سبحانه ــ خلق فى الفضاء الذى أوجده ماء جعله على متْن الريح، فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكانًا له ، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحًا أخرى سلّطها عليه ، فموّجته تمويجًا شديدًا حتى ارتفع ، فخلق منه السموات . وهذا أيضًا قد قاله قوم من الحكماء ؛ ومن جملتهم تاليس الإسكندرانىّ ؛ وزعم أنّ الماء أصل كلّ (١) العناصر ؛ لأنّه إذا انجمد صار أرضًا ، وإذا لَطُف صار هواء ، والهواء يستحيل نارًا ؛ لأنّ النار صفوة الهواء .

ويقال : إن فى التوراة فى أول السِّفر الأول كلامًا يناسب هذا ؛ وهو أنّ الله تعالى خلق جوهرًا ، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ارتفع من ذلك الماء بخارٌ كالدخان، (٢ فخلق منه السموات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زَبَد ٢)، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال .

ومنها : أنّ السماء الدّنيا مَوْج مكفوف، بخلاف السموات الفوقانية. وهذا أيضا قول قد ذهب إليه قوم، واستدلّوا عليه بما نُشاهده (٣) من حركة الكواكب المتحيّرة وارتعادها فى مرأى (٤) العين واضطرابها؛ قالوا : لأن المتحيّرة متحركة فى أفلاكها ؛ ونحن نشاهدها بالحسّ البَصرىّ ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفّافة ، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر فى الماء ؛ وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء متموّج ، فارتعاد الكواكب

---

(١) كلمة « كل » ساقطة من ا .

(٢ ــ ٢) ساقط من ا .

(٣) ب : « شاهده » .

(٤) ا : « مرائى » .

المشاهدة حسًّا إنّما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفلك الأدنى. قالوا : فأمّا الكواكب الثابتة فإنّا(١) لم نشاهدها كذلك ؛ لأنّها ليست بمتحرّكة ، وأمّا القمر وإن كان فى السماء الدنيا؛ إلا أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية؛ وليس بماء متموّج كالفلك المثل التحتانىّ. وكذلك القولُ فى الشمس .

ومنها: أنّ الكواكب فى قوله : « ثم زيّنها بزينة الكواكب » أين هى؟ فإن اللفظ محتمِل ، وينبغى أن يتقدّم على ذلك بحثٌ فى أصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ (٢) !

فنقول : إنّ ظاهرَ هذا اللفظ أنّ الكواكبَ فى السماء الدنيا ، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع ؛ فمن دنا منهم لذلك رُجِم بشهاب ؛ وهذا هو الذى يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أنّ السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحدَه؛ وعندهم أن الشهبَ المنقضّة هى آثار تظهر فى الفَلَك الأثيرِىّ النارىّ الذى تحت فلك القمر ، والكواكبُ لا ينقضّ منها شىء ، والواجبُ التصديق بما فى ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأنْ يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكونَ الضميرُ فى قوله: «زينها» راجعاً إلى « سفلاهنّ » ؛ التى قال : « إنها مَوْج مكفوف »، ويكون(٣) الضمير فى قوله: « وَأَجْرَى فيهـا » راجعاً إلى جملة السموات ؛ إذا وافقنا الحكماء فى أنّ الشمس فى السماء الرابعة .

ومنها : أنّ ظاهرَ الكلام يقتضى أنّ خلْق السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرّضْ فيه لكيفية خلق الأرض أصلا . وهذا قولٌ قد ذهب إليه جماعة من أهل المِلّة،

---

(١) ب ا : « فإنما » .

(٢) سورة الصافات ٦ ، ٧ .

(٣) ا : « فيكون » .

واستدلّوا(١) عليه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾(٣) .

ومنها : أن الهاء فى قوله : «فرفعه فى هواء منفتق» والهاء فى قوله : «فسوّى منه سبعَ سموات » إلى ماذا ترجع ؟ فإنّ آخر المذكورات قبلها « الزَّبد » . وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زَبَد الماء ؟ الحقّ أنّ الضمائرَ ترجع إلى الماء الذى عبّ عبابُه ؛ لا إلى الزّبد ؛ فإنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ السماء مخلوقة من زَبَد الماء ؛ وإنما قالوا : إنّها مخلوقة من بُخاره .

ومنها : أنْ يقال إن البارئ سبحانه قادر على خلْق الأشياء إبداعاً واختراعاً ؛ فما الذى اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب ؟ وهلاّ أوجدها إيجاد الماء الذى ابتدعه أوّلا من غير شىء !

فيقال فى جواب ذلك على طريق أصحابنا : لعلّ إخبارَه للمكلّفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم(٤) ، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلّا والمخبَر عنه مطابق للإخبار .

فهذا حظّ المباحث المعنوية من هذا الفصل .

* * *

ثم نشرع فى تفسير ألفاظه :

أمّا الأجواء فجمع جَوّ ، والجوّ هنا الفضاء العالى بين السماء والأرض . والأرجاء :

---

(١) ا : « استدلوا » .

(٢) سورة فصلت ٩ .

(٣) سورة فصلت ١٠ .

(٤) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « لهم » .

الجوانب ، واحدها رَجا مثل عصا . والسكائك : جمع سُكاكة ؛ وهى أعلى الفضاء ، كما قالوا : ذُؤابة وذوائب . والتيّار : الموج . والمتراكم : الذى بعضُه فوق بعض . والزّخّار : الذى يَزْخَر ، أى يمتدّ ويرتفع . والريح الزعْزع : الشديدة الهبوب ، وكذلك القاصفة ؛ كأنها تُهلِك الناس بشدّة هبوبها . ومعنى قوله : « فأمرها بردّه » ، أى بمنعه عن الهبوط ؛ لأنّ الماء ثقيل ، ومن شأن الثقيل الهُوِىّ . ومعنى قوله : « وسلّطها على شدّه » أى على وثاقه ؛ كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط ؛ فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة . ومعنى قوله : « وقرنها إلى حَدّه » ، أى جعلها مكاناً له ؛ أى جعل حدّ الماء المذكور – وهو سطحه الأسفل – مماساً سطح الريح التى تحمله وتُقِلّه . والفتيق : المفتوق المنبسط . والدفيق : المدفوق . واعتقم مَهَبّها ، أى جعل هُبوبَها عقيما ، والريح العقيم : التى لا تُلْقِح سحاباً ولا شجراً ؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها ؛ لأنّه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط . وأدام مُرَبّها ، أى ملازمتها ، أربّ بالمكان مثل ألبّ به ، أى لازمه .

ومعنى قوله : « وعصفت به عَصْفَها بالفضاء » ، فيه (١) معنى لطيف ؛ يقول : إنّ الريح إذا عصفت بالفضاء الذى لا أجسام فيه كان عصفُها شديداً لعدم المانع ؛ وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً ؛ كأنها تعصِفُ فى فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام .

والساجى : الساكن . والمائر : الذى يذهب ويجىء . وعبّ عُبابُه : أى ارتفع أعلاه . ورُكامه : ثَبَجه وهضبُه (٢) . والجوّ المنفهق : المفتوح الواسع . والموج المكفوف : الممنوع من السّيَلان . وعمَدٍ يَدْعَمُها : يكون لها دِعامة . والدِّسار : واحد الدُّسُر وهى المسامير . والثواقب النيِّرة : المشرِقة . وسراجاً مستطيراً ، أى منتشر الضوء ؛ يقال : قد استطار

---

(١) كلمة « فيه » ساقطة من ب .

(٢) ب : « هضبته » .

الفجر ، أى انتشر ضوءه. ورقيم مائر ، أى لوح متحرّك ؛ سُمّى الفلك رقيما تشبيهاً باللوح، لأنه مسطّح .

* * *

فأمّا القطبُ الراوندىّ فقال : إنّه عليه السلام ذكر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيوانًا له أعضاء وأحناء ، ثم ذكر هاهنا أنه فتق السماء ، وميّز بعضها عن بعض ، ثم ذكر أنّ بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبع سمٰوات، وكذلك بين كلّ أرض وأرض ، وهى سبع أيضاً. وروى حديث البقرة التى تحمل الملَك الحامل للعرش، والصخرة التى تحمل البقرة ، والحوت الذى يحمل الصخرة .

ولقائل أن يقول : إنّه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أنّ الله تعالى خَلق حيوانا ذا أعضاء ، ولا قوله الآن : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾(١)، ألا تراه كيف صرّح عليه السلام بأن البارئَ سبحانه خلق الهواء الذى هو الفضاء ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، وليس فتقُ الأجواء هو فتق السماء !

فإن قلتَ : فكيف يمكن التطبيق بين كلامه عليه السلام وبين الآية ؟

قلتُ : إنه تعالى لما سلّط الريح على الماء فعصفتْ به، حتى جعلته بخاراً وزَبَداً ، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ؛ كان فاتقا لهما من شىء واحد ، وهو الماء .

فأمّا حديثُ البعد بين السمٰوات وكونه مسيرةَ خمسمائة عام بين كلّ سماء وسماء ، فقد ورد وروداً لم يُوثَق به ؛ وأكثر(٢) الناس على خلاف ذلك. وكونُ الأرض سبعا أيضاً

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) ا : « فأكثر » ، وما أثبته عن ا ، ب

خلافُ مايقوله جمهور العقلاء ، وليس فى القرآن العزيز مايدلّ على تعدد الأرض إلاقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (١) ، وقد أوّلوه على الأقاليم السبعة . وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات فى غالب الظنّ ، والصحيح أنَّ الله تعالى يُمْسِك الكلّ بغير واسطة جسم آخر .

* * *

ثم قال الراوندىّ : السَّكائك : جمعُ سُكَاك ، وهذا(٢) غير جائز ، لأن « فُعالا » لا يجمع على « فعائل » ؛ وإنما هو جمع سُكَاكة ، ذكر ذلك الجوهرىّ (٣) .

ثم قال : « وسلّطها على شَدّه » ، الشدّ : العدْو . ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العَدْو ؛ لأنه لامعنى له ، والصحيح ماذكرناه .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « جعل سُفلاهنّ موجاً مكفوفا » ، أراد تشبيهها بالموج لصفائها واعتلائها. فيقال له : إنَّ الموجَ ليس بعالٍ ليشبَّه به الجسم العالى، وأما صفاؤه فإن كلَّ السموات صافية ، فلماذا خَصَّ سُفلاهنَّ بذلك !

ثم قال : ويمكن أن تكون السماء السُّفْلى قد كانت أوّل ماوجدت موجا ثم عَقَدها . يقال له : والسموات الأُخَر كذلك كانت ، فلماذا خصَّ السُّفْلى بذلك !

ثم قال : الريح الأولى غير الريح الثانية ، لأنَّ إحداهما معرفة والأخرى نكرة ؛ وهذا مثل قوله : صم اليوم ، صم يوما ، فإنه يقتضى يومين .

يقال له : ليست المغايرة بينهما مستفادة من مجرّد التعريف والتنكير ، لأنه لو كان قال

---

(١) سورة الطلاق ١٢

(٢) ب : « وهو » وما أثبته عن ا

(٣) الصحاح ص ١٥٩١ ، والذى فيه : « والسكاك والسكاكة : الهواء الذى يلاقى أعنان السماء » .

عليه السلام : « وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة » لكانت الريحان : الأولى والثانية منكّرتين معاً ، وهما متغايرتان ، وإنما علمنا تغايرهما ، لأنّ إحداهما تحت الماء والأخرى فوقه ، والجسم الواحد لا يكون فى جهتين .

* * *

الأصل :

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمٰوَاتِ الْعُلَا ، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ ، وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ ، وَلَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ .

وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ(١) وَأَمْرِهِ . وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ . وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِى الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ، وَالْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ .

[القول فى الملائكة وأقسامهم]

الشرح :

الملَك عند المعتزلة حيوان نورىّ ؛ فمنه شفّاف عادم اللون كالهواء ، ومنه ملوّن بلون الشمس . والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقُدَر وحياة ؛ كالواحد منّا ، ومكلّفون كالواحد منا ، إلا أنهم معصومون . ولهم فى كيفية تكليفهم كلام ؛ لأنّ التكليف

---

(١) مخطوطة النهج : « لقضائه » .

مبنىّ على الشهوة .

وفى كيفيّة خَلْق الشهوة فيهم نظر ، وليس هذا الكتاب موضوعاللبحث فى ذلك .

وقد جعلهم عليه السلام فى هذا الفصل أربعة أقسام :

القسم الأول : أرباب العبادة ؛ فمنهم مَنْ هو ساجد أبدا لم يقم من سجوده ليركع ، ومنهم من هو راكع أبدا لم ينتصب قطّ ، ومنهم الصافّون فى الصلاة بين يدىْ خالقهم لا يتزايلون ، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه .

والقسم الثانى : السُّفراء بينه تعالى وبين المكلّفين من البشر بتحمّل الوحى الإلهىّ إلى الرسل ، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض .

والقسم الثالث ضربان : أحدهما حَفَظة العباد كالكرام الكاتبين ، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات ؛ ولولا ذلك لكان العطَب أكثرَ من السلامة .وثانيهما سَدَنة الجنان .

القسم الرابع : حَمَلة العرش .

ويجب أن يكون الضمير فى « دونه » — وهو الهاء — راجعاً إلى العرش لا إلى البارئ سبحانه . وكذلك الهاء فى قوله : « تحته » . ويجب أن تكون الإشارة بقوله : « وبين مَنْ دونهم » إلى الملائكة الذين دون هؤلاء فى الرتبة .

فأما ألفاظ الفصل فكلها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً ، كالسَّدنة جمع سادِن وهو الخادم ، والمارق : الخارج . وتلفّعت بالثوب ، أى التحفت به .

* * *

وأما(١) القطب الراوندىّ فجعل الأمناء على الوحى وحفَظة العباد وسدَنة الجنان

---

(١) ا : « فأما »

قسما واحدا ، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة . وليس بجيّد ، لأنه قال : « ومنهم الحفظة » ، فلفظة « ومنهم » تقتضى كونَ الأقسام أربعة ؛ لأنه بها فصَّل بين الأقسام .

وقال أيضاً : معنى قوله عليه السلام : « لا يغشاهم نوم العيون » يقتضى أنَّ لهم نوما قليلا لا يُغفلهم عن ذكر الله سبحانه ، فأما البارئ سبحانه فإنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم أصلا ، مع أنه حىٌّ ، وهذه هى المدحة العظمى .

ولقائل أن يقول : لو ناموا قليلا لكانوا زمانَ ذلك النوم — وإن قلَّ — غافلين عن ذكر الله سبحانه ؛ لأنَّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل .

والصحيح أنَّ الملَك لا يجوز عليه النوم ، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب ؛ لأنَّ النوم من توابع المِزاج ، والملَك لا مِزاج له . وأما مدحُ البارئ بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب ، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية ، لا يجوز تبدّلها ، والملك يجوز أن يخرج عن كونه مَلَكا ، بأنْ يُخلق فى أجزاء جسمه رُطوبةٌ ويبوسة ، وحرارة وبرودة ، يحصل من اجتماعها مِزاج ، ويتبع ذلك المِزاج النوم . فاستحالة النوم عليه إنما هى ما دام مَلَكا ، فهو كقولك : الماء بارد ، أى ما دام ماء ؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم نارا ، فلا يكون باردا ، لأنه ليس حينئذ ماء . والبارئ جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغيّر ، فاستحال عليه النوم استحالةً مطلقة ، مع أنه حىّ ، ومن هذا إنشاء التمدّح . وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله خلق الخلْق أربعة أصناف : الملائكة ، والشياطين ، والجنّ ، والإنس . ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشياطين والجنّ والإنس ، ثم جعل هؤلاء الثلاثةَ عشرةَ أجزاء ، فتسعة منها الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثم جعل الجنَّ والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس » .

وفى الحديث الصحيح : إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره ، ثم افتقدها ، فقال : يارسول الله ، إن رجالا كانوا يأتوننى لم أر أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيب أرواحاً منهم ، ثم انقطعوا . فقال عليه السلام : « أصابك جُرح فكنت تكتمه » ؟ فقال : أجل ، قال : « ثم أظهرتَه » ؟ قال : أجل ، قال : « أمَا لو أقمت على كِتْمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت » ؛ وكان هذا الجُرح أصابه فى سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيّب وغيره : الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون ، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون ، ولا يموتون حتى يموت إبليس .

وقال النبىّ صلى الله عليه وآله فى رواية أبى ذرّ : « إنّى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ (١) فما فيها موضع شبر إلا وفيه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهته لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وماتلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله . والله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد » (٢) .

قلت : ويُوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبى ذرّ .

واتفق أهلُ الكتب على أنّ رؤساء الملائكة وأعيانَهم أربعة : جبرائيل ، وميكائيل، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ وهو مَلَك الموت . وقالوا : إن إسرافيلَ صاحب الصُّور وإليه النفخة ، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر ، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات ، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها ، وإليه تدبير الرياح، وهو ينزل إليهم كلهم بما يؤمرون به .

---

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ١ : ٣٥ ، وقال : « الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ؛ أى أن كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ؛ وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ؛ وإن لم يكن ثم أطيط ؛ وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى » .

(٢) تعضد : تقطع ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٠٤

وروى أنسُ بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ماهؤلاء الذين استثنى بهم فى قوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى ٱلْأَرضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ ٱللهُ ﴾؟⁽١⁾ فقال : « جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل : ياملَكَ الموت ، مَن بقى ؟ وهو سبحانه أعلم ـ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام! بقىَ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملَكُ الموت ؛ فيقول : ياملك الموت ، خذ نفس إسرافيل ، فيقعُ فى صورته التى خُلق عليها كأعظم ما يكون من الأطواد ، ثم يقول : ـ وهو أعلم ـ مَنْ بقىَ ياملَكَ الموت ؟ فيقول : سبحانك ربّى ياذا الجلال والإكرام ! جبرائيل وميكائيل وملَكُ الموت ، فيقول : خذ نفس ميكائيل ، فيقع فى صورته التى خُلِق عليها ، وهى أعظم مايكون من خَلْق إسرافيل بأضعافٍ مضاعفة . ثم يقول سبحانه : ياملَكَ الموت ، مَنْ بقىَ ؟ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام : جبرائيل، وملَكُ الموت ، فيقول تعالى : ياملَكَ الموت ، مت فيموت ، ويبقى جبرائيل – وهو من الله تعالى بالمكان الذى ذكر لكم ـ فيقول الله : ياجبرائيل ، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا ، فيقع جبرائيل ساجدا يخفِق بجناحيه ، يقول : سبحانك ربّى وبحمدك ! أنت الدائم القائم الذى لا يموت ؛ وجبرائل الهالك الميّت الفانى ، فيقبض الله روحَه ، فيقع على ميكائيل وإسرافيل ، وإنّ فَضْل خلقِه على خلقهما كفضل الطَّوْد العظيم على الظَّرِب⁽٢⁾ من الظِّراب .

وفى الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على صورة دِحْية الكَلبِيّ ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم ، وإنه سُمِع ذلك اليوم صوته : أقْدِمْ حَيْزوم⁽٣⁾ .

---

(١) سوره الزمر ٦٨

(٢) الظرب ككتف : الجبل الصغير .

(٣) الخبر فى اللسان (حزم) ؛ وفيه : « أراد أقدم ياحيزوم ؛ لحذف حرف النداء ، والياء فيه « زائدة » .

والكروبيّون[١] عند أهلِ الملّة سادة الملائكة ، كجبرائيل وميكائيل . وعند الفلاسفة أنّ سادة الملائكة هم الروحانيّون – يعنون العقول الفعالة وهى المفارقة للعالم الجسمانىّ المسلوبة التعلّق به ، لا بالحلول ولا بالتدبير . وأما الكرُوبيُّون فدون الروحانيين فى المرتبة وهى أنفس الأفلاك المدبّرة لها ، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا .

ثم هى على قسمين : قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر ، فالقسم الأشرف ما كان نَفْسًا ناطقة غير حالّة فى جِرْم الفلك ، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا . والقسم الثانى ما كان حالاًّ فى جِرْم الفَلَك ، ويجرى ذلك مجرى القُوَى التى فى أبداننا ، كالحسّ المشترك والقوة الباصرة .

* * *

الأَصْلُ :

مِنها فى صفة خلق آدم عليه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَه مِنْ حَزْنِ ٱلْأَرْضِ وَسَهْلِهَا ، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا ، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتّى خَلَصَتْ ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ ، وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ ، وَفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى ٱسْتَمْسَكَتْ ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ .

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فتمثّلت[٢] إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا ، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ ، وَٱلْأَذْوَاقِ وَٱلْمَشَامِّ ، وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَجْنَاسِ ، مَعْجُونًا بِطِينَةِ ٱلْأَلْوَانِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ،

---

[١] الكروبيون ، مخففة الراء – على ماقاله صاحب القاموس – : هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش ؛ وأصله من الكرب وهو القرب ؛ قال أمية :

ملائكة لايفترون عبادَةً   كَروبيّةٌ مِنهمْ ركوعٌ وسُجَّدُ

[٢] مخطوطة النهج : « فمثلت » .

(١ وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ ١) ، وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبِلَّةِ وَالْجُمُودِ ، وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ .

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(٢) وَقَبِيلَهُ ؛ اعْتَرَتْهُمُ الْحَمِيَّةُ ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ . وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾.(٣)

* * *

الشَّرْحُ :

الحَزْن : ماغلُظ من الأرض. وسَبَخُها : ماملُح منها . وسنّها بالماء ، أى مَلسها، قال:

ثم خاصَرتُهــا إلى القُبَّةِ الخَضْ ... راء تَمْشِي فى مَرْمَرٍ مَسْنُونِ(٤)

أى مملّس . ولَاطها ، من قولهم : لُطتُ الحوضَ بالطين ، أى ملطته وطيَّنته به. والبَلّة بفتح البـاء ، من البَلل . ولَزَبت ، بفتح الزاى ، أى التصقت وثبتت . فجَبَل منها ، أى خلق . والأحناء : الجوانب ، جمع حِنْو . وأصلَدها : جعلها صَلْدا ، أى صُلْبا متينا . وصلصلت : يبست ، وهو الصلصال . ويختدمها : يجعلها فى مآربه وأوطاره كالخدَم الذين تستعملهم وتستخدمهم . واستأدَى الملائـكة وديعته : طلب منهم أداءها . والخنوع : الخضوع . والشِّقوة ، بكسر الشين ، وفى الـكتاب العزيز : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

(١ ــ ١) تـكملة من مخطوطة النهج .

(٢) سورة البقرة ٣٤ . (٣) سورة ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، من أبيات يشبب فيها برملة بنت معاوية ؛ كذا نسبه صاحب اللسان ١٧ : ٨٨ ؛ ونقل عن ابن برى أنها تروى لأبى دهبل.

شِقْوَتُنَا ﴾ (١) . واستوهَنوا : عدّوه واهنا ضعيفا . والنَّظِرة ، بفتح النون وكسر الظاء : الإمهال والتأخير .

فأما معانى الفصل فظاهرة ، وفيه مع ذلك مباحث :

منها أن يقال : اللام فى قوله : « لوقت معدود » بماذا تتعلق ؟

والجواب، أنّها تتعلق بمحذوف تقديره: « حتى صلصلت كائنة لوقت »، فيكون الجار والمجرور فى موضع الحال ، ويكون معنى الكلام أنّه أصْلَدها حتى يبست وجفّت معدّة لوقت معلوم ، فنفخ حينئذ روحَه فيها . ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله : « فجَبَل » أى جَبَل وخَلَق من الأرض هذه الجثّة لوقت، أى لأجل وقت معلوم ، وهو يوم القيامة.

* * *

ومنها أن يقال : لماذا قال : « مِنْ حَزْن الأرض وسَهْلها ، وعَذْبها وسَبَخها »؟

والجواب ، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسانُ مركّبا من طباع مختلفة، وفيه استعداد للخير والشرّ ، والحسْن والقبح .

* * *

ومنها أن يقال : لماذا أخّر نفخَ الروح فى جثة آدَم مدة طويلة ، فقد قيل : إنه بقىَ طينا تشاهده الملائكة أربعين سنة ، ولا يعلمون ما المراد به ؟

والجواب ، يجوز أن يكون فى ذلك (٢) لطف للملائكة ، لأنهم تذهب ظنونهم فى ذلك (٢) كلّ مذهب ، فصار كإنزال المتشابهات الذى تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها ، وفى ضمن ذلك يكون اللطف . ويجوز أن يكون فى إخبار ذرّيّة آدم بذلك فيما بعد لطف بهم (٣) ، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبَر عنه حقًّا .

---

(١) سورة « المؤمنون » ١٠٦ .

(٢ – ٢) ساقط من ا .

(٣) ب : « لهم » .

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ » ؟

الجواب ، أنّ النفس لما كانت جوهراً مجرّداً ، لا متحيزة ولا حالّة فى المتحيّز حَسُن لذلك نسبتها إلى البارئ ، لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات (١) . ويمكن أيضاً أن تكونَ لشرفها مضافة إليه ، كما يقال : بيتالله ، للكعبة وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد ، ولما كان نفخ الريح فى الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه،وكان الإحياء عبارةً عن إفاضة النفس على الجسد، ويستلزم ذلك حلولَ القُوَى والأرواح فى الجثة باطنا وظاهراً ، سُمِّى ذلك نفخا مجازا .

* * *

ومنها أن يقال : ما معنى قوله : « معجونا بطينةِ الألوان المختلفة » ؟

الجواب ، أنه عليه السلام قدفسّر ذلك بقوله : «من الحرّ والبرد ، والبَلّة والجمود»، يعنى الرطوبة واليبوسة ؛ ومراده بذلك المزاج الذى هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات مختلفة،قد انكسر بعضها ببعض.وقوله : «معجونا» صفة « إنسانا » . والألوان المختلفة، يعنى الضروبَ والفنون ، كما تقول (٢) : فى الدار ألوان من الفاكهة .

* * *

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « واستأدى الملائكة وديعته لديهم »؟وكيف كان هذا العهدُ والوصية بينه وبينهم ؟

الجواب ، أن العهد والوصيةَ هو قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) يقال : جثمان الرجل وجسمانه ، أى جسده .

(٢) ا : « كما يقال » .

(٣) سورة ص ٧١ ، ٧٢ .

ومنها أن يقال : كيف كانت شُبهة إبليس وأصحابه فى التعزّز بخلقة النار ؟

الجواب ، لما كانت النار مشرِقة بالذات والأرض مظلمة ، وكانت النار أشبهَ بالنور ، والنور أشبه بالمجردات ، جعل إبليسُ ذلك حجة احتجّ بها فى شَرَف عنصرِه على عُنْصر آدم عليه السلام ، ولأنّ النار أقربُ إلى الفَلَك من الأرض ، وكلّ شىء كان أقربَ إلى الفلك من غيره كان أشرفَ ، والبارئ تعالى لم يعتبر ذلك ، وفعَل سبحانه مايعلم أنه المصلحة والصواب .

* * *

ومنها أن يقال : كيف يجوز السجود لغير الله تعالى ؟

والجواب ، أنه قيل: إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قِبْلة. ويمكن أن يقالَ : إن السجود لله على وجه العبادة، ولغيره على وجه التّكرمة ؛ كما سجد أبو يوسف وإخوته له . ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فى حسن ذلك وقبحه .

* * *

ومنها أن يقال : كيف جاز على ما تعتقدونه من حِكْمة البارئ أن يسلّط إبليس على المكلّفين ؛ أليس هذا هو الاستفساد الذى تأبَوْنه وتمنعونه !

والجواب ، أما الشيخ أبو علىّ رحمه الله فيقول : حدُّ المفسدة ماوقع عند الفساد ، ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلّف من الفعل فى الحالين، ومَنْ فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحدّ، لأن الله تعالى عَلِم أن كلّ من فسد عند دعائه ، فإنه يفسد ، ولو لم يَدْعُه .

وأما أبو هاشم رحمه الله ، فيحدّ المفسدة(١) بهذا الحدّ أيضا ، ويقول : إن فى الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقّةً زائدة على مشقة الإتيان بها، لو لم يدع إبليس إلى

---

(١) ج : « الفساد » .

القبيح ، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحدّ المذكور ، وداخلا فى حيّز التمكُّن الذى لو فرضنا ارتفاعَه لما صحّ من المكلّف الإتيانُ بالفعل، ونحن قلنا فى الحدّ مع تمكّن المكلّف من الإتيان بالفعل فى الحالين .

* * *

ومنها أن يقال : كيف جازَ للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم القيامة ! وهذا إغراء بالقبيح ، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد : أنت لا تموت إلى سنة ، بل إلى شَهر أو يوم واحد ، لما فيه من الإغراء بالقبيح ، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد .

والجواب ، أنّ أصحابنا قالوا : إنّ البارئ تعالى لم يقل لإبليس : إنى مُنظِرُكَ إلى يوم القيامة ؛ وإنما قال : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه ، وكل مكلّف من الإنس والجنّ مُنْظَر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير ، وإذا(١) كان كذلك لم يكن إبليس عالما أنه يبقى لا محالة ، فلم يكن فى ذلك إغراء له(٢) بالقبيح .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « وإنجازاً لِلعِدَة » ؟ أليس معنى ذلك أنه قد كان وَعَده أن يُبقِيَه إلى يوم القيامة !

قلت : إنما وعده الإنظار ، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ، ولم يبيّن له ، فهو تعالى أنجز له وعده فى الإنظار المطلق ، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخترم إبليس(٣) فلا يحصل الإغراء بالقبيح . وهذا الكلام عندنا ضعيف ، ولنا فيه نظر مذكور فى كتبنا الكلاميّة .

* * *

---

(١) ا : « فإذا » .

(٢) كلمة « له » ساقطة من ا .

(٣) كلمة « إبليس » ساقطة من ب .

الأَصْلُ :

ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً ، وَبِالاعْتِزَازِ نَدَماً .

ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلى جَنَّتِهِ ؛ فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

أما الألفاظ فظاهرة ، والمعانى أظهر ، وفيها ما يُسأل عنه .

فمنها أن يقال : الفاء فى قوله عليه السلام : « فأهبطه » ، تقتضى أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة .

والجواب ، أن ذلك أحد قولَي المفسرين ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾(١) ، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة .

ومنها أن يقال : إذا كان تعالى قد طَرَدَ إبليس من(٢) الجنة لما أبَى السجود ، فكيف توصّل إلى آدم وهو فى الجنة حتى استنزله عنها بتحسين أكل الشجرة له !

الجواب ، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام ،

---

(١) سورة طه ١٢١ ــ ١٢٣

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « عن الجنة » .

كدخول الملائكة ، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه . وقيل : إنه دخل فى جوف الحية ، كما ورد فى التفسير .

ومنها أن يقال : كيف اشتبه على آدم الحال فى الشجرة المنهىّ عنها فخالف النهى !

الجواب ، أنه قيل له : لا تقربا هذه الشجرة ؛ وأريد بذلك نوع الشجرة ، فحمل آدم النهىَ على الشّخص ، وأكل من شجرة أخرى من نوعها .

ومنها أنْ يقال : هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام ؛ وهو قوله : « فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهْنه » ، فما قولكم فى ذلك ؟

الجواب ، أمّا أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه ، ويقولون : إنها كانت صغيرة ، وعندهم أنّ الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام . وأما الإماميّة فيقولون: إنّ النهىَ كان نهىَ تنزيه لا نهى تحريم ، لأنهم لا يجيزون على الأنبياء الغلط والخطأ ، لا كبيرا ولا صغيرا ، وظواهرُ هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم .

* * *

[اختلاف الأقوال فى ابتداء خلق البشر]

واعلم أنّ الناس اختلفوا فى ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهلُ الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أنّ مبدأ البشر هو آدم ، الأبُ الأوّل عليه السلام . وأكثر مافى القرآن العزيز من قصّة آدم مطابق لما فى التوراة .

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك :

أما الفلاسفة ، فإنهمْ زعموا أنه لا أوّل لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع .

وأمّا الهند ، فمنْ كان منهم على رأى الفلاسفة فقوله ماذكرناه . ومَنْ لم يكن منهم

على رأى الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم ، ويقول : إنّ الله تعالى خلَق الأفلاك وخلَق فيها طباعا محرِّكة لها بذاتها ، فلما تحرّكت — وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء — كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفَلَك المتحرّك أسخنَ وألطف ، والبعيدُ أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصر ، وتكوّنت منها المركّبات ، ومنها تكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود فى الفاكهة واللحم ، والبقّ فى البطائح والمواضع العفنة ، ثم تكوّن بعضُ البشر من بعض بالتوالد ، وصار ذلك قانونا مستمرّا ، ونُسِيَ التخليق الأول الذى كان بالتولّد(١) . ومن الممكن أن يكون بعضُ البشر فى بعض الأراضى القاصية مخلوقا بالتولُّد(١) ، وإنما انقطع التولّد ، لأنّ الطبيعةَ إذا وجدت للتكوّن طريقا استغنت به عن طريق ثان .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ، ولا نوحا ، ولا ساما ، ولا حاما ، ولا يافث . وأوّلُ متكوّن عندهم من البشر البشرىّ(٢) المسمى « كَيُومَرْث » ، ولقبه « كوشاه » ، أى ملك الجبل ، لأن « كو » هو الجبل بالفَهْلوية ، وكان هذا البشر فى الجبال . ومنهم من يسميه « كلشاه » أى ملك الطين ، و « كل » اسم الطّين ؛ لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم .

وقيل: تفسير « كيومرث »: حىّ ناطق ميت . قالوا : وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغْمِيَ عليه ، ويزعمون أنّ مبدأ تكوّنه وحدوثه أنّ يزدان — وهو الصانع الأوّل عندهم — أفكر(٣) فى أمر أهرمن ، — وهو الشيطان عندهم — فكرةً أوجبت أنْ عرق جبينه ، فمسح العرق ورمى به ، فصار منه كيومَرث . ولهم خَبْط طَويل فى كيفية تكوّن « أهرمن » من فكرة « يزدان » أو من إعجابه بنفسه ، أو من توحّشه ، وبينهم خلاف فى قِدَم « أهرمن » ، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع(٤) .

---

(١) كذا فى ج ، وفى باقى الأصول : « التوالد » .

(٢) ب : « البشر » .

(٣) أفكر وفكر بالتشديد ، بمعنى .

(٤) انظر الشاهنامة ١٤ .

ثم اختلفوا فى مدة بقاء كَيُومرث فى الوجود ، فقال الأكثرون : ثلاثون سنة . وقال الأقلون : أربعون سنة . وقال قوم منهم : إن كَيُومرث مكث فى الجنة التى فى السماء ثلاثة آلاف سنة ، وهى : ألف الحَمَل ، وألف الثور ، وألف الجوزاء . ثم أُهبط إلى الأرض فكان بها آمنا مطمئنا ثلاثة آلاف سنة أخرى ، وهى : ألف السرطان ، وألف الأسد ، وألف السنبلة .

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة فى حَرْب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك⁽¹⁾ .

واختلفوا فى كيفيّة هلاكه ، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلا ، فالأكثرون قالوا : إنه قتل ابنا لأهرمن يُسَمَّى خزورَة ، فاستغاث أهرِمن منه إلى يزدان ، فلم يجد بدّا من أن يقاصّه به حفظا للعهود التى بينه وبين أهرمن ، فقتله بابن أهرِمن . وقال قوم : بل قتله أهرِمن فى صراع كان بينهما ، قهره فيه أهرِمن ، وعلاه وأكَلَه⁽¹⁾ .

وذكروا فى كيفية ذلك الصراع أن كَيُومرث كان هو القاهر لأهرمن فى بادئ الحال ، وأنه ركبه وجعل يطوف به فى العالم إلى أن سأله أهرمن : أىّ الأشياء أخوف له وأهولها عنده ؟ فقال له : باب جهنم ، فلما بلغ به أهرِمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه ، ولم يستمسك ، فعلاه وسأله عن أىّ الجهات يبتدئ به فى الأكل ، فقال : من جهة الرِّجْل لأكون ناظراً إلى حُسْن العالم مدة ما ، فابتدأه أهرِمن فأكله من عند رأسه ، فبلغ إلى موضع الخصىّ وأوعية المنىّ من الصلب ، فقطر من كَيُومرت قطرتا نُطْفة على الأرض ، فَنبت منهما رِيباستان⁽²⁾ فى جبل بإصْطَخر يعرف بجبل دام داذ ؛ ثم ظهرت على تينك الرِّيباستين الأعضاء البشرية فى أول الشهر التاسع ، وتمت فى آخره ، فتصوّر منهما بَشَران : ذكر وأنثى ، وهما « ميشى » ، « وميشانه » ، وهما بمنزلة آدم وحوّاء عند المِلّيّين . ويقال لهما أيضاً : «ملهى» و « ملهيانه » ، ويسمّيهما مجوس خوارزم : « مرد » و « مردانه » ،

---

(١) انظر الشاهنامة ١٤ .

(٢) الريباس ، بالكسر : نبت له عساليج غضة خضراء ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، ينبت فى الجبال ذات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع . المعتمد ١٢٣

وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنييْن عن الطعام والشراب ، متنعميْن غير متأذِّيَيْن بشىء إلى أن ظهر لهما أهرمن فى صـورة شيخ كبير ، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها ، وهما يبصرانه شيخا ، فعاد شابا ، فأكلا منها حينئذٍ ، فوقعا فى البلايا والشرور ، وظهر فيهما الحِرْص حتى تزاوجا ، وولد لهما ولد فأكلاه حِرصاً ، ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهما رأفةً ، فولد لهما بعد ذلك ستةُ أبطن ؛ كل بطن ذكَر وأنثى ، وأسماؤهم فى كتاب أبستا — وهو الـكتاب الذى جاء به زرادشت — معروفة ، ثم كان فى البطن السابع « سيامك » و « فرواك » ، فتزاوجا ، فولد لهما الملك المشهور الذى لم يعرف قبله ملك وهو « أوشَهنج » ، وهو الذى خلف جدّه كيومرث ، وعقد له التاج ، وجلس على السرير ، وبنى مدينتىْ بابل والسوس .

فهذا ما يذكره المجوس فى مبدأ الخلق .

* * *

[تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم]

وكان فى المسلمين — ممّن يرمى بالزندقة — مَنْ يذهب إلى تصويب إبليس فى الامتناع من السجود ، ويفضّله على آدم ، وهو بشار بن برد المرعّث (١) ، ومن الشعر المنسوب إليه :

النَّارُ مُشْرِقةٌ والأرْضُ مظلِمَةٌ   والنَّارُ معبودة مذ كانتِ النَّارُ (٢)

---

(١) فى اللسان : « سمى بذلك لرعاث كانت له فى صغره فى أذنه » . والرعاث جمع رعثة ، وهى ماعلق فى الأذن من قرط ونحوه . وروى صاحب الأغانى : وإنما سمى المرعث بقوله :

قُـلْتُ رِيمٌ مُرَعّثٌ   سـاَحِرُ الطّرفِ والنَّظَرْ
لَسْـتَ والله نَائِـلِى   قُـلْتُ أوْ يَغْلِبُ القَـدَرْ
أَنْتَ إنْ رُمْتَ وَصْلَنَـا   فانْجُ ، هَلْ تُدْرِكُ القَمَرْ !

(٢) الأغانى ٣ :

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزّالى الواعظ(١)، أخو أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالى الفقيه الشافعىّ ، قاصًّا لطيفا وواعظا مفوّها ، وهو من خُراسان من مدينة طُوس ، وقدم إلى بغداد ، ووعظ بها ، وسلك فى وعظه مسلكا منكراً ، لأنه كان يتعصب لإبليس ، ويقول : إنه سيّد الموحدين ، وقال يوما على المنبر : من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق ، أُمِر أن يسجد لغير سيّده فأبى :

وَلَسْتُ بضارع إلا إليكُمْ   وأما غيرُكم حاشا وَكلاَّ

وقال مرة أخرى : لما قال له موسى : « أرنى » فقال : « لن(٢) » قال : هذا شغلك(٣) ، تصطفى آدم ثم تسوّد وجهه ، وتخرجه من الجنة ، وتدعونى إلى الطّور ، ثم تُشمت بى الأعداء ! هذا عملك بالأحباب(٤) ، فكيف تصنع بالأعداء(٥) !

وقال مرّة أخرى وقد ذكر إبليس على المِنْبر : لم يدر ذلك المسكينُ أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدْمَتْ ، وأنّ قِسِىّ القدَر إذا رَمَتْ أصمت : ثم قال : لسان حال آدم ينشد فى قصته وقصة إبليس :

وَكُنتُ وليلَى فى صُعُودٍ من الهوَى   فلمّا توافينا ثَبتُّ وزَلّتِ

وقال مرّة أخرى : التقى موسى وإبليس عند عَقَبة الطور ، فقال موسى : يا إبليس ، لِمَ لم تسجد لآدمَ ؟ فقال : كلاّ ، ما كنت لأسجدَ لبشر ، كيف أوحّده ثم ألتفتُ إلى غيره ! ولكنك أنت يا موسى سألتَ رؤيتَه ثم نظرت إلى الجبل ، فأنا أصدق منك فى التوحيد .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى الجزء التاسع من المنتظم ص ٢٦٠ ؛ ضمن وفيات سنة ٥٢٠ ، وقال عنه : « الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعانى الفاسدة ؛ وقد علق عنه كثير من ذلك » . وذكره أيضاً ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٢٩٣ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى من سورة الأعراف ١٤٣ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى . . . ﴾ .

(٣) المنتظم : « شأنك » .   (٤) المنتظم : « الأخيار » .

(٥) المنتظم ٩ : ٢٦١ .

وكان هـذا النمط فى كلامه ينفق على أهل بغداد ، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير . وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزى فى " التاريخ " أنه قال على المنبر : معاشرَ الناس ، إنى كنتُ دائما أدعوكم إلى الله ، وأنا اليوم أحذّركم منه ، والله ماشدّت الزنانير إلا فى حبّه ، ولا أدّيت الجزْية إلا فى عشقه .

وقال أيضا : إن رجلا يهوديا أدخل عليه ليُسْلِم على يده ، فقال له : لا تُسْلِم ، فقال له الناس : كيف تمنعه من الإسلام ! فقال : احملوه إلى أبى حامد ـ يعنى أخاه ـ ليعلمه « لا »⁽¹⁾ : لا المنافقين . ثم قال : ويحكم أتظنون أن قوله : « لا إله إلا الله » منشورُ ولايته ! ذا منشور عزله⁽²⁾ . وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلوّ والشَّطح .

ويروى عن أبى يزيد البسْطامى⁽³⁾ منه كثير .

ومما يتعلّق بما نحن فيه ما رووْه عنه من قوله :

فمَنْ آدمُ فى البَيْنِ وَمَنْ إبليسُ لولا كا !
فتنتَ الكلّ والكلّ مع الفِتْنَةِ يهْوا كا

ويقال : أوّل مَنْ قاس إبليس ، فأخطأ فى القياس وهلك بخطئه . ويقال : إنّ أولَ حميّة وعصبية ظهرت عصبيةُ إبليس وحميته .

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق الجنة والنار]

فإن قيل: فما قول شيوخكم فى الجنّةوالنار ؟ فإنّ المشهور عنهم أنهما لم يُخلقاوسيخلقان

---

(١) فى المنتظم : « يعنى : لا إله إلا الله » .

(٢) عبارة المنتظم : « أفنسوا عزله ! » . قال ابن الجوزى بعد أن أورد هذه الحكايات : « لقد أدهشى نفاق هـذا الهذيان فى بغداد وهى دار العلم ، ولقد حضر مجلسه يوسف الهمذانى ، فقال : مدد كلام هذا شيطانى لاربانى ، ذهب دينه والدنيا لاتبقى له » .

(٣) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ؛ توفى سنة ٢٦١ . طبقات الصوفية للسلمى ٦٧ .

عند قيام الأجسام ، وقد دلّ القرآن العزيز ، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل بأنّ آدم كان فى الجنة وأخرج منها .

قيل : قد اختلف شيوخُنا رحمهم الله فى هذه المسألة ، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول : قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعدَم ولا يبقى فى الوجود إلا ذات الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ (٢) ، فلما كان « أوّلا » بمعنى أنه لا جسم فى الوجود معه فى الأزل وجب أن يكون « آخرا » ، بمعنى أنه لا يبقى فى الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال ، وبآيات كثيرة أخرى . وإذا كان لا بدّ من عدم سائر الأجسام لم يكنْ فى خَلْق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة ؛ لأنه لا بدّ أن يُفنيهما مع الأجسام التى تَفنى يوم القيامة، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى . ويَحْمِلون الآيات التى دلّت على كون آدم عليه السلام كان فى الجنة وأخرج منها ، على بستان من بساتين الدنيا . قالوا : والهبوط لا يدلّ على كونهما فى السماء لجواز أنْ يكون فى الأرض ؛ إلا أنهما فى موضع مرتفع عن سائر الأرض .

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا : إنهما مخلوقتان الآن ، واعترفوا بأنّ آدم كان فى جنة الجزاء والثواب ، وقالوا : لا يبعد أن يكون فى إخبار المكلّفين بوجود الجنة والنار لطف لهم فى التكليف ، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقا ، وإنما يكون صدقا إذا كان خَبَره على ما هو عليه .

***

[القول فى آدم والملائكة أيهما أفضل]

فإن قيل : فما الذى يقوله شيوخكم فى آدم والملائكة : أيّهما أفضل ؟

قيل : لا خلافَ بين شيوخنا رحمهم الله أنّ الملائكة أفضلُ من آدم ومن جميع الأنبياء

---

(١) سورة القصص ٨٨ .

(٢) سورة الحديد ٣ .

عليهم السلام ، ولو لم يدلّ على ذلك إلا قوله تعالى فى هذه القصة : ﴿ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ ﴾(١) ، لكفى .

وقد احتجّ أصحابنا أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(٢) ، وهذا كما تقول : لا يستنكف الوزير أنْ يعظمنى ويرفع من منزلتى ولا الملك أيضاً . فإن هـذا يقتضى كونَ الملك أرفع منزلة من الوزير . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، يقتضى كونهم أرفع منزلة من عيسى .

ومما احتجُّوا به قولُهُمْ : إنه تعالى لمـا ذكر جبريل ومحمداً عليهما السلام فى معرض المدح ، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾(٣) . فالمديح الأول لجبريل والثانى لمحمد عليهما السلام ، ولا يخفى تفاوتُ ما بين المدحين .

فإن قيل : فهل كان إبليسُ من الملائكة أم من نوع آخر ؟ قيل : قد اختُلف فى ذلك فمن قال : إنه من الملائكة احتجّ بالاستثناء فى قوله : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(٤) ، وقال : إنّ الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل . ومن قال : إنه لم يكنْ منهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾(٥) .

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا : إنّ الملائكة يُطلق عليهم لفظ الجنّ لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين . وقالوا : قد ورد ذلك فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ .

(٢) سورة النساء ١٧٢ .

(٣) سورة التكوير ١٩ ـ ٢٤ .

(٤) سورة الحجر ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) سورة الكهف ٥٠

وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ (١) ، والجنة هاهنا هم الملائكة ، لأنهم قالوا : إن الملائكةَ بناتُ اللهِ ، بدليل قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ (٢) ، وكتب التفسير تشتمل من هذا على مالا نرى الإطالة بذكره .

* * *

فأما القطب الراوندىّ فقال فى هذين الفصلين فى تفسير ألفاظهما اللغوية : العذْب من الأرض ما يُنبِت ، والسَّبَخ : مالا ينبت ؛ وهذا غير صحيح ، لأن السَّبخ يُنْبِت النخل ، فيلزم أن يكون عَذْبًا على تفسيره !

وقال : فجَبَل منها صورة ، أى خلق خلْقا عظيما . ولفظة « جَبَل » فى اللغة تدلّ على « خلَق » سواء كان المخلوقُ عظيما أو غير عظيم .

وقال : الوصول : جمع وُصْل ، وهو العضو ، وكلّ شىء اتصل بشىء فما بينهما وُصلة. والفصول : جمع فَصل وهو الشىء المنفصل ، وما عرفنا فى كتب اللغة أنّ الوُصل هو العضو ، ولا قيل هذا .

وقوله بعد ذلك : وكلّ شىء اتصل بشىء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير . والصحيح أنّ مراده عليه السلام أظهرُ من أن يُتَكَلَّف له هذا التكلّف ، ومراده عليه السلام أنّ تلك الصورةَ ذاتُ أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد ، وذاتُ أعضاء منفصلة فى الحقيقة ، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد بالمِرْفق واتصال الساق بالفَخذ .

ثم قال : يقال : استخدمته لنفسى ولغيرى ، واختدمتُه لنفسى خاصّة ، وهذا مما لم أعرفه ، ولعله نقله من كتاب .

---

(١) سورة الصافات ١٥٨ .

(٢) سورة الإسراء ٤٠ .

ثم قال : والإذعان : الانقياد ، والخنوع : الخضوع ؛ وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يُفيد أنهم أمِروا بالخضوع له فى السجود ، والثانى يفيد ثباتَهم على الخضوع لتكرمته أبدا .

ولقائل أن يقول : إنّه لم يكرر لفظة « الخنوع » ، وإنما ذكر أولا الإذعان ، وهو الانقياد والطاعة ، ومعناه أنهم سجدوا ، ثم ذكر الخنوع الذى معناه الخضوع ، وهو يعطى معنى غيرَ المعنى الأول ،(١) لأنه ليس كلُّ ساجدٍ خاضعا بقلبه ، فقد يكون ساجدا بظاهره دون باطنه . وقول الراونديّ : أفاد بالثانى ثباتَهم على الخضوع له لتكرمته أبدا تفسير لا يدلّ عليه اللفظ ، ولا معنى الكلام .

ثم قال : قبيلُ إبليس نسلُه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾(٢) ، وكل جيل من الإنس والجنّ قبيل . والصحيح أنّ قبيلَه نوعه ، كما أن البشر قبيل كل بشريّ ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا . وقد قيل أيضاً : كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا ، نحو أن يكون بعضهم رُوماً وبعضهم زَنْجاً ، وبعضهم عَرَبا ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ لا يدلّ على أنهم نسلُه .

وقوله بعد : «وكلُّ جيل من الإنس والجن قَبيل» ينقضُ دعواه أن قبيلَه لا يكون إلا نسله .

ثم تكلّم فى المعانى فقال : إن القياس الذى قاسه إبليس كان باطلا ، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض ، والأمر بالعكس ؛ لأنّ كلّ مايدخل إلى النار ينقص ، وكلّ مايدخل التراب يزيد . وهذا عجيب ! فإنّا نرى الحيوانات الميتة إذا دُفنت فى الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة فى الأرض ؛ على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضها ، وإنّما استحالت إلى صور أخرى .

---

(١) ا : « فإنه » .

(٢) سورة الأعراف ٢٧ .

ثم قال : ولما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح ، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة في ذلك الوقت وفيما بعده .

ولقائل أن يقول : أليس قد سَجَد يعقوب ليوسفَ عليه السلام ! أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضلُ من يعقوب ! ولا يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ ⁽¹⁾ : لا يدلّ على سجود الوالدين ؛ فلعلّ الضميرَ يرجع إلى الإخوة خاصة، لأنّا نقول: هذا الاحتمال مدفوع بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾⁽²⁾ ، وهو كناية عن الوالدين .

وأيضاً قد بيّنّا أنّ السجود إنما كان لله سبحانه، وأنّ آدم كان قِبلة ، والقِبْلة لا تكون أفضلَ من الساجد إليها ، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضلَ من النبيّ عليه السلام !

* * *

الأصْلُ :

وَٱصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى ٱلْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ ٱلرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ ٱللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَٱتَّخَذُوا ٱلأَنْدَادَ مَعَهُ، وَٱجْتَالَتْهُمُ ٱلشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَٱقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ ⁽³⁾ رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ ٱلْعُقُولِ ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ ٱلْمَقْدِرَةِ ؛ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ، وَأَحْدَاثٍ تَتَتَابَعُ عَلَيْهِمْ .

وَلَمْ يُخْلِ ٱللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ،

---

(١) سورة يوسف ١٠٠ . (٢) سورة يوسف ٤ .

(٣) مخطوطة النهج : « إليهم » .

أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ ؛ رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

اجتالتْهم الشياطين : أدارتهم ؛ تقول : اجتال فلان فلانا ، واجتاله عن كذا وعلى كذا ، أى أداره عليه ، كأنّه يصرّفه تارة هكذا وتارة هكذا ، يُحَسِّن له فعلَه ، ويُغْريه به .

وقال الراوندىّ : اجتالتْهم : عَدَلت بهم ؛ وليس بشىء .

وقوله عليه السلام : « واتَرَ إليهم أنبياءه » ، أى بعثهم وبيْن كل نبيَّيْن فترة، وهذا مما تغلَط فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراوندىّ أنّ المرادَ به المرادفة والمتابعة . والأوصاب : الأمراض . والغابر : الباقى .

* * *

ويُسأل فى هذا الفصل عن أشياء :

منها ، عن قوله عليه السلام : « أخَذَ على الوَحْى ميثاقهم » .

والجواب ، أنّ المراد أخذ على أداء الوحى ميثاقَهم ، وذلك أنّ كلّ رسول أرسِل فمأخوذٌ عليه أداء الرسالة ، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله عليه السلام : « ليستأدُوهم ميثاقَ فِطْرَته » ؟ هل هذا

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

إشارة إلى مايقوله أهل الحديث فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١) ؟

والجواب ، أنه لا حاجة فى تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر ، ومرادُه عليه السلام بهذا اللفظ أنه لمّا كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزةً فى العقول ، أرسلَ سبحانه الأنبياء أو بعضهم ، ليؤكدوا(٢) ذلك المركوزَ فى العقول. وهذه هى الفطرةُ المشار إليها بقوله عليه السلام : « كلّ مولود يُولَد على الفطرة » .

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله : «أو حُجّة لازمة» ؟ هل هو إشارة إلى مايقوله الإمامية ، من أنه لابُدّ فى كلّ زمان من وجود إمام معصوم ؟

الجواب ، أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك. ويمكن أن يكونَ المراد بها حُجّة العقل.

وأما القطب الراوندىّ، فقال فى قوله عليه السلام: «واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياء»: الولَد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر فى الأصل ، وليس بصحيح ، لأنّ الماضىَ «فعَل» بالفتح ، والمفتوح لا يأتى مصدرُه بالفتح ، ولكنّ « فَعَلاً » مصدر « فَعِل » بالكسر ، كقولك : وَلِهتُ عليه وَلَهاً ، ووَحِمت المرأةُ وَحَماً .

ثم قال : إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح ، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السِّيَر .

ثم قال : وكلٌّ واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر ، ولا يردعُه عن ذلك قلةُ عدد أوليائه ، ولا كثرةُ عدد أعدائه ؛ فيقال له: هذا خلاف قولك فى الأئمة المعصومين، فإنّك تجيز عليهم التقيّة وتركَ القيام بالأمر إذا كثُرت أعداؤهم .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « مِنْ سابق سُمّى له مَنْ بعده ، أو غابرٍ عرّفه

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٢) ا : « ليؤكد ذلك المركوز » .

مَنْ قبله » : كان من ألطاف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم ، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصياءهم ، فعرّفهم الله تعالى ذلك ، وكان من اللطف بالمتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوال المتقدمين من الأنبياء والأوصياء ، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً، فتمّ اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول: لو كان عليه السلام قال : «أو غابر عرّف من قبله» لكان هذا التفسير مطابقا ، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك ، وإنما قال : « عرّفه مَنْ قبله » وليس هذا التفسير مطابقا لقوله : « عرّفه ». والصحيح أنّ المراد به: من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء، أي عرّفه الله تعالى ذلك، أو نبيّ غابرٍ نصّ عليه مَنْ قبله ، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام .

* * *

الأَصْلُ :

عَلَىٰ ذَٰلِكَ نَسَلَتِ ٱلْقُرُونُ ، وَمَضَتِ ٱلدُّهُورُ ، وَسَلَفَتِ ٱلآبَاءُ ، وَخَلَفَتِ ٱلْأَبْنَاءُ ؛ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ ، وَإِتْمَامِ⁽¹⁾ نُبُوَّتِهِ ، مَأْخُوذاً عَلَى ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ؛ وَأَهْلُ ٱلْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلهِ بِخَلْقِهِ ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي ٱسْمِهِ ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ ٱلضَّلَالَةِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَهَالَةِ .

ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَكْرَمَهُ⁽²⁾ عَنْ دَارِ ٱلدُّنْيَا ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَىٰ ؛ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا ـ إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ،

---

(١) مخطوطة النهج : « وتمام » .

(٢) مخطوطة النهج : « فأكرمه » .

ولا عَلَمٍ قائمٍ ـ كتابَ ربِّكُمْ ، مُبَيِّناً (١) حَلالَهُ وحَرامَهُ ، وفرائِضَهُ وفضائِلَهُ ، وناسِخَهُ ومنسوخَهُ ، ورُخَصَهُ وعزائِمَهُ ، وخاصَّهُ وعامَّهُ ، وعِبَرَهُ وأمثالَهُ ، ومُرْسَلَهُ ومَحْدودَهُ ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشابِهَهُ ؛ مُفَسِّراً جُمَلَهُ ، ومُبَيِّناً غوامِضَهُ ؛ بَيْنَ مَأْخوذٍ ميثاقُ عِلْمِهِ ، ومُوَسَّعٍ عَلَى ٱلْعِبادِ فِي جَهْلِهِ ، وبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي ٱلْكِتابِ فَرْضُهُ ، ومَعْلومٍ فِي ٱلسُّنَّةِ نَسْخُهُ ، ووَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ ، ومُرَخَّصٍ فِي ٱلْكِتابِ تَرْكُهُ ، وبَيْنَ وَاجِبٍ لِوَقْتِهِ ، وَزائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ . ومُبايَنٌ بَيْنَ مَحارِمِهِ ، مِنْ كَبيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرانَهُ ، أَوْ صَغيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ . وبَيْنَ مَقْبولٍ فِي أَدْناهُ ، ومُوَسَّعٍ فِي أَقْصاهُ .

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : « نَسَلت القرون » ، ولدت . والهاء فى قوله : « لإنجاز عِدَته » راجعة إلى البارئ سبحانه . والهاء فى قوله : « وإتمام نبوّته » ، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وآله . وقوله : « مأخوذ على النبيين ميثاقه » ، قيل : لم يكن نبىّ قطّ إلا وبُشِّر ببعث محمد صلى الله عليه وآله ، وأخذ عليه تعظيمه ؛ وإن كان بعدُ لم يوجد .

فأما قوله : « وأهل الأرض يومئذ مِلَلٌ متفرّقة » ، فإن العلماء يذكرون أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله بُعث والناس أصناف شتى فى أديانهم : يهود ، ونصارى ، ومجوس ، وصائبون ، وعَبَدة أصنام ، وفلاسفة ، وزنادقة .

* * *

[القول فى أديان العرب فى الجاهلية]

فأما الأمة التى بُعِث محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب ؛ وكانوا أصنافاً شتى ،

---

(١) ب : « فيكم » .

فمنهم معطِّلة ، ومنهم غيرُ معطِّلة .

فأما المعطّلة منهم ، فبعضُهم أنكر الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ ٱلدَّهْرُ ﴾(١) ، فجعلوا الجامعَ لهم الطَّبْع ، والمهلِكَ لهم الدهر . وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعثَ ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾(٢). ومنهم مَنْ أقرّ بالخالق ونوعٍ من الإعادة ، وأنكروا الرّسلَ وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنها شفعاء عند الله فى الآخرة ، وحجّوا لها ، ونحروا لها الهدْىَ ، وقرَّبوا لها القُرْبان ، وحلّلُوا وحَرّموا ، وهم جمهور العرب ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (٣) .

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضُهم يرثى قتلى بدر(٤) :

فَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ   مِنَ ٱلْفِتْيانِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ !(٥)
ومَاذَا بالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ   مِنَ الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنَامِ(٦)
أيخبرنا ابنُ كبشة أن سَنَحْيَا   وَكَيْفَ حَيَاةُ أصْدَاء وَهَامِ !
إذَا ما الرأسُ زالَ بمنكبيْهِ   فقد شَبِعَ الأنيسُ مِنَ الطَّعامِ
أيقتُلِنى إذا ما كُنْتُ حَيًّا   وَيُحْيِينى إذَ رَمَّتْ عِظَامِى !

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ .   (٢) سورة يس ٧٨ .   (٣) سورة الفرقان ٧

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات وعددها ، ونسبها إلى شداد ابن الأسود .

(٥) ابن هشام :

* مِنَ الْقَيْنَاتِ والشرْبِ الكِرَامِ *

والقليب : البئر .

(٦) البيت فى اللسان ٧ : ٢٣٠ ، ورواه : « يزين بالسنام » ، وقال فى شرحه : الشيزى : شجر يتخذ منه الجفان ؛ وأراد بالجفان أربابها الذين كانوا يطعمون فيها ، وقتلوا ببدر وألقوا فى القليب ، فهو يرثيهم ، وسمى الجفان شيزى باسم أصلها » .

وكان من العرب مَن يعتقد التناسخ وتنقُّل الأرواح فى الأجساد ، ومن هؤلاء أربابُ الهامة ، التى قال عليه السلام عنهم : « لا عَدْوَى ولا هامة ولا صَفَر » (١) . وقال ذو الأصبع :

يا عَمْرُو إلّا تَدَعْ شَتْمِى ومَنْقَصَتِى   أضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهامَةُ اسْقُونِى (٢)

وقالوا : إنّ ليلى الأخيليّة لما سلّمت على قبر تَوْبة بن الحُميِّر خرج إليها هامة من القبر صائحة ، أفزعت ناقتها ، فوقصت (٣) بها فماتت ، وكان ذلك تصديق قوله :

وَلَوْ أنَّ لَيْلَى الأخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ   عَلَيَّ ودُونى جَنْدَلٌ وَصَفائِحُ (٤)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشاشة أو زَقَا   إليها صدًى مَنْ جانبِ القبرِ صائحُ

وكان تَوْبةُ وليلى فى أيام بنى أميّة .

وكانوا فى عبادة الأصنام مختلفين ، فمنهم مَنْ يجعلها مشارِكة للبارئ تعالى ، ويُطلِق عليها لفظة الشَّريك ، ومن ذلك قولهم فى التلبية : لَبَّيْك اللهمّ لَبَّيْك ، لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك ، تملكه وما مَلَك . ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك ، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه ، وهم الذين قالوا : ﴿ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ (٥) .

وكان فى العرب مشبّهة ومجسِّمة ، منهم أميّة بن أبى الصّلت ، وهو القائل :

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جالسٍ قَدْ حَطَّ رِجْـ   ـلَيْه إلى كُرْسِيِّه المنصوبِ

وكان جمهورهم عَبَدَةَ الأصنام، فكانَ وَدّ لِكَلْب بدُومة الجندل ، وسُواع لِهُذَيْل،

---

(١) كانت العرب تزعم أن فى البطن حية يقال لها الصفر ، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه . نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٢٦ .

(٢) من قصيدة مفضلية ، المفضليات ١٦٣ .

(٣) وقصت بها ، أى سقطت عنها فماتت .

(٤) ديوان الحماسة لأبى تمام - بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ . والصفائح : الحجارة العراض تكون على القبور .

(٥) سورة الزمر ٣ .

ونَسْر لِحِمْيَر ، ويَغُوث لهَمْدان ، واللّات لثَقِيف بالطائف ، والعُزّى لكِنانة وقُرَيش وبعض بنى سُلَيْم ، ومناة لغَسّان والأوْس والخزرج ، وكان هُبَل لقريش خاصّة على ظهر الكعبة ، وأساف(١) ونائلة على الصّفا والمرْوة. وكان فى العرب مَنْ يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن ، ومنهم نصارى كبنى تَغْلِب والعِباديّين رهط عَدىّ بن زيد ، ونصارى نَجْران ، ومنهم مَنْ كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء .

فأمّا الذين ليسوا بمعطِّلة من العرب فالقليل منهم ، وهم المتألّهون أصحابُ الورَع(٢) والتحرّج عن القبائح ، كعبدِ الله وعبد المطلب وابنه أبى طالب ، وزيد بن عمرو ابن نُفَيل ، وقُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وعامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ ، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفَصْل بيان قوله عليه السلام : « بينَ مشبِّه لله بخلقه أو مُلْحِدٍ فى اسمه » إلى غير ذلك ، وقد ظهر بما شرحناه .

* * *

ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وآله خَلّف فى الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً ، وعَلَماً قائماً ، والعلم المنار يُهتدى به .

ثم قَسّم ما بيّنه عليه السلام فى الكتاب أقساما :

فمنها حلاله وحرامه ؛ فالحلالُ كالنِّكاح ، والحرام كالزنا .

ومنها فضائله وفرائضه ، فالفضائل النوافل ؛ أى هى فضلة غير واجبة كركعتِى الصبح وغيرها ، والفرائض كفريضة الصبح .

وقال الرّاوندىّ : الفضائل هاهنا : جمع فضيلة ، وهى الدرجة الرفيعة؛ وليس بصحيح؛ ألا تراه كيف جعل الفرائض فى مقابلتها وقسيما لها ، فدلّ ذلك على أنه أراد النوافل!

---

(١) أساف وإساف ، كسحاب وكتاب .

(٢) ا : « التورع » .

ومنها ناسخه ومنسوخه ، فالناسخ كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾(١) ، والمنسوخ كقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(٢) .

ومنها رُخَصه وعزائمه ، فالرخص كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾(٣) والعزائم كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٤) .

ومنها خاصّه وعامه ، فالخاصّ كقوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾(٥) ، والعامّ كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾(٦) . ويمكن أن يراد بالخاصّ العمومات التى يُراد بها الخصوص كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٧) ، وبالعام ما ليس مخصوصا ، بل هو على عمومه كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٨) .

ومنها عِبَرُه وأمثالُه ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل ، وكالآيات التى تتضمّن النَّكال والعذابَ النازل بأمم الأنبياء من قبل ، والأمثال كقوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾(٩) .

ومنها مرسله ومحدوده ، وهو عبارة عن المطلق والمقيَّد ، وسمّى المقيد محدوداً وهى لفظة فصيحة جدًّا ، كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾(١٠) ، وقال فى موضع آخر : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾(١١) .

ومنها محكمه ومتشابهه ، فمحكمه كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾(١٢) ، والمتشابه كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(١٣) .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية ، فقال : إنّ منه ما لا يسع أحداً جهله

---

(١) سورة التوبة ٥

(٢) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٣) سورة المائدة ٣ .

(٤) سورة محمد ١٩ .

(٥) سورة الأحزاب ٥٠

(٦) سورة البقرة ١١٠

(٧) سورة النمل ٢٣

(٨) سورة البقرة ٢٨٢

(٩) سورة البقرة ١٧

(١٠) سورة المجادلة ٣

(١١) سورة النساء ٩٢

(١٢) سورة الإخلاص ١

(١٣) سورة القيامة ٢٣

ومنه ما يسع الناس جهله ؛ مثال الأول قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(١) ، ومثال الثانى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ﴿ حمٓ عٓسٓقٓ ﴾ .

ثم قال : ومنه ما حكمه مذكور فى الكتاب منسوخ بالسُّنة ، وما حكمه مذكور فى السّنّة منسوخ بالكتاب ؛ مثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾(٢) ؛ نسخ بما سنّه عليه السلام من رجْم الزانى المحصَن . ومثال الثانى صوم يوم عاشوراء، كان واجبا بالسّنّة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنصّ الكتاب .

ثم قال : « وبين واجبٍ بوقته ، وزائل فى مستقبله » ، يريد الواجبات الموقّتة كصلاة الجمعة ، فإنها تجب فى وقت مخصوص ، ويسقط وجوبها فى مستقبل ذلك الوقت .

ثم قال عليه السلام : « ومباين بين محارمه » ، الواجب أن يكون « ومباينٌ » بالرّفع لا بالجرّ ، فإنه ليس معطوفا على ما قبله ، ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعى الشىء وضدّه ، أو الشىء ونقيضه ؛ وقوله : « ومباين بين محارمه » لا نقيض ولا ضدّ له ، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين : أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين ، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع « مباين » ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . ثم فسّر ما معنى المباينة بين محارمه ، فقال : إنّ محارمَه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة ، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب ، والصغيرة مغفورة ؛ وهذا نصّ مذهب المعتزلة فى الوعيد .

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة ، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال : « وبين مقبول فى أدناه ، وموسّع فى أقصاه » ، كقوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾(٣) فإنّ القليل من القرآن مقبول ، والكثير منه موسّع مرخّص فى تركه .

* * *

---

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٢) سورة النساء ١٥

(٣) سورة المزمل ٢٠

الأَصْلُ :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ، وَيَوْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ الْحَمَامِ. وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ. وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، وَفَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ(١)، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

* * *

الشَّرْحُ :

الوَلَه: شدة الوَجْد؛ حتى يكاد العقل يذهب، ولَهَ الرجل يَوْلَهُ ولَهاً. ومن روى: «يألهون إليه وُلوه الحمام» فسّره بشيء آخر، وهو: يعكفون عليه عُكوف الحمام. وأصل «أَلَه» عَبَد، ومنه الإله، أي المعبود. ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له لملازمته والانقطاع إليه قيل: أَلَه فلان إلى كذا، أي عكف عليه كأنه يعبده. ولا يجوز أن يقال: «يألهون إليه» في هذا الموضع بمعنى «يَوْلَهون»، وأنّ أصل الهمزة الواو كما فسره الراوندي؛ لأن «فعولا» لا يجوز أن يكون مصدرا من فَعِلت بالكسر، ولو كان «يألهون» هو «يَوْلَهون»، كان أصله «أَلِه» بالكسر، فلم يجز أن يقول: «ولوه الحمام»، وأما على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكونَ الولوه مصدراً، لأن «أَلَه» مفتوح، فصار كقولك: دخل دخولا. وباقي الفصل غنيّ عن التفسير.

---

(١) مخطوطة النهج: «فرض حجه، وأوجب حقه».

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

[فصل فى فضل البيت والكعبة]

جاء فى الخبر الصحيح أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح ، وأنّ هذ البيت تحته على خط مستقيم ، وأنه المراد بقوله تعالى بـ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾(١) ، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده ، وفى الحديث : إنّ آدم لما قضى مناسكه ، وطاف بالبيت لقيتْه الملائكة ، فقالت : يا آدم ؛ لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفىْ عام .

قال مجاهد : إنّ الحاجّ إذا قدموا مكّة استقبلتْهم الملائكة ، فسلّموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمير ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً .

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاجّ ، ويقبِّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنّسوا بالذنوب والآثام .

وفى الحديث : « إن الله تعالى قد وَعَد هذا البيت أن يحجّه فى كلّ سنة ستمائة ألف ، فإن(٢) نقصوا أتمّهم الله بالملائكة ، وإنّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، وكلّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعوْن حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها » .

وفى الحديث : « إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلا الوقوفُ بعرفة » . وفيه : «أعظم الناس ذنبا مَنْ وقف بعرَفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له » .

عمر بن ذرّ الهمدانىّ : لما قضَى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودِّعا للبيت : مازلنا نحلّ إليك عُرْوة ، ونشدّ إليك أخرى ، ونصعد لك أكمة ، ونهبط أخرى ، وتخفضنا أرض ، وترفعنا أخرى ، حتى أتيناك . فليت شعرى بم يكون مُنصَرَفنا ؟ أبذنب مغفورٍ ، فأعظِمْ بها من نعمة ! أم بعملٍ مردودٍ فأعظم بها من مصيبة ! فيا مَنْ له خرجنا ، وإليه

---

(١) سورة الطور ٤

(٢) أ : « وإن »

قصدنا ، وبحرَمه أنخنا ، ارحم . يامعطىَ الوفد بفنائك ، فقد أتيناك بها معرّاة جُنودها ، ذابلةً أسنمتها ، نَقِبةً[1] أخفافها . وإنّ أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتنفتنا الخيبة . اللهمّ وإن للزّائرين حقًّا فاجعل حقّنا عليك غفرانَ ذنوبنا ، فإنك جواد كريم ، ماجدٌ لاينقصك نائل ، ولا يبخّلك سائل .

ابن جريج : ماظننت أنّ الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبى ربيعة ، حتى كنتُ باليمن ، فسمعتُ مُنشداً يُنشد قوله :

بِاللهِ قُولَا لَهُ فِى غَيْرِ مَعْتَبَةٍ   مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمُكْثِ فِى الْيَمَنِ ![2]
إنْ كنتَ حاولتَ دنيا أوظَفِرْتَ بِهَا[3]   فما أَخَذْتَ بِتَرْكِ الحجِّ مِنْ ثَمَنِ !

فحرّكنى ذلك على ترك اليمن ، والخروج إلى مكّة ، فخرجت فحججْتُ .

سمع أبو حازم امرأة حاجّة ترفثُ[4] فى كلامها ، فقال : ياأمة الله ، ألست حاجّة ! ألا تتّقين الله ! فسفرت عن وجه صَبيح ، ثم قالت له : أنا من اللواتى قال فيهنّ العرجىّ[5] :

أماطَتْ كِسَاءَ الْخزِّ عَنْ حُرِّ وجهِهَا   وردَّتْ على الخدِّ بُرْداً مهلهلا
مِن اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً   وَلَكِنْ لِيقتُلْنَ البرىء المغفَّلَا

فقال أبو حازم : فأنا أسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيّب ، فقال : رحم الله أبا حازم ! لوكان من عُبّاد[6] العراق ، لقال لها : اعزُبى ياعدوّة الله ! ولكنّه ظَرْفُ نُسّاك الحجاز[7] .

---

(١) نقبة ، من نقب البعير ، إذا رقت أخفافه .

(٢) ديوانه ٢٨٤ ، والمعتبة : العتاب .   (٣) الديوان : « أو نعمت بها » .

(٤) الرفث : الفحش فى القول .   (٥) فى جميع الأصول عمر بن أبى ربيعة ، والصواب أنهما للعرجى؛ وهما من قصيدة فى ديوانه ٧١ ـ ٧٥ ، مطلعها :

رَأَتْنِى خَضِيبَ الرَّأْسِ شَمَّرْتُ مِئْزَرِى   وَقَدْ عَهِدَتْنِى أَسْوَدَ الرَّأْسِ مُسْبِلاَ

ونسبهما إليه أبو الفرج فى الأغانى ١ : ٤٠٤ (طبعة دار الكتب) .

(٦) الأغانى : « من بعض بفضاء » .   (٧) الأغانى : « ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز » .

[فصل فى الكلام على السجع]

واعْلم أنّ قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجْع ، وأدخلوا خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام فى جملة ماعابوه ؛ لأنه يقصِد فيها السجع ، وقالوا : إنّ الخطبَ الخاليةَ من السَّجْع والقرائن والفواصل ، هى خطبُ العرب ، وهى المستحسَنة الخالية من التكلّف ، كخطبة النبىّ صلى الله عليه وآله فى حِجّة (١) الوداع ، وهى :

الحمد لله ، نحمَده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا . مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ومَنْ يُضْلِل الله فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

أوصِيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛ وأحثُّكم على العمل بطاعته ، وأستفتح الله بالذى هو خير . أما بعدُ ، أيّها الناس ، اسمعوا منّى أبيّن لكم ، فإنّى لا أدرى ، لعلّى لا ألقاكم بعدعامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلَى أن تلقوْا ربكم ، كحرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا أهلْ بلّغت ؟ اللهم اشهد .

مَنْ كانتْ عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإنّ ربا الجاهلية موضوع (٣) ، وأوّل رِباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأولُ دم أبدأ به دم آدم (٤) بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعةغير

---

(١) اللسان : « والحجة : المرة الواحدة ؛ وهو من الشواذ ؛ لأن القياس بالفتح » .

(٢) الخطبة فى سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٠ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣١ ، والطبرى ٣ : ١٦٨ ، وإعجاز القرآن للباقلانى ١٩٨ ، والعقد ٤ : ٥٧ ، وابن الأثير ٢ : ٢٠٥ .

(٣) يقال : وضعت الدين والجزية عنه ونحوهما ، إذا أسقطته .

(٤) كذا فى ب ، وهو يوافق ماذكره السهيلى ، قال : اسمه آدم ، وكان مسترضعا فى هذيل ، وقيل : اسمه تمام ؛ وكان سبب قتله حرب كانت بين قبائل هذيل ، تقاذفوا فيها بالحجارة ، فأصاب الطفل حجر وهو يحبو بين البيوت . وفى ا « عامر » ، وهو يوافق مافى البيان والتبيين والعقد ؛ وفى الطبرى والباقلانى : « دم ابن ربيعة بن الحارث » .

السِّدانة والسِّقاية(١) . والعَمْد(٢) قَوَدٌ ، وشِبْه العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجَر ، فيه مائة بعير ، فمن ازداد فهو من الجاهلية .

أيّها النّاس ، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه ، ولكنّه قد رضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحتقرون من أعمالكم .

أيّها الناس ، إنما النّسِيء(٣) زيادة فى الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحِلّونه عاماً ، ويحرِّمونه عاماً ، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض ، وإن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض ، منها أربعةٌ حُرم ، ثلاثة متواليات وواحد فَرْد : ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب ، الذى بين جُمادى وشعبان ، ألا هلْ بلّغت !

أيّها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهنّ حقًّا ، فعليهنّ ألّا يوطِئْن فُرُشكم غيركم ، ولا يُدْخِلْن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ؛ فإن فعَلْنَ فقد أُذِن(٤) لكم أن تهجروهنّ فى المضاجع وتضربوهنّ ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف ، فإنما النّساء عندكم عَوانٍ(٥) لا يملكْن لأنفسهنّ شيئا ، أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصُوا بهنّ خيرا .

---

(١) السدانة : خدمة الكعبة ، بفتح السين وكسرها . والسقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء .

(٢) القود : القصاص ، أى من قتل متعمدا يقتل .

(٣) النسيء : تأخير حرمة شهر إلى آخر ؛ وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ، فيحلون المحرم ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ؛ وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى . وانظر تفسير الألوسى ٣ : ٣٠٥ .

(٤) أذن ، بالفتح : أباح .

(٥) عوان : أسيرات .

أيّها النّاس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مالُ أخيه إلا على طيب نفس . ألا هل بلغت اللهم اشهد !

ألا لاترْجعوا بعدى كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض ، فإنّى قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا : كتاب الله ربكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ، إنّ ربّكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلّكم لآدم وآدم من تراب ؛ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى ، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

أيها الناس، إن الله قسّم لكلّ وارث نصيبَه من الميراث ، ولا تجوز وصية فى أكثرَ من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجَر . من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيرَ مواليه فهو ملعون ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عدلا (١) . والسلام عليكم ورحمة الله عليكم .

* * *

واعلم أنّ السجعَ لو كان عيبا لكان كلام الله سبحانه معيبا لأنه مسجوع ، كلّه ذو فواصلَ وقرائن؛ ويكفى هذا القدر وحده مبطلا لمذهب هؤلاء . فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذاتَ سجع ؛ فإنّ أكثر خطبه مسجوع ، كقوله: إنّ مع العزّ ذُلاًّ ، وإنّ مع الحياة موتا، وإنّ مع الدنيا آخرة ، وإنّ لكل شىء حسابا، ولكلّ حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، وإنّ على كل شىء رقيبا ، وأنه لابدّ لك من قرين يُدفن معك هو حىّ وأنت ميت ؛ فإنْ كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما أسلمك ، ثم لايحشر إلا معك ، ولا تبعث إلا معه ، ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحا فإنه إن صَلَح أنست به ، وإن فسد لم تستوحش إلّا منه ، وهو عملك .

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطّوال كلها . وأما كلامه

---

(١) أى لايقبل منهم شىء ، وأصل العدل أن يقتل الرجل الرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

القصير ، فإنّه غير مسجوع، لأنه لا يحتمل السجع، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

فأما قولهم : إنّ السجع يدلّ على التكلّف ، فإنّ المذموم هو التكلّف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ؛ فأمّا التكلّف المستحسن ، فأىّ عيب فيه ! ألا ترى أنّ الشعرَ نفسَه لا بدّ فيه من تكلُّف إقامة الوزن ؛ وليس لطاعن أن يطعَن فيه بذلكَ !

واحتجّ عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكِراً عليه: «أسَجْعاً كسجع الكهان!»، ولولا أنّ السجعَ منكَر لما أنكر عليه السلام سجعَ الكُهّان وأمثاله. فيقال لهم: إنما أنكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكهّان أمثاله، لا السجعَ على الإطلاق ، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر فى الجنين بغُرّة (١) ، فقال قائل : أأدِى مَنْ لا شَرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ ؛ ومثل هذا يُطَلّ (٢) ! فأنكر عليه السلام ذلك ، لأنّ الكهان كانوا يحكمون فى الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم: حبة بُرّ ، فى إحليل مُهْر . وقولهم: عبد المسيح، على جمل مُشِيح (٣)، لرؤيا المؤبذان، وارتجاس الإيوان؛ ونحو ذلك من كلامهم. وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيمَ والسحر ، ونهَى عنها ، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار؛ ومراده به تأكيدُ تحريم العمل على أقوال الكهنة. ولو كان عليه السلام قد أنكر السجعَ لما قاله ، وقد بيّنّا أنّ كثيراً من كلامه مسجوع ، وذكرنا خطبته .

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبرُ ابن مسعود رحمه الله تعالى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «استحيوا من الله حقّ الحياء» ، فقلنا: إنّا لنستحيي يا رسول الله من الله تعالى ، فقال : « ليس ذلك ما أمرتُكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس

---

(١) الغرة : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . انظر النهاية لابن الأثير (٣ : ١٥٥) .

(٢) الطل : هدر الدم .

(٣) جمل مشيح : جاد مسرع .

وما وعَى ، والبطن وما حوَى ، وتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة تَرك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أولَ قدومه إليها : « أيُّها الناس، أفْشوا السلام ، وأطعِموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وعَوّذَ الحسنَ عليهما السلام ، فقال: «أعيذك من الهامّة، والسامّة ، وكلّ عين لامّة »؛ وإنما أراد « ملمّة » ، فقال : « لامّة » لأجل السجع .

وكذلك قوله : « ارجعن مأزورات، غيرَ مأجورات » ؛ وإنما هو « موزورات »، بالواو .

— ٢ —

ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين :

صِفّين : اسم الأرض التى كانت فيها الحرب ، والنون فيها أصليّة ، ذكرَ ذلك صاحب "الصّحاح"(١)؛ فوزنُها على هذا « فِعّيل » كفسّيق ، وخمّير ، وصِرِّيع ، وظِلّيم ، وضلّيل .

فإن قيل : فاشتقاقه مما ذا يكون ؟

قيل : لو كان اسما لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ — إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر — يَصْفِن بالكسر ، صُفونا . أو من صَفَن القوم ، إذا صفّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض(٢) .

فإن قيل : أيمكنُ أن يُشتقّ من ذلك وهو اسم أرض ؟

قيل : يمكن على تعسّف ، وهو أن تكونَ تلك الأرض لمّا كانت مما تَصفِن فيها الخيل ، أو تصطفّ فيها الأقدام ؛ سميت صِفّين .

فإن قيل : أيمكن أن تكونَ النونُ زائدةً مع الياء ، كما هما فى « غِسْلين » و « عِفْرِين » ؟

قيل : لو جاء فى الأصل « صِفّ » ، بكسر الصاد لأمكن أن تُتَوهّم الزيادة ، كالزيادة

---

(١) الصحاح ، ٢١٥ ؛ أى أنه ذكرها فى مادة «صفن» .

(٢) ا : « عن بعض » .

فى غِسْل ، وهو ما يُغتَسل به ، نحو الخِطْمىّ وغيره ، فقيل : غِسْلين ، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم ، وكالزيادة فى عِفْر وهو الخبيث الداهى(١) ، فقيل : عِفْرِين ، لمأسدة بعينها . وقيل : عفريت للداهية ، هكذا ذكروه .

ولقائل أن يقول لهم : أليس قد قالوا للأسد : عَفَرْنَى ، بفتح العين ، وأصله العِفْر ، بالكسر ، فقد بان أنهم لم يراعُوا فى اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركةَ المخصوصة ، وإنّما يراعون الحرف ، ولا كلّ الحروف ، بل الأصلىّ منها ؛ فغير ممتنع على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين فى « صِفِّين » .

وصفّين : اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف ، قال(٢) :

إنّى أدِينُ بمـا دَانَ الوصىُّ بِهِ　　يوم الخرَيْبة مِنْ قَتْل الْمُحِلّينا(٣)
وبالذى دَان يومَ النّهْرِ دِنْتُ بِهِ　　وشَارَكَتْ كَفّهُ كَفِّى بِصفِّينَا
تلكَ الدِّماء معاً يا ربِّ فى عُنُقى　　ثم اسقنِى مِثْلَهَا آمِـــينَ آمينَا

* * *

الأصْـلُ :

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ ، واسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَىٰ كِفَايَتِهِ ؛ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ ، وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ، وأَفْضَلُ ما خُزِنَ . وأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلٰهَ إِلّا اللهُ (٤ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ٤) ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها ، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا ، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً

---

(١) يقال : رجل داه وداهية ؛ بمعنى .
(٢) هو السيد الحميرى ؛ والأبيات بنسبتها إليه فى الكامل ٧ : ١٧٧ ـ بشرح المرصفى .
(٣) الخريبة : موضع بالبصرة ؛ كانت عنده وقعة الجمل ؛ ذكره ياقوت ؛ واستشهد بالبيت ، وفى الأصول : « الحريبة » ، بالحاء ؛ تصحيف . وفى الكامل : « يوم النخيلة » .
(٤ ـ ٤) ، ساقط من ا ، ومخطوطة النهج .

مَا أَبْقَانَا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا ؛ فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ ٱلْإِيمَانِ ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ ، وَمَدْحَرَةُ ٱلشَّيْطَانِ .

* * *

الشَّرْحُ :

وأل ، أى نجا ، يئِل . والمُصاص : خالص الشيء . والفاقة : الحاجة والفقر . الأهاويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هَوْل ، فهو جمع الجمع ، كما قالوا : أنعام وأناعيم . وقيل : أهاويل أصله تهاويل ، وهى ما يهولك من شيء ، أى يروعك ، وإن جاز هذا فهو بعيد ، لأن التاء قلّ أن تبدلَ همزة . والعزيمة : النية المقطوع عليها ، ومدحرة الشيطان ، أى تدحَره ، أى تبعده وتطارده .

وقوله عليه السلام : «استتماماً» و«استسلاماً» ، و «استعصاماً» ؛ من لطيف الكناية وبديعها ، فسبحان مَن خصّه بالفضائل التى لا تنتهى ألسنةُ الفصحاء إلى وصفها ، وجعله إمام كلّ ذى علم ، وقدوةَ كلّ صاحب خِصِّيصَة !

وقوله : « فإنه أرجح » ، الهاء عائدة إلى ما دلّ عليه قوله : «أحمده» ، يعنى الحمد ، والفعل يدلّ على المصدر ، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾⁽١⁾ وهو ضمير البخل الذى دلّ عليه قوله : ﴿ يَبْخَلُون⁽١⁾ ﴾ .

* * *

[باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه]

وقوله عليه السلام : « وُزِن وخُزِن » ، بلزوم الزاى ، من الباب المسمّى لزوم ما لا يلزم ، وهو أحد أنواع البديع ، وذلك أن تكون الحروف التى قبل الفَاصلَة حرفا واحدا ؛ هذا

---

(١) سورة آل عمران ١٨٠ ، والآية بتمامها ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

فى المنثور ، وأما فى المنظوم فأن تتساوى الحروف التى قبل الروىّ مع كونها ليست بواجبة التساوى ، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة(١) :

بَيْضَاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا   بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّهَا(٢)
حَجَبَتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبى   ما كانَ أكثرَها لنا وأقلَّها
وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوةٍ   شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّها(٣)

ألا تراه كيف قد لَزِم اللام الأولى من اللامين اللَّذَيْن صارا حرفا مشدّدا ! فالثانى منهما هو الروىّ ، واللام الأول الذى قبله التزام مالا يلزم ؛ فلو قال فى القصيدة : وصلها ، وقبلها ، وفعلها ، لجاز .

واحترزنا نحن بقولنا : « مع كونها ليست بواجبة التساوى » عن قول الراجز ، وهو من شعر الحماسة أيضاً :

وَفَيْشَةٍ ليستْ كهذى الفَيْشِ   قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَزَقٍ وَطَيْشِ(٤)
إذا بَدَتْ قلتَ أميرُ الجيشِ   مَنْ ذاقَها يعرف طَعْمَ العَيْشِ

فإنّ لزوم الياء قبل حرف الروىّ ليس من هذا الباب ، لأنه لزوم واجب ، ألا ترى أنه لو قال فى هذا الرجز : البطْش والفرْش والعرْش لم يجز ، لأن الرِّدف(٥) لا يجوز أن يكون حرفا خارجا عن حروف العلة . وقد جاء من اللزوم فى الكتاب العزيز مواضع

---

(١) من أبيات أربعة ؛ أولها :

إنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا   خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

وهى فى الحماسة ـ بشرح المرزوقى ١٢٣٥ ، وأمالى القالى (١ : ١٥٦) من غير نسبة ، ونقل التبريزى عن أبى رياش أنها لعروة بن أذينة .

(٢) أدقها وأجلها ، أى أتى بها دقيقة العين والأنف والثغر والخصر ، جليلة الساق والفخذ والصدر .

(٣) الحماسة : * شَفَعَ الضَّمِيرُ لَهَا إِلَيَّ فَسَلَّهَا *

(٤) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٣٤٠ .

(٥) الردف عند العروضيين ، هو حرف لين أو مد قبل الروى يتصلان به .

ليست بكثيرة ، فمنها قوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾(٤) ،وقوله : ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾(٥) ؛ وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾(٦) ، وقوله: ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٧) ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصدُه .

ومما ورد منه في كلام العرب أنّ لَقيط بن زُرارة تزوّج ابنة قيس بن خالد الشيبانيّ فأحبّته ، فلما قُتِل عنها تزوّجت غيره ، فكانت تذكر لقيطا ، فسألها عن حُبِّها له ، فقالت: أذكره وقد خرج تارة في يوم دَجْن ، وقد تطيّب وشرب الخمر ، وطَرد بقراً ، فصرع بعضها ، ثم جاءني وبه نَضْحُ دمٍ وعبير ، فضمني ضَمَّة ، وشمني شمة ، فليتني كنت مِتُّ ثَمَّة .

وقد صنع أبو العلاء المعري كتابا في اللزوم من نظمه ، فأتى فيه بالجيد والرديء ، وأكثره متكلَّف ، ومن جيده قوله :

لَا تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لكَ حَالَةً   قَلَمُ البَلِيغِ بِغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ(٨)
سَكَنَ السِّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلَاهُمَا   هذا له رمحٌ وهذا أعزَلُ

* * *

الأصْلُ :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ ،

---

(١) سورة مريم ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة ق ٢٧ ، ٢٨
(٣) سورة العلق ١ ، ٢
(٤) سورة الطور ١ ، ٢
(٥) سورة الطور ٢٩ ، ٣٠
(٦) سورة الواقعة ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة الأنفال ٣٩ ، ٤٠
(٨) لم يرد البيتان في نسخ اللزوميات ، ونسبهما إليه ابن خلكان (١ : ٣٣) ، وابن الوردي ، وصاحب مرآة الجنان ، وابن كثير (حوادث ٤٤٩) ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٨١ ، وتقديم أبي بكر لابن حجة ٤٣٥ ، وفي ابن خلكان : « لك رتبة » .

وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ، وتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وضَاقَ الْمَخْرَجُ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ؛ فَالْهُدَى خَامِلٌ، والْعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمَانُ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ، وخُذِلَ الْإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، ودَرَسَتْ سُبُلُهُ، وعَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ؛ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وقَامَ لِوَاؤُهُ. فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا، وقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وشَرِّ جِيرانٍ؛ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ؛ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ.

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام: «والعلَمَ المأثور»، يجوز أن يكون عَنَى به القرآن؛ لأن المأثور المحكيّ، والعلَمَ ما يُهتدَى به، والمتكلّمون يسمون المعجزات أعلاماً. ويجوز أن يريدَ به أحدَ معجزاته غير القرآن؛ فإنها كثيرة ومأثورة، ويؤكد هذا قولُه بعد: «والكتاب المسطور»، فدلّ على تغايُرهما، ومن يذهب إلى الأول يقول: المراد بهما واحد، والثانية توكيدُ الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة.

والصادع: الظاهر الجليّ، قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(١)، أى أظهره ولا تُخْفِه.

والمَثُلات؛ بفتح الميم وضم الثاء: العقوبات، جمع مَثُلَة؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾(٢).

وانجذم: انقطع. والسَّوارى: جمع سارية، وهى الدِّعامةُ يدعم بها السّقف. والنَّجْر:

---

(١) سورة الحجر ٩٤ (٢) سورة الرعد ٦

الأصل ، ومثله النِّجار . وانهارَت: تساقطت . والشُّرُكُ : الطرائق، جمع شِراك. والأخفاف للإبل ، والأظلاف للبقر والمعز .

وقال الراوندىّ فى تفسير قوله : « خير دار ، وشرّ جيران » : خير دار : الكوفة. وقيل : الشام ؛ لأنها الأرض المقدسة ، وأهلها شرّ جيران ، يعنى أصحابَ معاوية . وعلى التفسير الأول يعنى أصحابه عليه السلام .

قال : وقوله: « نومهم سهود » ، يعنى أصحابَ معاوية لا ينامون طول الليل، بل يرتّبون أمرَه . وإن كان وصفا لأصحابه عليه السلام بالكوفة — وهو الأقرب — فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إياه ؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم .

وكحلهم دموع ، أى نفاقا ، فإنه إذا تمّ نفاقُ المرء مَلَك عينيه .

ولقائل أن يقول : لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية ، والكلام كلّه فى وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله. ثم لا يخفى ما فى هذا التفسير من الركاكة والفجاجة، وهو أن يريد بقوله : « نومهم سهود » ، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية ، لا ينامون ، وأن يريد بذلك أنّ أصحابه يبكون من خوف معاوية وعساكره ، أو أنّهم يبكون نفاقا ؛ والأمر أقرب من أن يُتَمحّل له مثل هذا .

ونحن نقول : إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية ، وقوله : « فى خير دار » يعنى مكة، و « شرّ جيران » ، يعنى قريشا، وهذا لفظ النبى صلى الله عليه وآله حين حَكَى بالمدينة حالةً كانت فى مبدأ البعثة ، فقال : « كنت فى خير دار » و « شرّ جيران ». ثم حكى عليه السلام ما جرى له مع عُقْبة بن أبى مُعَيط ، والحديث مشهور .

وقوله : « نومهم سهود ، وكحلهم دموع » مثل أن يقول : جودهم بخل ، وأمنهم خوف ، أى لو استماحهم محمد عليه السلام النومَ لجادوا عليه بالسهود عوضا عنه ، ولو استجداهم الكُحْل لكان كحلهم الذى يصلونه به الدموع .

ثم قال : « بأرض عالمها مُلْجَم » ، أى من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به فى تقيّة وخوف . « وجاهلها مكرَم » ، أى مَنْ جحد نبوّته وكذّب به فى عز ومنعة . وهذا ظاهر .

* * *

الأصْلُ :

ومنها – ويعنى آل النبي صلى الله عليه :

هُمْ مَوْضعُ سِرِّهِ ، ولَجَأُ أمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ، ومَوْئِلُ حُكْمِهِ ، وكُهُوفُ كُتُبِه ، وَجبَالُ دِينِهِ . بِهِمْ أقَامَ انْحِنَاء ظَهْرِهِ ، وأذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه .

الشَّرْحُ :

اللجأ : ماتلتجئ إليه ، كالوزَر ماتعتصم به . والموئل : ماترجع إليه ؛ يقول : إن أمر النبي صلى الله عليه وآله – أى شأنه – ملتجِئ إليهم ، وعلمه مودَع عندهم ؛ كالثوب يودَع العيْبة. وحُكْمه – أى شرعه – يرجع ويؤول إليهم . وكتبه – يعنى القرآن والسنة – عندهم ، فهم كالكهوف له ، لاحتوائهم عليه . وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين ؛ أو أنّ الدين ثابت بوجودهم ؛ كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال ، ولولا الجبال لمادتْ بأهلها .

والهاء فى « ظهره » ترجع إلى الدين ، وكذلك الهاء فى « فرائصه » والفرائص : جمع فَرِيصة ، وهى اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة .

* * *

الأصْلُ :

ومنها فى المنافقين :

زَرَعُوا الفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الغُرُورَ ، وحَصَدُوا الثُّبُورَ ، لَا يُقَاسُ بآلِ مُحَمَّدٍ صَلّى ٱللّهُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أبَداً . هُمْ أَسَاسُ ٱلدِّينِ ، وَعِمَادُ ٱلْيَقِينِ ، إليهم يَفِيءُ الغَالِي ، وبِهِمْ يُلْحَقُ

التَّالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايةِ ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّـةُ وَالْوِرَاثَةُ . الآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

جعل مافعلوه من القَبيح بمنزلة زَرْع زرعوه ، ثم سقوْه ، فالذى زرعوه الفجور ، ثم سقوْه بالغرور ؛ والاستعارة واقعـة موقِعَها ، لأن تماديَهم وماسكنت إليه نفوسهم من الإمهال، هو الذى أوجَب استمرارهم على القبائح التى واقعوها، فكان ذلك كما يُسقى الزرع، ويربَّى بالماء ويستحفظ .

ثم قال : « وحصدوا الثبور » ، أى كانت نتيجـة ذلك الزرع والسقى حصادَ ماهو الهلاك والعطب .

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضىّ رحمه الله ، وإنما هى إشارة إلى مَنْ تغلّب عليـه ، وجَحد حقه كمعاوية وغـيره . ولعل الرضىّ رحمه الله تعالى عرَف ذلك وكنّى عنه .

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله، فقال : « هم أصول الدين، إليهم يفىء الغالى ، وبهم يلحَق التالى » ؛ جعلهم كمِقْنب يسير فى فلاة، فالغالى منه أى الفارط المتقدم، الذى قد غلا فى سيره يرجع إلى ذلك المِقْنب إذا خاف عدوًّا ، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنب فصار تاليا له يلتحق به إذا أشفَق من أن يُتخطَّف .

ثم ذكر خصائص حق الولاية، والولاية : الإمْرة؛ فأما الإماميّة فيقولون: أراد نصّ النبى صلى الله عليه وآله عليه وعلى أولاده. ونحن نقول: لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق .

ثم قال عليه السلام : « وفيهم الوصية والوراثة »، أما الوصيَّة فلا ريبَ عندنا أنّ عليا عليه السلام كان وصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنْ خالف فى ذلك مَنْ هو منسوب

عندنا إلى العناد ، ولسنا نعنى بالوصية النصَّ والخلافة ، ولكن أموراً أخرى لعلّها ـ إذا لُمِحت ـ أشرفُ وأجلّ .

وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة ، ونحن نحملها على وراثة العلم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ فيما قبل فى غير أهله ، ونحن نتأوّل ذلك على غير ماتذكره الإماميّة ، ونقول : إنّه عليه السلام كان أوْلى بالأمر وأحقّ ، لا على وجه النصّ ، بل على وجه الأفضليّة ، فإنه أفضلُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحقُّ بالخلافة من جميع المسلمين ؛ لكنه ترك حقَّه لما علمه من المصلحة ، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام ، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له ، وضِغْنهم عليه . وجائز لمن كان أوْلى بشىء فتركه ثم استرجعه أن يقول: « قد رجع الأمر إلى أهله » .

وأما قوله : «وانتقل إلى منتقَله» ، ففيه مضاف محذوف، تقديره: «إلى موضع منتقله»، والمنتقَل بفتح القاف : مصدر بمعنى الانتقال ، كقولك : لى فى هذا الأمر مضطرَب ، أى اضطراب ، قال :

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرْضِ(١)

وتقول : مامعتقدك ؟ أى ما اعتقادك . قد رجع الأمر إلى نصابه ، وإلى الموضع الذى هو على الحقيقة الموضعُ الذى يجب أن يكون انتقاله إليه .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً » ؟

قيل : لا شبهةَ أن المنعِم أعلى وأشرفُ من المنعَم عليه ، ولا ريب أنّ محمدا صلى الله

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٢٨٧ ـ بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى خطاب بن المعلى ، واسمه فى التبريزى : « حطان بن المعلى » .

عليها وآله وأهله الأدْنَيْن من بنى هاشم ـ لا سيما عليًّا عليه السلام ـ أنعَموا على الخلْق كافة بنعمة لا يقدّر قدرها، وهى الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه، فمحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هَدَى الخلق بالدعوة التى قام بها بلسانه ويده؛ ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده، وهو السيّد المتبوع، والمصطفى المنتجَب الواجب الطاعة، إلا أنّ لعلىّ عليه السلام من الهداية أيضاً ـ وإن كان ثانياً لأوّل، ومصلّياً على إثر سابق ـ مالا يُجحد، ولو لم يكن إلا جهادُه بالسيف أولاً وثانياً، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى مالم تكن له فاهمة ولا متصوّرة، لكفى فى وجوب حَقّه، وشبوع نعمته عليه السلام.

فإن قيل: لا ريب فى أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه، فأىّ نعمة له عليهم؟ قيل: نعمتان: الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون، فإنّ من أنصفَ علم أنّه لولا سيف علىٍّ عليه السلام لاصطلم المشركون؛ من أشار إليه وغيرهم من المسلمين، وقد علمتَ آثاره فى بدر، وأُحد، والخندق، وخَيْبر، وحُنَين؛ وأنّ الشرك فيها فَغَر فاه، فلولا أن سدّه بسيفه لَالْتَهم المسلمين كافة ـ والثانية علومه التى لولاها لحُكِمَ بغير الصواب فى كثير من الأحكام، وقد اعترف عمر له بذلك، والخبر مشهور: «لولا علىٌّ لهلك عمر».

ويمكن أن يخرّج كلامه على وجه آخر؛ وذلك أنّ العرب تفضّل القبيلة التى(١) منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل، وتفضّل الأدنى منه نسبا، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة؛ فإنّ بنى دارم يفتخرون بحاجب وإخوته، وبزُرارة أبيهم على سائر بنى تميم، ويسوغ للواحد من أبناء بنى دارم أن يقول: لا يقاسُ ببنى دارم أحد من بنى تميم، ولا يستوى بهم مَنْ جرت رياستهم عليه أبدا؛ ويعنى بذلك أنّ واحداً من بنى دارم قد رأس على بنى تميم؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيسَ الكلّ،

---

(١) ا: «فيها».

والمنعِمَ على الـكلّ ، جاز لواحد من بنى هاشم ؛ لا سيما مثل علىّ عليه السلام أن يقول هذه الـكلمات .

* * *

واعلم أنّ عليا عليه السلام كان يدّعى التقدّمَ على الـكلّ ، والشرف على الـكلّ ، والنعمةَ على الـكلّ ، بابن عمه صلى الله عليه وآله ، وبنفسه ، وبأبيه أبى طالب ، فإنّ من قرأ علوم السِّيَر عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئا مذكورا .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقال هذا فى دِينٍ تـكفّل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجودا أو معدوما ! لأنا نقول : فينبغى على هذا ألّا يُمدح رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وإنّ له حقا على المسلمين . وإنّه لولاه لمـا عُبِد الله تعالى فى الأرض ، وألا يمدح أبو بكر ، ولا يقال : إن له أثرا فى الإسلام ، وإن عبد الرحمن وسعدا وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين فى الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لاتّباعه له ، وإنّ له يدا غير مجحودة فى الإنفاق واشتراء المعذّبين وإعتاقهم ، وإنّه لولاه لاستمرت الرِّدة بعد الوفاة ، وظهرت دعوة مُسيلمة وطُليحة ؛ وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح ، ولا جُهّزت الجيوش ، ولا قَوِى أمر الدين بعد ضعفه ، ولا انتشرتْ الدعوةُ بعد خمولها .

فإن قلتم فى كل ذلك : إنّ هؤلاء يُحمدون ويُثنَى عليهم ؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفّقهم لهـا ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ؛ وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائط تجرى الأفعال على أيديها ، فحمدُهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم إنما هو باعتبار ذلك .

قيل : لـكم فى شأن أبى طالب مثله(١) .

* * *

---

(١) ا : « قيل لهم » .

واعلم أنّ هذه الكلمات؛ وهى قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندى أن تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفّين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطربَ الأمر، منتشرَ الحبل؛ بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وماتمّ لمعاويةَ عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لاتقال فى مثل هذه الحال، وأخْلق بها أن تكونَ قيلت فى ابتداء بَيْعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضىّ رحمه الله تعالى نقل ماوجد، وحكى ماسمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

* * *

[ماورد فى الوصاية من الشعر]

ومما رويناه من الشعر المقول فى صدر الإسلام المتضمّن كونه عليه السلام وصىّ رسول الله قول عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وَمنّا علىّ ذاك صاحبُ خَيْبَرٍ   وَصَاحِبُ بَدْرٍ يوم سالتْ كتائبُهْ
وَصىُّ النبىّ المصطفَى وابنُ عَمّه   فَمَنْ ذا يدانِيهِ ومَنْ ذَا يُقَارِبُهْ!

وقال عبد الرحمن بن جُعَيل:

لَعَمْرِى لَقَدْ بايعتُمُ ذا حفيظةٍ   على الدِّين، معروفَ العفافِ مُوَفّقَا
عليًّا وصىّ المصطفَى وابنَ عمّه   وأوّلَ مَنْ صَلّى أخا الدِّينِ والتُّقَى

وقال أبو الهيثم بن التّيّهان — وكان بدريًّا:

قل للزبيرِ وقلْ لطلحة إنّنا   نحنُ الذين شعارنا الأنصارُ
نَحْنُ الذين رأتْ قريشٌ فِعْلَنَا   يوم القَلِيب أولئكَ الكفارُ
كنّا شعارَ نبيِّنا ودثارَه   يَفْدِيهِ منّا الرُّوح والأبصارُ

إنّ الوصيّ إمامُنا ووليُّنا   بَرَحَ الخفاء وباحتِ الأسرار (١)

وقال عمر بن حارثة الأنصاريّ ، وكان مع محمد بن الحنفيّة يوم الجمل ، وقد لامه أبوه عليه السلام لمّا أمره بالحملة فتقاعس :

أبا حسنٍ أنت فصل الأُمورِ   يبَين بِكَ الحِلُّ والمَحْرَمُ
جمعتَ الرجال على رَايةٍ   بها ابنُكَ يوم الوغى مُقْحَمُ
ولم ينكص المرء من خِيفةٍ   ولكن توالتْ له أسهم
فقال رويدا ولا تَعْجَلُوا   فإنِّى إذا رشقوا مُقْدِمُ
فأعجلته والفتى مجمعٌ   بما يكره الوَجل المحجِمُ
سميّ النبيِّ وشبه الوصيِّ   ورايتُه لونها العَنْدَمُ

وقال رجل من الأزْد يوم الجمل :

هـذا عليّ وهو الوصيُّ   آخاه يومَ النَّجْوَةِ النَّبيُّ
وقال هذا بعدِيَ الوليُّ   وَعَاهُ واعٍ ونسِى الشقىُّ

وخرج يوم الجمل غُلام من بنى ضَبّة شاب مُعْلِم (٢) من عسكر عائشة ، وهو يقول:

نَحْنُ بَنِي ضَبّة أعداء عَلِي   ذَاكَ الّذِي يُعْرَفُ قِدْماً بالوصِى
وَفَارِس الخيل على عهد النبي   ما أنا عن فضل علىٍّ بالعَمِى
لكننى أنعَى ابنَ عفّانَ التّقِى   إنّ الولىَّ طالبٌ ثأرَ الوَلِى

وقال سعيد بن قيس الهمْدانىّ يوم الجمل ـ وكان فى عسكر على عليه السلام :

أيّةُ حَرْبٍ أُضرِمَتْ نِيَرانُهَا   وَكُسِرَتْ يَوْمَ الوَغَى مُرّانُها (٣)

---

(١) برح الخفاء ، أى ظهر ما كان خافياً وانكشف ، مأخوذ من براح ؛ وهو البارز الظاهر .
(٢) المعلم ، بكسر اللام : الذى علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .
(٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحده مرانة .

قُلْ لِلْوَصِىِّ أقْبَلَتْ قَحْطَانُهَا   فَادْعُ بِهَا تَكْفِيكَهَا هَمْدَانُهَا
* هُمُ بَنُوهَا وَهُمُ إِخْوَانُهَا *

وقال زياد بن لبيد الأنصارىّ يوم الجمل – وكان من أصحاب على عليه السلام :

كَيْفَ تَرَى الأنْصَارَ فِي يَوْمِ الْكَلَبْ   إِنَّا أُنَاسٌ لَا نُبَالِي مَنْ عَطِبْ
وَلَا نُبَالِي فِي الوَصِىِّ مَنْ غَضِبْ   وإنَّما الأنصار جِدٌّ لا لَعِبْ
هَـذَا عَلِيٌّ وابنُ عبد المطَّلِبْ   ننصره اليوم عَلَى مَنْ قَدْ كَذَبْ
* مَنْ يَكْسِب البغىَ فبئسما اكْتَسَبْ *

وقال حُجْر بن عدىّ الكِنْدىّ فى ذلك اليوم أيضاً :

يَا رَبَّنَا سَلِّمْ لَنَا عَلِيًّا   سَلِّمْ لَنَا الْمُبَارَكَ الْمُضِيَّا
المؤمنَ الموحِّد التقيّا   لا خَطِلَ الرأى وَلَا غَوِيّا
بَلْ هَادِيًا موفَّقًا مَهْدِيًّا   واحْفَظْهُ رَبِّى واحفظِ النَّبِيَّا
فِيهِ فَقَدْ كَانَ لَهُ وليًّا   ثم ارتضاه بعدَهُ وَصِيًّا

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصارىّ، ذو الشهادتين – وكان بدريًّا – فى يوم الجمل أيضاً :

ليس بين الأنصار فى جَحْمَةِ الحر   ب وبين العُداة إلا الطعانُ
وقراع الكُماة بالقُضُبِ البيـ   ضِ إذا ما تَحَطَّمَ المُرّانُ
فادعها تستجبْ فليس من الخز   رجِ والأوس ياعلىّ جبانُ
ياوصىّ النبىّ قد أجلت الحر   بُ الأعادى وسارتِ الأظعانُ
واستقامتْ لكَ الأمور سِوى الشّـ   ـام وفى الشام يظهر الإذعانُ
حَسْبُهُمْ ما رأوْا وَحَسْبُكَ مِنَّا   هَكَذَا نحنُ حيثُ كُنَّا وَكَانُوا

وقال خزيمة أيضاً فى يوم الجمل :

أعائشَ خَلِّى عَنْ علىٍّ وعَيْبِهِ   بما ليس فيــــه إنّما أنتِ والِدَه
وصىّ رسول الله مِنْ دُون أهله   وأنتِ عَلَى ما كَانَ مِنْ ذَاكَ شاهِدَهْ
وَحَسْبُكِ مِنْه بعضُ ماتعلمينَهُ   ويَــكْفِيكِ لو لم تعلمى غيرُ واحده
إذا قِيلَ مَاذَا عِبْتِ مِنْهُ رَمَيْتِهِ   بخذل ابن عَفّانٍ وما تلك آبِدَهْ
وَلَيْسَ سَمَاء الله قاطرةً دما   لِذَاكَ وَمَا الأرْضُ الْفَضَاءُ بمائِدَهْ

وقال ابن بديل بن ورقاء الخُزاعىّ يوم الجمل أيضاً :

يَاقَوْمُ لِلْخُطّةِ العُظْمَى الّتى حَدَثَتْ   حرب الوصىّ وما للحرب مِنْ آسِى
الفاصلُ الحُكْمَ بالتقوى إذا ضربت   تلك القبائلُ أخْمَاساً لأسْدَاسِ (١)

وقال عمرو بن أُحَيْحَة يوم الجمل فى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام بعد خطبة عبدالله ابن الزُّبير :

حَسَنَ الخــــير ياشَبِيهَ أبِيهِ   قُمْتَ فينا مقام خَــيْر خَطِيبِ
قُمْتَ بالخطبة الّتِى صَدَعَ اللّـ   ـه بِهَا عَنْ أبِيكَ أهلَ العيوب
وكشفت القناع فاتّضح الأمْــــر   وأصْلَحْتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لَسْتَ كابنِ الزُّبَيْرِ لَجْلَجَ فى القَوْ   لِ وَطَأطا عِنانَ فَسْلٍ مُرِيبِ
وأبى الله أن يقوم بمــــا قا   مَ به ابنُ الوصِىِّ وابنُ النَّجِيبِ
إنّ شَخْصاً بَيْنَ النَّبِىِّ ــ لك الخيــــرُ ــ وبين الوصىِّ غَيْرُ مَشُوبِ

---

(١) يقال لمن يظهر شيئا ويريد غيره : ضرب أخماسا لأسداس . والخمس والسدس: من أظماء الإبل ، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عود إبله أن تشرب خمسا ، ثم سدسا ، حتى إذا أخذت فى السير صبرت عن الماء . (مجمع الأمثال ١ : ٤١٨) .

وقال زَحْر بن قيس الجعفىّ يوم الجمل أيضاً :

أضْرِبُكُمْ حتّى تُقِرُّوا لعلِى   خَيْرِ قُرَيْشٍ كلِّها بَعْدَ النّبى
مَنْ زَانَهُ اللهُ وَسَمّاه الوَصِى   إن الوَلىّ حافظٌ ظَهْرَ الوَلِى
* كما الغوىّ تابعٌ أمْرَ الغَوِى *

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنَف لوط بن يحيى (١) فى كتاب وقعة الجمل . وأبو مِخْنَف من المحدّثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها .

* * *

وممّا رويناه من أشعار صِفّين التى تتضمن تسميته عليه السلام بالوصىّ ماذكره نصر ابن مزاحم (٢) بن يسار المِنقرىّ فى كتاب صِفّين ، وهو من رجال الحديث . قال نصر ابن مُزَاحم : قال زَحْر (٣) بن قيس الجعفىّ :

فصَلَّى الإلهُ على أحمدٍ   رَسُولِ المَليكِ تمام النِّعَمْ
رَسُولِ المليكِ وَمنْ بَعْدِهِ   خليفتنا القائم المدَّعَمْ
عَلِيًّا عَنَيْتُ وصىَّ النبىِّ   نُجالِدُ عَنْهُ غُواةَ الأُمَمْ

قال نصر : ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس (٤) :

أتَانَا الرَّسُولُ رَسُولُ الإمام (٥)   فسُرَّ بمقدمِهِ المُسْلِمُونَا
رَسُولُ الوصىِّ وصىّ النبىِّ   له السَّبْقُ والفضل فى المؤمنينا

---

(١) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ؛ كان راوية أخبار وصاحب تصانيف فى الفتوح وحروب الإسلام ، توفى سنة ١٥٧ . معجم الأدباء ١٧ : ٤١ ، الفهرست ٩٣ .

(٢) ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ٦ : ١٥٧ ؛ وقال : إنه توفى سنة ٢١٢ .

(٣) زحر ، ضبطه صاحب القاموس بفتح الزاى وسكون الحاء المهملة ؛ والذى فى كتاب صفين ص ٢٢ ، أنها لجرير بن عبد الله البجلى ، ضمن عشرة أبيات .

(٤) كتاب صفين ٢٧ .   (٥) صفين : « رسول على » .

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً :

أتانا الرَّسُولُ رسول الوصىِّ   علىّ المهذَّبُ من هَاشِمِ (١)
وزيرُ النبىِّ وذو صِهْرِه   وَخَيْرُ البريَّةِ والعالَمِ (٢)

قال نَصْر بن مُزاحم : من شعر أمير المؤمنين عليه السلام فى صِفّين :

ياعَجَبا لقَدْ سمِعتُ مُنْكَرَا   كِذباً عَلَى الله يُشِيبُ الشَّعَرَا (٣)
ما كانَ يَرْضَى أَحْمَدُ لو أُخبرا   أن يَقرِنُوا وصيَّه والأَبْتَرَا
شانىَ الرسول واللعينَ الأَخْزَرا (٤)   إنى إذا الموتُ دَنا وحضرا (٥)
شَمَّرْتُ ثوْبى وَدعوْتُ قَنْبَرا :   قَدِّمْ لِوائى لا تؤخِّرْ حَذَرَا
لَايَدْفَعُ الحِذارُ ماقدْ قُدِّرَا (٦)   لو أن عندِى يابن حَرْبٍ جَعْفرا
أو حمزة القَرْمَ الهُمام الأزْهرَا   رأت قريش نَجْمَ ليلٍ ظهُرا

---

(١) كتاب صفين ٢٨

(٢) كتاب صفين : « وخير البرية فى العالم » .   (٣) كتاب صفين ٤٨ ؛ وبعد هذا البيت :

* يَسْتَرِقُ ٱلسَّمْعَ وَيَغْشَى ٱلْبَصَرَا *

(٤) كذا فى ا ، وفى كتاب صفين ، وفى ب « الأخورا » ، وبعده هناك :

كِلاَهُما فِى جُنْدِهِ قد عَسْكَرَا   قَدْ بَاعَ هـذا دِينَهُ فَأَفْجَرَا
مَنْ ذَا بِدُنْيَا بَيْعَهُ قَدْ خَسِرَا   بِمُلْكِ مِصْرٍ أَنْ أصابَ الظَّفَرَا

(٥) ا : « وأحضرا » .

(٦) كتاب صفين : « لن يدفع » وبعده :

لَمَّا رأيت ٱلمَوْتَ مَوْتاً أَحْمَرَا   عَبَّأْتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا حِمْيَرَا
حَىٌّ يَمَانٍ يُعْظِمُونَ ٱلْخَطَرَا   قِرْنٌ إِذَا نَاطَحَ قِرْناً كَسَرَا
قُلْ لابْنِ حرْبٍ لَا تَدِبَّ ٱلْخَمَرَا   أرْوِدْ قَلِيلاً أُبْدِ مِنْكَ ٱلضَّجَرَا
لَا تَحْسَبَنِّى يَابْنَ حَرْبٍ غَمَرَا   وَسَلْ بِنَا بَدْراً مَعاً وَخَيْبَرَا
كَانَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرَا   إِذْ وَرَدُوا الأَمْرَ فَذَمُّوا ٱلصَّدَرَا

وقال جرير بن عبد الله البَجَلىّ : كتب بهذا الشعر إلى شُرَحبيل بن السِّمط الكندىّ ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية :

نَصَحْتُكَ يابن السِّمط لا تَتبع الهوى   فمالك فى الدُّنيا من الدِّين مِنْ بَدلْ (١)
وَلاَتَكُ كالمُجْرَى إلَى شَرّ غايةٍ   فقد خُرِق السِّرْبَالُ واستَنْوَق الجملْ
مقالُ ابن هند فى علىّ عضيهةٌ   ولَلّهُ فى صدرِ ابن أبى طالبٍ أجلّ (٢)
وَمَا كَانَ إلّا لازِماً قَعْرَ بيتِه   إلى أنْ أتى عثمانَ فى بيتِه الأجلْ
وصىّ رسول الله مِنْ دُونِ أهلِه   وفارسه الحامِى بِهِ يُضْرَبُ المثلْ (٣)

وقال النعمان بن عجلان الأنصارىّ (٤) :

كيف التفرُّقُ والوصىُّ إمامُنَا   لا كيف إلّا حَيْرَةً وتخاذُلا
لاتغبِنُنَّ عقولَكم ، لا خَيْرَ فى   مَنْ لم يكن عند البلابل عاقلا
وذرُوا معاويةَ الغوىَّ وتابِعوا   دِينَ الوصىّ لتحمَدوه آجلا (٥)

وقال عبد الرحمن بن ذُؤَيب الأسلمىّ :

ألا أبلغْ معاويةَ بْنَ حَربٍ   فمَالَكَ لاتَهشُّ إلى الضِّرابِ (٦) !
فإنْ تَسلَمْ وتَبقَ الدَّهرَ يوماً   نَزُرْكَ بجحفلٍ عَدَدَ التّراب
يقودهمُ الوصىُّ إليك حَتّى   يردّك عن ضلالٍ وارتيابِ

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب :

يَا عُصْبَةَ الموتِ صَبْراً لا يهولُكُمُ   جيشُ ابنِ حَرْبٍ فإنّ الحقّ قدْ ظهَرَا (٧)
وأيقِنوا أنّ مَن أضحى يُخالِفُكم   أضحَى شَقِيًّا وأمسَى نفسَه خَسِرا

---

(١) كتاب صفين ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروايته هناك : « شرحبيل يابن السمط » .

(٢) صفين : « وقال ابن هند » .   (٣) صفين : « وفارسه الأولى به » .

(٤) صفين ص ٤١٥ ، وفيه : « النضر بن عجلان » .

(٥) صفين : « تصادفوه عاجلا » .   (٦) صفين ٤٣٤

(٧) صفين ٤٣٧ ، وفيه : «ياشرطة الخير» .

فيـــــكم وصيّ رسول الله قائدُكُمْ   وصهرُهُ وكتابُ الله قد نُشِرا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب(١) :

وصيّ رسولِ الله من دُونِ أهْـلِهِ   وَفَارِسُهُ إن قيل هَلْ مِنْ مُنَازِلِ !
فَدُونَكَهُ إنْ كُنْتَ تبغِي مهاجِراً   أشمّ كنَصْلِ السَّيْفِ عَيْرَ حَلاحِلِ(٢)

والأشعار التي تتضمن هذه اللفظة كثيرة جدًّا ، ولكنا ذكرنا منها ها هنا بعض ما قيلَ في هذين الحِزْبين ، فأما ما عداها فإنه يجلّ عن الحصر ، ويعظُم عن الإحصاء والعَدّ ، ولولا خوفُ الملالة والإضجار ، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة .

* * *

---

(١) صفين : ٤٧٤ ، ونسبها إلى الفضل بن عباس .

(٢) عير القوم : سيدهم ؛ والحلاحل بالفتح : جمع حلاحل ، بالضم ، وهو الشجاع .

— ٣ —

ومن خطبة له وهى المعروفة بالشقشقية⁽١⁾ :

الأصلُ :

أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ٱبنُ أبى قُحَافَةَ⁽٢⁾ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّى مِنْهَا مَحَلُّ ٱلْقُطْبِ مِنَ ٱلرَّحَا ؛ يَنْحَدِرُ عَنِّى ٱلسَّيْلُ ، وَلَا يَرْقَى إِلَىَّ ٱلطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا ٱلصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ⁽٣⁾ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرْتُ وَفِى ٱلْعَيْنِ قَذًى ، وَفِى الْحَلْقِ شَجًا . أَرَى تُرَاثِى نَهْباً .

* * *

الشَّرحُ :

سدلت دونها ثوبا ، أى أرخيتُ ، يقول: ضربتُ بينى وبينها حجاباً ؛ فِعْلَ الزاهد فيها ، الراغب عنها . وطويتُ عنها كشحا ، أى قطعتها وصرمتها ؛ وهو مثل ، قالوا : لأن مَنْ كان إلى جانبك الأيمن مائلا فطويت كشحكَ الأيسر فقد مِلْتَ عنه ، والكشح : ما بين الخاصرة والجنب . وعندى أنهم أرادوا غير ذلك ، وهو أنّ من أجاع نفسه فقد طوى كشحه ، كما أنّ مَنْ أكل وشبِع فقد ملأ كشحَه ، فكأنه أراد أنى أجعتُ نفسى عنها ، ولم ألقمها . واليد الجذاء بالدال المهملة ، وبالذال المعجمة ، والحاء المهملة مع الذال المعجمة ، كلّه بمعنى المقطوعة . والطَّخْية : قطعة من الغيم والسحاب . وقوله : «عمياء» ، تأكيد لظلام الحال واسودادها ؛ يقولون : مفازة عمياء ، أى يعمى فيها الدليل .

---

(١) مخطوطة النهج : « الشقشقية والمقمصة » . (٢) مخطوطة النهج : « فلان » .

(٣) مخطوطة النهج : « المؤمن » .

ويكدح : يسعى ويكدّ مع مشقة ، قال تعالى : ﴿ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ (١) . وهاتا ، بمعنى هذه ، « ها » للتنبيه ، و « تا » للإشارة ، ومعنى « تا » ذى ، وهذا أحجى من كذا أى أليق بالحجا ، وهو العقل .

* * *

وفى هذا الفصل من باب البديع فى علم البيان عشرة ألفاظ :

أولها : قوله : « لقد تقمّصها » ، أى جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرْها للعلم بها ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ ﴾ (٣) ، وكقول حاتم :

أَمَاوِىَّ ما يُغْنِى الـــــثّراء عَنِ الْفَتَى   إذَا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بها الصَّدْرُ (٤)

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ (٥) وقول النابغة (٦) :

تَسَرْبَلَ سِرْبَالًا مِنَ النَّصْرِ وَارْتَدَى   عَلَيْهِ بِعَضْبٍ فى الْكَرِيهَةِ قاصِلِ

الثانية : قوله : « ينحدر عنى السيل » ، يعنى رفعة منزلته عليه السلام ، كأنه فى ذروة جبل أو يَفَاع مشرف ، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان ، قال الهذلىّ :

وعَيطاء يَكْثُر فيها الزليــــلُ   وينحدِرُ السَّيْلُ عنها انْحِدَارا (٧)

الثالثة : قوله عليه السلام : « ولا يَرْقَى إلىّ الطير » ، هذه أعظمُ فى الرفعة والعلوّ من التى قبلها ، لأنّ السيل ينحدر عن الرابية والهضْبة ، وأما تعذّرُ رقىّ الطير فربما يكون للقِلال الشاهقة جدًّا ، بل ما هو أعلى من قِلال الجبال ، كأنه يقول : إنى لعلوّ منزلتى كمن فى السماء التى يستَحيل أن يَرْقى الطير إليها ، قال أبو الطيب :

فوْقَ السَّماء وفوْقَ ما طَلَبُوا   فإذَا أرادوا غايَةً نَزلُوا (٨)

---

(١) سورة الانشقاق ٦

(٢) سورة ص ٣٢

(٣) سورة الرحمن ٢٦

(٤) ديوانه ١١٨

(٥) سورة الأعراف ٢٦

(٦) كذا فى الأصول ، والصواب أنه لأبى تمام ، كما فى ديوانه ٣ : ٨٢

(٧) عيطاء : مرتفعة . والزليل : الزلل .

(٨) ديوانه ٣ : ٣١٠

وقال حبيب :

مَكارِمُ لَجَّتْ فى عُلُوٍّ كأنما تحاولُ ثأراً عِنْدَ بعضِ الكواكبِ (١)

الرابعة : قوله : « سدلت دونها ثوبا » ، قد ذكرناه .

الخامسة : قوله « وطويت عنها كشحا » قد ذكرناه أيضاً .

السادسة : قوله : « أَصُولُ بيدٍ جَذّاء » ، قد ذكرناه .

السابعة : قوله : « أَصْبِر على طَخْيَة عمياء » قد ذكرناه أيضاً .

الثامنة : قوله : « وفى العين قذى » ، أى صبرت على مضض كما يصبر الأرمد .

التاسعة : قوله : « وفى الحلْق شَجاً » وهو مايعترض فى الحلق . أى كما يصبر من غَصَّ بأمرٍ فهو يكابد الخنق .

العاشرة : قوله : « أرى تُراثى نَهْباً » ، كنى عن الخلافة بالتراث ، وهو الموروث من المال .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « إن محلّى منها محلّ القُطْب من الرحا » ، فليس من هذا النَّمَط الذى نحن فيه ، ولكنه تشبيه محض ، خارج من باب الاستعارة والتوسع ؛ يقول : كما أنّ الرحا لا تدور إلا على القُطْب ، ودورانُها بغير قُطْب لا ثمرة له ولا فائدة فيه ، كذلك نِسْبتى إلى الخلافة ، فإنها لا تقوم إلا بى ، ولا يدور أمرُها إلّا علىّ .

هكذا فسروه . وعندى أنه أراد أمرا آخر ، وهو أنّى من الخلافة فى الصميم ، وفى وَسَطها وبُحْبُوحَتِها ، كما أن القطب وسط دائرة الرحا ، قال الراجز (٢) :

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٧

(٢) هو جرير بن عطية ، ديوانه ٥٢٠ ؛ والأبيات أيضا فى الكامل ٢ : ١١٢ ، ٣ : ١٩١ ، يقولها فى الحكم بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ؛ ابن عم الحجاج ، وكان عامله على البصرة .

على قِلاَصٍ مثل خِيطان السَّلَمْ.(١)   إذا قَطَعْنَ علماً بَدَا عَلَمْ.(٢)
حتى أنخناها إلى بابْ الحَكَمْ.(٣)   خليفةِ الحجّاج غير المتّهمْ
* فى سُرّة المجد وبُحْبُوحِ الكَرَم.(٤) *

وقال أمية بن أبى الصّلت لعبد الله بن جُدْعان :

فحللتَ منها بالبطاحِ وحَلّ غَيْرُكَ بالظَّوَاهِرِ.(٥)

وأما قوله : « يَهْرَم فيها الكبير ، ويَشيب فيها الصغير » فيمكن أنْ يكونَ من باب الحقائق ، ويمكن أن يكون من باب المجازات والاستعارات ؛ أما الأول فإنه يعنى به طولَ مدة ولاية المتقدّمين عليه ، فإنها مدة يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير .

وأما الثانى فإنه يعنى بذلك صعوبةَ تلك الأيام ؛ حتى إنّ الكبير من الناس يكاد يَهْرَم لصعوبتها ، والصغير يشيب من أهوالها ، كقولهم : هذا أمر يَشيب له الوليد ؛ وإن لم يَشِب على الحقيقة .

---

(١) القلاص : جمع قلوص ؛ وهى الناقة الفتية . والخيطان : جمع خوط ؛ وهو الغصن الناعم . والسلم : شجر ، واحدته سلمة .
وبعده فى رواية الديوان :

قَدْ طُوِيَتْ بُطُونُهَا عَلَى الأُدَمْ   بَعْدَانفضاج البُدْنِ واللحْمِ الزِّيَمْ

(٢) بعده فى رواية الديوان :

* فَهُنّ بَحْثاً كَمُضِلّاتِ الخَدَمْ *

(٣) رواية الديوان :

*حَتَّى تَنَاهَيْنَ إلى بابِ الحَكَمْ *

(٤) رواية الديوان :

* فِي ضِنْضِىء المجدِ وبُؤْبُؤِ الكَرَمْ *

(٥) البطاح : بطن مكة ، والظواهر أعلاها ؛ والبيت فى اللسان ٦ : ١٩٧ منسوب للكميت بهذه الرواية :

فَحَلَلْتَ مُعْتَلَجَ البطاحِ وَحَلَّ غيرك بالظَّواهِرْ

واعلم أنّ فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وتقديره :ولا يرقى إلىّ الطير ، فطفقت أرتئى بين كذا وكذا ، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ثم «فصبرت وفى العين قذى»؛ إلى آخر القصة ، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا ويطوى عنها كشحا ، ثم يَطفِق يرتئى بين أنْ ينابذهم أو يصبر؛ ألا ترى أنه إذا سَدَل دونها ثوبا ، وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ، ومن يتركْ ويَصرمْ لا يرتئى فى المنابذة ! والتقديم والتأخير طريق لا حب ، وسبيل مَهْيَع فى لغة العرب ، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً﴾ ، (١) أى أنزل على عبده الكتاب قيِّما ، ولم يجعل له عوجا ، وهذا كثير .

وقوله عليه السلام : « حتى يَلْقى ربّهْ » بالوقف والإسكان ، كما جاءت به الروايةُ فى قوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهْ﴾ (٢) بالوقف أيضاً .

* * *

[نسب أبى بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبى قحافة المشار إليه ، هو أبو بكر ، واسمه القديم عبد الكعبة ، فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبدَ الله . واختلفوا فى «عَتيق» ، فقيل : كان اسمَه فى الجاهلية، وقيل: بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وآله . واسم أبى قُحافة عثمان ، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب بن لُؤىّ بن غالب . وأمه ابنة عمّ أبيه ، وهى أمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد . أسلم أبو قحافة يوم الفتح ، جاء به ابنُه أبو بكر إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة (٣) البيضاء ، فأسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « غَيّروا شَيبته » .

---

(١) سورة الكهف ١ ، ٢ (٢) سورة البينة ٨

(٣) أورد الخبر ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٢٩) : « أتى بأبى قحافة يوم الفتح وكأن رأسه ثغامة». وقال : « هو نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب . وقيل : هى شجرة تبيض كأنها الثلج » .

وولىَ ابنُه الخلافة وهو حيٌّ منقطع فى بيته ، مكفوف عاجز عن الحركة ، فسمع ضوضاء الناس ، فقال ، ما الخبر ؟ فقالوا : ولىَ ابنُك الخلافة ، فقال : رضيتْ بنو عبد مناف بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمّ لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطىَ لما منعتَ .

ولم يلِ الخلافةَ مَنْ أبوه حيّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم⁽¹⁾ الطائع لله ، وَلِىَ الأمرَ وأبوه المطيع حيّ ، خلع نفسَه من الخلافة ، وعهِد بها إلى ابنه . وكان المنصورُ يسمِّى عبدَ الله بن الحسن بن الحسن⁽²⁾ أبا قُحافة تهكّما به ، لأن ابنَه⁽³⁾ محمدا ادّعى الخلافة وأبوه حىّ .

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حىّ ، فسمِع الأصوات فسأل ، فقيل : مات ابنُك ، فقال : رزء جليل . وتوفِّى أبو قحافة فى أيام عمر فى سنة أربع عشرة للهجرة ، وعمره سبع وتسعون سنة ، وهى السّنة التى توفى فيها نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم⁽⁴⁾ .

* * *

إن قيل : بيّنوا لنا ماعندكم فى هذا الكلام ؟ أليس صريحُه دالًّا على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر ! فما قولُكم فى ذلك ؟ إن حكمتم عليهم بذلك فقد طعنتُم فيهم ، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم فى المتظلّم المتكلّم عليهم !

قيل : أما الإماميّة من الشيعة فتُجرى هذه الألفاظَ على ظواهرها ، وتذهبُ إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنّه غُصِب حقّه .

---

(١) أصيب المطيع لله بالفالج ، ولما قوى عليه وثقل لسانه ، خلع نفسه . وبويع لولده الطائع ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٦٤ . الفخرى ص ٢٥٣ (٢) كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، شيخ بنى هاشم فى وقته ، والمقدم فيهم . وانظر أخباره فى مقاتل الطالبيين ص ١٧٩ـ١٨٥ .

(٣) كان علماء آل أبى طالب يرون فى محمد بن عبد الله بن الحسن أنه النفس الزكية ؛ وكان أفضل أهل بيته فى علمه بكتاب الله وحفظه له ، مع فقهه فى الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل أمر يجمل بمثله . وانظر ترجمته وأخباره فى مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ـ ٢٩٩

(٤) هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ له صحبة ؛ ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ؛ حتى من عميه حمزة والعباس . الإصابة ٦ : ٢٥٨

وأما أصحابُنا رحمهم الله ؛ فلهم أن يقولوا : إنه لما كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ، وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه فى فضل ، ولا يوازيه فى جهاد وعِلْم ؛ ولا يماثله فى سُؤدد وشرف ـ ساغَ إطلاقُ هـذه الألفاظ ، وإن كان من وُسِم بالخلافة قبله عَدْلاً تقيـا ، وكانت بيعتُه بيعـةً صحيحة ؛ ألا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان ؛ أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة، فيَجعل السلطان الأنقصَ عِلماً منهما قاضياً، فيتوجَّد الأعلم(١) ويتألّم ، وينفُث أحيانا بالشَّكْوى، ولا يكون ذلك طعناً فى القاضى ولا تفسيقا له، ولا حُـكْما منه بأنه غير صالح ، بل للعدول عن الأحقّ والأوْلى! وهذا أمر مركوز فى طباع البشر، ومجبول فى أصل الغريزة والفطرة ؛ فأصحابُنا رحمهم الله، لما أحسنُوا الظنّ بالصحابة ـ وحَملوا ماوقع منهم على وجه الصواب ، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقطْ ، بل وتُفضى إلى ذهاب النبوّة والملّة ، فعـدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ ، إلى فاضلٍ آخر دونه ، فعقـدوا له ـ احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عمَّن يعتقدونه فى الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة ، فتأوّلوها بهذا التأويل ، وحملوها على التألّم للعدول عن الأوْلى .

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّة قولَه تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾(٢) ، وقولهم : معنى « عصى » أنه عَدَل عن الأوْلى ، لأنّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب ، فلما تركه آدم ، كان تاركا للأفضل والأوْلى ، فسمى عاصيا باعتبار مخالفة الأوْلى ، وحملوا « غَوَى » على « خاب » لاعلى الغواية بمعنى الضلال . ومعلومٌ أنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليـه السلام وحَمْلَه على أنه شكا من تركهم الأوْلى أحسنُ من حَمْل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ على أنه ترَكَ الأوْلى .

---

(١) ب : « الأعظم » ، والأجود ما أثبته من ا

(٢) سورة طه ١٢١

إن قيل : لا تخلو الصحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع فى الأفضل أولا لمانع ؛ فإنْ كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى ، فيكون باطلا ، وإن كان لمانع ـ وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة ، وكوْن الناس كانوا يبغضون عليا عليه السلام ويحسدونه ـ فقد كان يجب أن يَعْذِرَهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فى العدول عنه ، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حَسُن منه أن يشكوَهم بعد ذلك؛ ويتوجّد عليهم !

وأيضاً ، فما معنى قوله: « فطفِقْت أرتئى بين أن أصول بيد جَذّاء » ، على ما تأوّلتم به كلامه ؛ فإنّ تارك الأوْلَى لا يُصال عليه بالحرب !

قيل : يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنه ما غَلب على ظنون الصحابة من الشّغْب وثَوَران الفتنة ، والظنونُ تختلف باختلاف الأمارات ، فربّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظن غيره خلافُه . وأما قوله : «أرتئى بين أنْ أصول»، فيجوز أن يكون لم يَعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة ؛ يبيِّن ذلك أنّه لو كان جادلهم وأظهر ما فى نفسه لهم ، فربّما خَصموه بأن يقولوا له : قد غلب على ظُنوننا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت الأمر ، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أنْ نسلِّم الأمر إليك ، فهو عليه السلام قال : طفقت أرتئى بين أن أذكر لهم فضائلى عليهم ، وأحاجّهم بها، فيجيبونى بهذا الضّرب من الجواب ـ الذى تصير حُجّتى به جَذّاء(١) مقطوعة، ولا قدرةَ لى على تشييدها ونصرتها ـ وبين أنْ أصبر على ما مُنِيت به ، ودُفِعتُ إليه .

إن قيل : إذا كان عليه السلام لم يغلبْ على ظنّه وجودُ العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الذى لا علّة فيه عنده فقد سلّمتم أنه ظَلَمَ الصحابة ، ونسبهم إلى غصب حَقّه ، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمهم لمخالفة النص ؟ وكيف

---

(١) ا : « جداء » .

هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ ، ووقعتم فى نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأَوْلى من غير علّة فى الأَوْلى ، ومعلوم أن مخالفة الأَوْلى من غير علة فى الأَوْلى كتارك النصّ ، لأنّ العقد فى كلا الموضعين يكون فاسدا !

قيل : الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه عليه السلام لو نَسَبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجودُ النصّ ، ولو كان النصُّ موجودا لكانوا فُسّاقا أو كفارا لمخالفته ، وأمّا إذا نَسَبهم إلى تركِ الأَوْلى من غيرِ علّة فى الأَوْلى ، فقد نسبهم إلى أمر يدّعون فيه خلافَ ما يدّعى عليه السلام ، وأحد الأمرين لازم ؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحا أو غير صحيح ، فإن كان ظنُّهم هو الصحيح فلا كلام فى المسألة ، وإن لم يكن ظنُّهم صحيحا كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور ، ومخالفةُ النصّ [أمْرٌ] خارج عن هذا الباب ؛ لأنّ مخالِفَه غير معذور بحال ، فافترق المحملان .

* * *

[مرض رسول الله وإمرة أسامة بن زيد على الجيش]

لما مرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله مرضَ الموت ، دعا أسامةَ بن زيد بن حارثة ، فقال : سرْ إلى مقتَل أبيك[1] ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتُك على هذا الجيش ، وإن أظفرَك الله بالعدوّ ، فأقلل اللّبْث ، وبثّ العيون ، وقدّم الطلائع . فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان فى ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعُمر ، فتكلّم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلامَ على جِلّة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك ، وخرجَ عاصباً رأسه ، فصعِد المنبر وعليه قَطيفة[2] فقال : « أيها الناس ، ما مقالة بلغتْنى عن بعضكم فى تأمير أسامة ! لئن طعنتم فى تأميرى أسامة ، فقد طعنتم فى تأميرى أباه مِنْ قبله ، وأيمُ الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وابنُه من[3] بعده لخليق بها ،

---

[1] قتل زيد بن حارثة بمؤتة ؛ إحدى قرى البلقاء ؛ وتفصيل الخبر فى الطبرى ، (حوادث السنة الثامنة) .

[2] القطيفة : كساء له أهداب

[3] ا : « وإن ابنه من بعده الخليق بها » .

وإنهما لمن أحبِّ الناس إلىّ ؛ فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . ثم نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرْف(١) .

وثَقِل(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتدّ مايجده ، فأرسل بعضَ نسائه إلى أسامة وبعض مَنْ كان معه ، يُعلمونهم ذلك ، فدخل أسامة من معسكره ـ والنبيّ صلى الله عليه وآله مغمور ، وهو اليوم الذى لَدّوه(٣) فيه ـ فتطأطأ أسامة عليه فقبّله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد أسكت فهو لا يتكلّم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ؛ كالداعى له ، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره ، والتوجّه لما بعثه فيه ، فرجع أسامة إلى عسكره . ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة يأمُرْنه بالدخول ، ويقُلْن إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أصبح بارئا ، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين ، الثانى عشر من شهر ربيع الأول فوجَد رسول الله صلى الله عليه وآله مُفيقا ، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ ، وقال : اغدُ على بركة الله ، وجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويكرّر ذلك ، فودّع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر ، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت ، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فانتهوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين زالت الشمس من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين ، وقد مات واللواء مع بُرَيْدة بن الحُصَيب ، فدخل باللّواء فركزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُغْلق ، وعلىّ عليه السلام وبعض بنى هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغُسْله ، فقال العباس لعلىّ ـ وهما فى الدار : امْدُدْ يدَك أبايعْك فيقول الناس : عمّ رسول الله بايع ابنَ عمّ رسول الله ؛ فلا يختلف عليك

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) ثقل ، بالكسر : اشتد مرضه .

(٣) يقال : لد المريض ، بالبناء للمجهول أى دووى باللدود ؛ بالفتح ؛ وهو من الأدوية ما يسقاه المريض فى أحد شقى الفم ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٥٥ ، واللسان ٤ : ٣٩٣

اثنان ، فقال له : أوَ يطمعُ ياعمّ فيهــا طامع غيرى ! قال : ستعلم ؛ فلم يلبثا أنْ جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصــار أقعــدتْ سعداً لتُبايعَه ، وأنّ عمر جاء بأبى بكر فبايعَه ، وسبق الأنصارَ بالبَيْعة ، فندم علىّ عليه السلام على تفريطه فى أمر البيعة وتقاعده عنها ، وأنشده العباس قول دُرَيد :

أَمَرْتُهُمُ أمرِى بمنعرَجِ اللِّــــــوَى   فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغدِ(1)

* * *

وتزعُم الشيعةُ أنّ رسول الله صلى الله عليــه وآله كان يعلَمُ موته، وأنه سيَّر أبا بكر وعمر فى بعث أسامة لتخلُوَ دارُ الهجرة منهما ، فيصفُوَ الأمرُ لعلىّ عليــه السلام ، ويبايعَه من تَخَلّف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة ، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعة الناس لعلىّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعدَ ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمــام تلك البَيْعة ، ويُحتاجُ فى نقضها إلى حروب شديدة ، فلم يتمّ له ماقدّر ، وتثاقل أسامة بالجيش أياما ، مع شدّة حثّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نفوذه وخروجه بالجيش ، حتى مات صلى الله عليــه وآله وهما بالمدينــة ، فسبقا عليًّا إلى البيعة وجَرى ماجرى .

وهذا عندى غير منقدح ، لأنه إن كان صلى الله عليه وآله يعلم موتَه ، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلى الخلافة ، وما يعلمه لا يحترس منه ؛ وإنما يتمّ هــذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليــه السلام كان يظنّ موتَه ولا يعلمه حقيقة ، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه ، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة ، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهّم ، ويتطرق هــذا الظنّ ، كالواحد منا له ولدان ؛ يخاف من أحدهما

---

(1) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ٨١٤ ، وروايته : « فلم يستبينوا الرشد » .

أن يتغلّب بعد موته على جميع ماله ، ولا يوصِل أخاه إلى شيء من حقه ؛ فإنه قد يخطر له عند مرضه الذى يتخوّف أن يموتَ فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد فى تجارة يسلمها إليه ، يجعل ذلك طريقا إلى دفع تغلّبه على الولد الآخر .

* * *

الأَصْلُ :

حَتَّىٰ مَضَىٰ ٱلْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ ٱبنِ ٱلْخَطَّابِ بَعْدَهُ (١)

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا   وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَاعَجَبا ! بَيْنَاهُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ ، إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ! لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا ، وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ ٱللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ ٱلْمُدَّةِ ، وَشِدَّةِ ٱلْمِحْنَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

مضى لسبيله : مات ، والسّبيل الطريق ، وتقديره : مضى على سبيله ، وتجيء اللاّم بمعنى « على » كقوله (٢) :

* فَخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ *

وقوله : « فأدلَى بها » من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

---

(١) فى مخطوطة النهج : « ثم تمثل بقول الأعشى » . وكذلك فى حواشى ب .

(٢) لجابر بن حنى التغلبي ، وصدره :

* تَنَاوَلَهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ اتَّنَى لَهُ *

من قصيدة له مفضلية ٢٠٨ ـ ٢١٢ ، والبيت من شواهد المغنى ١ : ٢١٢ ، على وضع اللام موضع « على » .

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ (١) أى تدفعوها إليهم رِشْوَة ، وأصله من أدليت الدّلو فى البئر ، أرسلتَها .

فإن قلت : فإنّ أبا بكر إنما دفعها إلى عمر حين مات ، ولا معنى للرّشوة عند الموت !

قلت : لما كان عليه السلام يَرَى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بإدلاء الإنسان بمالِه إلى الحاكم ، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه ، فكان ذلك من باب الاستعارة .

* * *

[عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب]

وابن الخطاب هو أبو حفص عُمَر الفاروق ، وأبوه الخطّاب بن نُفَيْل بن عبد العزّى ابن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عدىّ بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . وأم عمر حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

لما احتُضر أبو بكر ، قال للكاتب اكتب : هـذا ما عهد عبد الله بن عثمان (٢) ، آخرَ عهده بالدنيا وأوّلَ عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبَرّ فيها الفاجر ، ويُسْلِم فيها الكافر . ثم أغمى عليه فكتب الكاتب : عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ وذكر اسم عمر ، فقال : أنَّى لك هذا ! قال : ما كنت لتعدُوَه ، فقال : أصبت ، ثم قال : أتمَّ كتابك ، قال : ما أكتب ؟ قال: اكتب : وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره ، فرأى أنّ هذا الأمر (٣لا يصلح آخرهُ إلا بما يصلح به أوله٣) ، ولا يحتمله إلا أفضلُ العرب مقدرة ، وأملَكهم لنفسه ، وأشدّهم فى حال الشدة ، وأسلسهم فى حال اللين ، وأعلمهم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزَن لما لم ينزل به ،

---

(١) سورة البقرة ١٨٨ .

(٢) عثمان اسم أبى قحافة .

(٣ ـ ٣) كذا فى ب ، ج ، فى ا : « لا يصلح آخره إلا بما أوله به صلح » .

ولا يستحى من التعلّم ، ولا يتحيّر عند البديهة . قوىّ على الأمور ، لا يجوز بشىء منها حدّه عدوانا ولا تقصيرا ، يرصدُ لما هوآت عتاده من الحذر .

فلما فرغ من الـكتاب ، دخل عليه قوم من الصحابة ؛ منهم طلحة ، فقال له(١) : ما أنت قائل لربّك غدا ، وقد ولّيْتَ علينا فظًّا غليظا ، تفرّق منه النفوس ؛ وتنفضّ عنه القلوب !

فقال أبو بكر : أسندونى — وكان مستلقيا — فأسندوه ، فقال لطلحة : أبالله تخوّفنى ! إذا قال لى ذلك غدا قلت له : ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك .

ويقال(٢) : أصدقُ الناس فِراسة ثلاثة : العزيز فى قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾(٣) ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها فى موسى : ﴿ يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾(٤) ، وأبو بكر فى عمر .

* * *

ورَوَى كثير من الناس أنّ أبا بكر لما نَزَل به الموت(٥) دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال : أخبِرْنى عن عمر ، فقال : إنه أفضلُ من رأيك [فيه(٦)] إلا أنّ فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذاك لأنّه يرانى رقيقا ، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أرانى الرّضا عنه ، وإذا لنتُ له أرانى الشدة عليه . ثم دعا عثمان بن عَفّان ، فقال : أخبِرْنى عن عمر ، فقال : سريرتُه خير من علانيته(٧) ، وليس فينا مثله . فقال لهما : لاتذكرا مما قلتُ لـكما شيئًا ، ولو تركتُ عمر لما عدوتُك ياعثمان ، والخيرة لك ألّا تلِىَ من أمورهم شيئا ، ولوددت أنى كنت من أموركم خِلْواً ، وكنت فيمن مضى من سَلَفِـكم . ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر ، فقال : إنه بلغنى أنّك يا خليفةَ

---

(١) كلمة « له » ساقطة من ب (٢) ا : « ويقال إنه »

(٣) سورة يوسف ٢١ (٤) سورة القصص ٢٦

(٥) ساقطة من ب (٦) تـكملة من تاريخ الطبرى ٣ : ٤٢٨ ، وفى ج : «أفضل من رأيت» .

(٧) ا : « تقصر عن علانيته »

رسول الله استخلفتَ على النـاس عمر ، وقد رأيتَ مايلقى الناس منه وأنت معـه ، فـكيف به إذا خلا بهم ، وأنت غداً لاقٍ ربك ، فيسألك عن رعيتك ! فقال أبو بكر : أجلسونى ، ثم قال : أبالله تخوّفنى ! إذا لقيتُ ربى فسألنى ، قلتُ : استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلك . فقال طلحة : أعمر خـيرُ الناس ياخليفةَ رسول الله ! فاشتدّ غضبه ، وقال : إى والله ، هو خيرهم وأنت شرّهم . أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك فى قَفاك ، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذى يضعها ! أتيتَنى وقد دَلَـكت عينك ، تريد أن تفتننى عن دينى ، وتزيلَنى عن رأيى ! قُمْ لا أقام الله رِجْلَيْك ! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة، وبلغنى أنك غمصته فيها، أو ذكرته بسوء ، لألحقنّك بِمَحْمضات قُنّة[1]، حيث كنتم تُسْقَون ولا تَرْوَوْن ، وتَرْعَوْن ولا تشبعون ، وأنتم بذلك بَجِحُون[2] راضون ! فقام طلحة فخرج .

* * *

أحضر أبو بكر عثمان ـ وهو يجود بنفسه ـ فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد عبد الله بن عثمان[3] إلى المسلمين . أمّا بعد ، ثم أغمى عليه ؛ وكتب عثمان : قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فـكبّر أبو بكر ، وسرّ ، وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن متّ فى غشيتى! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله . ثم أتمّ العهد ، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرئ عليهم . ثم أوصى عمر ، فقال له : إنّ لله حقًّا بالليل لا يقبَلُه فى النهار ، وحقًّا فى النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبلُ نافلة مالم تؤدَّ الفريضة ، وإنما ثقلت موازين مَن اتّبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفّت موازين من اتّبع الباطل لخفّته عليه ، إنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدّة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنّى فيها على الله ماليس له ، ولئلاّ

---

[1] الموضع الذى ترعى فيه الإبل الحمض . وقنة : موضع بعينه .

[2] البجح : الفرح والسرور .

[3] الطبرى ٣ : ٤٢٩ : « أبو بكر من أبى قحافة » .

يرهب رهبة يلقى فيها بيده، فإن حفظتَ وصيتى ، فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولستَ معجزَه .

ثم توفى أبو بكر .

* * *

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه ، فقال: إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تُمْسِينَّ حتى تندب الناس مع المثنىّ بن حارثة ، وإن تأخّرتُ إلى الليل فلا تصبحَنَّ حتى تندب الناس معه، ولا تَشغلنّكم مصيبة عن دينكم ، وقد رأيتنى متوفَّى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف صنعت .

وتوفِّىَ أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة .

* * *

وأما البيت الذى تمثل به عليه السلام ، فإنه للأعشى الكبير ، أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَنْدل ، من القصيدة التى قالها فى منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل ، وأولها :

عَلقَمُ ما أنْتَ إلى عامرِ   الناقضِ الأوْتَارِ والْوَاترِ (١)

يقول فيها :

وَقَدْ أُسَلِّى الهمَّ إذْ يَعْتَرِى   بجَسرَةٍ دَوْسَرَةٍ عاقِرِ (٢)
زَيّافَةٍ بالرَّحْلِ خَطّارَةٍ   تُلوِى بِشَرْخَىْ مَيْسَةٍ قاترِ (٣)

ـ شرْخا الرَّحل : مقدّمه ومؤخره ، والمَيْس : شجر يتخذ منه الرّحال ، ورحل قاتر : جيّد الوقوع على ظهر البعير ـ

---

(١) ديوانه ١٠٤ ـ ١٠٨ ؛ ويقع هذا البيت الخامس عشر منها ، وأولها :

شَاقَتْكَ مِنْ قتلَةَ أطلالُها   بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حاَجِرِ

(٢) الجسرة : الناقة السريعة ، والدوسرة : الضخمة . والعاقر : التى لم تحمل ، وفى الديوان : « حين اعترى » .

(٣) الزيافة : المختالة فى سيرها . والخطارة : التى تخطر بذنبها نشاطا .

شَتّانَ ما يَوْمى عَلَى كُورِها   وَيومُ حَيَّانَ أخى جابِرِ
أَرْمى بِهَا الْبَيْدَاءَ إذ هَجَّرتْ   وأنت بين الْقَرْوِ والعاصِرِ(1)
فى مِجْدَلٍ شُيِّدَ بُنْيَانُهُ   يَزِلّ عنهُ ظُفُرُ الطَّائرِ

تقول : شَتّان ما هما ، وشَتّان هما ، ولا يجوز: شتّان ما بينهما، إلا على قول ضعيف . وشَتّان : أصله شتت ، كوشْكَان ذا خروجاً ، من وَشُك . وحيّان وجابر ابنا السَّمين الحنفيَّان ، وكان حيَّان صاحبَ شراب ومعاقرة خمر ، وكان نديم الأعشى ، وكان أخوه جابر أصغر سنًّا منه ، فيقال : إن حيّان قال للأعشى : نسبتنى إلى أخى ؛ وهو أصغرُ سِنًّا منّى ! فقال : إنّ الروىّ اضطرنى إلى ذلك ، فقال : والله لا نازعتك كأساً أبداً ماعشت . يقول : شتان يومى وأنا فى الهاجرة والرمضاء ، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم حَيَّان وهو فى سَكْرة الشراب ، ناعم البال ، مرفَّه من الأكدار والمشاقّ . والقَرْو : شبه حوض ، يتّخذ من جِذْع أو من شجر يُنْبذ فيه ، والعاصِر : الذى يعتصر العنب . والمجْدَل : الحِصْن المنيع .

* * *

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع فى أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون : إنما نحن(2) شُعب من أصل ، إن قَوِىَ قوينا ، وإن ضَعُف ضعفنا ؛ وإنَّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويُقْدِم على الرؤيا ، قد أمكن أهلَ الخسارة واللهو من سمعه ، فهم يمنُّونه الظفر ، ويَعِدونه عُقَب الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباه الذئب ، هَمُّه بطنُه وفرْجه ، لا يفكِّر فى زوال نعمة ، ولا يُرَوِّى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله

---

(1) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو فى اللسان ٢٠ : ٣٤ ، وروايته :

* أرْمِى بها البيداء إذ أعْرَضَتْ *

(2) الخبر بالتفصيل فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٩٦) .

عن ساقه ، وفوّق إليه أسدّ سِهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ، قد عبّأ له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح وشِفار السيوف ، فهو كما قال الشاعر(١) :

لشتّان ما بينى وبين ابن خالدٍ   أميّة فى الرزق الذى الله يقسِمُ(٢)
يقارع أتراكَ ابن خاقانَ ليلَهُ(٣)   إلى أن يرَى الإصباحَ لا يتلعثَمُ
وآخــذها حمراء كالمسك ريحُها   لهــا أرجٌ مِنْ دَنِّها يتنسّمُ(٤)
فيُصْبِح من طُولِ الطِّراد وَجِسْمُهُ   نحيلٌ وأضحِى فى النَّعيم أصمِّمُ

وأمية المذكور فى هـذا الشعر ، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص ابن أميّة بن عبد شمس ، كان والى خراسان ، وحارب الترك . والشعر للبَعيث .

* * *

يقول أمير المؤمنين عليه السـلام : شتّان بين يومى فى الخلافة مع ما انتقض علىّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة ، وبين يوم عمر حيثُ وليها على قاعدة ممهّدة ، وأركان ثابتة ، وسكون شامل ، فانتظم أمرُه ، واطّرد حاله ، وسكنت أيامه .

قوله عليه السلام : « فياعجبا » أصله « فياعجبى » ، كقولك : يا غلامى ، ثم قلبوا الياء ألفا ، فقالوا : يا عجبا ، كقولهم : يا غلاما ، فإن وقفت وقفت على هاء السكت ، فقلت : يا عجباه ! ويا غلاماه ! قال : العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته ، فيقول : أقيلونى ثم يعقدها عند وفاته لآخر ، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها . وقال شاعر من شعراء الشِّيعة :

حَمَلُوها يومَ السَّقيفَةِ أوزا   راً تخِفُّ الجبال وَهىَ ثِقَالُ

---

(١) الطبرى : « وتمثل بشعر البعيث » .

(٢) الشعر والخبر فى تاريخ الطبرى وابن الأثير (حوداث سنة ١٩٦) مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٣) كذا فى الأصول والطبرى ، والوجه ما أثبته من ابن الأثير .

(٤) ابن الأثير : « لها أرج فى دنها حين برسم » وهنا البيت سقط من تاريخ الطبرى .

ثم جاءوا من بَعْدِهَا يستقيلو   نَ ، وهيهاتَ عثرة لاتقال !

وقد اختلف الرواة فى هذه اللفظة ، فكثير من الناس رواها : « أقيلونى فلست بخيركم » ، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها ، وإنما روى قوله : « وليتكم ولست بخيركم » . واحتجّ بذلك من لم يشترط الأفضليّة فى الإمامة . ومن رواها اعتذر لأبى بكر فقال : إنما قال : أقيلونى ، ليثوِّر⁽¹⁾ ما فى نفوس⁽²⁾ الناس من بيعته ، ويَخْبُر ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبّهم ومبغضهم ؛ فلما رأى النفوسَ إليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مذعنة ، استمرّ على إمارته ، وحكَم حكم الخلفاء فى رعيته ، ولم يكن مُنْكَراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته .

قالوا : وقد جرى مثلُ ذلك لعلىٍّ عليه السلام ، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان : دَعونى والتمسوا غيرى ، فأنا لكم وزيراً خير منى لكم أميرا . وقال لهم : اتركونى ، فأنا كأحدكم ، بل أنا أَسْمَعُكم وأطْوَعُكُمْ لِمَنْ وليتموه أمركم . فأبوا عليه وبايعوه ، فكرهها أوّلا ، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته .

قالت الإماميّة : هذا غير لازم ، والفرق بين الموضعين ظاهر ، لأنّ عليًّا عليه السلام لم يقل : إنّى لا أصلح ، ولكنه كره الفتنة ، وأبو بكر قال كلاما معناه : إنى لا أصلح لها ، لقوله : « لست بخيركم » ، ومَنْ نفى عن نفسه صلاحيتّه للإمامة ، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره .

واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنىّ على أنّ الأفضليّة هل هى شرط فى الإمامة أم لا ؟ وقد تكلّمنا فى شرح " الغرر " لشيخنا أبى الحسين⁽³⁾ رحمه الله تعالى فى هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب .

---

(١) يثور : يبحث .   (٢) ا : « قلوب » .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب المتكلم المعتزلى ؛ توفى سنة ٤٣٦ ، وكتابه « غرر الأدلة » . ذكره ابن خلكان ١ : ٤٨٢ .

وقوله عليه السلام : « لشدّ ما تشطّرا ضرعيها » ، شدّ ، أصله « شدد » ، كقولك : حبّ فى « حبّذا » أصله حَبُب ، ومعنى « شدّ » صار شديداً جدًّا ، ومعنى « حبّ » صار حبيباً ، قال البحترىّ :

شَدّ ما أغرِيَتْ ظَلُومُ بهَجْرِى   بَعْدَ وَجْدِى بها وَغُلّةِ صَدْرِى(١)

وللناقة أربعة أخلاف : خِلْفان قادمان وخِلْفان آخران ، وكلّ اثنين منهما شطر . وتَشَطَّرا ضَرْعيها اقتسما فائدتهما ونفعهما . والضمير للخلافة ، وسمّى القادمَيْن معا ضَرْعا ، وسمّى الآخرين معاً ضَرْعا لمّا كانا ـ لتجاورهما ، ولكونهما لا يُحْلَبان إلّا معا ـ كشىء واحد .

قوله عليه السلام : « فجعلها فى حَوْزَة خشناء » ، أى فى جهة صعبة المرام ، شديدة الشّكيمة . والكَلْم : الجرح .

وقوله : « يغلُظ » ، من الناس مَنْ قال : كيف قال : « يغلظ كَلْمها » ، والكَلْم لا يوصف بالغِلَظ ! وهذا قلّة فَهْمٍ بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغِلظ ، فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾(٢) أى متضاعف ، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجسم ، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة ، فلما كان العذاب ـ أعاذنا الله منه ـ متضاعفا ، سُمِّىَ غليظا ؛ وكذلك الجرح إذا أمعن وعَمُق ، فكأنّه قد تضاعف وصار جُروحا ، فسمى غليظا .

إن قيل : قد قال عليه السلام « فى حَوْزَةٍ خَشْنَاء » فوصفها بالخشونة ، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال : « يَخْشُنُ مَسُّها » !

قيل : الاعتبار مختلف ؛ لأن مراده بقوله : « فى حوزة خشناء » أى لا يُنال ما عندها ولا يرام ، يقال : إنّ فلانا لخشِن الجانب ووعر الجانب ، ومراده بقوله : « يَخْشُنُ

---

(١) ديوانه ٢ : ٩٧٠ (طبعة المعارف) .   (٢) سورة هود ٥٨

مَسُّها » ، أى تؤذى وتضرّ وتنكى مَنْ يمسّها ؛ يصف جفاء أخلاق الوالى المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته .

قوله عليه السلام : « ويكثر العِثار فيها ، والاعتذار منها » ، يقول : ليست هذه الجهة جَدَداً مَهيَعاً ، بل هى كطريق كثير الحجارة ، لا يزال الماشى فيه عاثرا .

وأما « منها » فى قوله عليه السلام : «والاعتذار منها » ، فيمكن أن تكون « مِنْ » على أصلها ، يعنى أنّ عمر كان كثيرا مايحكم بالأمر ثم ينقضُه ، ويفتى بالفُتْيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به أولا . ويمكن أن تكون « من » هاهنا للتعليل والسَّببية ، أى ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها ، قال :

أمِنْ رَسْمِ دارٍ مَرْبَعٌ وَمَصِيفُ لِعَيْنَيْكَ مِنْ مَاءِ الشُّؤُونِ وَكِيفُ !(١)

أى لأجل أنْ رسم المربع والمصيف هذه الدار وكَف دمعُ عينيك !

والصَّعْبة من النوق : مالم تُرْكَبْ ولم تُرَضْ ، إنْ أشنَق لها راكبها بالزمام خرم أنفها ، وإن أسلس زمامها تقحّم فى المهالك فألقته فى مَهْواة أو ماء أو نار ، أو نَدّت فلم تقف حتى تُرديَه عنها فَهلك .

وأشنَقَ الرّجُل ناقته ، إذا كفّها بالزمام ، وهو راكبها ، واللغة المشهورة شَنَق ، ثلاثية . وفى الحديث : إنّ طلحةَ أنشِد قصيدةً فما زال شانقاً راحلته ، حتى كتبت له(٢) . وأشنَق البعيرُ نفسه ، إذا رفع رأسه ؛ يتعدّى ولا يتعدى ، وأصله من الشِّناق، وهو خيطٌ يُشَدُّ به فَمُ القِرْبة .

وقال الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى : إنما قال عليه السلام : أشنَقَ لها ، ولم يقل: « أشنقها » ، لأنه جعل ذلك فى مقابلة قوله : « أسلس لها » وهذا حسن ، فإنّهم إذا

---

(١) وكيف الدمع : سيلانه .

(٢) الخبر فى الفائق ١ : ٦٧٧ ، وقال فى شرحه : « هو أن يجذب رأسها بزمامها، حتى يدانى قفاها قادمة الرحل ؛ وقد شنقها وأشنقها » .

قصدوا الازدواج فى الخطابة فعلوا مثل هذا ، قالوا : الغدايا والعشايا ، والأصل الغَدَوَات جمع غُدوة . وقال صلى الله عليه وآله : « ارجِعْن مأزورات غير مأجورات » ، وأصله « موزورات » بالواو ، لأنه من الوِزْر .

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى : ومما يشهد على أنّ أَشْنَقَ بمعنى « شَنَق » قولُ عدىّ ابن زيد العِبادى :

سَاءَهَا مالها تَبَيَّنَ فى الْأَيْدِى وإشْنَاقُها إلى الأعنَاقِ

قلت : « تبيّنَ » فى هذا البيت فعل ماض ، تَبيَّن يتبيّن تبيّنا ، واللام فى « لها » تتعلق بـ « تَبيّنَ » . يقول : ظهر لها مافى أيدينا فساءها .

وهذا البيت من قصيدة أولها :

لَيْسَ شَىْءٌ عَلَى الْمَنُونِ بَباقِ غير وَجْهِ المسبَّح الخلاقِ (١)

وقد كان زارته بنيّة له صغيرة اسمها هند ، وهو فى الحبس ـ حبس النعمان ـ ويداه مغلولتان إلى عنقه ، فأنكرت ذلك ، وقالت : ماهذا الذى فى يدك وعنقك ياأبت ! وبكت ، فقال هذا الشعر . وقبل هذا البيت :

وَلَقَدْ غَمَّنِى زِيَارَةُ ذِى قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْبِنَا مُشْتَاقِ
سَاءَهَا مَالَهَا تَبيّن فى الأيْدِى وإشْنَاقُها إلى الأعْنَاقِ (٢)

أى ساءها ماظهر لها من ذلك . ويروى : « ساءها مابنا تبيّن » أى مابان وظهر ، ويروى « مابنا تبيّنُ » بالرفع على أنّه مضارع .

ويروى « إشناقُها » بالرفع عطفا على « ما » ، التى هى بمعنى الذى ، وهى فاعلة . ويروى بالجرّ عطفا على « الأيدى » .

---

(١) الأغانى ٢ : ١١٦ ، اللسان (شنق) .

(٢) بعده فى رواية الأغانى :

فاذْهَبِى ياأُمَيْمَ غَيْرَ بَعِيدٍ لَا يُوَاتِى الْعِنَاقَ مَنْ فى الوَثَاقِ
واذْهَبِى ياأُمَيْمَ إنْ يشأ اللّـهُ يُنَفِّسْ مِنْ أزْم هذا الخناق

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضا : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقة قد شَنَق لها وهى تَقْصَعُ بجِرّتها .

قلت : الجِرّة : مايعلو من الجوفِ وتجترّه الإبل ، والدِّرة: مايسفل . وتَقْصَعُ بها : تدفع ، وقد كان للرضيّ رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتجّ بها على جواز « أشنق لها » ، فإن الفعل فى الخبر قد عُدّىَ باللام لا بنفسه .

قوله عليه السلام : « فمُنِىَ النَّاسُ » أى بُلِىَ الناس ، قال :

* مُنِيتُ بِزَمَّرْدَةٍ كالعَصَا * (١)

والخَبْط : السَّيْر على غير جادّة ، والشِّماس : النِّفار . والتلوّن : التبدُّل . والاعتراض: السَّيْرُ لا على خط مستقيم ، كأنّه يسير عَرْضا فى غضون سيره طولا ، وإنما يفعلُ ذلك البعير الجامح الخابط . وبعيرٌ عُرْضِىّ : يعترض فى مسيره ؛ لأنه لم يتمّ رياضته ، وفى فلان عُرْضِيّة، أى عَجْرفة وصُعوبة .

* * *

[طرف من أخبار عمر بن الخطاب]

وكان عمر بن الخطّاب صعبا ، عظيم الهَيْبة شديد السياسة، لا يُحابِى أحداً ، ولا يراقب شريفا ولا مشروفا . وكان أكابر الصحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه ؛ كان أبو سفيان ابن حَرْب فى مجلس عمر ، وهناك زياد ابن سُمَيّة وكثير من الصحابة ، فتكلّم زياد فأحسن - وهو يومئذ غلام - فقال علىّ عليه السلام - وكان حاضراً - لأبى سفيان وهو إلى جانبه: لله هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان : أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنه من خير أهلك ، قال : ومَنْ أبوه ؟ قال: أنا وضعته والله فى رَحِم أمّه، فقال علىّ عليه السلام : فما يمنعُك من استلحاقه؟ قال: أخاف هذا العَيْر (٢) الجالس أن يخرّق علىّ إهابى !

---

(١) لأبى القطمش الحنفى؛ ذكره أبو تمّام فى الحماسة ١٨٨١ - بشرح المرزوقى، ورواه: « بِزِنْمِرْدَةٍ » ، وقال : هو حجز يملأ الكف » ، وبعده :

* ألصَّ وأخْبثَ مِنْ كِنْدِشٍ *

(٢) عير القوم : سيدهم .

وقيل لابن عباس لما أظهر قوله فى العَوْل(١) بعد موت عمر — ولم يكن قبل يظهره: هلّاقلت هذا وعمرُ حىّ ؟ قال: هِبْتُه ، وكان امرأً مهابا(٢) .

واستدعَى عمر امرأة ليسألها عن أمر — وكانت حاملا — فلِشدّة هيبته ألقت مافى بطنها ، فأجهضت به جنينا ميتا ، فاستفتى عمر أكابرَ الصحابة فى ذلك ، فقالوا : لا شىء عليكَ ، إنما أنت مؤدِّب ، فقال له علىّ عليه السلام : إن كانوا راقبوك فقد غشُّوك ، وإن كان هذا جُهْدَ رأيهم فقد أخطئوا ؛ عليك غُرّة — يعنى عتق رقبة — فرجع عمرُ والصحابة إلى قوله .

وعمر هو الذى شدّ بَيْعَةَ أبى بكر ووقَمَ(٣) المخالفين فيها فكسر سيفَ الزبير لمّا جرّده ، ودفع فى صدر المقداد ، ووطِئَ فى السقيفة سَعْد بن عبادة ، وقال : اقتلوا سعدا ، قتل الله سعدا ! وحطَّم أنف الحُباب بن المنذر الذى قال يوم السّقيفة : أنا جُذَيلُها(٤) المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجَّب . وتوعَّد مَنْ لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين ، وأخرجهم منها . ولولاه لم يثبت لأبى بكر أمْر ، ولا قامت له قائمة .

وهو الذى ساسَ العمال وأخذ أموالَهم فى خلافته ، وذلك من أحسن السياسات .

وروى الزبيرُ بن بكار ، قال : لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصر ، بلغه أنّه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت(٥) ، فكتب إليه ، أما بعد : فقد ظهرَ لى مِنْ مالك مالم يكن فى رزقك ، ولا كان لك مال قبْلَ أنْ أستعملَك ، فأنّى لك هذا ! فوالله لو لم يهمّنى فى ذات الله إلا من اختان فى مال الله ، لكثر همّى ، وانتثر أمرى ، ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منك ، ولكنّى قلّدتك رجاء غنائك ؛ فاكتب إلىّ من أين لك هذا المال ، وعجِّل .

---

(١) عول الفريضة ، وهو أن تزيد سهامها ، فيدخل النقصان على أهل الفرائض .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « وكان امرأ مهيبا » . (٣) وقم البعير : كواه ؛ والمراد أذله .

(٤) الفائق ا : ١٨٠ ، وبقية الخبر فيه : « منا أمير ومنكم أمير » . الجذيل : تصغير الجذل ، بالكسر ، وهو فى الأصل عود ينصب للجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والمرجب : المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين ؛ قال الزمخشرى فى تفسيره : « إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل » .

(٥) قولهم : ماله صامت ولا ناطق . فالناطق : الحيوان والصامت : ماسواه .

فكتب إليه عمرو : أمّا بعد، فقد فهمت كتابَ أمير المؤمنين، فأمّا ما ظهر لى من مال، فإنا قدِمْنا بلادا رخيصةَ الأسعار ، كثيرة الغزو ، فجعلنا ما أصابنا فى الفضول التى اتّصل بأمير المؤمنين نبؤها ، ووالله لو كانت خيانتُك حلالاً ماخنتُك ؛ وقد ائتمنتَنى ، فإنّ لنا أحسابا إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن خيانتك . وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منّى ، فإذا كان ذاك فوالله مادقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً ، ولا فتحت لك قُفْلا .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنى لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام فى شىء ؛ ولكنّكم معشرَ الأمراء قعدتم على عيون الأموال ، ولن تعدِموا عُذْراً ، وإنما تأكلون النّار ، وتتعجّلون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ، فسلِّم إليه شطر مالك .

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاما ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه تقدمة الشرّ ، ولوجئتَنى بطعام الضيف لأكلت ، فنحِّ عنى طعامك ، وأحضِرْ لى مالك ، فأحضره ، فأخذ شَطْرَه. فلما رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه، قال : لعن الله زمانا صرتُ فيه عاملا لعمر، والله لقد رأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة (١) لا تجاوز مأبِض (٢) ركبتيه ، وعلى عنقه حُزْمة حَطب ، والعاص بن وائل فى مُزَرَّراتِ الدّيباج . فقال محمد : إيهاً عنك ياعمرو ! فعمرُ والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما فى النار ، ولولا الإسلام لألفِيت معتلقاً شاة ، يسرّك غزْرها ، ويسوءك بُكُوءها (٣) . قال : صدقت فاكتم علىّ ، قال: أفعل .

* * *

قال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنتُ (٤) عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحْرين

---

(١) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة ، تنسب إليه الأكسية .

(٢) المأبض : باطن الركبة .

(٣) يقال : بكأت الناقة بكوءا ؛ إذا قل لبنها .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ١٥٢ ، ١٥٣ .

فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله، وأنْ يستخلفوا جميعا. فلما قدِمْنا المدينةَ أتيت يَرْفأ حاجب عمر، فقلت: يا يرفأ، مسترشد وابنُ سبيل! أيّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عمّاله؟ فأومأ إلىّ بالخشونة، فاتخذت خُفّين مُطارَقين (١)، ولبست جُبّة صوف، وَلُثْتُ عمامتى على رأسى، ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه، فصعّد بصره فينا وصوّب، فلم تأخذ عينُه أحدا غيرى، فدعانى، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثىّ، قال: وما تتولّى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم تُرزَق؟ قلت: ألفا، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوّت منه شيئا، وأعود بباقيه على أقاربَ لى، فما فضلَ منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: لا بأس، ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعى من الصفّ، فصعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينُه إلّا علىّ فدعانى، فقال: كم سنُّك؟ قلت: خمس وأربعون، فقال: الآن حيث استحكمت! ثم دعا بالطعام، وأصحابى حديثٌ عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأتى بخبز يابس وأكسار (٢) بعير، فجعل أصحابى يعافون ذلك، وجعلت آكل فأجيد، وأنا أنظر إليه، وهو يلحظنى من بينهم، ثم سبقتْ منّى كلمة تمنيت لها أنّى سُخْت فى الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدْت إلى طعامٍ ألينَ من هذا! فزجرنى، ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أن تنظرَ إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إياه بيوم، ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتَى بالخبز لينا، وباللحم غريضا. فسكّن من غَرْبه، وقال: أهاهنا غُرْت (٣)! قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأنا هذه الرّحاب من صَلائق (٤) وسبائك (٥) وصِناب (٦)، ولكنّى رأيتُ الله نَعَى على قومٍ شهواتهم، فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ

---

(١) لبس خفين مطارقين، أى مطبقين، واحدا فوق الآخر.

(٢) أكسار الإبل: أعضاؤها، واحدها كسر؛ بالفتح والكسر.

(٣) غرت: ذهبت، وفى الأصول: «غرب» تحريف.

(٤) الصلائق: ما عمل بالنار طبخا وشيا.

(٥) السبائك: ما سبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه؛ يعنى الحوارى؛ وكانوا يسمون الرقاق السبائك.

(٦) الصناب: صباغ يؤتدم به.

﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (١) ، ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى .

* * *

أسلم عمر بعد جماعة من الناس ، وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرًّا من عمر ، فدخل إليهما خبّاب بن الأرتّ ، يعلّمهما الدّين خفية ، فوشَى بهم واشٍ إلى عمر ، فجاء دارَ أخته ، فتوارى خبّاب منه داخلَ البيت ، فقال عمر : ماهذه الهينمةُ عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صبَوْتما ! قال ختَنُه : أرأيت إن كان هو الحقّ ! فوثب عليه عمر فوطِئه وطئًا شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده، فدَمِيَ وجهها ، ثم ندِم ورقّ، وجلس واجما ، فخرج إليه خبّاب فقال : أبشِرْ ياعمر، فإنى أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة ، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة : « اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .

قال : فانطلق عمرُ متقلّدا سَيْفَه حتى أتى إلى الدار التى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ، وهى الدّار التى فى أصل الصّفا، وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين، فوجِلَ القومُ من عمر إلا حمزة فإنه قال : قد جاءنا عمر ، فإنْ يُرد الله به خيرا يَهْده ، وإنْ يُرِدْ غير ذلك كان قتلُه علينا هيّنا - والنبيّ صلى الله عليه وآله داخل الدار يوحَى إليه - فسمِع كلامهم، فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : « ماأنت بمنتهٍ ياعمر حتى يُنزِل الله بك من الخِزْى والنّكال ماأنزل بالوليد بن المغيرة . اللهمّ هذا عمر، اللهم أعزّ الإسلام بعمر » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

* * *

مرّ يوما عمر فى بعض شوارع المدينة فناداه إنسان : ما أراك إلا تستعملُ عمّالك ، وتعهد إليهم العهود، وترى أنّ ذلك قد أجزأك . كلاّ والله، إنّك المأخوذ بهم إن لم تتعهّدهم ،

---

(١) سورة الأحقاف ٢٠ .

قال : ماذاك ؟ قال: عياض بن غَنْم يلبس اللّيّنَ ، ويأكل الطيّب ، ويفعل كذا وكذا . قال : أساعٍ (١) ؟ قال : بل مؤدٍّ ما عليه ، فقال لمحمد بن مسلمة : الحقْ بعياض بن غَنْم فأتني به كما تجده ؛ فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض – وهو أمير على حِمْص – وإذا عليه بوّاب، فقال له : قل لعياض: على بابك رجل يريد أن يلْقاك ، قال : ماتقول؟ قال : قل له ما أقول لك ؛ فقام كالمعجَب فأخبره ، فعرف عياض أنه أمْرٌ حدَث ، فخرج فإذا محمد بن مسلمة ، فأدخله ، فرأى على عياض قميصا رقيقا ، ورداء ليّنا ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أمرنى ألّا أفارقك حتى آتيَه بك كما أجدك . فأقدمه على عمر وأخبرهُ أنه وجده فى عيش ناعم . فأمر له بعصا وكساء ، وقال : اذهب بهذه الغَنَم ، فأحسن رعيَها ، فقال : الموتُ أهْوَنُ من ذلك ، فقال : كذبت ، ولقد كان تركُ ما كنتَ عليه أهونَ عليك من ذلك . فساق الغنم بعصاه ، والكساء فى عنقه ، فلما بعُد ردّه ، وقال : أرأيت إن رددتُك إلى عملك أتصنع خيراً ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لا يبلغُك منّى بعدها ماتكرَهُ . فردّه إلى عمله ، فلم يبلغه عنه بعدها ماينقِمه عليه .

* * *

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون الشجرة التى كانت بيعةُ الرضوان تحتَها فيصلّون عندها ، فقال عمر : أراكم أيّها الناس رجعتم إلى العُزّى ! ألا لا أوتَى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتهُ بالسيف كما يُقتل المرتدّ، ثم أمر بها فقطِعت.

* * *

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله، وشاع بين الناس موتُه ، طاف عمر على الناس قائلا : إنه لم يمتْ ، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وليرجعنّ فليقطّعنّ أيدىَ رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات . فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنه مات إلا ويخبطه ويتوعّده ، حتى جاء أبو بكر ، فقال: أيها الناس ، مَنْ كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات،

---

(١) الساعى هنا : الواشى .

ومن كان يعبد ربّ محمد فإنه حىّ لم يمت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾(١) ، قالوا : فو الله لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . وقال عمر : لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات .

* * *

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته ، كان فى عسكره أبو قَتادة الأنصارىّ ، فركب فرسه ، والتحق بأبى بكر ، وحلف ألّا يسيرَ فى جيش تحت لواء خالد أبداً ، فقصّ على أبى بكر القصّة ، فقال أبو بكر : لقد فتنتِ الغنائمُ العرب ، وترك خالد ما أمر به ، فقال عمر : إنّ عليك أن تُقيده بمالك ، فسكت أبو بكر ، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد ، وفى عمامته ثلاثة أسهم ، فلما رآه عمر قال : أرياء ياعدو الله ! عدوتَ على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته ؛ أما والله إن أمكننى الله منك لأرجمنّك ، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها ـ وخالد ساكت لا يردّ عليه ، ظنا أنّ ذلك عن أمر أبى بكر ورأيه ـ فلما دخل إلى أبى بكر وحدّثه ، صدّقه فيما حكاه وقبِل عذره . فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتصّ منه بدم مالك ، فقال أبو بكر : إيها ياعمر ! ماهو بأوّل مَنْ أخطأ ، فارفع لسانك عنه . ثم وَدَى مالكا من بيت مال المسلمين .

* * *

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح ، وتزوّج ابنة مُجّاعة ابن مُرارة الحنفىّ ، وصل إليه كتاب أبى بكر : لَعَمْرِى يا بن أمّ خالد ، إنك لفارغ حتى تزوّج النساء ، وحوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد ... فى كلام أغلظ له فيه ، فقال خالد : هذا الكتاب ليس من عمل أبى بكر ، هذا عمل الأُعيسر ـ يعنى عمر .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

عزل عمر خالداً عن إمارة حمص فى سنة سبع عشرة ، وأقامه للناس ، وعقله بعمامته ، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال : أعلمنى ، من أين لك هذا المال ؟ وذلك أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف درهم ، فقال: من الأنفال والسُّهمان ، فقال : لا والله ، لا تعمل لى عملا بعد اليوم ، وشاطره ماله ، وكتب إلى الأمصار بعزله ، وقال . إنّ الناس فُتنوا به ، فخفت أن يُوكَلوا إليه ، وأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع .

* * *

لما أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر منْ تُسْتَر إلى المدينة ، ومعه رجال من المسلمين ، منهم الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، فأدخلوه المدينة فى هيئته وتاجه وكِسْوته ، فوجدوا عمر نائما فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهُرْمزان : وأين عمر ؟ قالوا : هاهو ذا ؛ قال : أين حرسُه ؟ قالوا : لا حاجبَ له ولا حارس. قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ، قالوا : إنه يعمل بعمل الأنبياء . واستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ؟ فقالوا: نعم؛ قال : لا أكلمه أولا يبقى عليه من حِلْيته شىء ، فرمَوْا ماعليه ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فلما كلمه عمر ، أمر أبا طلحة أن ينتضِىَ سيفه ويقوم على رأسه ، ففعل . ثم قال له : ماعذرُك فى نقض الصلح ونكث العهد ؟ ـ وقد كان الهرمزان صالح أوّلا ، ثم نقض وغدر ـ فقال: أخبرك ، قال : قل ، قال : وأنا شديد العَطَش ! فاسقنى ثم أخبرك . فأُحضِر له ماء ، فلما تناوله جعَلَتْ يده ترْعَد ، قال : ماشأنُك؟ قال : أخاف أن أمدّ عنقى وأنا أشرب فيقتلَنى سيفك . قال : لا بأس عليك حتى تشرب ، فألقى الإناء عن يده ، فقال : مابالك ؟ أعيدوا عليه الماء ، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : إنّك قد أمّنتَنى ، قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، قال أنس : صدق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك ياأنس ! أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتينّى بالمخرج أو لأعاقبنّك؛ قال: أنت ياأمير المؤمنين قلت : لا بأس عليك حتّى تشرب . وقال له ناس من المسلمين

مثل قول أنس ، فقال للهُرمزان : ويحك ! أتخدعُنى! والله لأقتلنَّك إلا أن تُسْلِم ، ثم أومأ إلى أبى طلحة ، فقال الهرمزان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة .

* * *

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له: ماتقول فى الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال فالنَّبل؟ قال : رسل المنايا ؛ تخطىء وتُصيب، قال فالدرع ؟ قال : مَشْغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإنها مع ذلك لحِصْن حصين ، قال فالتُّرس ؟ قال : هو المِجَنّ، وعليه تدور الدوائر ، قال: فالسيف ؟ قال: هناك قارعت أمُّك الهبل ، قال : بل أمّك، قال: والحُمَّى أضْرعتنى لك (١) .

* * *

وأولُ مَنْ ضرب عمر بالدِّرة أمّ فروة بنت أبى قُحافة، مات أبو بكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة ، فنهاهنّ عمر مرارا ، وهنّ يعاوِدْن ، فأخرج أمّ فروة من بينهنّ، وعَلاَها بالدِّرة ، فهربْنَ وتفرّقن .

* * *

كان يقال : دِرّة عمر أهْيَبُ من سيف الحجّاج . وفى الصحيح : إن نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد كثر لغَطُهنّ ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له ، فقال لهنّ : ياعُديّات أنفسِهن ، أتهبْنَنِى ولا تهبْنَ رسول الله ! قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ .

* * *

وكان عمر يُفتِى كثيراً بالحُكم ثم ينقضُه ، ويفتى بضدّه وخلافه ؛ قضى فى الجدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحُكم فى هذه المسألة فقال : مَنْ أراد أن يتقحم جراثيم جهنم فليقُلْ فى الجدّ برأيه .

---

(١) الحمى أضرعتنى لك ؛ مثل يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل ؛ وورد المثل محرفا فى الأصول ، والتصويب من الميدانى ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار ١ : ١٣٠ ، والعقد ١ : ٢١٠ .

وقال مرة : لا يبلغنى أنّ امرأة تجاوز صداقُها صداقَ نساء النبيّ إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة : ماجعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾(١) ، فقال : كلّ الناس أفقهُ من عُمر، حتى ربّات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، فاضلتْ إمامكم ففضلتْه!

* * *

ومرّ يوما بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فجَدَح(٢) له ماء بعسَل فلم يشربه ، وقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة ، اقرأ ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾(٣) ، فقال عمر : كلّ الناس أفقه من عمر !

وقيل : إن عمر كان يَعُسّ بالليل ، فسمِعَ صوتَ رجل وامرأة فى بيت ، فارتاب فتسوّر الحائط ، فوجد امرأة ورجلا ، وعندهما زقّ خمر ، فقال : ياعدوّ الله ، أكنت ترى أن الله يسترُك وأنت على معصيته ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت فى واحدة فقد أخطأت فى ثلاث ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾(٤) ، وقد تجسّست . وقال : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾(٥) وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا ﴾(٦) ، وما سلّمت !

وقال : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرِّمهما ، ومعاقِب عليهما : متعة النساء ومتعة الحجّ . وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكَراً فله عندنا مخرج وتأويل ، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء فى كتبهم .

* * *

---

(١) سورة النساء ٢٠

(٢) جدح : خلط

(٣) سورة الأحقاف ٢٠

(٤) سورة الحجرات ١٢

(٥) سورة البقرة ١٨٩

(٦) سورة النور ٦١

وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جَفاء وعُنْجُهية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها مالم يكنْ قد أراد، ويتوهَّم من تُحْـكَى له أنه قصد بها ظاهراً مالم يقصده، فمنها الكلمة التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها ! ولـكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته ، ولم يتحفظ منها . وكان الأحسنُ أن يقول : « مغمور » أو « مغلوب بالمرض » ، وحاشاهُ أن يعنى بها غير ذلك !

ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير ، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيا يقول فى سنة قَحْط :

رَبَّ العِبَادِ مَالَنَا وَمَالَـكَا قَدْ كُنْتَ تَسقِينا فما بدَا لَـكا !

* أنْزِل عَلَيْنَا القَطْرَ لَا أَبا لَـكا *

فقال سليمان : أشهد أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجه أحسن مخرَج (١) .

وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه فى صُلْح الحديبية لما قال للنبى صلى الله عليه وآله : ألم تقُلْ لنا : ستدخلونها ! فى ألفاظ نَـكْرَه حكايتها، حتى شكاه النبى صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، وحتى قال له أبو بكر : الزَمْ بِغَرْزِه (٢) ، فوالله إنه لَرسول الله .

وعمر هو الذى أغلَظ على جَبَلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة ، بل مفارقة دار الإسلام كلّها ، وعاد مرتدًّا داخلا فى دين النصرانية ، لأجل لطمة لُطمها. وقال جَبَلة بعد ارتداده متندِّما على مافعل :

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ !

فَيالَيْتَ أمِّى لم تَلِدْنى وَلَيْتَنِى رَجَعْتُ إلى القولِ الّذى قاله عُمَرْ

* * *

---

(١) الخبر فى الكامل ٧ : ١٤٥ — بشرح المرصفى

(٢) الغرز فى الأصل : ركاب الرحل ، وفى الكلام استعارة ، والمراد هنا : اتبع قوله . وفى اللسان والنهاية : « استمسك بغرزه » ، ورواية ابن هشام : « الزم غرزه » .

الأصْلُ :

حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ ، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ؛ فَيَا لَلّٰهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اُعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ! لَـكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ،وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ .

***

الشَّرْحُ :

اللام فى « يالله » مفتوحة ، واللام فى « ولِلشورى » مكسورة؛لأن الأولى للمدعوّ، والثانية للمدعو إليه ، قال :

يالَلرِّجال لِيوم الأربعاء أما ينفكّ يُحدِث لى بَعْدَ النُّهَى طَرَبا[1] !

اللام فى « للرجال » مفتوحة، وفى « ليوم » مكسورة . وأسفّ الرجل،إذا دخل فى الأمر الدنىء ، أصله من «أسفّ الطائر » إذا دنا من الأرض فى طيرانه.والضغن : الحقد .

وقوله « مع هنٍ وهنٍ » ،أى مع أمور يكنى عنهـا ولا يصرّح بذكرها ، وأكثر مايستعمل ذلك فى الشرّ ، قال[2] :

* عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّها مُتتابِعُ *

يقول عليه السلام : إنّ عمر لما طعن جعل الخلافة فى ستّة ، هو عليه السلام أحدهم ، ثم تعجب من ذلك ، فقال : متى اعترض الشك فىّ مع أبى بكر،حتى أقرن بسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وأمثالهما ! لـكنّى طابت الأمروهو موسوم بالأصاغرمنهم، كما طلبته أولا وهو موسوم بأكابرهم؛أى هو حق فلا أستنكف من طلبه،إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المنزلة .

وصغا الرجل بمعنى مال ، الصَّغْو : الميل ، بالفتح والكسر .

---

[1] (١) لعبد الله بن مسلم بن جندب و الـكامل ٣ : ٢٧٠ من غير نسبة ، وهو أيضا من أبيـات له رواها ثعلب فى المجالس ٤٧٤ ، وهى و معجم البلدان ١ : ١٣٦ .

[2] (٢) البيت فى اللسان (٢٠ : ٢٤٣) من غير نسبة ، وأوله :

* أَرَى ابنَ نِزارٍ قَدْ جَفانى ومَلَّنِي *

[قصة الشّورى]

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة ، وعَلِم أنه ميت ، استشار فيمن يولِّيه الأمر بعده، فأُشير عليه بابنه عبدالله ، فقال: لاها الله إذاً ! لا يليها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل ! حَسْبُ عمر ما احتقب، لاها الله ! لا أتحملها حيا وميتا ! ثم قال : إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وقد رأيتُ أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أَسْتَخْلِف فقد استخلف مَنْ هو خير منى - يعنى أبا بكر - وإن أتركْ فقد ترَكَ من هو خير منى - يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله - ثم قال : ادعُوهم لى ، فدعوْهم ، فدخلوا عليه وهو مُلْقًى على فراشه يجود بنفسه .

فنظر إليهم ، فقال : أَكلّكم يطمعُ فى الخلافة بعدى ! فوَجَموا ، فقال لهم ثانية ، فأجابه الزّبير وقال: وما الذى يُبعدنا منها ! وليتَها أنتَ فقمتَ بها، ولسْنا دونَك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .

- قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ، ولا إن يَنْبِس منه بلفظة -

فقال عمر : أفلا أخبرُكم عن أنفُسِكم ! قال : قل ، فإنا لو استعفيناك لم تُعفِنا ، فقال : أما أنت يازبير فوَعِق لَقِس (١)، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوما إنسان، ويوما شيطان، ولعلها لو أفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تلاطم بالبطحاء على مُدٍّ من شعير ! أفرأيتَ إن أفضت إليك ! فليت شِعْرى ، مَنْ يكون للناس يومَ تكون شيطانا، ومنْ يكون يومَ تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم أقبل على طلحة - وكان له مبغضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ماقال فى عمر - فقال له: أقول أم أسكت ؟ قال : قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إنى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد والبَأْو (٢) الذى حدث لك، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلّم

---

(١) الوعق : الضجر المتبرم ، واللقس : من لا يستقيم على وجه .

(٢) البأو : الكبر والفخر . ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .

ساخطا عليك بالكلمة التى قلتها يوم أُنزِلت آية الحجاب .

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى : الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أُنزِلَتْ آية الحجاب قال بمحضر ممّنْ نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما الذى يغنيه حجابهنّ اليوم ! وسيموت غدًا فننكِحُهُنّ. قال أبو عثمان أيضا : لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم مات وهو راض عن الستة، فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطا عليك للكلمة التى قلتها ! لكان قد رماه بمشاقصه (١)، ولكن مَن الذى كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا ، فكيف هذا !

قال : ثم أقبل على سعد بن أبى وقاص فقال : إنما أنت صاحبُ مِقْنَب (٢) من هذه المقانب ، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم ، وما زُهْرة (٣) والخلافة وأمور الناس!

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف ، فقال: وأما أنت ياعبد الرحمن ، فلو وُزِن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانُك به ، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر !

ثم أقبل على علىّ عليه السلام ، فقال : لله أنت لولا دُعابة فيك! أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح ، والمحجّة البيضاء .

ثم أقبل على عثمان ، فقال : هيهاً إليك ! كأنى بك قد قلدتْك قريش هذا الأمر لحبّها إياك ، فحملتَ بنى أمية وبنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت إليك عصابة من ذُؤبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلُنّ . ثم أخذ بناصيته ، فقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولى ؛ فإنه كائن .

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان فى كتاب " السُّفيانية " (٤)، وذكره جماعة غيره فى باب فراسة عمر . وذكر أبو عثمان فى هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال: ورَوى

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو نصل السهم إذا كان طويلا

(٢) المقنب : جماعة الخيل . (٣) زهرة : قبيلة سعد بن أبى وقاص .

(٤) فى المسعودى ٣ : ٢٥٣ أن الجاحظ ألف كتابا فى نصرة معاوية بن أبى سفيان .

معمر بن سليمان التيمىّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس ، قال : سمعت عمرَ ابن الخطاب يقول لأهل الشورى : إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم ، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم ، غَلَبكم على هذا الأمر معاوية بن أبى سفيان . وكان معاوية حينئذ أمير الشام .

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى . ثم قال : ادعوا إلىّ أبا طلحة الأنصارىّ ، فدعَوه له فقال : انظر يا أبا طلحة ، إذا عدتم من حُفْرتى ، فكن فى خمسين رجلا من الأنصار حاملى سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ، واجمعهم فى بيت ، وقفْ بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم ، فإن اتّفق خمسة وأبَى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق أربعة وأبَى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة ، فانظر الثلاثة التى فيها عبد الرحمن ، فارجع إلى ما قد اتفقتْ عليه ، فإن أصرّت الثلاثة الأخرى على خِلافها فاضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ ، فاضرب أعناق السّتة ، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم .

فلما دُفِن عمر ، جَمَعهم أبو طلحة ، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار ، حاملى سيوفهم ، ثم تكلّم القوم وتنازعوا ، فأوّلُ ما عمل طلحةُ أنّه أشهدَهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان ، وذلك لعلمه أنّ الناسَ لا يعدِلون به عليًّا وعثمان ، وأن الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان ، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعافَ جانب علىّ عليه السلام ، بهبَة أمر لا انتفاعَ له به ، ولا تمكُّن له منه .

فقال الزبيرُ فى معارضته : وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ ؛ وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليًّا قد ضَعُف وانخزل بهبَةِ طلحة حقَّه لعثمان ، دخلته حميَّة النّسَب ، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهى صفيّة بنت عبد المطلب ، وأبو طالب خالُه . وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن علىّ عليه السلام ، باعتبار أنّه

تَيمى ، وابنُ عمّ أبى بكر الصديق ، وقد كان حصلَ فى نفوس بنى هاشم من بنى تَيْم حَنَق شديد لأجل الخلافة ، وكذلك صار فى صدور تَيْم على بنى هاشم ؛ وهذا أمرٌ مركوز فى طبيعة البَشر ، وخصوصا طينة العرب وطباعها ، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك ؛ فبقىَ من الستة أربعة .

فقال سعد بن أبى وقّاص : وأنا قد وهبتُ حقّى من الشورى لابن عَمّى عبدالرحمن ـ وذلك لأنّهما من بنى زُهْرة ، ولعلم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له ـ فلما لم يبقَ إلّا الثلاثة . قال عبدالرحمن لعلىّ وعثمان : أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة ، ويكون إليه الاختيار فى الاثنين الباقيين ؟ فلم يتكلّم منهما أحد ، فقال عبد الرحمن : أشهدُكم أننى قد أخرجتُ نفسى من الخلافة على أنْ أختار أحدَهما ، فأمسكا . فبدأ بعلىّ عليه السلام ، وقال له : أبايعك على كتاب الله ، وسنة رسول الله ، وسيرة الشيخين : أبى بكر وعمر . فقال : بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيى . فعدل عنه إلى عثمان ، فعرض ذلك عليه ، فقال : نعم ، فعاد إلى علىّ عليه السلام ، فأعاد قوله ؛ فعَل ذلك عبد الرحمن ثلاثا ، فلما رأى أنّ عليا غيرُ راجع عَمّا قاله ، وأنّ عثمان يُنعِم له (١) بالإجابة ، صفَق (٢) على يد عثمان ، وقال: السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ، فيقال : إن عليا عليه السلام قال له : والله مافعلتَها إلا لأنك رجوتَ منه مارجا صاحبُكما من صاحبه ، دقّ الله بينكما عِطرَ مَنْشِم (٣) .

قيل : ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن ، فلم يكلّم أحدُهما صاحبَه حتى مات عبد الرحمن .

---

(١) أنعم له ؛ إذا قال مجيبا « نعم » .

(٢) يقال : صفق يده بالبيعة وعلى يده صفقا ، أى ضرب بيده على يده .

(٣) قال الأصمعى : منشم ، بكسر الشين : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأم من عطر منشم ؛ فصار مثلا . صحاح الجوهرى : ٢٠٤١

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل :

أما قوله عليه السلام : « فصغا رجل منهم لضِغْنه » ، فإنه يعنى طلحة . وقال القطب الراوندىّ : يعنى سعدَ بن أبى وقّاص ؛ لأنّ عليا عليه السلام قتلَ أباه يوم بدر . وهذا خطأ فإن أباه أبو وقّاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤىّ بن غالب ؛ مات فى الجاهلية حَتْفَ أنفِه .

وأما قوله : « ومال الآخرُ لِصِهْره » يعنى عبدَ الرحمن مال إلى عثمان ، لأنّ أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى معيط كانت تحتَه ، وأمّ كلثوم هذه هى أخت عثمان مِن أمّه أرْوَى بنت كُرَيز .

وروى القُطْب الراوندىّ أنّ عمر لما قال : كونوا مع الثّلاثة التى عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعلىّ عليه السلام : ذهبَ الأمرُ مِنّا ، الرجُل يريد أن يكون الأمر فى عثمان. فقال علىّ عليه السلام : وأنا أعلمُ ذلك ، ولكنّى أدخل معهم فى الشورى ، لأنّ عمر قد أهّلنى الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك(١) يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامةَ لا يجتمعان فى بيت ، فأنا(٢) أدخل فى ذلك لأظْهِر للناس مناقضة فعله لروايته .

الذى ذكره(٣) الراوندىّ غير معروف ، ولم ينقُلْ عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه، ولكنّه قال لعبد الله بن عباس يوما : ياعبد الله ، ماتقول منع قومكم منكم(٤) ؟ قال : لا أعلم ياأمير المؤمنين ، قال : اللهم غفراً ! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبون فى السماء بُذّخاً وشُمَّخاً ، لعلكم تقولون : إن أبا بكر أراد الإمْرَة عليكم وهَضَمكم ! كلاّ ، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ مما فعل ، ولولا رأىُ أبى بكر

---

(١) كلمة « ذلك » ساقطة من ب.

(٢) ا : « وأنا » .

(٣) ب « رواه » .

(٤) كذا فى الأصول ، وربما كانت كلمة « تقول » مقحمة ، أو تكون بمعنى الظن . وفى تاريخ الطبرى : « أتدرى مامنع قومكم منكم » .

فىّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم ، ولو فعل ماهنأكم مع قومكم ، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثّوْر إلى جازره .

فأما الرواية التى جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى ، فإن صحّتْ فذُو الضِّغن هو سعد بن أبى وقاص ، لأن أمه حَمْنَة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، والضغينة التى عنده على علىّ عليه السلام من قِبَل أخواله الذين قتل صناديدَهم ، وتقلّد دماءهم ؛ ولم يُعرفْ أن عليًّا عليه السلام قَتَل أحداً من بنى زُهْرة ليُنْسَب الضِّغن إليه .

* * *

وهذه الرواية هى التى اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ صاحب " التاريخ "، قال : لمّا طُعن عمر (١) قيل له : لو استخلفت .[ياأمير المؤمنين!] (٢) فقال : [من أستخلف؟] (٢) لو كان أبو عبيدةَ حَيًّا لاستخلفته (٣) وقلت لربى لو سألنى : سمعتُ نبيّك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » (٤) ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا استخلفته ، وقلت لربّى إن سألنى (٥) : سمعتُ نبيَّك عليه السلام يقول : « إنّ سالما شديدُ الحبّ لله »، فقال له رجل : وَلِّ (٦) عبد الله بن عمر ، فقال : قاتَلك الله ! واللهِ ما الله أردتَ بهذا الأمر ! [ويحك !] (٢) كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لا أَرَبَ لعمر فى خلافتكم (٧)، ماحمِدْتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتى ؛ إن تك خيراً فقد أصبنا منه ، وإن تَكُ شرًّا يُصرَف عنّا (٨). حسبُ آلِ عمر أنْ يحاسبَ منهم [رجل] (٢) واحد ، ويُسأل عن أمر أمة محمد .

فخرج الناس من عنده ، ثم راحوا إليه فقالوا له : لو عهدتَ عهدا ! قال : قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتى [لكم (١)] أنْ أولِّىَ أمرَكم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) مع تصرف واختصار
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى (٣) الطبرى : « استخلفته »
(٤) الطبرى : «أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر ». (٥) الطبرى : « فإن سألنى ربى قلت . . . »
(٦) الطبرى : « إنه أمين هذه الأمة (٧) الطبرى : « أموركم » .
(٨) فى الطبرى : « فشرعنا آل عمر » .

وأشار إلى علىّ عليه السلام ـ فرهِقَتْنى غشية ، فرأيت رجلا يدخل جنّة [قد غرسها](١) فجعل يقطف كلّ غضّة ويانعة ؛ فيضمّها إليه ، ويصيرها تحته ، فخفت أن أتحمّلها حيًّا وميتا ، وعلمت أنّ الله غالب أمره عليكم بالرهط الذى قال رسول الله عنهم : إنهم من أهل الجنة ، ثم ذكر خمسة : عليًّا ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وسعدا .

ـ قال : ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة ـ

ثم قال لهم : انهضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها ، ووضع رأسَه وقد نزفه الدم ، فقال العباس لعلىّ عليه السلام : لا تدخلْ معهم ، وارفع نفسَك عنهم ، قال : إنّى أكره الخلاف ، قال : إذنْ ترى ما تكره ، فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ، ففيم هذا اللّغط ! وانتبه عمر ، وسمع الأصوات ، فقال : ليُصلِّ بالناس صُهيب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيرا وليس له شىء من الأمر ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم ، وإلا فأرضُوه ، ومَنْ لى برضا طلحة ! فقال سعد : أنا لك به ، ولن يخالف إن شاء الله تعالى .

ثم ذكر وصيّته لأبى طلحة الأنصارىّ وما خصّ به عبد الرحمن بن عوف من كَوْن الحق فى الفئة التى هوَ فيها وأمْرَه بقتل من يخالف ، ثم خرج الناسُ فقال علىّ عليه السلام لقوم معه من بنى هاشم : إنْ أُطِيعَ فيكم قومُكم من قريش لم تؤمَّروا أبدا .

وقال للعباس : عُدِل بالأمر عنى ياعمّ . قال : وماعلمك ؟ قال : قُرِن بى عثمان . وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ، فسعد لا يخالفُ ابنَ عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيولّيها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران معِى لم يُغْنيا شيئا . فقال العباس : لم أدفعك إلى شىء إلّا رجعت إلىّ

---

(١) من الطبرى .

مستأخرا بما أكره ، أشرتُ عليك عِند مرض رسول الله صلى الله عليه أنْ تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أنْ تعاجل البَيْعة(١) فأبيت ، وقد أشرتُ عليك حينَ سمّاك عمر فى الشورى اليوم أن ترفَع نفسك عنها ، ولا تدخل معهم فيها فأبيت ، فاحفظ عنى واحدة ؛ كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل : لا ، إلا أن يولّوك . واعلم أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرُك ، وايم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير . فقال عليه السلام : أما إنّى أعلم أنهم سيولّون عثمان ، وليحدِثنّ البدع والإحداث ، ولئن بقى لأذكرنّك ، وإن قتل أو مات ليتداولُنّها بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيًّا لتجدنّى حيث تكرهون ، ثم تمثل :

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرّاقِصاتِ عَشِيّةً ... غَدَوْنَ خِفافا يبتدرْنَ المحصَّبَا(٢)
ليجتَلِبن رهطُ ابن يعمرَ غدوة(٣) ... نجيعاً بنو الشُّدَّاخ وِرْداً مُصلّبا

قال : ثم التفتَ فرأى أبا طلحة الأنصاريّ ، فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرَع أبا حسن . فلما مات عمر ودُفِن وخَلَوْا بأنفسهم للمشاورة فى الأمر ، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت ، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحَصَبهما سعد وأقامهما ، وقال : إنما تريدان أن تقولا حَضَرْنا وكُنّا فى أصحاب الشورى .

فتنافس القومُ فى الأمر وكثُر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ منى عليكم أن تنافسوها ! أما والّذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى وقفت لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم !

قال : ثم إنّ عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبى وقاص : إنى قد كرهتُها ، وسأخلع نفسى منها ، لأنى رأيت الليلة رَوْضَةً خضراء كثيرة العُشْب ، فدخل فحل ما رأيت

---

(١) الطبرى : « الأمر » . (٢) الطبرى : « فابتدرن » .

(٣) الطبرى : ليختلين رهط ابن يعمر مارثا » ، وابن الأثير ٣ : ٣٦ : « ليختلين رهط ابن يعمر فارسا » .

أكرم منه ، فمرّ كأنه سهم لم يلتفت إلى شىء منها حتى قطعها ، لم يعرّج ، ودخل بعير يتلوه تابع أثره ، حتى خرج منها . ثم دخل فَحْل عبقرىّ يجرّ خِطامه ، ومضى قصد الأولَيْن ، ثم دخل بعير رابع ، فوقع فى الروضة يرتَع ويخضم . ولا والله لا أكون الرابع ؛ وإن أحدا لا يقوم مقام أبى بكر وعمر فيرضى الناس عنه .

ثم ذكر خَلْعَ عبد الرحمن نفسَه من الأمر ، على أن يولّيَها أفضلهم فى نفسه ، وأن عثمان أجاب إلى ذلك ، وأن عليا عليه السلام سكت ، فلما روجع رضى على موثقٍ أعطاه عبد الرحمن ؛ أن يؤثر الحق ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخصّ ذا رحم ، ولا يألو الأمة نصحا ، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين علىٍّ وعثمان متلوِّما ، وأنه خلا بسعد تارة ، وبالمسوَر بن مخرمة الزهرىّ تارة أخرى ، وأجال فِكْرَه ، وأعمل نظره ، ووقف موقفَ الحائر بينهما. قال : قال علىٌّ عليه السلام لسعد بن أبى وقاص : يا سعد ، ﴿ اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ، أسألك برحِم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وبِرَحِم عَمّى حمزة منك ، ألّا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا .

ـ قلت : رحِمُ حمزة من سعد ، هى أنّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة ؛ وهى أيضاً أم المقوَّم وحَجْفل ـ واسمه المغيرة ـ والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ هؤلاء الأربعة بَنُو عبد المطلب من هالة ، وهالة هذه هذه هى عمة سعد بن أبى وقاص ؛ فحمزة إذَنْ ابن عمة سعد ؛ وسعد ابن خال حمزة ـ

قال أبو جعفر : فلما أتى اليومُ الثالث جَمَعهم عبد الرحمن ، واجتمع الناس كافة ، فقال عبد الرحمن : أيُّها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين . فقال عمّار بن ياسر : إن أردتَ ألّا يختلف الناس ، فبايعْ عليًّا عليه السلام ، فقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعتَ عليا سمعْنا وأطعنا . فقال عبد الله بن أبى سَرْح : إن أَردتَ ألّا تختلف قريشٌ ،

فبايعْ عثمان . وقال عبدالله بن أبى ربيعة المخزومىّ : صدق ، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا . فشتم عَمّارٌ ابنَ أبى سَرْح ، وقال له : مَتى كنت تنصح الإسلام(١) !

فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية ، وقام عمار ، فقال : أيّها الناس ، إن الله أكرمكم بنبيِّه ، وأعزّكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من بنى مخزوم : لقد عَدَوْتَ طورَك يابن سُمَيَّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ! فقال سعد : يا عبدَ الرحمن ، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتِن الناس . فحينئذ عَرَض عبد الرحمن على علىّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين ، فقال : بل أجتهد برأيى . فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال : نعم . فقال علىّ عليه السلام : ليس هذا بأوّلِ يوم تَظاهرتُم فيه علينا ، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما ولّيتَه الأمرَ إلا ليردّه إليك ، والله كلّ يوم فى شأن .

فقال عبد الرحمن : لا تجعلنّ على نفسك سبيلا يا علىّ — يعنى أمرَ عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُقَ المخالف — فقام علىّ عليه السلام فخرج ، وقال : سيبلغ الكتابُ أجلَه ، فقال عمّار : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركتَه ، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون . فقال المقدادُ : تا لله ما رأيتُ مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واعجبا لقريش ! لقد تركتْ رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقضَى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبدالرحمن: اتّقِ الله يامقداد، فإنى خائف عليك الفتنة.

وقال علىّ عليه السلام : إنى لأعلمُ ما فى أنفسهم ؛ إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها ، فتقول : إنْ وَلِيَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش .

قال : وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان فتلكّأ ساعة ، ثم بايع .

* * *

---

(١) الطبرى : « المسلمين » .

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها ، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم ، وذكر كلاما قاله علىّ عليه السلام فى ذلك اليوم ، وهو :

الحمدُ لله الذى اختار محمداً منا نبيًّا ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنحنُ أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونجاةٌ لمن طلب ؛ إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه ، وإن نمنعه نركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجالدْنا عليه حتى نموت . لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حقٍّ وصلة رَحِم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اسمعوا كلامى ، وعُوا منطقى ، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنْتَضَى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ؛ حتى لا يكون لكم جماعة ، وحتى يكون بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة .

* * *

قلت : وقد ذكر الهروىّ(١) فى كتاب " الجمع بين الغريبين " قوله : « وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل » ، وفسّره على وجهين :

أحدهما : أنّ من ركب عَجُز البعير يعانى مشقة ، ويقاسى جهداً ، فكأنّه قال : وإن نمنعه نصبرْ على المشقة ؛ كما يصبر عليها راكبُ عجُز البعير .

والوجه الثانى أنه أراد : نتبع غيرنا ، كما أنّ راكبَ عجز البعير يكون رَديفا لمن هو أمامه ، فكأنه قال : وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير .

* * *

---

(١) هو أبو عبيد أحمد بن محمد الهروى ، صنف كتابه فى الجمع بين غريب القرآن والحديث .

وقال أبو هلال العسكرىّ فى كتاب " الأوائل " : استجيبت دعوة علىّ عليه السلام فى عثمان وعبد الرحمن ، فما ماتا إلا متهاجرين متعاديين . أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله : قل له : لقد وليتُك ما وليتك من أمر الناس ، وإن لى لأمورا ماهى لك : شهدتُ بدرا وما شهدتَها ، وشهدتُ بَيْعةَ الرضوان وما شهدتَها ، وفررتَ يوم أُحُد وصبرتُ ؛ فقال عثمان لرسوله : قل له : أمّا يومَ بدْر فإن رسول الله صلى الله عليه رَدّنى إلى ابنته لِما بها من المرض ، وقد كنتُ خرجتُ للذى خرجتَ له ، ولقيتُه عند منصرفه، فبشّرنى بأجرٍ مثل أجوركم ، وأعطانى سهما مثل سهامكم . وأما بَيْعة الرضوان فإنّه صلى الله عليه بعثنى أستأذن قريشا فى دخوله إلى مكة ، فلما قيل له : إنى قُتلت ، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عنى ، وقال : إن كان حيًّا فأنا أبايع عنه ، وصَفَق بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : يسارى خير من يمين عثمان ، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه ! وأما صبرُك يوم أُحُد وفِرارى ، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفوَ عنى فى كتابه ، فعيّرتَنى بذنب غفره الله لى ، ونسيت من ذنوبك مالا تَدْرِى أغفر لك أم لم يغفر !

لما بنى عثمان قصره طَمار(١) بالزوراء ، وصنع طعاما كثيراً ، ودعا الناس إليه ، كان فيهم عبد الرحمن ، فلما نظر للبناء والطعام قال : يابن عفان ، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك ، وإنى أستعيذ بالله من بيعتك . فغضب عثمان ، وقال : أخرجه عنى ياغلام ، فأخرجوه ، وأمر الناس ألّا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابنُ عباس ، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض . ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلّمه فلم يكلّمه حتى مات .

* * *

---

(١) طمار : موضع عند سوق المدينة ، ذكره ياقوت .

الأصْلُ :

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ ؛ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ ..

الشَّرحُ :

نافجا حِضنيه : رافعا لهما ، والحِضن : مابين الإبط والكشح ، يقال للمتكبر : جاء نافجاً حِضْنيه ، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاما : جاء نافجا حِضْنيه ، ومراده عليه السلام هذا الثانى. والنّثيل : الروث . والمعتَلف : موضع العلف ؛ يريد أنّ همّه الأكل والرجيع ، وهذا من مِمضّ الذم ، وأشدُّ من قول الحُطيئة الذى قيل : إنه أهجى بيت للعرب :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِى(١)

والخَضْم : أكلٌ بكلِّ الفم ، وضدّه القضْم ، وهو الأكل بأطراف الأسنان. وقيل : الخَضْم أكلُ الشىء الرَّطْب ، والقَضْمُ أكْلُ الشىء اليابس ؛ والمراد على التفسيرين لا يختلف ، وهو أنّهم على قَدَم عظيمة من النَّهَم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه . وقال أبو ذرّ رحمه الله تعالى عن أبنى أمية : يخضَمون ونقضَم ، والموعد الله . والماضى «خَضِمْت» بالكسر ، ومثله قَضِمْت .

والنِّبتة ، بكسر النون كالنبات ، تقول : نَبتَ الرطب نباتا ونِبْتة . وانتكث فتلُه : انتقض ؛ وهذه استعارة . وأجهز عليه عمله : تمم قتله . يقال : أجهزتُ على الجريح ، مثل ذَفَفْتُ ، إذا أتممتَ قَتله وكَبَتْ به بِطنته ، كبا الجواد ، إذا سقط لوجهه . والبِطنة : الإسراف فى الشِّبَع .

* * *

---

(١) ديوانه ٥٤

[نتف من أخبار عثمان بن عفان]

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، كُنْيته أبو عمرو ، وأمه أرْوَى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس .

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له، وصحّتْ فيه فِراسة عمر، فإنه أوطأ بنى أمية رقابَ الناس ، وولّاهم الوِلايات وأقطعهم القطائع ، وافتُتِحَتْ إفريقيّة فى أيامه ، فأخذ الخُمس كلّه فوهبه لمروان ، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحيّ :

أحْلِفُ باللهِ رَبِّ الأنا م ماتَرَكَ اللهُ شيْئاً سُدَى
ولكن خلقت لنا فتنة لكى نبتلَى بك أو تبتلى
فإنّ الأمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنا مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى
فما أخذا درهما غِيلَةً ولا جَعَلا دِرْهَماً فى هَوى
وَأَعْطَيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْبِلَادِ فَهَيْهَاتَ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى !

الأمينان : أبو بكر وعمر .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صِلَة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم .

وأعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان(١) رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر ؛ وأعطاه مائة ألف درهم .

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين ، فأقطعه عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم .

وأقطع مروان فَدَك(٢)، وقد كانتْ فاطمةُ عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله

---

(١) كلمة « كان » ساقطة من ب

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ؛ أفاءها الله على رسوله فى سنة سبع صلحا ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر ، وفتح حصونها ، ولم يبق إلا ثلث ، واشتد بهم الحصار ، راسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن ينزلهم على الجلاء ، وفعل ، وبلغ ذلك أهل فدك ، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ؛ فهى مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . معجم البلدان ٦ : ٣٤٣ .

عليه ، تارةً بالميراث ، وتارة بالنِّحْلة فدُفِعت عنها .

وحَمَى المراعيَ حولَ المدينة كلَّها من مواشي المسلمين كلِّهم إلا عن بنى أميَّة .

وأعطى عبدَ الله بن أبى سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيَّة بالمغرب — وهى من طرابلس الغرب إلى طَنْجة — من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان ، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعها بين يدى عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكى أن وَصَلْتُ رَحِمِى ! قال : لا ، ولكن أبكى لأنى أظنّك أنك أخذتَ هذا المالَ عِوضا عما كنتَ أنفقتَه فى سبيل الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . والله لو أعطيتَ مروان مائة درهم لكان كثيرا ، فقال : ألقِ المفاتيح يابن أرقم ؛ فإنا سنجد غيرك .

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسَّمها كلَّها فى بنى أميّة . وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة ، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صَرْفه زيد بن أرقم عن خزنه .

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون ، كتسيير أبى ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرَّبَذة ؛ وضَرْب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية⁽¹⁾ يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه .

وقد أجاب أصحابُنا عن المطاعن فى عثمانَ بأجوبة مشهورة مذكورة فى كتبهم .

والذى نقول نحن : إنها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه ،

فاستعدَوْا عليه عثمان ، فحبسه فمات فى السجن ، فلذلك حَقَد ابنه عُمَير عليه وكسر أضلاعه بعد قتله .

* * *

قال أبو جعفر : وكان لعثمان عَلَى طلْحة بن عُبيد الله خمسون ألفاً، فقال طلحة له يوما: قد تهيأ مالُك فاقبِضْه، فقال : هو لك معونة على مروءتك، فلما حُصِر عثمان ، قال علىّ عليه السلام لطلحة: أنْشُدك الله إلا كففْتَ عن عثمان! فقال : لا والله حتى تُعْطِىَ بنو أمية الحقَّ من أنفسها . فكان علىّ عليه السلام يقول : لحا الله ابن الصّعبة ! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به مافعل !

* * *

(٣١)

ومن كلام له عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته (١) :

الأَصْلُ :

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ ، فَإِنَّك إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَه ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ : هُوَ الذلُول ؛ وَلَكِن اَلْقَ الزُّبَيْرَ ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً ، فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالحِجَازِ ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالعِرَاق ؛ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا !

قال الرضىّ (٢) رحمه الله :

وهو عليه السَّلام أَوَّلُ مَنْ سُمِعت منه هذه الكلمة ـ أَعْنى : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا » .

* * *

الشَّرحُ :

ليستفيئه إلى طاعته ، أى يسترجعه ؛ فاء ، أى رجع ، ومنه سُمِّىَ الفىء للظلّ بعد الزوال. وجاء فى رواية : «فإنك إن تَلْقَه تُلْفِه» أى تجده ، ألفيتُه على كذا ، أى وجدتَه.

وعاقصاً قَرْنه ، أى قد عَطَفه ؛ تَيْس أعقص، أى قد التوى قرناه على أذنيْه ، والفعل فيه عَقَص الثور قرنه ، بالفتح . وقال القطب الراونديّ : عَقِص ؛ بالكسر ؛ وليس بصحيح ، وإنّما يقال : عَقِص الرجلُ ، بالكسر ، إذا شحّ وساء خلقه ، فهو عقِص .

وقوله : « يركب الصَّعْب » ، أى يستهين بالمستصعَب من الأمور ، يصفه بشَراسة

---

(١) ا ، ج بعد هذه الكلمة : « قال عليه السلام » .

(٢) مخطوطة النهج : « السيد » .

الخلُق والبأو(١)، وكذلك كان طلحة ، وقد وصفه عمر بذلك . ويقال: إنّ طلحة أحدثَ يومَ أُحُدٍ عنده كِبْراً شديدا لم يكن ، وذاك لأنه أغنَى (٢) فى ذلك اليوم ، وأبلى بلاءً حسنا .

والعريكة هاهنا : الطبيعة ، يقال : فلان لَيِّن العريكة ، إذا كان سَلِساً .

وقال الراوندىّ: العريكة : بقية السَّنَام ؛ ولقد صدق، ولكن ليس هذا موضع ذاك.

وقوله عليه السلام لابن عباس : « قل له يقول لك ابن خالك » لطيف جدا ، وهو من باب الاستمالة والإذكار بالنَّسب والرحِم ، ألا ترى أنّ له فى القلْب من الموقع الدّاعى إلى الانقياد ماليس لقوله : « يقول لك أمير المؤمنين » ! ومن هـذا الباب قوله تعالى فى ذكر موسى وهارون : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾(٣)، لما رأى هارون غضب موسى واحتدامه، شرع معه فى الاستمالة والملاطفة، فقال له : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾، وأذكره حقّ الأخُوّة ، وذلك أدعَى إلى عَطْفه عليه من أن يقول له : « ياموسى » ، أو « يأيها النبىّ ».

فأمّا قوله : « فما عَدَا مما بدا » ، فعدَا بمعنى صَرَف ؛ قال الشاعر :

وإنّى عَدَانى أن أزورَكَ مُحكَمٌ   مَتَى ما أُحَرِّكْ فيه ساقَىَّ يَصخَبِ

و « من » هاهنا بمعنى « عن »؛ وقد جاءت فى كثير من كلامهم كذلك ، قال ابنُ قتيبة فى " أدب الكاتب " : قالوا : حدّثنى فلان من فلان، أى عن فلان، ولهِيت من كذا ، أي عنه (٤) ؛ ويصير ترتيبُ الكلام وتقديره : فما صرَفك عمّا بدا منك ! أى

---

(١) البأو : الفخر والادعاء .

(٢) أغنى ، أى صرف الأعداء وكفهم .

(٣) سورة الأعراف ١٥٠ .

(٤) أدب الكاتب ص ٥٠٥ مع اختلاف فى العبارة .

ظَهَر ، والمعنى: ما الّذى صدّك عن طاعتى بعد إظهارك لها ! وَحَذْفُ الضمير المفعول المنصوب كثير جدا ، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾(١)، أى أرسلناه، ولا بدّ من تقديره ؛ كى لا يبقى الموصولُ بلا عائد .

وقال القطب الراوندىّ: قوله: « فما عَدَا مِمّا بَدَا » له معنَيان؛ أحدهما : ما الّذى منعك مِمّا كان قد بَدَا منك من البَيْعة قبل هذه الحالة ؟ والثانى: ما الّذى عاقك ؟ ويكون المفعول الثانى لـ « عدا » محذوفا ، يدلّ عليه الكلام ، أى ماعداك ! يريد ما شغلك وما منعك مِمّا كان بَدَا لك مِنْ نُصْرَتى ! من البَدا الذى يبدُو للإنسان . ولقائل أن يقول : ليس فى الوجه الثانى زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة ؛ أما إنه ليس فيه زيادة ، فلأنّه فَسّر فى الوجه الأول « عدا » بمعنى منع ، ثم فسّره فى الوجه الثانى بمعنى عاقَ ، وفسر عاق بمنع وشغل ، فصار « عدا » فى الوجه الثانى مِثْلَ « عدا » فى الوجه الأول.

وقوله : « مِمّا كان بدا منك » ، فَسّره فى الأول والثانى بتفسير واحد، فلم يبق بين الوجهين تفاوت. وأما الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ «عدا» يتعدى إلى مفعولين، وأنه قد حذف الثانى، وهذا غير صحيح ، لأنّ « عدا » ليس من الأفعال التى تتعدّى إلى مفعولين بإجماع النحاة، ومن العجب تفسيره المفعول الثانى المحذوف على زعمه بقوله : أى ماعَداك ، وهذا المفعولُ المحذوف هاهنا هو مفعول «عدا» الذى لا مفعول لها غيره ، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان .

ثم حكى القطب الراوندىّ حكاية معناها أنّ صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيدا، (٢ثم ماتت٢)، ثم مات العبيد ولم يخلفوا وارثا إلّا مواليَهم، وطلب علىّ عليه السلام ميراثَ العبيد بحقّ التعصيب ، وطلَبه الزبير بحق الإرثِ من أمه . وتحاكما إلى عُمَر ، فقضى عمر بالميراث للزبير .

---

(١) سورة الزخرف ٤٥ .

(٢ - ٢) ساقط من ب .

قال القطب الراوندىّ رحمه الله تعالى ، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: هذا خلافُ الشَّرْع ، لأنّ وَلاَءَ مَعْتَق المرأة ـ إذا كانت ميّتة ـ يكونُ لعَصَبَتِها، وهم العاقلة ، لا لأولادها .

قلت : هذه المسألة مختلف فيها بين الإمامية ، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمُفيد(١)، يقول : إنّ الولاء لولَدها، ولا يُصحِّح هذا الخبرَ ، ويطعَن فى راويه؛ وغيرُه من فقهاء الإمامية كأبى جعفر الطوسىّ(٢) ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعَصبتها لا لولدها ، ويصحّحون الخبر، ويزعمون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سكَت ولم ينازِع، على قاعدته فى التّقيّة ، واستعمال المجامَلة مع القوم .

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإماميّة فإنّها متفقة على أنّ الولاءَ للولَد لا للعَصَبة ، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى .

وروى جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه عن جَدّه، عليهم السلام ، قال : سألتُ ابنَ عباس رضى الله عنه عن ذلك، فقال : إنّى قد أتيت الزُّبيرَ ، فقلت له، فقال : قل له : إنى أريد ما تريد ـ كأنه يقول : الملك ـ لم يَزِدْنِى على ذلك . فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

وروى محمد بن إسحاق والكلبىّ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قلت الكلمة للزُّبير فلم يزدنى على أن قال : قُلْ له :

* إنّا مع الخوفِ الشديد لَنطمَعُ *

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادى المعروف بالمفيد ؛ أحد أعيان الشيعة وعلمائهم ؛ انتهت إليه رياسة الإمامية فى وقته . وله قريب من مائتى مصنف ؛ وفيها حفظت أقوال الشيعة وآراؤهم وشرحهم وتفصيل مذاهبهم ؛ وعنه تلقى الشريف المرتضى الفقه والتفسير وعلم الكلام ، وتوفى سنة ٤١٣ . روضات الجنات ٥٣٦ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن على بن محمد الطوسى المشهدى ؛ أحد تلاميذ الشيخ المفيد ، ثم الشريف المرتضى من بعده . وكان إماماً واعظاً ؛ ألف الوسيلة والواسطة والفتاوى على مذهب الشيعة ، وغيرها . توفى سنة ٤٠٦ . روضات الجنات ٥٦٧ .

قال : وسئل ابنُ عباس عمّا يَعْنِى بقوله هذا ، فقال: يقول : إنّا على الخوف لنطمع أن نَلِىَ من الأمر ماوليتم .

وقد فسره قوم تفسيراً (١) آخر ، وقالوا: أراد : إنّا مع الخوف من الله لنَطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب .

قلت : وعلى كلا التفسيرين لم يحصل جواب المسألة .

* * *

[من أخبار الزبير وابنه عبد الله]

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذى يصلّى بالنّاس فى أيام الجمل ، لأنّ طلحة والزبير تَدافعا الصلاة ، فأمرت عائشة عبدَ الله أن يصلِّىَ قطعاً لمنازعتهما ، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة ، تستخلف مَنْ شاءت .

وكان عبدُ الله بن الزُّبير يَدّعى أنه أحقُّ بالخلافة من أبيه ومن طلحة ، ويزعم أنّ عثمان يوم الدار أوصى بها إليه .

واختلفت الرواية فى كيفية السّلام على الزبير وطلحة، فرُوِىَ أنه كان يسلَّم على الزبير وحدَه بالإمْرة ، فيقال : السّلام عليك أيّها الأمير ؛ لأن عائشةَ ولّته أمرَ الحرب .

ورُوِى أنه كان يسلَّم على كلٍّ واحدٍ منهما بذلك .

لما نزل علىّ عليه السّلام بالبصرة ووقف جيشُه بإزاء جيش عائشة قال الزبير : والله ما كان أمرٌ قطّ إلا عرفتُ أين أضعُ قدَمىَ فيه إلا هذا الأمرَ ، فإنى لا أدرى : أمقبلٌ أنا فيه أم مُدْبر ! فقال له ابنُه عبدُ الله : كلاّ ولكنّك فَرِقْتَ (٢) سيوفَ ابن أبى طالب، وعرفْتَ أنّ الموتَ الناقع تحت راياته . فقال الزبير: مالك أخزاك اللهُ من ولد ! ما أشأمك!

---

(١) كذا فى ا ، ج . وفى ب : « بتفسير » . (٢) فرقت : خفت .

كانَ أميرُ المؤمنين عليه السلام ، يقول : ما زالَ الزُّبَيْر مِنّا أهلَ البيت ، حتى شبّ ابنُه عبدُالله .

برزَ علىّ عليه السلام بينَ الصَّفين حاسرا ، وقال : لِيَبْرُزْ إلىَّ الزبير ، فبرز إليه مُدَجَّجًا ؛ فقيلَ لعائشة : قد بَرَزَ الزُّبير إلى علىّ عليه السلام ، فصاحت : وازبيراه ! فقيل لها : لا بأسَ عليه منه ، إنه حاسر والزبير دارع[1] ـ فقال له : ما حملك يا أبا عبدالله على ماصنعت ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قال : أنت وطلحة ولِيتُماه ، وإنّما تَوْبَتُك من ذلك أن تُقِيدَ به نَفْسَك وتُسلّمها إلى وَرَثته ، ثم قال : نَشَدْتُك الله ! أتذكر يومَ مررتَ بى ورسول الله صلى الله عليه وسلّم متكىء على يدِك ، وهو جاء من بنى عَمْرو بن عَوْف ، فسلّم علىّ وضحِك فى وجهى ، فضحكتُ إليه ، لم أزِدْهُ على ذلك ، فقلتَ : لا يتركُ ابنُ أبى طالب يارسول الله زَهْوَه ! فقال لك : « مَهْ إنّه ليس بذى زَهْو ، أمَا إنّك ستقاتله وأنت له ظالم » ! فاسترجَعَ الزبير وقال : لقد كان ذلك ؛ ولكنّ الدهرَ أنسانيه ، ولأنصرفَنّ عنك ، فرجع ، فأعتقَ عبدَه سرجِس تحلّلًا[2] من يمين لزمتْه فى القتال ، ثم أتى عائشة ، فقال لها : إنى ما وقفت موقفًا قطّ ، ولا شهدتُ حَرْبًا إلا ولى فيه رأىٌ وبصيرة إلا هذه الحرب ، وإنى لَعَلَى شكّ من أمرى ، وما أكاد أبصر موضع قدمى . فقالت له : يا أبا عبدالله ، أظنك فَرِقتَ سيوفَ ابن أبى طالب ؛ إنها والله سيوف حِداد ، مُعَدّة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد ؛ ولئن فَرِقْتَها لقد فَرِقَها الرجال قَبْلَك ، قال : كلاّ ، ولكنّه ما قلتُ لكِ .

ثم انصرف .

* * *

وروى فَرْوَة بن الحارث التميمىّ ، قال : كنتُ فيمن اعتزل عن الحرب بوادى السِّباع[3] مع الأحنف بن قيس ، وخرج ابنُ عمٍّ لى يقال له الجَوْن ، مع عسكر البصرة ، فنهيته ،

---

[1] الحاسر : من لا درع له ولا جنة ، والدارع : لابس الدرع .

[2] كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « محللا » .

[3] وادى السباع : موضع بين البصرة ومكة .

فقال: لا أرغبُ بنفسي عَنْ نُصْرَة أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله. فخرج معهم، وإنّي لجالس مع الأحنف، يستنبئ الأخبار، إذا بالجون بن قَتادة، ابن عمي مُقْبِلا، فقمتُ إليه واعتنقتُه، وسألتُه عن الخبرِ، فقال: أخبرُك العَجَب، خرجت وأنا لا أريد أن أبرحَ الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين، فبينا أنا واقف مع الزُّبير، إذ جاءه رجل فقال: أبْشِرْ أيّها الأمير، فإنّ عليًّا لمّا رأى ما أعدّ الله له من هذا الجَمْع، نكَصَ على عَقِبَيْه، وتفرّق عنه أصحابه. وأتاه آخر، فقال له مثل ذلك، فقال الزُّبير: ويحكُم! أبو حسن يرجع! والله لو لم يجدْ إلّا العَرْفج لدبّ إلينا فيه. ثم أقبل رجل آخر، فقال: أيّها الأمير، إنّ نفراً من أصحاب عليّ فارقوه ليدخلوا معنا، منهم عمّار بن ياسر، فقال الزبير: كلا وربِّ الكعبة؛ إنّ عمّاراً لا يفارقه أبدا، فقال الرجل: بَلَى والله، مرارا.

فلمّا رأى الزُّبير أنّ الرجلَ ليس براجع عن قوله، بعث معه رجلا آخر، وقال: اذهَبا فانظرا، فعادا وقالا: إنّ عمّاراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه، قال جوْن: فسمعتُ والله الزبير يقول: وا انقِطاعَ ظهراه! واجَدْعَ أنفاه! واسوادَ وجهاه! ويكرّر ذلك مراراً، ثم أخذته رِعْدة شديدة، فقلت: والله إنّ الزبير ليس بجَبَان، وإنّه لمِنْ فُرْسان قريش المذكورين، وإنّ لهذا الكلام لشأنًا، ولا أريد أن أشهدَ مشهدًا يقولُ أميرُه هذه المقالة، فرجعتُ إليكم؛ فلم يكن إلا قليلٌ حتى مرّ الزبير بنا مُتارِكاً للقوم، فأتبعه عمير ابن جُرْموز فقتله.

* * *

أكثرُ الروايات على أنّ ابن جُرْموز قُتِل مع أصحاب النهر، وجاء في بعضها أنّه عاش إلى أيّام ولاية مُصْعب بن الزبير العراق، وأنّه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جُرْموز فهرب، فقال مصعب: لِيَظْهر سالما، وليأخُذ عطاءه موفوراً، أيظُن أني أقتله بأبي عبد الله وأجعله فداء له! فكان هذا من الكِبْر المستحسَن.

كان ابن جُرْموز يدعو لدنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أيِسْتُ من الجنّة .

الزبير أوّلُ مَنْ شهرَ سيفَه فى سبيل الله ، قيل له فى أول الدعوة : قد قُتِل رسول الله ، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً .

وروى الزّبير بن بكار فى " الموفقيّات[1] " قال : لمـا سارَ علىّ عليه السلام إلى البصرة ، بعثَ ابن عباس فقال : ائت الزّبير ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : يا أبا عبد الله ، كيف عرفتَنا بالمدينة وأنـكرتَنا بالبصرة ! فقال ابنُ عباس : أفلا آتى طلحة ؟ قال : لا ؛ إذاً تجده عاقصاً قَرْنه فى حَزْن ، يقول : هذا سهل .

قال : فأتيتُ الزبير ، فوجدته فى بيت يتروّح فى يوم حارّ وعبد الله ابنه عنده ، فقال : مرحباً بك يابن لُبابة ! أجئت زائراً أم سفيراً ؟ قلت : كلاًّ ، إنّ ابن خالك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ياأبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة ، وأنكرتنا بالبصرة ! فقال :

عَلِقتُهُمْ أنى خُلِقْتُ عُصْبَهْ قتــادةً تعلقتْ بِنُشْبَهْ[2]

لن أدَعَهم حتى أؤلّف بينهم ! قال : فأردت منه جوابا غيرَ ذلك ، فقال لى ابنه عبد الله : قل له : بيننا وبينك دَمُ خليفة ووصيّة خليفة ، واجتماع اثنين ، وانفرادُ واحد ، وأمّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة . قال : فعلمتُ أنه ليس وراء هذا الـكلام إلا الحرب ؛ فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

---

(١) كتاب الموفقيات فى الأخبار ؛ ألفه الزبير بن بكار للموفق بالله ؛ وكان الزبير بن بكار علامة نسابة أخبارياً ؛ وكتبه فى الأنساب عليها الاعتماد . توفى سنة ٢٥٦ . معجم الأدباء ١١ : ١٦١ .

(٢) فى اللسان : « وفى حديث الزبير بن العوام لما أقبل نحو البصرة وسئل عن وجهه فقال :

عَلِقتُهُمْ أَنى خُلِقتُ عُصْبَهْ قَتَادَةً مَلْوِيَةً بِنُشْبَـــهْ

قال شمر : وبلغنى أن بعض العرب قال :

غَلَبْتُهُمْ إنى خُلِقْتُ عُصْبَهْ قَتَادَةً مَلْوِيَةً بِنُشْبَـــهْ

قال : والعصبة نبات يلتوى على الشجر ؛ وهو اللبلاب ، والنشبة من الرجال : الذى إذا علق بشىء لم يكد يفارقه . ويقال للرجل الشديد المراس : قتادة لويت بعصبه ، والمعنى : خلقت عصبة لخصومى ، فوضع العصبة موضع العلقة ، ثم شبه نفسه فى فرط تعلقه وتشبثه بهم بالقتادة إذا استظهرت فى تعلقها واستمسكت بنشبة ، أى شديد النشوب .

قال الزبير بنُ بكار : هذا الحديث كان يرويه عمّى مصعب ، ثم تركه ، وقال : إنى رأيت جدّى أبا عبد الله الزُّبير بن العوّام فى المنام ، وهو يعتذر من يوم الجمل ، فقلت له : كيف تعتذرُ منه ، وأنت القائل :

عَلِقتهمُ أنى خُلقتُ عُصْبَهْ   قتادةً تعلّقتْ بِنُشْبَهْ
لن أدعَهم حتى أؤلف بينهم ! فقال : لم أقله .

* * *

[استطراد بلاغىّ فى الكلام على الاستدراج]

واعلم أن فى علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج ، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قولَ أمير المؤمنين عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك : عرفْتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق » !

قالوا : ومن ذلك قولُ الله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١) ، فإنّه أخذ معهم فى الاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : هذا الرجلُ إما أن يكون كاذباً فكذبُه يعودُ عليه ولا يتعدّاه، وإمّا أن يكون صادقا فيصيبكم بعضُ ما يعِدُكم به ، ولم يقل: « كلّ ما يَعِدُكم به » مخادعةً لهم وتلطّفا ؛ واستمالةً لقلوبهم كى لا ينفروا منه لو أغلظ فى القول ، وأظهرَ لهم أنه يهضمه بعضَ حقّه .

وكذلك تقديمُ قِسْم الكذب على قسم الصدق ، كأنه رَشاهم ذلك ، وجعله برْطيلاً(٢) لهم ، ليطمئنّوا إلى نصحه .

---

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) البرطيل هنا : الرشوة .

ومن ذلك قول إبراهيم على ماحكاه تعالى عنه فى قوله : ﴿ إذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾(١) ، فطلب منه فى مبدأ الأمر السّبب فى عبادته الصّنم والعلّة لذلك ، ونبّهه على أنّ عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئا قبيحة ، ثم لم يقل له : إنّى قد تبحّرت فى العلوم ، بل قال له : قد حصّل عندى نوعٌ من العلم لم يحصل عندك . وهذا من باب الأدب فى الخطاب ، ثم نبّهه على أنّ الشيطان عاصٍ لله ، فلا يجوز اتباعه ، ثم خوّفه من عذاب الله إن اتّبع الشيطان ، وخاطبه فى جميع ذلك بقوله : ﴿ يا أبتِ ﴾ ؛ استعطافا واستدراجا ، كقول علىّ عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك » ، فلم يُجبْه أبوه إلى ما أراد ، ولا قال له : « يابنىّ » بل قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فخاطبه بالاسم ، وأتاه بهمزة الاستفهام المتضمّنة للإنكار ، ثم توعّده فقال : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ .

قالوا : ومن هذا الباب ماروى أنّ الحسينَ بن علىّ عليهما السلام كلّم معاوية فى أمر ابنه يزيد ، ونهاه عنْ أن يَعْهَد إليه ، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كلٌّ واحد منهما صاحبَه ، فقال الحسين عليه السلام فى غضون كلامه : أبى خيرٌ من أبيه وأمّى خيرٌ من أمّه ، فقال معاوية : يابن أخى ؛ أمّا أمّك فخيرٌ من أمّه ، وكيف تُقاس امرأةٌ من كلبٍ بابنةِ رسول الله(٢) صلى الله عليه ! وأما أبوه فحاكَم أباك إلى الله تعالى ، فحكم لأبيه على أبيك .

---

(١) سورة مريم ٤٢ — ٤٥ .

(٢) فى المثل السائر : « وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب » .

قالوا : وهـذا من باب الاستدراج اللطيف ، لأن معاويةَ عَلم أنّه إنْ أجابه بجواب يتضمّن الدعْوى لـكونه خيراً من علىّ عليه السلام لم يلتفِتْ أحدٌ إليه ، ولم يكن له كلام يتعلّق به ، لأن آثارَ علىّ عليه السلام فى الإسلام ، وشرفَه وفضيلته تَجِلّ أن يُقاس بها أحدٌ ، فعدَلَ عن ذكر ذلك إلى التعلّق بما تعلّق به ، فـكان الفَلْج له .

ذكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير فى كتابة المسمى بـ ،، المثل السائر ،، فى باب الاستدراج (١) .

وعندى أنّ هذا خارج عن باب الاستدراج ، وأنّه من باب الجوابات الإقناعيّة التى تسمِّيها الحـكماء الجَدَليّات والخَطـابيـات ، وهى أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق ، وكانت ببادئ النظر مُشْـكِلةً للخَصْم ، صالحة لمصادمته فى مقام المجادلة .

ومثل ذلك قولُ معاوية لأهل الشام حيث التحق به عَقيل بنُ أبى طالب : يأهلَ الشام ، ماظنُّـكم برجل لم يصلح لأخيه !

وقوله لأهل الشام : إنّ أبا لهب المذموم فى القرآن باسمه عمّ علىّ بن أبى طالب . فارتاع أهل الشام لذلك ، وشتموا عليًّا ولَعنوه .

ومن ذلك قول عمر يوم السَّقيفة : أيّـكُم يَطيبُ نَفْساً أن يتقدّم قَدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة !

ومن ذلك قول علىّ عليه السلام مجيباً لمن سأله : كم بينَ السماء والأرض؟ فقال : دَعْوة مستجابة .

---

(١) المثل السائر ٢ : ٦٨ — ٧١ .

وجوابه أيضاً لمن قال له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم للشمس .

ومن ذلك قول أبى بكر — وقد قال له عمر : أَقِدْ خالداً بمالك بن نُوَيْرة — : سيف الله فلا أغمِده .

وكقوله — وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه — : أنا أُقيد من وَزَعَةِ(١) الله ! ذكر ذلك صاحب " الصحاح " فى باب « وزع »(٢) .

والجوابات الإقناعية كثيرة ، ولعلَّها جمهورُ ما يتداوله النّاس ، ويُسْكِتُ به بعضهم بعضا .

---

(١) الوزعة : جمع وازع ، وهو الذى يتقدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .

(٢) الصحاح ١٢٩٧ .

(٣٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ(١) ، يُعَدُّ فِيهِ ٱلْمُحْسِنُ مُسِيئاً ، وَيَزْدَادُ ٱلظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً ، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا . وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ :

مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ .

وَمِنْهُمْ ٱلْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ ، وَٱلْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَٱلْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ ؛ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ ؛ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ ، وَلَبِئْسَ ٱلْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى ٱلدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ ٱللهِ عِوَضاً !

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا بِعَمَلِ ٱلْآخِرَةِ ، وَلَا يَطْلُبُ ٱلْآخِرَةَ بِعَمَلِ ٱلدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ ، وَٱتَّخَذَ سِتْرَ ٱللهِ ذَرِيعَةً إِلَى ٱلْمَعْصِيَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ ٱلْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ ، وَٱنْقِطَاعُ سَبَبِهِ ، فَقَصَرَتْهُ ٱلْحَالُ عَلَى حَالِهِ ، فَتَحَلَّى بِٱسْمِ ٱلْقَنَاعَةِ ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ ٱلزَّهَادَةِ ، وَلَيْسَ مِنْ ذَٰلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى .

---

(١) ج : « كنود » .

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ ٱلْمَرْجِعِ ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ ٱلْمَحْشَرِ ؛ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ ٱلتَّقِيَّةُ ، وَشَمِلَتْهُمُ ٱلذِّلَّةُ ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا ، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا ، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا .

فَلْتَكُنِ ٱلدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ ٱلْقَرَظِ ، وَقُرَاضَةِ ٱلْجَلَمِ . وَٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً ، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

وهذه الخُطْبَةُ رُبَّمَا نسبها من لا عِلْمَ له إلى معاوِية ؛ وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الَّذِى لَا يُشَكُّ فيه . وأين الذَّهبُ من الرَّغام ! وأين العذْبُ من الأُجَاجِ ! وقد دَلَّ على ذلك الدَّليلُ الخِرِّيت ، ونقدهُ النَّاقِدُ البَصِيرُ ، عَمْرُو بن بحرٍ الجاحِظ ، فإنهُ ذكر هذه الخطبة فى كتاب " البيان والتبيين "⁽¹⁾ وذكرَ من نَسَبَهَا إلى مُعَاوية . ثمَّ تكلّم من بعدها بكلام فى معناها ، جملته أنه قال : وهذا الكلام بكلام علىٍّ عليه السلامُ

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ – ٦١ ؛ عن شعيب بن صفوان ؛ وقال : « وزادفيها اليقطرى وغيره » ، وقال : « لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لاأدرى ؛ قال : فوالله مالهم بعدى إلاالذى يسوءهم ؛ وأذن للناس فدخلوا » . ثم أورد الخطبة بروايته ؛ وقال فى آخرها : « وفى هذه الخطبة : – أبقاك الله – ضروب من العجب ؛ منها أن الكلام لايشبه السبب الذى من أجلهم دعاهم معاوية ، ومنها أن هـذا المذهب فى تصنيف الناس ، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف أشبه بكلام على رضى الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ؛ وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ؛ والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وبكثير منهم » .

أشبهُ وَبمذهبهِ فى تصنيف النّاسِ وفى الإخبارِ عمّاهُمْ عليهِ من القَهرِ وَالإذْلالِ، ومن التقيّةِ والخوْفِ أَلْيقُ . قَالَ: ومتى وجدنا معاويةَ فى حال من الأحوال يسلُكُ فى كلامه مسلك الزُّهّاد ، ومذاهبَ العُبّاد !

* * *

الشَّرح :

دهر عَنود : جائر، عَنَد عن الطريق ؛ يعنُد بالضم، أى عَدَل وجار . ويمكن أن يكون من عَنَدَ يَعْنِد بالكسر ، أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه ؛ إلّا أنّ اسم الفاعل المشهور فى ذلك عاند وعَنِيد ؛ وأما عَنُود فهو اسم فاعل ؛ من عَنَد يعنُد بالضم .

قوله: «وزمن شديد»، أى بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾،(١) أى وإنّه لبخيل لأجل حُبّ الخير، والخير: المال. وقد روى : «وزمن كنود» وهو الكفور، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٢) .

والقارعة : الخطْب الذى يَقْرَع ، أى يصيب .

قوله: «ونضيض وفْره»، أى قلّة ماله، وكان الأصل «ونضاضة وفْره» ليكون المصدرُ فى مقابلة المصدر الأول، وهو « كلالة حدّه »؛ لكنه أخرجَه على باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، كقولهم : عليه سَحْقُ عمامة ، وجَرْد قَطِيفة ، وأخلاق ثياب .

قوله : « والمجلِب بخيله ورجلِه » ، المجلِب : اسم فاعل من أجلَب عليهم ، أى أعان عليهم .

والرَّجْل: جمع راجل ، كالرَّكْب جمع راكب، والشَّرْب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ (٣) .

---

(١) سورة العاديات ٨ .

(٢) سورة العاديات ٦ .

(٣) سورة الإسراء ٦٤ وقراءة حفص بكسر الجيم فى « رجلك » ، وباقى القراءات بسكون الجيم . اتحاف فضلاء البشر ٢٨٠ .

وأشرط نفسه ؛ أى هيّأها وأعدّها للفساد فى الأرض .

وأوبق دينه : أهلكه . والحُطام : المال ؛ وأصله ما تَكَسّرَ من اليَبيس .

ينتهزه : يختلسه .

والمِقْنَب : خيل مابين الثلاثين إلى الأربعين .

ويَفْرَعُه : يعلوه . وطامَن من شخصه ، أى خَفَض . وقارب مِنْ خَطْوه : لم يسرع ومشى رويدا .

وشمّر من ثوبه : قَصّره . وزخرف من نفسه : حسَّن ونمّق وزين ، والزّخرف : الذهب فى الأصل .

وضُئولة نفسه : حقارتها . والنادّ : المنفرد . والمكْعوم ، من كعمت البعير ، إذا شددتَ فمه . والأُجاجُ : الملح .

وأفواههم ضامزة ، بالزاى ؛ أى ساكنة ، قال بشر بن أبى خازم :

لَقَدْ ضَمزَتْ بجِرَّتها سُلَيْمٌ ... مَخافَتَنا كما ضَمزَ الحِمارُ (١)

والقرظ : ورَق السَّلَم ، يُدْبَغ به ، وحُثالته : مايسقط منه .

والجَلَم : المقصّ تُجَزّ به أوبارُ الإبل . وقراضته : مايقع من قرْضه وقطعه .

فإن قيل : بَيِّنوا لنا تفصيلَ هذه الأقسام الأربعة .

قيل : القسم الأول مَنْ يقعدُ به عن طلب الإمْرة قلة ماله وحقارتُه فى نفسه .

والقسم الثانى : مَنْ يُشَمِّر ويطلب الإمارة ويُفسد فى الأرض ويكاشف .

والقسم الثالث : مَنْ يُظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا .

والقسم الرابع : مَنْ لامال له أصلا ، ولا يكاشف ، ويطلب المُلْك ولا يطلب الدّنيا

---

(١) ديوانه ٧٠ ، واللسان (٧ : ٢٣٢) ، ونسبه إلى ابن مقبل ؛ وقال فى شرحه : « معناه قد خضعت وذلت كما ضمز الحمار ؛ لأن الحمار لا يجتر ؛ وإنما قال : ضمزت بجرتها على جهة المثل ، أى سكتوا فما يتحركون ولا ينطقون » .

بالرياء والناموس ، بل تنقطِع أسبابُه كلُّها فيخلُد إلى القنـاعة ، ويتحلّى بحِلْية الزّهادة فى اللّذات الدنيوية ، لا طلبا للدنيا بل عَجْزاً عن الحركة فيها ، وليس بزاهد على الحقيقة .

فإن قيل : فهاهنا قسم خامس ، قد ذكره عليـه السلام ؛ وهم الأبرار الأتقياء الّذين أراقَ دموعَهم خوفُ الآخرة .

قيل : إنّه عليه السلام إنما قال : «إنّ الناس على أربعة أصناف» ، وعَنَى بهم مَنْ عَدَا المتقين ؛ ولهذا قال لما انقضى التقسيم : « وبقى رجال غضَّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجع » ،فأبان بذلك عن أنّ هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة .

* * *

[فصل فى ذكر الآيات والأخبار الواردة فى ذم الرياء والشهرة]

واعلم أنّ هذه الخطبة تتضمّن الذمّ لكثير لمن يَدَّعِى الآخرة من أهلِ زماننا ، وهم أهلُ الرّياء والنّفاق ، ولابسُو الصوف والثّياب المرقوعة لغير وجه الله .

وقد وردَ فى ذمّ الرياء شىء كثير ، وقد ذكرنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ومن الآيات الواردة فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومنها قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .

(٢) سورة الكهف ١١٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَانُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٢) .

ومن الأخبار النبويّة قوله صلى الله عليه وآله ، وقد سأله رجل : يارسولَ الله ، فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا تعمَل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وفى الحديث : « مَنْ راءى راءى اللهُ به ، ومَنْ سمّع سمّع الله به » .

وفى الحديث : « إن الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هذا العمل لم يردْ صاحبُه به وجْهِى ، فاجعلوه فى سجّين » (٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : « إنّ أخوف ماأخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغر » ، قالوا: وما الشركُ الأصغر يارسول الله ؟ قال : «الرياء ، يقول الله تعالى إذاجازى العبادَ بأعمالهم: اذهبو إلى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا ، فاطلبوا جزاءكم منهم » .

وفى حديث شدّاد بن أوْس : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلّم يبكى ، فقلت : يارسولَ الله ، مايبكيك ؟ فقال : « إنّى تخوّفت على أمتى الشرك ، أمَا إنّهم لايعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

ورأى عمرُ رجلًا يتخشّع ، ويُطَأطئ رقبَته فى مِشْيته ، فقال له : ياصاحبَ الرّقبة ، ارفع رقبَتَك ، ليس الخشوع فى الرقاب .

ورأى أبو أمامة رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال له : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك !

---

(١) سورة الإنسان ٩ .

(٢) سورة الماعون ٥ ـ ٧ .

(٣) سجين : واد فى جهنم .

وقال عليّ عليه السلام : للمرائى أربع علامات : يكسلُ إذا كان وحدَه ، وينْشَطَ إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أُثْنِيَ عليه ، وينْقُص منه إذا لم يُثْنَ عليه .

وقال رجل لعبادة بن الصّامت : أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجهَه ومَحْمَدَة النـاس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كلّ ذلك يقول : لاشىء لك ! ثمّ قال فى الثالثة : يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك . . . الحديث .

وضرب عُمر رجلاً بالدِّرَّة ، ثم ظهر له أنه لم يأتِ جُرْما ، فقـال له : اقتصّ منى ، فقال : بل أدَعُها لله ولك ، قال : ماصنعتَ شيئا ؛ إما أن تدَعها لى فأعرف ذلك لك ، أو تدَعها لله وحده .

وقال الحسن : لقدْ صحبتُ أقوامًا ، إن كان أحدُهم لتَعْرِضُ له الـكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه ، مايمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة ، وإنْ كان أحدُهم ليمرّ فيرَى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحِّيَه إلا مخافة الشهرة .

وقال الفُضَيْل : كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون .

وقال عِـكْرمة : إن الله تعالى يُعطِى العبد على نِيّته مالا يُعطيه على عمله ؛ لأنّ النية لارياء فيها .

وقال الحسن : المرائى يريد أن يَغْلِبَ قَدَرَ الله تعالى ، هو رجل سَوْء ، يريد أن يقول الناس : هـذا صالح ؛ وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محلّ الأردئاء (١) ، فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه .

وقال قتـادة : إذا راءى العبدُ ، قال الله تعـالى لملائـكته : انظروا إلى عبدى يستهزئُ بى .

وقال الفُضَيْل : مَنْ أراد أنْ ينظُر مُرائيا فلينظر إلىّ .

---

(١) أردئاء : جمع ردىء .

وقال محمد بن المبارك الصُّورىّ : أظْهِر السمْتَ(١) بالليل ، فإنه أشرفُ من سمْتِك بالنهار ؛ فإنّ سَمْت النهار للمخلوقين ، وسَمْت الليل لربّ العالمين .

وقال إبراهيمُ بن أدهَم : ما صدق اللهَ مَنْ أحبّ أن يَشتهر .

ومن الكلام المعزوّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام : إذا كان يومُ صومِ أحدكم فَلْيَدْهُنْ رأسَه ولحيته ، وليمسَحْ شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه ، فليُخْفِ عن شماله ، وإذا صلّى فلْيُرْخِ سِتْرَ بابِه ، فإنّ اللهَ يَقْسِمُ الثناء كما يَقْسِم الرزق .

ومن كلام بعض الصالحين : آخرُ ما يخرج من رُءوس الصدِّيقين حبُّ الرياسة .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « بحسْب المرء من الشرّ — إلّا مَنْ عَصمه الله من السوء — أن يُشِيرَ الناسُ إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ؛ إنّ الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وقال علىّ عليه السلام : تبَذّلْ لا تشتهرْ ، ولا ترفعْ شخْصَك لتُذْكَر بعلم ، واسكُتْ واصمت تَسْلَم ، تَسُرّ الأبرار ، وتَغيظ الفجّار .

وكان خالد بن مَعْدان إذا كثُرَت حَلْقتُه قام مخافة الشهرة .

ورأى طلحة بن مصرِّف قوما يَمشون معه نحو عشرة ، فقال : فَرَاش نار ، وذِبّان طمع .

وقال سليمان بن حَنْظلة : بينا نحنُ حوالَىْ أُبَىّ بن كعب نمشى ، إذ رآه عُمر فعلاه بالدِّرّة ، وقال له : انظُرْ مَنْ حولك ! إنّ الذى أنت فيه ذِلّة للتابع ، فتنة للمتبوع .

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله ، فاتبعه قوم ، فالتفت إليهم وقال : عَلَامَ تتبعوننى ؟ فوالله لو تعلمون مِنّى ما أُغلِقُ عليه بابى لما تبِعنى منكم اثنان .

وقال الحسن : خفْقُ النّعال حولَ الرّجال مما يُثَبِّت عليهم قلوبَ الحمْقَى .

---

(١) السمت : حسن المذهب فى الدين .

ورُوِى أنّ رجلا صَحِبَ الحسن فى طَرِيق ، فلمـا فارقه قال : أوصِنى رَحِمك الله ! قال : إن استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعرَف ، وتَمشِىَ ولا يُمشَى إليك ، وتَسأل ولا تُسأل ، فافعل .

وخرج أيوب السِّختيانىّ فى سَفَر ، فشيّعه قوم ، فقال : لولا أنّى أعلمُ أنّ الله يعلم مِنْ قلبى أنّى لهذا كاره ، لَخَشيتُ المقْتَ من الله .

وعوتب أيّوب على تطويل قَميصه ، فقال : إنّ الشهرة كانت فيما مضَى فى طوله ، وهى اليومَ فى قِصَره .

وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة ، إذْ دخل رجل عليه كِساء ، فقال : إياكم وهذا الحمار النّاهق ـ يشير به إلى طالب شهرة .

وقال رجل لبِشْر بن الحارث : أوصِنى ، فقال : أَخْمِل ذِكْرَك ، وَطيّب مَطْعمك .

وكان حَوْشب يبكى ويقول : بلَغ اسمِى المسجد الجامع .

وقال بشر : ما أعرِف رجلًا أحبّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس .

فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله فى ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة .

***

[فصل فى مدح الخمول والجنوح إلى العزلة]

وقد صرح أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مَدْح الأبرار ـ وهم القسمَ الخامسَ ـ بمدح الخمول ، فقال : « قد أخملتْهم التّقيّة » ـ يعنى الخوف .

وقد ورد فى الأخبار والآثار شىء كثير فى مَدْح الخمول .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ربّ أشْعَثَ أغبَرَ ذى طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له ،

لو أقْسَمَ على الله لأبرَّ قَسَمه » . وفى رواية ابن مسعود : « ربَّ ذِى طِمْرَيْن لا يُؤْبَه له ، ولو سأل الجنَّة لأعْطيها » .

وفى الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على أهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مستضعَف ، لو أقْسَم على الله لأبرّه ؛ ألا أدلّكم على أهل النار ؟ كلّ متكبِّر جوّاظ »⁽¹⁾ .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إنّ أهلَ الجنة الشُّعْثُ الغُبْر ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤْذَنْ لهم ، وإذا خَطَبوا لم يُنْكَحوا ، وإذا قالوا لم يُنْصَتْ لهم ؛ حوائج أحدهم تتَلَجْلَجُ فى صدره ، لو قُسِمَ نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم » .

وروى أنّ عمر دخل المسجد ، فإذا بمعاذ بن جَبل يَبْكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ اليَسيرَ من الرياء لشِرْكٌ ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا ، وإذا حَضَروا لم يُعْرَفوا ، قلوبُهُم مصابيح الهدَى ، يَنْجُون من كلِّ غبراء مُظْلِمة » .

وقال ابن مسعود : كونوا ينابيعَ العلم ، مصابيح الهُدَى ، أحْلاسَ البيوت . سُرُجَ الليل ، جُدُدَ القلوب ، خُلْقَانَ الثِّياب ، تُعْرَفون عند أهل السماء ، وتَخْفَوْن عند أهل الأرض .

وفى حديث أبى أمامة ، يرفعه : « قال الله تعالى : إنّ أغْبَط أوليائى لَعبدٌ مؤمن ، خفيف الحاذِ⁽²⁾ ، ذو حظٍّ من صلاة ، وقد أحسنَ عبادة ربِّه ، وأطاعه فى السرّ ، وكان غامضا فى الناس ، لا يُشار إليه بالأصابع » .

وفى الحديث : « السعيد من خَمَلَ صيتُه ، وقلّ تُراثه ، وسَهُلت منيَّتُه ، وقَلّت بواكيه » .

---

(١) الجواظ : الجموع المنوع .

(٢) الحاذ والحال واحد ، وأصل الحاذ طريقة المتن ، وهو مايقع عليه اللبد من ظهر الفرس ؛ أى خفيف الظهر من العيال . نهاية ابن الأثير .

وقال الفُضَيل : رُوى لى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أُخْمِل ذكرك !

وكان الخليل بن أحمد يقول فى دعائه : اللّهم اجْعلْنِي عندك من أرْفع خَلْقك ، واجعلنى عِنْدَ نفسى من أوْضَع خَلْقك ، واجْعلْنى عِنْدَ الناس من أوْسَطِ خلقك .

وقال إبراهيم بن أدْهم : ما قرّت عينى ليلة قطّ فى الدنيا إلا مرّة ، بتُّ ليلة فى بعض مساجد قُرَى الشام ، وكان بى علّة البطن ، فجرّنى المؤذن بِرِجْلى حتى أخرجنى من المسجد .

وقال الفُضَيْل : إن قَدَرْتَ على ألا تُعرف ، فافْعل ، وما عليك ألا تعرف ! وما عليك ألاّ يُثْنَى عليك ! وما عليك أن تكونَ مذموما عند الناس ؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى !

* * *

فإن قيل: فما قولُك فى شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين ؟
قيل : إنّ المذمومَ طلبُ الشهرة ؛ فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم ؛ بل لا بُدّ من وجود إنسان يَشتهر أمره ؛ فإنّ بطريقه يَنْصلِح العالم ؛ ومثال ذلك الغرقَى الذين بينهم غريقٌ ضعيف ، الأوْلى به ألاّ يعرفه أحد منهم ، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه ؛ فإن كان بينهم سابح قوىّ مشهور بالقوّة ، فالأولى ألّا يكون مجهولا ، بل ينبغى أن يُعرف ليتعلّقوا به، فينجُو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه .

(٣٣)

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة :

الأصْلُ :

قال عبد الله بنُ العباس : دخلت على أمير المؤمنين بذى قار وهو يخصِف نعله ، فقال لى : ماقيمة هذا النعل ؟ فقلت : لا قيمةَ لها ، فقال : والله لَهِيَ أحبُّ إلىَّ من إمْرَتكم ؛ إلا أن أقيم حقًّا ، أو أدفعَ باطلا ، ثم خرج فخطب الناس فقال :

إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً ؛ فَسَاقَ ٱلنَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ .

أَما وَٱللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا ، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَإِنَّ مَسِيرِي هَٰذَا لِمِثْلِهَا ؛ فَلَأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ .

مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ ! وَٱللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ ؛ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِٱلْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ ٱلْيَوْمَ . وَٱللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ ٱللهَ ٱخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ ٱلْمَحْضَ صَابِحاً وَأَكْلَكَ بِٱلزُّبْدِ ٱلْمُقَشَّرَةَ ٱلْبُجْرَا(١)
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ ٱلْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيًّا ، وَحُطْنَا حَوْلَكَ ٱلْجُرْدَ وَٱلسُّمْرَا

* * *

---

(١) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة .

الشَّرحُ :

ذو قَار : موضع قريبٌ من البَصْرة ، وهو المكان الذى كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس ، ونُصِرت العرب على الفرس قبل الإسلام .

ويخصِف نعله ، أى يَخْرزها .

وبوّأم محَلّتهم : أسكنهم مَنْزَلهم ، أى ضرب النّاس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه ، ومثله « وبلَّغهم منجاتهم » إلّا أن فى هذه الفاصلة ذَكر النّجاة مصرّحا به .

فاستقامتْ قناتُهم : استقاموا على الإسلام ، أى كانت قناتهم معوجّة فاستقامت .

واطمأنت صَفاتُهم ؛ كانت متقلقلة متزلزلة ، فاطمأنّت واستقرّت .

وهذه كلّها استعارات .

ثم أقسم أنّه كان فى ساقتها حتى تولَّتْ بحذافيرها ؛ الأصل فى « ساقتها » أن يكون جمع سائق كحائِض وحاضة ، وحائك وحاكة ، ثم استعملت لفظة « الساقة » للأخير ، لأن السائق إنما يكون فى آخر الرّكْب أو الجيش .

وشبّه عليه السلام أمرَ الجاهلية ؛ إمّا بعَجاجة ثائرة ، أو بكتِيبة مُقْبلة للحرب ، فقال : إنّى طردتُها فولّت بين يدىّ ، ولم أزل فى ساقتها أنا أطرُدها وهى تنطرد أمامى ؛ حتى تولّتْ بأسْرِها ولم يبق منها شىء ، ما عجزْت عنها ، ولا جَبُنْت منها .

ثم قال : وإنّ مسيرى هذا لِمثِلِها ، فَلَأَنقُبَنّ الباطل ؛ كأنه جعل الباطل كشىء قد اشتمل على الحق ، واحتوَى عليه ، وصار الحقّ فى طَيّه ، كالشىء الكامن المستتِر فيه ، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرُج الحقّ من جنبه .

وهذا من باب الاستعارة أيضاً .

ثم قال : « لقدْ قاتلتُ قريشا كافرين ، وَلَأُقاتلنَّهُم مفتونين » ؛ لأنّ الباغىَ على الإمام مفتون فاسق .

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا : إنّ أصحاب صِفِّين والجمل ليسوا بكفار ؛ خلافًا للإمامية ، فإنهم يزعمون أنهم كفار .

* * *

[خبر يوم ذى قار]

روى أبو مِخْنف عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، عن زيد بن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلنا مع علىّ عليه السلام ذا قار ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ ! فقال : والله ليَأتينِّى منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلا ؛ لا يزيدون ولا ينقصون .

قال ابن عباس : فدخلَنى والله من ذلك شكٌّ شديد فى قوله ، وقلت فى نفسى : والله إن قدِمُوا لأعُدَّنّهم .

قال أبو مِخْنف : فحدث ابن إسحاق ، عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، قال : نفَر إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ أقام علىّ بذى قار خمسة عشر يوما ، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله .

قال : فلما سار بهم منقلة(١) ، قال ابنُ عباس: واللهِ لأعُدَّنّهم ، فإن كانوا كما قال ، وإلا أتممتُهم من غيرهم ؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله . قال : فعرضتُهم فو الله ما وجدتُهم يزيدون رجلا ، ولا ينقصون رجلا ، فقلت : الله أكبر ! صدق الله ورسوله ! ثم سرنا .

قال أبو مِخْنف: ولما بلغ حُذَيفةَ بن اليمان أنّ عليا قد قَدِم ذا قار ، واستنفرَ الناس ، دعا

---

(١) المنقلة : مرحلة السفر .

أصحابه فوعظهم وذكّرهم الله وزهدهم فى الدنيا ، ورغّبهم فى الآخرة ، وقال لهم : الحقُوا بأمير المؤمنين ووصىّ سيد المرسلين ، فإنّ من الحق أنْ تنصروه ؛ وهذا الحسن ابنهُ وعمّار قد قدما الكوفة يستنفران الناس ، فانفِروا .

قال : فنفر أصحابُ حذيفة إلى أمير المؤمنين ، ومكث حُذَيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة ، وتوفى رحمه الله تعالى .

قال أبو مِخْنف : وقال هاشم بن عُتْبة المِرْقال ، يذكُر نفورهم إلى علىٍّ عليه السلام :

وَسِرْنَا إلى خَيْرِ ٱلْبَرِيَّة كُلِّهَا   عَلَى عِلْمنَا أنّا إلَى اللهِ نَرْجِع
نُوَقِّرهُ فى فَضْلِهِ ونُجِلّهُ   وفى الله مانَرْجُو وما نتوقّعُ
وَنَخْصِفُ أخْفَافَ المطىّ عَلَى الوجا   وَفِى الله مانُزْجِى وَفى الله نُوضِعُ
دَلَفْنَا بجَمْعٍ آثَرُوا الحقّ والهُدَى   إلى ذِى تُقًى فى نَصْرِه نَتَسَرَّعُ
نكافحُ عنه والسُّيُوفُ شهيرةٌ   تصافح أعناقَ الرِّجال فتقطعُ

قال أبو مخنف : فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام ، سلّموا عليه ، وقالوا : الحمدُ لله ياأمير المؤمنين الّذى اختصّنا بموازرتك ، وأكرَمنا بنُصرتك ؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين ، فمُرْنا بأمرك .

قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

مرحباً بأهل الكوفة ، بيوتاتِ العرب ووجُوهها ، وأهل الفضل وفرسانها ، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته ؛ ولذلك بعثتُ إليكم واستصرختُكم عند نَقْضِ طلحة والزبير بَيْعتى ، عن غَيْر جَوْرٍ منى ولا حَدَثٍ ؛ ولَعمرى لو لم تنصرُونى يأهلَ الكوفة ؛ لرجوت أن يكفِيَنى الله غوغاء الناس ، وطَغَام أهل البصرة ، مع أنّ عامّة مَنْ بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها ، ورغبوا عنها .

فقام رءوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر ، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة .

(٣٤)

ومن خطبة له عليه السلام فى استنفار الناس إلى أهل الشام :

الأَصْلُ :

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ . أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً ، وَ بِالذُّلِّ مِنَ العِزِّ خَلَفاً ! إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ؛ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ .

يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حِوَارِي فَتَعْمَهُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ .

مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ؛ فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ .

لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلَا تَمْتَعِضُونَ ؛ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ !

وَايْمُ اللهِ ؛ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ ؛ قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ .

وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ؛ يَعْرُقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ .

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ

لَكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُم ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا ، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاء بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

أفٍّ لكم : كلمة استقذار ومَهانة ؛ وفيها لغات . ويرتج : يغلق . والحوار : المحاورة والمخاطبة . وتَعْمَهون ؛ من العَمَه وهو التحيّر والتردد ، الماضي عَمِه بالكسر .

وقوله : «دارت أعينكم» من قوله تعالى: ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (١) ، ومن قوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (٢) .

وقلوبكم مألوسة ، من الألْس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل .

قوله : «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي» كلمة تقال للأبد، تقول: لا أفعله سَجِيسَ اللّيالي ، وسَجِيسَ عُجَيْس ، وسَجِيسَ الأوْجَس، بمعنى ذلك كله الدهر ، والزمان، وأبدا.

قوله : « ما أنتم بركنٍ يُمَالُ بكم » ، أى لستم بركن يُسْتَنَد إليكم ، ويُمال على العدوّ بعزّكم وقوّتكم .

قوله : «ولا زوافر عزّ»، جمع زافرة، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته؛ ويجوز أن يكون زَوافِرِ عِزّ ، أى حوامل عِزّ ، زفرتُ الجملَ أزفره زفرا ، أى حمّلته .

قوله : «سُعْر نار الحرب» جمع ساعر ، كقولك : قوم كُظَّمٌ للغيظ ، جمع كاظم ،

---

(١) سورة محمد ٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب ١٩ .

وتمتعضون : تأنفون وتَغْضَبُون. وحَمِس الوَغَى: اشتدّ ، وأصلُ الوغَى الصوت والجَلَبة، ثم سُمّيت الحربُ نفسها وَغى ، لما فيها من الأصوات والجَلَبة . واستحرّ الموت، أى اشتدّ.

وقوله : « انفرجتم انفراج الرأس » ، أى كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمْنَةً ونصفه شَأْمَةً . والمشرفيّة : السيوف المنسوبة إلى مَشارِف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا يقال : مشارفيّ ، كما لا يقال : جعافريّ ، لمن ينسب إلى جعافر .

وفراش الهام : العظام الخفيفة تلى القَحْف .

وقال الرّاوندىّ فى تفسير قوله « انفراج الرأس » أراد به انفرجْتُمْ عَنّى رأسا ، أى قطعًا ، وعرّفه بالألف واللام ، وهذا غير صحيح لأنّ « رأسا » لا يعرّف . قال: وله تفسير آخر ؛ أن يكون المعنى انفراج رأس من أدنى رأسه إلى غيره ، ثم حرّف رأسه عنه .

وهذا أيضا غيرُ صحيح ، لأنّه لا خُصوصيّة للرأس فى ذلك ، فإنّ اليدَ والرِّجْل إذا أدنيتَهما من شخص ، ثم حرّفتهما عنه فقد انفرج مابين ذلك العضو وبينه ، فأىّ معنى لتخصيص الرأس بالذِّكْر !

فأما قوله : « أنت فكن ذاك » فإنه إنّما خاطب مَنْ يمكّن عدوّه من نفسه كائنا مَنْ كان ؛ غير معيّن ولا مخصّص؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فإنه روى أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم : هلَّا فعلْتَ فِعْل ابن عفان ! فقال له : « إنّ فعل ابن عفان لمخزاة على مَن لا دين له، ولا وثيقة معه ، إنّ امرأ أمكن عدوّه من نفسه يهشِمُ عظمه ، ويفرى جلده ، لضعيفٌ رأيه مأفونٌ عقله . أنت فكن ذاك إن أحببتَ ، فأما أنا فدُون أن أعطِىَ ذاك ضَربٌ بالمشرفيّة . . . » الفصل .

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة ، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه ، فلا منافاة بينهما .

وقد نظمتُ أنا هذه الألفاظ فى أبيات كتبتها إلى صاحب لى فى ضمن مكتوب اقتضاها ، وهى :

إنّ امرَأً أمْكَنَ مِن نَفْسِهِ   عَدُوَّه يَجْدَعُ آرَابَهُ(١)
لَا يَدْفَعُ الضَّيْمَ ولا ينكرُ الذّ   لّ ولا يُحْصِنُ جِلْبابَهُ
أَفائلُ الرأىِ ضَعِيفُ القُوَى   قَدْ صرم الخِذْلانُ أَسْبابَهُ
أنت فكن ذاكَ فإنى امرؤ   لَا يرْهَبُ الخطبَ إذا نَابَهُ
إنْ قال دَهْرٌ لم يُطِعْ أو شَحا   له فَمٌ أدْرَدَ أنيابَهُ(٢)
أوْ سَامَه الخَسْفَ أبَى وَانْتَضَى   دُونَ مَرام الخسْف قِرْضَابَهُ(٣)
أخزَرُ غضْبَانُ شَدِيد السَّطَا   يَقْدِرُ أنْ يَتْرُكَ مَارَابَهُ

خَطَبَ أميرُ المؤمنين عليه السّلام بهذه الخطبة ، بعد فَراغه من أمرِ الخوارج ، وقد كان قام بالنَّهْروان ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وقال :

أمّا بعد ، فإنّ الله قد أحسنَ نصرَكم ، فتوجّهوا من فَوْرِكم هذا إلى عَدُوِّكم من أهل الشام .

فقاموا إليه ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، نَفِدت نِبالُنا ، وكَلَّت سيوفُنا ، وانصلتتْ(٤) أسنّةُ رماحنا ، وعاد أكثرها قِصَداً(٥) . ارجع بنا إلى مِصْرنا ، نستعدّ بأحسن عُدّتنا ؛ ولعلّ أميرَ المؤمنين يزيدُ فى عَددِنا مثل مَنْ هَلَكَ مِنّا ، فإنّه أقوى لنا على عدونا .

---

(١) آرابه : جمع إرب ؛ وهو العضو .
(٢) شحافاه : فتحه . والدرد : سقوط الأسنان .
(٣) القرضاب : السيف .
(٤) انصلتت . انجردت .
(٥) قصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة من القناة أو الرمح .

فكان جوابه عليه السلام: ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾(١).

فتلكّئوا عليه، وقالوا إن البردَ شديد.

فقال: إنّهم يجدون البَرْد كما تجدُون. فتلكئوا وأبَوْا، فقال: أفّ لكم إنها سُنّة جرت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾(٢).

فقام منهم ناس فقالوا: ياأميرَ المؤمنين، الجراحُ(٣) فاشية في النّاس – وكانَ أهلُ النَّهْرَوان قد أكثروا الجراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام – فارجع إلى الكوفة، فأقم بها أياما ثم اخرج، خار الله لك!

فرجَع إلى الكُوفة عَنْ غير رضا.

* * *

[أمر الناس بعد وقعة النَّهْروان]

وروى نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، عن نُمير بن وَعْلة، عن أبي وَدّاك، قال: لما كره القومُ المسيرَ إلى الشام عَقيب واقعة النهروان، أقبل بهم أمير المؤمنين، فأنزلهم النُّخيلة، وأمرَ الناس أن يَلْزموا معسكرهم، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يُقِلُّوا زيارةَ النساء وأبنائهم؛ حتى يسيرَ بهم إلى عَدُوّهم؛ وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه؛ لكنهم لم يفعلوا، وأقبلوا يتسللون ويدخُلون الكوفة. فتركوه عليه السلام وما معه من النّاس إلا رجالٌ من وجوههم قليل، وبَقِيَ المعسكر خاليا، فلا مَنْ دخل الكوفة خرج إليه، ولا مَنْ أقام معه صَبَر. فلما رأى ذلك دخل الكوفة.

---

(١) سورة المائدة ٢١.

(٢) سورة المائدة ٢٢.

(٣) الجراح: جمع جراحة.

قال نصر بن مزاحم: فخطب النّاس بالكوفة، وهى أولُ خطبة خطبها بعدقدومه من حرب الخوارج، فقال:

أيّها الناس؛ استعدُّوا لقتال عدوّ فِى جهادهم القربةُ إلى الله عزّ وجَلّ، ودَرْكُ الوسيلة عنده؛ قوم حيارَى عن الحقّ لايبْصِرونه، مُوزَعِين(١) بالجوْر والظلم لايعدلون به، جفاة عن الكتاب، نُكُبٌ عن الدِّين، يَعْمَهُون فى الطغيان، ويتسكّعون فى غمرة الضلال، فأعِدّوا لهمْ ماستطعتُم من قُوّة ومن رباط الخيل، وتوكّلوا على الله، وكفى بالله وكيلا.

قال: فلم ينفِرُوا ولم يُنْشَروا(٢)، فتركهم أياما، ثم خطبهم، فقال: أفٍّ لكم القد سئمتُ عتابَكم. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا ... الفصل الذى شرحناه آنفا إلى آخره. وزاد فيه: « أنتم أسودُ الشّرى فى الدّعة، وثعالبُ رَوّاغة حين البأس. إنّ أخا الحرْب اليقظان؛ ألَا إنّ المغلوبَ مقهور ومسلوب ».

* * *

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة، عن قيس بن أبى حازم، قال: سمعتُ عليًّا عليه السلام على مِنْبَر الكوفة، وهو يقول:

ياأبناءالمهاجرين؛ انفروا إلى أئمةالكُفْر، وبقيةالأحزاب، وأولياءالشيطان. انفِرُوا إلى مَنْ يقاتل على دم حَمّال الخطايا، فوالله الّذى فَلَق الحبّة، وبرأ النَّسَمة؛ إنّه ليَحْمِل خطاياهم إلى يوم القيامة لاينقص من أوزارهم شيئًا.

قلت: هذا قيس بنأبى حازم؛ وهو الذى روى حديث: « إنّكم لترون رَبّكم يوم القيامة، كما ترون القمرَ ليلة البَدْر لاتُضامون فى رؤيته ». وقدطعن مشايخنا المتكلّمون فيه، وقالوا: إنه فاسق، ولا تُقبَلُ روايته؛ لأنهقال: إنى سمعت عليا يخطُب على منبرالكوفة،

---

(١) يقال: أوزعه بالشىء؛ إذا أغراه به.

(٢) لم ينشروا: أى لم يتفرقوا.

ويقول : انفِروا إلى بقية الأحزاب ؛ فأبغضتُه ، ودخل بُغْضُه فى قلبى ، ومن يُبْغِضْ عليا عليه السلام لاتُقْبَلْ روايته .

فإن قيل : فما يَقُول مشايخكم فى قوله عليه السلام : « انفروا إلى مَنْ يُقاتل على دَمِ حَمّال الخطايا » ؟ أليس هذا طَعْنا منه عليه السلام فى عُثمان !

قيل : الأشهرُ الأكثرُ فى الرواية صَدْر الحديث ، وأما عَجُز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة ، وإن صحّ حملْناه على أنه أراد به معاوية ؛ وسمّى ناصريه مقاتلين على دمه ، لأنهم يُحامون عن دمه ، ومَنْ حامَى عن دَمِ إنسان فقد قاتل عليه .

وروى أبو نُعَيْم الحافظ ، قال : حدّثنا أبو عاصم الثقفىّ ، قال . جاءت امرأة من بنى عَبْس إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب بهذه الخُطْبة على مِنْبَر الكوفة ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، ثلاثٌ بَلْبَلْنَ القلوبَ عليك ، قال : وما هُنّ ويحك ! قالت : رِضاكَ بالقَضِيّة ، وأخْذُك بالدنِيّة ، وجَزَعُك عِنْد البَلِيّة . فقال : إنّما أنتِ امرأة ، فاذْهَبِى فاجلسى على ذَيْلك ، فقالت : لاوالله مامن جلوس إلاتحت ظلال السيوف .

وروى عمرو بن شمر الُجْعفىّ ، عن جابر ، عن رُفَيْع بن فرقد البَجَلىّ ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، يقول :

ياأهلَ الكوفة ، لقد ضرَبْتُكُم بالدِّرَّة التى أعِظُ بها السفهاء فما أراكم تنتهون! ولقد ضَرَبْتُكُمْ بالسِّيَاط التى أقيم بها الحدودَ ، فما أراكم تَرْعَوُون! فلم يبق إلا أنْ أضْرِبَكم بسيفى ؛ وإنّى لأعلمُ مايُقَوِّمُكُمْ ؛ ولكنِّى لاأحبُّ أنْ ألِيَ ذلك منكم . واعجباً لَكُم ولأهل الشام ! أميرُهم يَعْصِى الله وهم يطيعونه ، وأميرُكُم يطيع الله وأنتم تَعْصُونه ! والله لوضربتُ خَيْشُومَ المؤمِن بسيْفى هذا على أن يُبْغِضَنِى ماأبغضنى ؛ ولو سُقْتُ الدّنيا بحذافيرها إلَى الكافر لما أحبّنى ؛ وذلك أنّه قضى ماقضى على لسان النبىِّ الأمىِّ أنّه لايُبْغِضُنى

مؤمن ، ولا يُحبّني كافر ؛ وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْماً . والله لَتَصْبِرُنّ يأهل الكوفةِ على قتال عدوِّكم أو لَيُسَلِّطَنّ الله عليكم قوما أنتم أولى بالحق منهم فليعذبُنّكم ! أفمِنْ قتلة بالسيف تحيدون إلى مَوْتَةٍ على الفراش ! والله لَمَوْتةٌ على الفِراش أشدُّ من ضَرْبة ألفِ سيف .

قلت : ما أحسن قول أبى العيناء ، وقد قال له المتوكل : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم! فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وهذا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو سَيّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يمدح الكوفة وأهلها عقيبَ الانتصار على أصحاب الجمل ، بما قد ذكرنا بعضَه وسنذكر باقيَه ، مَدْحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر ، ويقول للكوفة عند نظره إليها : أهلاً بك وبأهلِك ! ما أرادكِ جبّارٌ بكيْدٍ إلا قَصَمه الله . ويُثْنِى عليها وعلى أهلِها حَسَبَ ذمِّه للبَصْرة وعيبه لها ودعائِه عليها وعلى أهلها ، فلما خَذَله أهلُ الكوفة يومَ التحكيم ، وتقاعدوا عن نَصْرِه على أهل الشام ، وخرجَ منهم الخوارج ، ومَرَق منهم المُرّاق ، ثم استنفرَهم بَعْدُ فلم ينفِروا ، واستصْرَخهم فلم يُصرِخوا⁽¹⁾ ، ورأى منهم دلائلَ الوَهَن وأمارات الفشل ، انقلبَ ذلك المدح ذَمًّا ؛ وذلك الثناء استزادةً وتقريعا وتهجينا .

وهذا أمرٌ مركوز فى طبيعة البشر ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، والقرآن العزيز أيضاً كذلك ، أثنى على الأنصار لمّا نَهَضُوا ، وذَمّهم لما قعدوا فى غزاة تبوك ، فقال : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِم خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ... ﴾⁽²⁾ الآيات ، إلى أن رضى الله عنهم ، فقال : ﴿وَعَلَى

---

(١) لم يصرخوا : لم يغيثوا .

(٢) سورة التوبة ٨١ .

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ أى عن رسول الله ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾(١) الآية .

* * *

[مناقب علي وذكر طُرَف من أخباره في عدله وزهده]

روى علىّ بن محمد بن أبى سيف(٢) المدائنىّ عن فُضَيل بن الجعْد ، قال : آكَدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْر المال ، فإنه لم يكنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف ، ولا عربيًّا على عَجَمىّ ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه . وكان معاوية بخلاف ذلك ، فترك الناس عليا والتحقوا بمعاوية ؛ فشكا علىّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه ، وفرار بعضهم إلى معاوية ، فقال الأشتر : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة ، ورأىُ الناس واحد ، وقد اختلفوا بعد ، وتعادَوْا وضعفت النيّة ، وقلّ العدد ، وأنت تأخُذهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتُنْصِف الوضيع من الشريف ؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع ، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به ، واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف ، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا ، وقلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يَجْتوى الحقّ ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا ، فإن تَبْذُلِ المال ياأميرَ المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال ، وتَصْفُ نصيحتُهم لك ، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم ، صنع الله لك ياأمير المؤمنين ! وكَبَت أعداءك ، وفضّ جمعهم ، وأوهن كيدَهم ، وشتّت أمورَهم ، إنه بما يعملون خبير .

فقال علىّ عليه السلام :

---

(١) سورة التوبة ١١٨ .

(٢) ب : « يوسف » ؛ والصواب ما أثبته من فهرس ابن النديم ١٠٠ ، وانظر ص ٢٠٣ من هذا الجزء

أمّا ماذكرت من عَمَلنا وسيرتنا بالعَدْل ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾(١) ؛ وأنا من أن أكون مُقصِّراً فيما ذكرتَ أخْوَفُ .

وأما ماذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جَوْر ، ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عَدْل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها ؛ وَلَيُسْأَلُنّ يوم القيامة : أللدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟

وأمّا ماذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال ، فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتيَ امرأً من الفيء أكثر من حقّه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢) وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وحْدَه ، فكثّره بعد القلة ، وأعزّ فئته بعد الذلّة ، وإنْ يُرِدِ الله أنْ يولِيَنا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه ، ويُسهّل لنا حَزْنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عزّ وجل رضًا ، وأنت من آمنِ الناس عندى ، وأنصحِهم لى ، وأوثقِهم فى نفسى إنْ شاء الله .

* * *

وذكر الشّعبىّ ، قال : دخلت الرَّحبة بالكوفة — وأنا غلام — فى غلمان ؛ فإذا أنا بعلىّ عليه السلام قائما على صُبرتين(٣) من ذهب وفضة ، ومعه مِخْفَقة ، وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسّمه بين الناس ؛ حتى لم يبق منه شىء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيتُ اليوم خَيْرَ النّاس أو أحمقَ النّاس ، قال : مَنْ هُوَ يابُنَىّ ، قلت : علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، رأيته يصنع كذا ، فقصصت عليه ، فبكى ، وقال : يابنىّ ، بل رأيتَ خيرَ الناس .

* * *

---

(١) سورة فصلت ٤٦ . (٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

(٣) الصبرة ، بالضم : ماجمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .

وروى محمد بن فُضَيْل عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ، قال : انطلقتُ مع قَنْبَر غلام علىّ عليه السلام ، فإذاهو يقول : قم ياأمير المؤمنين ، فقد خَبَأت لك خبيئاً ، قال: وما هو ويحك ! قال : قُمْ معى ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرَارة مملوءة من جامَاتٍ ذهباً وفضة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، رأيتُك لا تتركُ شيئاً إلا قسَمْتَه ، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك ياقَنْبر ! لقد أحببتَ أن تُدْخِلَ بيتى ناراً عظيمة . ثم سلّ سيفَه وضربه ضَرَبات كثيرة ، فانتثرتْ من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا بالناس ، فقال : اقسِموه بالحصَص ، ثم قام إلى بيت المال ، فقسّم ماوَجَد فيه ، ثم رأى فى البيت إبَراً ومَسالّ ، فقال : وَلْتَقْسِموا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ـ وقد كان علىّ عليه السلام يأخُذُ من كلّ عاملٍ مما يَعْمَل ـ فضحك ، وقال : لَيُؤْخَذَنّ شَرُّه مع خيره .

* * *

وروى عبدُ الرّحمن بن عَجْلان ، قال : كانَ علىّ عليه السلام يَقْسم بين النّاس الأبزارَ والحُرْف(١) والكمُّون ، وكذا وكذا .

وروى مجمع التيمىّ ، قال : كان علىّ عليه السلام يكنس بيتَ المال كلّ جُمْعة ، ويصلّى فيه ركعتين ، ويقول : ليشْهَدْ لى يوم القيامة .

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجرْمىّ ، عن أبيه ، قال : شهدتُ عليًّا عليه السلام وقد جاءه مال من الجَبَل ، فقام وقمنا معه ، وجاء الناس يزدحمون ، فأخذ حِبالا فوصلها بيده ، وعقَد بعضَها إلى بعض ، ثم أدارَها حول المال ، وقال : لا أحِلّ لأحَدٍ أن يجاوز هذا الحبْل ، قال : فقعد الناسُ كلُّهم من وراء الحبل ، ودخل هو ، فقال: أين رءوسُ الأسْبَاع ؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعا ـ فجعلوا يحمِلون هذه الجُوالق إلى هذه الجُوالق ، وهذا إلى هذا ، حتى استوت القِسْمة سبعة أجزاء ، ووُجد مع المتاع

---

(١) الحرف ، بالضم : الخردل .

رغيف ، فقال : اكسروه سَبْعَ كِسَر ، وضعوا على كل جزء كِسْرة ، ثم قال :

هٰذَا جَنَاىَ وَخِيَارُهُ فِيهِ ... إِذْ كُلّ جَانٍ يَدُه إِلَى فِيهِ (١)

ثم أقرع عليها ودفعها إلى رءوس الأسباع ، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجواليق .

* * *

وروى مُجَمِّع ، عن أبى رَجاء ، قال: أخرج علىّ عليه السلام سيفاً إلى السُّوق، فقال : مَنْ يشترى مِنّى هذا ؟ فوالذى نفسُ علىّ بيده، لو كان عندى ثمن إزار مابعتُه ، فقلت له : أنا أبيعُك إزاراً وأنسئُك ثمنَه إلى عطائك ، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه ، فلما قبض عطاءه دفع إلىّ ثمنَ الإزار .

وروى هارون بن سعيد ، قال : قال عبدُ الله بن جَعفر بن أبى طالب لعلىّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، لو أمرتَ لى بمعونةٍ أو نفقة ! فوالله ما لى نفقة إلّا أن أبيعَ دابّتى ، فقال : لا والله ما أجدُ لك شيئا إلّا أن تأمُرَ عمّك أن يسرقَ فيعطيَك .

وروى بكر بن عيسى ، قال : كانَ علىّ عليه السلام يقول : يا أهلَ الكوفة ، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتى ورحلى وغلامى فلان ؛ فأنا خائن فكانتْ نفقتُه تأتيه من غَلّتِه بالمدينة بينبُع ، وكان يُطعم الناسَ منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثّريد بالزيت .

وروى أبو إسحاق الهَمْدانىّ أنّ امرأتين أتتَا عليًّا عليه السلام : إحداهما من العرب والأخرى من الموالى ، فسألتاه ، فدفع إليهما دراهمَ وطعاما بالسَّواء ، فقالت إحداهما :

---

(١) البيت أنشده عمرو بن عدى حين كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة بن الأبرش) الكمأة ؛ فكانوا إذا وجدوا كمأة خياراً أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتى به كما هو وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

إنّى امرأة من العرب، وهذه من العجم ؛ فقال: إنى والله لا أجدُ لبنى إسماعيل فى هذا الفىء فضلا على بنى إسحاق .

وروى معاوية بن عمّار عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، قال : ما اعتَلَج على علىّ عليه السلام أمران فى ذات الله ، إلا أخذ بأشدّهما ، ولقد علمتم أنّه كان يأكل — يأهل الكوفة — عندكم من ماله بالمدينة ؛ وأنْ كان ليأخذُ السَّويق فيجعلُه فى جراب ، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره ؛ وَمَنْ كان أزهد فى الدنيا من علىّ عليه السلام !

وروى النّضْر بن منصور ، عن عُقْبة بن علقمة ، قال : دخلتُ على علىّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتْنِى حُموضته، وكِسَرٌ يابسة ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكلُ مثل هذا ! فقال لى : يا أبا الجَنُوب ، كان رسول الله يأكل أيْبَس من هذا ، ويلبَسُ أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإنْ أنا لم آخذ بما أَخذ به خفت ألّا ألحق به .

* * *

وروى عمران بن مسلمة ، عن سُوَيْد بن عَلْقمة ، قال : دخلت على علىّ عليه السلام بالكوفة ، وإذا بين يديه قَعْب لبن أجدُ ريحه من شدة حموضته ، وفى يده رغيف ، ترى قُشار الشّعير على وجهه وهو يكسره ، ويستعين أحيانا برُكْبته ، وإذا جاريتُه فِضّة قائمة عَلَى رأسه ، فقلت : يا فضّة ، أما تتّقون الله فى هذا الشيخ ! ألا نخلْتم دقيقه ؟ فقالت : إنّا نكره أن نؤجَر وَيأْثمَ ، نحن قد أخذ علينا ألّا ننخلَ له دقيقا ماصَحِبْناه — قال : وعلىّ عليه السلام لا يسمع ما تقول — فالتفت إليها فقال : ماتقولين ؟ قالت : سَلْه ، فقال لى : ماقلتَ لها ؟ قال : فقلت إنى قلت لها : لو نَخلْتم دقيقه ! فبكى ، ثم قال : بأبى وأمّى مَنْ لم يشبع ثلاثامتوالية [من] خبز برّ حتى فارق الدنيا ، ولم يَنْخُل دقيقه ! قال : يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى يُوسف بن يعقوب ، عن صالح بيّاع الأكسية ، أنّ جَدَّته لقيتْ عليًّا عليه السلام بالكوفة ، ومعه تمرٌ يحمله ، فسلّمت عليه ، وقالت له : اعطِنى ياأمير المؤمنين هذا التمر أحمِله عنك إلى بيتك ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمْله ، قالت : ثم قال لى : ألا تأكلين منه ؟ فقلت : لاأريد ، قالت . فانطَلق به إلى منزله ثم رجع مُرْتَديًا بتلك الشَّملة ، وفيها قشور التمر ؛ فصلّى بالناس فيها الجمعة .

وروى محمد بن فُضَيل بن غَزْوان ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام : كم تتصدَّق ! كم تُخرِجُ مالك ! ألا تُمسِك ! قال : إنى والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِلَ مِنّى فرضًا واحداً لأمسكت ؛ ولكنى والله ما أدرى ؛ أقبل مِنّى سبحانه شيئا أم لا !

ورى عَنْبَسة العابد ، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن ، قال : أعتق علىّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفَ مملوك مما مَجَلت(١) يداه ، وعرق جبينه؛ ولقد وَلِىَ الخلافةَ ، وأتته الأموال، فما كان حَلْواه إلا التمر، ولا ثيابه إلا الكرابيس .

وروى العوام بن حَوْشب ، عن أبى صادق ، قال : تزوّج علىّ عليه السلام ليلَى بنت مسعود النهشليّة ، فضربت له فى داره حَجَلة ، فجاء فهتكها ، وقال : حَسْبُ أهل علىّ ما هم فيه !

وروى حاتم بن إسمعيل المدنىّ ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : ابتاعَ علىّ عليه السلام فى خلافته قميصا سَمِلًا(٢) بأربعة دراهم ، ثم دعا الخيّاط ، فمدَّ كُمَّ القميص ، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع .

* * *

وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات ـ وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل ـ لأن الحال اقتضى ذكرها ، من حيث أردنا أن نبيّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ

---

(١) مجلت يده : عملت .

(٢) السمل : الخلق من الثياب .

يذهب فى خلافته مذهَب الملوك الذين يُصانِعون بالأموال ويصرفونها فى مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم ، وأنه لم يكنْ من أهل الدنيا ، وإنما كان رجلا متألّهاً صاحب حَقّ ، لا يريد بالله ورسوله بدلا .

* * *

وروى علىّ بن محمد بن أبى يوسف المدائنىّ أنّ طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام مَشَوْا إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعْطِ هذه الأموال وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل مَنْ تخاف خلافَه من الناس وفِراره ، وإنما قالوا له ذلك لِمَا كان معاوية يَصْنَع فى المال ، فقال لهم : أتأمُرونّى أن أطلبَ النّصْر بالجوْر ! لا والله لا أفعلُ ما طلعتْ شمس ، وما لاح فى السماء نجْم ، والله لو كان المالُ لى لواسيتُ بينهم ، فكيف وإنما هى أموالُهم ! ثم سكت طويلا واجما ، ثم قال : الأمرُ أسرعُ من ذلك ؛ قالها ثلاثا .

(٣٥)

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

الأصْـلُ :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى ٱلدَّهْرُ بِالْخَطْبِ ٱلْفَادِحِ ، وَالْحَدَثِ ٱلْجَلِيلِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَٰهٌ غَيْرُهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ ٱلنَّاصِحِ الشَّفِيقِ ٱلْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ ، تُورِثُ ٱلْحَسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ ٱلْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ ٱلْمُخَالِفِينَ ٱلْجُفَاةِ ، وَالْمُنَابِذِينَ ٱلْعُصَاةِ ، حَتَّى ٱرْتَابَ ٱلنَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ ٱلزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَى   فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى ٱلْغَدِ

* * *

الشـرح :

الخطْب الفادح : الثقيل . ونخَلْت لـكم ، أى أخلصْتُه ، من نَخَلْتُ الدقيق بالمُنخُل .

وقوله : «الحمد لله وإن أتى الدهر» ، أى أحمده على كلّ حال من السّرّاء والضراء .

وقوله : «لو كان يطاع لقصير أمر» ، فهو قصير صاحب جَذِيمة ، وحديثه مع جَذِيمة ومع الزّباء مشهور ، فضرب المثل لـكلّ ناصح يُعصى بقصير .

وقوله : « حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقَدْحه » ، يشير إلى نفسه ؛ يقول : خالفتمونى حتى ظننت أن النصح الذى نصحتكم به غيرُ نصح ، لإطباقكم وإجماعكم على خلافى ؛ وهذا حقّ ؛ لأن ذا الرأى الصواب إذا كثر مخالفوه يَشُكّ فى نفسه .

وأما ضَنّ الزّند بقَدْحه ، فمعناه أنّه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح ، لشدّة مالقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان ؛ وهذا أيضاً حقّ ، لأنّ المشير الناصح إذا اتُّهم واستُغِشّ عَمِىَ قلبُه وفسد رأيُه .

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْد بن الصِّمّة ، والأبيات مذكورة فى الحماسة ، وأولها :

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ   وَرَهْطِ بَنِى السَّوْدَاءِ والقومُ شُهَّدِى (١)
فقلت لهم ظُنّوا بأَلْفَىْ مُدَجَّجٍ   سَرَاتُهُمُ فى الفارسىّ المُسَرَّدِ (٢)
أَمَرْتُهُمُ أَمْرِى بِمُنعرَجِ اللِّوَى   فلم يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلَّا ضُحَى الْغَدِ (٣)
فَلَمّا عَصَوْنِى كنتُ منهم وقد أرَى   غَوايَتَهُم وأنّنى غَيْرُ مُهْتَدِ
وَمَا أَنَا إلّا مِنْ غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ   غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيّةُ أَرْشُدِ (٤)

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى (٢ : ٨١٣) . وكان من خبر هذا الشعر أن عبدالله ــ وهواسم آخر لعارض وهو أخو دريد ــ كان أسود إخوته ، فغزا بنى جشم وبنى نصر ابنى معاوية بن بكر بن هوازن ؛ وغنم مالا عظيما بمنعرج اللوى ؛ فنعه دريد عن اللبث ، وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ؛ فخالف أنه لايريم حتى يقسم ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . شرح التبريزى (٢ : ٣٠٤) .

(٢) ظنوا : قال المرزوقى : يجوز أن يكون معناه : ظنوا كل ظن قبيح بهم إذا غزوكم فى أرضكم وعقر دياركم . ويجوز أن يكون معنى ظنوا أيقنوا ؛ لأن الظن يستعمل فى اليقين ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ . والمدجج : التام السلاح ؛ من الدجة ؛ وهى الظلمة . وسراتهم : خيارهم ؛ وعنى بالفارسى المسرد ، الدروع .

(٣) فى الحماسة ذكر هذا البيت بعد تاليه .

(٤) فى الحماسة : وهل أنا إلا من غزية رهطه .

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبى موسى وافتراقهما ، وقَبْلَ وقعة النَّهْرَوان .

* * *

[قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج]

ويجبُ أن نذكُر فى هذا الفصل أمْرَ التحكيم ؛ كيف كان ، وما الّذى دعا إليه ! فنقول :

إنّ الذى دَعا إليه طَلبُ أهل الشام له ، واعتصامُهم به من سيوفِ أهلِ العراق ؛ فقد كانت أماراتُ القهر والغلَبة لاحتْ ، ودلائل النّصر والظفَر وضحت ، فعدلَ أهلُ الشام عن القِراع إلى الخِداع ؛ وكان ذلك برأْيِ عمرو بن العاص .

وهذه الحالُ وقعتْ عَقِيب ليلة الهرير(١) ، وهى الليلةُ العظيمة التى يُضرب بها المثل .

ونحن نذكر ماأورده نصر بن مُزاحم فى كتاب صِفّين فى هذا المعنى ، فهو ثِقَة ثَبْت ، صحيح النقل ، غير منسوب إلى هوًى ولا إدْغال ؛ وهو من رجال أصحاب الحديث . قال نصر :

حدّثنا عمرو بن شَمِر ، قال : حدّثنى أبو ضِرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة ، قال : غَلّس علىّ عليه السلام بالناس صَلاة الغداة يوم الثلاثاء ، عاشرَ شهر ربيع الأول ، سنة سبع وثلاثين ـ وقيل : عاشر شهر صفر ـ ثم زحف إلى أهلِ الشام بعسكر العراق ، والناسُ على راياتهم وأعلامهم ، وزَحَف إليهم أهلُ الشام ، وقد كانت الحرب أكلتِ الفريقين ؛ ولكنّها

---

(١) من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع ؛ وهو صوت دون النباح .

فى أهل الشام أشدُّ نِكاية ، وأعظم وَقْعا ، فقد ملُّوا الحربَ ، وكرهوا القتال ، وتضعضعت أركانهم .

قال : فخرج رجلٌ من أهلِ العراق ، على فرس كُمَيْت ذَنوبٍ⁽¹⁾ ، عليه السّلاحُ لايُرى منه إلا عيناه ؛ وبيده الرُّمْح . فجعل يضرب رءوسَ أهلِ العراق بالقناة ، ويقول: سوُّوا صفوفكم رحمكم الله ! حتى إذا عدّلَ الصّفوف والرايات ، استقبلهم بوجهه ، وولّى أهلَ الشام ظهره ، ثم حمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

الحمدُ لله الّذى جعل فينا ابنَ عمِّ نبيّه ، أقدمَهم هجرة ، وأوّلَهم إسلاما ، سيفٌ من سيوف الله على أعدائه ، فانظروا إذا حَمِيَ الوطِيس⁽²⁾ ، وثار القَتام⁽³⁾ ، وتكسّر المُرّان⁽⁴⁾ ، وجالت الخيلُ بالأبطال ، فلا أسمعُ إلّا غمغمة أو همهمة ؛ فاتّبعونى وكونوا فى أثرى .

ثم حمل على أهلِ الشام فكسّر فيهم رمحه ، ثم رجع فإذا هو الأشتر .

قال : وخرج رجلٌ من أهلِ الشام ، فنادَى بين الصَّفّيْن : ياأبا الحسن ، ياعلىّ ، ابرُز إلىّ . فخرج إليه علىّ عليه السلام ، حتى اختلفتْ أعناقُ دابّتيْهما بين الصفّين ، فقال: إنّ لك ياعلىّ لقَدَماً فى الإسلام والهجرة⁽⁵⁾ ، فهل لكَ فى أمر أعرِضُه عليك ، يكون فيه حَقْنُ هذه الدماء ، وتأخّر⁽⁶⁾ هذه الحروب ؛ حتى ترى رأيك؟ قال: وماهو؟ قال : ترجع إلى

---

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب .

(٢) الوطيس فى الأصل : التنور ، أو حفرة تحتفر ويختبز فيها ويشوى . وقيل : الوطيس : شىء يتخذ مثل التنور يختبز فيه ؛ وقيل : هى تنور من حديد وبه شبه حر الحرب . وحمى الوطيس ، مثل يضرب للأمر إذا اشتد . اللسان (٨ : ١٤٢) .

(٣) القتام : الغبار .

(٤) المران : جمع مرانة ؛ وهى الرماح الصلبة اللدنة .

(٥) وقعة صفين : « وهجرة » .

(٦) وقعة صفين : « تأخير » .

عِرَاقِك ، فنخلِّيَ بينك وبين العراق ، ونرجع نحنُ إلى شامنا فتُخلِّيَ بيننا وبين الشام (١) .

فقال على عليه السلام : (٢ قد عرفتُ ما عرضت ، إن هذه لنصيحةٌ وشفقة ٢) ، ولقد أهمَّني هذا الأمر وأسهرني ، وضربتُ أنفَه وعينه فلم أجدْ إلا القتال أو الكفرَ بما أنزل الله على محمد . إن الله تعالى ذِكْرُه لم يرضَ من أوليائه أن يُعصَى فى الأرض وهم سكوت مُذعنون ؛ لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر ؛ فوجدتُ القتالَ أهونَ علىّ من معالجة فى الأغلال فى جهنم .

قال : فرجع الرَّجلُ (٣) وهو يسترجع ، وزحف النَّاس بعضُهم إلى بعض فارتموْا بالنَّبْل والحجارة حتى فَنِيتْ ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسَّرت واندقّت . ثم مشى القومُ بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض ؛ لَهو أشدُّ هولاً فى صدور الرجال من الصَّواعق ، ومن جبال تِهامَة يدكّ بعضُها بعضا ، وانكسفت الشمس بالنَّقْع ، وثار القَتام والقَسْطل (٤) ، وضلَّت الألوية والرَّايات ، وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، فيأمر كلَّ قبيلة أو كَتيبة من القرّاء بالإقدام على التى تليها (٥) ؛ فاجتلَدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ؛ من صلاة الغَداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل ، لم يصلّوا لله صلاةً . فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمعركة خَلْف ظهره ، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم ، وتلك الليلة وهى ليلة الهرير المشهورة . وكان الأشترُ فى ميمَنة الناس وابنُ عباس فى الميسَرة ، وعلىّ عليه السلام فى القَلْب ، والناس يقتتلون .

ثم استمرّ القتالُ من نصف اللّيل الثانى إلى ارتفاع الضُّحى ، والأشتر يقول لأصحابه:

---

(١) صفين : « شامنا » .

(٢ ـ ٢) صفين : « لقد عرفت ، إنما عرضت هذه النصيحة شفقة » .

(٣) صفين « الشامى » .

(٤) القسطل : الغبار .   (٥) كذا فى ج ، وفى ب : « بينها » .

وهو يزحَفُ بهم نحو أهل الشام: ازحَفُوا قِيدَ رمحى هذا ، ويُلْقى رمحَه ، فإذا فعلوا ذلك، قال : ازحفوا قَابَ هذا القوس(١) ،فإذا فعلوا ذلك(٢ سألهم مثل ذلك٢)، حتى ملّ أكثرُ الناس من الإقدام، فلمّا رأى ذلك قال : أعيذكم بالله أن تَرْضعُوا الغنم سائر اليوم . ثم دعا بفرسه، وركَز رايته ـ وكانت مع حيّان بن هوذة النَّخَعِيّ ـ وسار بين الكتائب، وهو يقول: ألا مَنْ يشترِى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر ؛ حتى يظهر أو يَلْحَق بالله ! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه (٣) .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو قال : حدثنى أبو ضرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة ، قال : مرّ بى الأشتر ، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذى كان به ، فقام فى أصحابه، فقال : شُدُّوا ـ فِداً لكم عَمّى وخالى ـ شدّة تُرضُون بها الله، وتعزّونَ بها الدين. (٤ إذا أنا حملت فاحملوا ٤) ثم نَزل ، وضرَب وَجْهَ دابّتـه ، وقال لصاحب رايتـه : أقْدِم فتقدّم(٥) بها ، ثم شدّ على القوم ، وشدَّ معه أصحابُه ، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى معسكَرهم ، فقاتلوا عنـد المعسكَر قتالا شديدا ، وقُتِل صاحبُ رايتهم ، وأخذ علىّ عليه السلام ـ لما رأى الظفر قد جاء من قِبَله ـ يَمدُّه بالرجال (٦) .

* * *

ورَوَى نصر عن رجاله ، قال : لَمّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليـه ، قام علىّ عليه السلام خطيبا ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

---

(١) القاب : مابين المقبض والسية ، والقوس : يذكر ويؤنث .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .

(٣) وقعة صفين ٥٤٠ ـ ٥٤٤ .

(٤ ـ ٤) وقعة صفين : « فإذا شدت فشدوا » .

(٥) صفين : « فأقدم بها » .

(٦) وقعة صفين ٥٤٤

أيّها الناس، قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ماقد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نَفَس، وإن الأمورَ إذا أقبلت اعْتُبِر آخرُها بأوّلها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغْنا منهم مابلغْنا، وأنا غادٍ عليهم بالغَداة أحاكمهم إلى الله .

قال: فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص، وقال: ياعمرو؛ إنما هى الليلة، حتى يغدُوَ علىّ علينا بالفَيْصَل (١)؛ فما ترى؟

قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولستَ مِثلَه، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتِله على غيْره، أنت تريد البقاء، وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم؛ ولكن ألقِ إلى القوم أمرًا إنْ قَبِلوه اختلفُوا، وإن ردّوه اختلفوا، ادعُهم إلى كتاب الله حَكَمًا فيما بينك وبينهم؛ فإنك بالغٌ به حاجتك فى القوم؛ وإنى لم أزل أؤخّر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه .

فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت (٢) .

* * *

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر عن جابر بن عمير (٣) الأنصارىّ، قال: والله لكأنّى أسمع عليًّا يوم الهَرِير، وذلك بعد ماطحنت رَحا مَذْحِج، فيما بينها وبين عَكّ ولَخْم وجُذام والأشعريّين بأمر عظيم تشيبُ منه النواصى، حتى (٤) استقلّتِ الشمس، وقام قائم الظهر (٤)، وعلىّ عليه السلام يقول لأصحابه: حتّى متى نُخَلِّى بين هذين الحيَّيْن! قد فَنِيا وأنتم وقوف تنظرون! أما تخافُون مَقْتَ الله! ثم انفتل (٥) إلى القِبْلة، ورفع

---

(١) ب: « بالفصل »، وما أثبته من ا، ج .

(٢) وقعة صفين ٥٤٥

(٣) فى الأصول: « نمير »، وصوابه من كتاب صفين .

(٤ـ٤) صفين: « من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة » واستقلت الشمس: ارتفعت .

(٥) ب: « استقبل »، والصواب ما أثبته من ا؛ ج .

بديه إلى الله عزّ وجل، ونادى : ياألله ، يارحمن، يارحيم ، ياواحد ، ياأحد ، ياصمد ! ياألله، يا إله محمد ؛ اللهم إليك نُقِلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورُفِعت الأيدى ، ومُدّت الأعناق، وشَخَصت الأبصار، وطُلِبت الحوائج ! اللّهم إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عَدوِّنا ، وتشتّت أهوائنا ، ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ (١) سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله والله أكبر ، كلمة التقوى .

قال : فلا والّذى بعث محمدًا بالحقّ نبيًّا ، ماسمعنا رئيس قوم منذُ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده فى يوم واحد ما أصاب ؛ إنه قتل — فيما ذكر العادّون — زيادة على خمسمائة من أعلام العرب ؛ يخرج بسيفه مُنْحنيا ، فيقول : معذرة إلى الله وإليكم من هذا . لقد هممت أن أفلقه (٢) ؛ ولكن يحجزنى عنه أنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ » . وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه .

قال : فكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به فى عرض الصّف ، فلا والله ماليْثٌ بأشدّ نكاية منه فى عدوّه ، عليه السلام (٣) .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر،قال : سمعت تميم بن حُذَيْم ، يقول : لما أصبحنا من ليلة الهرير ، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات ، أمام أهل الشام فى وسط الفَيْلق ،

---

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٢) صفين : « أصقله » .

(٣) كتاب صفين ٥٤٥ — ٥٤٦

حيال موقف على ومعاوية ، فلما أسفرْنا إذا هى المصاحف قد رُبطت فى أطراف الرّماح ، وهى عظام مصاحف العَسْكر ، وقد شدّوا ثلاثة أرماح جميعا ، ورَبطوا عليها مصحف المسجد الأعظم ، يمسكه عشرة رهط .

قال نصر : وقال أبو جعفر وأبو الطفيل : استقبَلوا عليا بمائة مصحف ، ووضعوا فى كلّ مُجَنِّبة⁽١⁾ مائتى مصحف ، فكان جميعها خمسمائة مصحف .

قال أبو جعفر : ثم قام الطفيل بن أدْهم حيال علىّ عليه السلام ، وقام أبو شريح الجذامىّ حيال الميمنة ، وقام ورقاء بن المعمّر حِيال الميسرة ، ثم نادوا : يامعشَر العرب ، الله الله فى النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنِيتم ! الله الله فى دينكم ! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم إنّك تعلم أنهم ما الكتابَ يريدون ، فاحْكمْ بيننا وبينهم إنك أنت الحكَم الحق المبين .

فاختلف أصحاب علىّ عليه السلام فى الرأى ؛ فطائفة قالت القتال ، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ، ولا يَحِلّ لنا الحرب ، وقد دُعينا إلى حُكْم الكتاب ؛ فعند ذلك بَطَلَت الحرب ووضعت أوزارها⁽٢⁾ .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن علىّ ابن الحسين ، قال : لما كانَ اليوم الأعظم ، قال أصحابُ معاوية : والله لا نَبْرَحُ اليوم العَرْصَة حتّى نموتَ أو يُفتح لنا ، وقال أصحاب علىّ عليه السلام : لا نبرَحُ اليوم العرْصة حتى نموتَ أو يُفتَح لنا ، فبادروا القتال غُدْوَةً فى يوم من أيام الشِّعْرَى⁽٣⁾ طويل ، شديد

---

(١) المجنبة ، بكسر النون المشددة : ميمنة الجيش وميسرته .

(٢) وقعة صفين ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .

(٣) الشعرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه فى شدة الحر . (اللسان) .

الحرّ فترامَوْا حتى فَنِيت النّبال ، وتطاعَنُوا حتّى تقصّفَتِ الرماح ، ثم نزل القومُ عن خُيُولهم ، ومشى بعضُهم إلى بعض بالسيوفِ حتّى كُسِّرتْ جفونُها ، وقام الفُرْسَان فى الرُّكَب ، ثم اضطربوا بالسُّيوف وبعَمَدِ الحديد ، فلم يَسمع السامعون إلا تغمْغُم القوم ، وصليلَ الحديد فى الهام ، وتَكادُمَ الأفْواه وكُسِفتِ الشمس ، وثار القَتَام ، وضَلَّتِ الألوِية والرايات ، ومرّتْ مواقيتُ أربعِ صلوات ، مايُسْجَدَ فيهنّ لله إلا تكبيراً ، ونادتِ المشيَخةُ فى تلك الغمَرات : يامعشرَ العرب ! اللهَ اللهَ فى الحرُماتِ من النّساء والبنات !

قال جابر : فبكى أبو جعفر وهو يحدّثنا بهذا الحديث .

قال نصر : وأقبل الأشتَرُ عَلَى فَرسٍ كُمَيْتٍ مَحْذُوفٍ ، وقد وَضع مِغْفَرَه على قَرَبُوس السَّرْج ، وهو ينادى : اصبِروا يامعشرَ المؤمنين ، فقد حَمِيَ الوطِيسُ ، ورجعتِ الشمسُ من الكسوف ، واشتدّ القتال ، وأخذتِ السباعُ بعضُها بعضا ، فهم كما قال الشاعر⁽¹⁾ :

مَضَتْ واسْتَأْخَرَ القُرَعَاء عَنْهَا وَخُلِّيَ بَيْنَهُمْ إلّا الوَرِيعُ ⁽²⁾

قال : يقول واحدٌ لصاحبه فى تلك الحال : أىّ رجل هذا لو كانت له نية ! فيقول له صاحبه : وأىّ نية أعظمُ من هذه ثَكِلَتْك أمّك وهبِلتك ! إنّ رجُلا كما ترَى قدسَبَح فى الدّم ، وماأضجرتْه الحرب ، وقد غلَتْ هامُ الكُماة من الحرّ ، وبلغت القلوبُ الحناجر ، وهو كما تراه جزَعا يقول هذه المقالة ! اللّهم لا تُبْقِنا بعد هذا !

قلت : لله أمّ قامت عن الأشتر ! لو أنّ إنسانا يُقسِم أنّ الله تعالى ماخلق فى العرب

---

(1) هو عمرو بن معدى كرب ، من الأصمعية التى مطلعها :

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدّاعِى السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِى وَأَصْحَابِى هُجُوعُ

وهى فى الأصمعيات ١٩٨ ـ ٢٠٢ وخزانة الأدب ٣ : ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

(2) القرعاء : جمع قريع ، وهو المغلوب المهزوم . وفى الخزانة والأصمعيات : « الأوغال » جمع وغل وهو الضعيف . والوريع : الضعيف الذى لاعناء عنده .

ولا فى العجم أشجعَ منه إلا أستاذه عليه السلام لَمَّا خشِيتُ عليه الإثم ! ولله درّ القائل، وقد سُئل عن الأشتر : ما أقول فى رجل هَزَمَتْ حياتُه أهلَ الشام ، وهَزَم موتُه أهلَ العراق !

وبحقٍّ ماقال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان الأشترُ لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه(١) .

* * *

قال نصر : ورَوَى الشَّعبىّ عن صَعْصعة ، قال : وقد كانَ الأشعثُ بن قيس بَدَر منه قَوْلٌ ليلةَ الهرير ، نقله النّاقلون إلى معاوية ، فاغتنمَه وبَنَى عليه تدبيرَه ؛ وذلك أنّ الأشعث خطب أصحابَه من كندة تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ، أحمدُه وأستعينه ، وأومِنُ به وأتوكّل عليه ، وأستنصره واستغفره ، وأستجِيرُه وأستهديه ، وأستشيره وأستشهدبه ؛ فإنّ مَنْ هداه(٢) الله فلا مضلّ له ، ومن يُضلِل الله فلا هادىَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله صلى الله عليه .

ثم قال : قد رأيتم يامعشرَ المسلمين ماقد كانَ فى يومكم هذا الماضى ، وماقد فَنِىَ فيه من العرب ؛ فوالله لقد بَلَغْتُ من السِّنّ ماشاء الله أن أبلُغَ ، فما رأيت مثلَ هذا اليوم قطّ . ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب ؛ إنا نحن إن تواقفْنا غداً ، إنه لفناء العرب وضَيْعة الحُرُمات(٣) ! أما والله ما أقولُ هذه المقالَة جزَعاً من الحرب ، ولكنّى رجلٌ مُسِنٌّ أخاف على النساء والذرارىّ غداً إذا فَنِينا ، اللّهم إنك تعلم أنّى قد نظرتُ لقومى ولأهل دينى فلم آلُ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأىُ يُخطِىء ويُصيب ،

---

(١) وقعة صفين ٥٤٧ ـ ٥٤٩ .

(٢) صفين : « من يهد الله » .

(٣) فى ب : «لفنيت العرب وضيعت الحرمات» وما أثبته عن كتاب صفين .

إذا قَضَى الله أمراً أمْضاه عَلَى ما أحبَّ العباد أو كرهوا ، أقولُ قولى هذا وأستغفر الله العظيمَ لى ولـكم !

قال الشعبىّ : قال صَعْصعة : فانطلقت عيونُ معاوية إليه بخطبة الأشعث ، فقال : صابَ وربِّ الـكعبة ! لَئنْ نحن التقينا غداً لتَميلنّ على ذَرَارِىّ أهلِ الشام ونسائهم ، لِتَميلنّ فارسُ عَلَى ذَرارِىّ أهلِ العراق ونسائهم ! إنّما يبصر هذا ذَوُو الأحلام والنُّهى ؛ ثم قال لأصحابه : اربطوا المصاحفَ عَلَى أطراف القَنَا .

فثار أهل الشام فى سَوَاد الليل ينادون عن قول معاوية وأمْرِه : يأهلَ العِراق ، مَنْ لذرارينا إن قتلتمونا ! ومَنْ لذرارِيّكم إذا قتلنا كم ! الله اللهَ فى البقية ! وأصبَحُوا وقد رفعوا المصـاحف على رءوس الرّماح ، وقد قلّدوها الخيل [والناس على الرايات قد اشتهوا ما دُعوا اليه](١) ، ومصحفُ دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال عَلَى رءوس الرِّماح ، وهم ينادون : كتاب الله بيننا وبينـكم .

وأقبل أبو الأعور السُّلمىّ على بِرْذَونٍ أبيض ، وقد وَضَع المصحفَ عَلَى رأسه ، ينادى : يأهلَ العِراق ، كتاب الله بيننا وبينـكم .

قال : فجاء عدىّ بن حاتم الطائىّ ، فقال : يأميرَ المؤمنين ، إنه لم يُصَبْ مِنّا عُصْبة إلا وقَدْ أصيبَ منهم مثلها(٢) ، وكلٌّ مقروح ؛ ولـكنّا أمثلُ بقيةً منهم ، وقد جَزِع القومُ ، وليس بعد الجَزَع إلا ما نحبّ ، فناجِزْهم(٣) .

وقام الأشتر ، فقال : يأميرَ المؤمنين ؛ إنّ معاوية لا خَلَفَ له من رجاله ؛ ولـكنْ

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) كتاب صفين : « إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق ، فإنه لم يصب ... » .

(٣) فى كتاب صفين : « فناجز القوم » ، والمناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ؛ وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه ، أو يقتل أحدهما .

بحمدِ الله لك الخلَف ، ولو كان له مثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صَبْرك ولا نصرك ، فاقْرَعِ الحديدَ بالحديد ، واستعِنْ بالله الحميد .

ثم قام عمرو بن الحمِق ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا والله ما أجَبْنَاك ولا نصرناك عَلَى الباطل ، ولا أجبْنا إلا الله ، ولَا طَلَبْنا إلا الحقّ ، ولو دعانا غيرُك إلى مادعوتَنا إليه لاستَشْرَى(١) فيه اللّجاج ، وطالت فيه النَّجْوى ، وقد بلغ الحقُّ مقطعَه ، وليس لنا مَعك رأىٌ .

فقام الأشعث بن قيس مُغْضَباً ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا لك اليوم عَلَى ما كنّا عليه أمس ، وليس آخرُ أمرِنا كأوّله ، وما من القوم أحدٌ أحْنَى عَلَى أهل العراق ولا أوتَرَ لأهلِ الشام مِنِّى ! فأجِب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، فإنّك أحقُّ بهم منهم ، وقد أحبَّ الناسُ البقاء ، وكرهوا القتال .

فقال علىّ عليه السلام : هذا أمر يُنظر فيه .

فتنادَى الناسُ من كلِّ جانب : الموادعة .

فقال علىّ عليه السلام : أيّها الناسُ ، إنّى أحقُّ مَنْ أجاب إلى كتاب الله ، ولكنَّ مُعاوية وعَمْرو بن العاص وابن أبى مُعيط وابن أبى سَرْح وابن مَسْلَمة ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن ، إنّى أعرَفُ بهم منكم ، صحبتُهم صغارا ورجالا ، فكانوا شرَّ صِغار ، وشرّ رجال . وَيْحَكم إنّها كلمة حَقٍّ يُراد بها باطل ! إنّهم ما رفعوها ؛ أنّهم يعرفونَها ويعملون بها ، ولكنّها الخديعة والوَهن والمكيدة ! أعيرونى سواعدَكُم وجَماجمكم ساعة واحدة ، فقد بَلغ الحقُّ مقطعَه ، ولم يبق إلاّ أن يُقْطَع دابرُ الذين ظلموا .

فجاءه من أصحابه زُهاء عشرين ألفا مُقنَّعين فى الحديد ، شاكى السلاح ، سُيُوفُهم عَلَى

---

(١) استشرى : اشتد .

عواتقهم ، وقد اسودّت جباههم من السُّجود ، يتقدمهم مِسْعَر بن فَدَكِىّ وزيد بن حُصين وعِصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمْرَة المؤمنين : يا علىّ ، أجبِ القوم إلى كتاب الله إذْ دُعيت إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابنَ عفان ، فو الله لنفعلَنّها إن لم تُجبهم !

فقال لهم : وَيْحَكم ! أنا أوّلُ مَنْ دعا إلى كتاب الله ، وأوّلُ مَنْ أجاب إليه ؛ وليس يحلّ لى ، ولا يَسَعُنى فى دينى أن أُدْعَى إلى كتاب الله فلا أقبَلَه ، إنى إنما قاتلتُهم ليَدِينوا بحكم القرآن ؛ فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرَهم ، ونقضوا عهدَه ، ونبذوا كِتابه ، ولكنّى قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ؛ وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون . قالوا : فابعَث إلى الأشتر ليأتينّك ، وقد كان الأشتر صبيحةَ ليلة الهرير أشرف على عَسْكر معاوية ليدخله .

* * *

قال نصر : فحدثنى فُضَيل بن خَدِيج [عن رجل من النَّخَع](١) قال : سأل مصعب (٢) إبراهيمَ بن الأشتر(٢) عن الحال كيف كانت ؟ فقال : كنت عند علىّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيه ، وقد كان الأشتر أشرَف على مُعَسْكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه علىّ عليه السلام يزيدَ بن هانىء : أن ائتنى ، فأتاه فأبلغه(٣) ، فقال الأشتر : ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تُزيلنى عن موقفى ؛

---

(١) من كتاب صفين .

(٢ - ٢) ب : « سأل مصعب بن إبراهيم » ، وصوابه من ا ، ح .

(٣) كتاب صفين : « فبلغه » .

إنّى قد رجوت(١) الفتح فلا تُعْجِلْنى . فرجعَ يزيد بن هانئ إلى علىّ عليه السلام فأخبره ؛ فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفَع الرّهج ، وعَلت الأصوات من قِبَل الأشتر ، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخِذْلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم لعلىّ : والله ما نراك أمرتَه إلا بالقتال ! قال : أرأيتمونى ساررت(٢) رسولى إليه ! أليس إنما كلمته عَلى رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابْعَثْ إليه فليأتك ؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال : وَيحك يا يزيد ! قل له : أقبِلْ إلىّ ، فإن الفتنة قد وقعت . فأتاه فأخبره ، فقال الأشتر : أبرفعِ(٣) هذه المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننتُ أنّها حينَ رُفِعَتْ ستُوقع خلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن النّابغة(٤) ! ثم قال ليزيد بن هانئ : وَيحك ! ألا ترى إلى الفتح ! ألا ترَى إلى ما يلقوْن ! ألا ترَى إلى الذى يَصْنَعُ الله لنا ؟ أينبغى أن نَدَعَ هذا وننصرف عنه ! فقال له يزيد : أتحبّ أنك ظَفِرتَ ها هنا وأنّ أميرَ المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يُفْرَجُ عنه ، ويُسْلَم إلى عدوّه ! قال : سُبحان الله ! لا والله لا أحبّ ذلك ، قال : فإنّهم قد قالوا له ، وحلَفوا عليه ، لَتُرْسِلَنّ إلى الأشتر فليأتينّك ، أو لنقتلنّك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لَنُسْلِمَنّك إلى عدوّك .

فأقبل الأشترُ حتّى انتهى إليهم ، فصاحَ : يأهلَ الذلّ والوهن ، أحِينَ عَلَوْتم القوم ، وظننْتم أنكم لهم قاهرون رفعوا(٥) المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سُنّة مَنْ أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ! أمهلونى فُوَاقا(٦) فإنى

---

(١) كتاب صفين : « إنى قد رجوت الله أن يفتح لى » .

(٢) ب : « شاورت » ، وصوابه من ا ، ج ، وكتاب صفين .

(٣) كتاب صفين : « ألرفع » .

(٤) كتاب صفين : « يعنى عمرو بن العاص » .

(٥) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى ٦ : ٢٧ ، وفى كتاب صفين : « ورفعوا » .

(٦) الفواق : ما بين الحلبتين ؛ يقال : انتظرتك فواق ناقة .

قد أحسستُ بالفتح ، قالوا : لا نمهلك ، قال : فأمهلونى عَدْوةَ الفَرَس ؛ فإنى قد طمعتُ فى النصر ، قالوا : إذَنْ ندخُلَ معك فى خطيئتك .

قال : فحدِّثونى عنكم ، وقد قُتِل أماثلُكم ، وبقىَ أراذلُكم ؛ متى كنتم مُحِقّين ! أحين كنتم تَقْتُلون أهلَ الشام ! فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون ! أم أنتم الآن فى إمساكِكم عن القتال محقّون ! فقتلاكم إذَن الذين لا تُنكرون فضلهم ، وإنهم خيرٌ منكم فى النّار ، قالوا : دَعْنا منك يا أشتر ، قاتلناهم فى الله ونَدَعُ قتالهم فى الله ؛ إنّا لسنا نطيعك فاجتَنِبْنا ، فقال : خُدِعتم والله فانخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ؛ يا أصحاب الجباه السود ، كنّا نظنّ صلاتكم زَهادةً فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله ! فلا أرى فرارَكم إلا إلى الدنيا من الموت ؛ ألا فقبحاً يا أشباه النِّيب(١) الجلّالة ، ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبدا ، فابعَدُوا كما بعِدَ القومُ الظالمون .

فسَبُّوه وسبَّهم ، وضربُوا بسياطِهم وجهَ دابّته ، وضرب بسوطِه وجوه دوابِّهم ، وصاحَ بهم علىّ عليه السلام ، فكَفّوا . وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ، احمِل الصفَّ على الصفّ تَصْرَع القوم . فتصايحوا : إنّ أمير المؤمنين قد قَبِلَ الحكومة ، ورَضِى بحكم القرآن . فقال الأشتر : إنْ كان أمير المؤمنين قد قَبِل ورضىَ ، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين ، فأقبل الناسُ يقولون : قد رَضِىَ أميرُ المؤمنين ، قد قَبِل أميرُ المؤمنين ، وهو ساكت لا يَبِضّ(٢) بكلمة ، مُطرِقٌ إلى الأرض .

ثم قام فسكت النّاس كلهم ، فقال : أيّها النّاس ، إنّ أمرى لم يزَلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذَتْ منكم الحرب ، وقد والله أخذَتْ منكم وتركَتْ ، وأخذَت من عدوِّكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنْهَك ، ألَا إنى كنتُ أمسِ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم

---

(١) النيب . جمع ناب ؛ وهى الناقة المسنة .

(٢) لا يبض بكلمة : لا يتكلم .

مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهيًّا، وقد أحببتم البقاء، وليس لى أن أحملكم على ما تَكْرَهون. ثم قعـد.

قال نصر: ثم تـكلّم رؤساء القبائل، فـكلٌّ قال ما يراه ويهواه، إمّا من الحرْب أو مِن السِّلم، فقام كُردوس بن هانئ البـكرىّ فقال: أيّها الناس؛ إنّا والله ما تولَّيْنَا معاوية منذ تبرّأنا منه، ولا تبرّأنا من علىّ منذ توليناه، وإنّ قتلانا لشهداء، وإن أحياءنا لأبرار؛ وإنّ عليا لَعلى بينة من ربه، وما أحدث إلا الإنصاف، فمن سلّم له نَجَا، ومن خالفه هلك. ثم قام شقيق بن ثور البـكرىّ، فقال: أيّها الناس، إنا دعونا أهـلَ الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم عليه؛ وإنهم قد دعونا اليوم إليـه⁽¹⁾؛ فإن رَدَدْناه عليهم حلّ لهم منّا ما حلّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يَحيفَ اللهُ علينا ورسوله، ألا إنّ عليًّا ليس بالراجع الناكس، ولا الشاكّ الواقف؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس؛ وقد أكلَتْنَا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلّا فى الموادعة⁽²⁾.

* * *

قال نصر: ثم إنّ أهلَ الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق: هل أجابوا إلى الموادعة أم لا؟ جَزِعوا فقالوا: يامعاوية، ما نرى أهلَ العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعِدْها جَذَعة⁽³⁾، فإنّك قد غَمَرْت بدعائك القوم، وأطمعتَهم فيك.

فدعا معاوية عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص، فأمَره أنْ يـكلّم أهلَ العراق، ويستَعْلِم له ما عنـدهم، فأقبل حتى إذا كان بين الصَّفَّين نادى: يأهلَ العراق، أنا عبـدُ الله بن

---

(١) كتاب وقعة صفين: «إلى كتاب الله».

(٢) كتاب صفين ٥٦١ ـ ٥٦٤، ثم ٥٥٣ ـ ٥٥٤، وتاريخ الطبرى ٦: ٥٧ بسنده عن عبـد الرحمن بن جندب عن أبيه.

(٣) أعدها جذعة؛ أى ابدأ بها مرة أخرى. وفى اللسان: «وإذ طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: «إن شئتم أعدناها جذعة، أى أول ما يبتدأ منها». وفى الأصول «خدعه» والصواب ما أثبته من كتاب صفين.

مرو بن العاص ؛ إنه قد كانت بيننا وبينكم أمورٌ للدين أو الدنيا(١) فإن تكن للدّين قد والله أعذَرْنا وأعذرتم ، وإن تكنْ للدنيا فقد والله أسْرَفْنا وأسرفتم ؛ وقد دعوناكم إلى أمرلو دعوتمونا إليه لأجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله . فاغتنموا هذه الفُرْصة ، عسى أن يعيش فيها المحترِف(٢) ويُنْسَى فيها القتيل ؛ فإن بقاء المهلِك بعد الهالك قليل .

فأجابه سعد بن قيسٍ الهَمْدَانيّ ، فقال : أمّا بعدُ يأهل الشام ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامَيْنا فيها على الدين والدنيا ، وسمّيتُموها غَدْراً وسَرَفاً ، وقد دعوتُمونا اليوم إلى ماقاتلناكم عليه أمس ، ولم يكن ليرجعَ أهلُ العراق إلى عراقهم ، وأهلُ الشام إلى شامهم ، بأمْرٍ أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه ؛ [فالأمر فى أيدينا دونكم؛ وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم](٣) .

فقام النّاس إلى على عليه السلام ، فقالوا له : (٤ أجبِ القوم إلى المحاكمة ، قال : ونادى إنسان من أهل الشام فى جوف الليل بشعر سمعه الناسُ ، وهو ٤) :

رُءوسَ العِراق أجيبوُا الدُّعاءَ   فقدْ بلغتْ غايةَ الشِّدَّهْ
وقدْ أوْدَتِ الحربُ بالعالَمينَ   وأهلِ الحفائظِ والنَّجْدَهْ
فلَسْنا ولَسْتُم مِنَ المُشْرِكينَ   ولا المُجْمِعِينَ على الرِّدَّهْ
ولكِنْ أناسٌ لقَوا مِثْلَهُمْ   لنا عِدَّةٌ ولكُمْ عِدَّهْ(٥)

---

(١) كتاب وقعة صفين : « للدين والدنيا » .

(٢) فى ج : « المحترق » وفى حواشيها : « الحزق ، محركة : الدهش من الخوف » .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤-٤) فى كتاب صفين : « أجب القوم إلى ما دعوناك إليه ؛ فإنا قد قبلنا ، ونادى إنسان من أهل الشام فى سواد الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » .

(٥) كتاب وقعة صفين : « ولهم عده » .

[فَقَاتَلَ كُلٌّ عَلَى وَجْهِهِ   يُقَحِّمُهُ الجِدُّ والحِدَّهْ](١)
فَإِنْ تَقْبَلُوهَا فَفِيهَا الْبَقَاء   وَأَمْنُ الْفَرِيقَيْنِ وَالْبَلْدَهْ
وَإِنْ تَدْفَعُوهَا فَفِيهَا الْفَنَاء   وَكُلُّ بَلَاءٍ إِلَى مُدَّهْ
فَحَتَّى مَتَى مَخْضُ هَذَا السِّقَاء   وَلَابُدَّ أَنْ تَخْرُجَ الزُّبْدَهْ
ثَلَاثَةُ رَهْطٍ هُمُ أَهْلُهَا   وَإِنْ يَسْكُتُوا تَخْمُدِ الْوَقْدَهْ
سَعِيدُ بْن قَيْسٍ وَكَبْشُ الْعِرَاقِ   وذاكَ الْمُسَوَّدُ مِنْ كِنْدَهْ

قال : فأمّا المسوَّد من كِنْدة ، وهو الأشعث ؛ فإنه لم يرضَ بالسكوت ، بل كان من أعظم الناس قولاً فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة . وأما كبش العِراق ، وهو الأشتر ، فلم يكن يرَى إلّا الحرب ، ولكنه سكت على مَضَضٍ . وأما سعيد بن قيس ، فكان تارة هكذا وتارة هكذا (٢) .

* * *

وذكر ابن ديزيل (٣) الهَمْدانىّ فى كتاب " صفّين " قال :

خرج عبدالرحمن بن خالد بنالوليد ومعهلواء معاوية،فارتجز فخرج إليهجارية بنقدامة السعدىّ ، فارتجز أيضاً مجيبا له ثم اطَّعَنَا (٤) فلم يصنعا شيئا،وانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه،فقال عمرو بن العاص لعبدالرحمن : اقْحُم يابن سيفِ الله،فتقدم عبدُ الرحمن بلوائه، وتقدّم أصحابه ، فأقبل علىّ عليه السلام عَلَى الأشتر ، فقال له : قد بلغَ لواء معاوية حيث

---

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) كتاب وقعة صفين : ٥٥١ ـ ٥٥٣ .
(٣) ابن ديزيل ، هو إبراهيم بن الحسين بن على بن مهران بن ديزيل الكسائى الهمذانى ، أحد كبار الحفاظ ومتكلميهم ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان (١ : ٤٩) ، وقال : « مات فى آخر يوم من شعبان سنة إحدى وثمانين ومائتين » .
(٤) اطعنا : أى تطاعنا .

ترى ، فدونَك القوم . فأخذ الأشتر لواء علىّ عليه السلام ، وقال (١) :

إنّى أنا الأشْتَرُ معروفُ الشَّتَرْ (٢)   إنّى أنا الأفعى العِراقىُّ الذَّكَرْ
لستُ رَبيعِيًّا ولَسْتُ مِنْ مُضَرْ (٣)   لـكِنَّنِي مِنْ مَذْحِجَ الشُّمِّ الغُرَرْ

فضارب القومَ حتّى ردّهم ، فانتدَب (٤) له همام بن قَبيصة الطائىّ ــ وكان مع معاوية ــ فشدّ عليه فى مَذْحِج ، فانتصر عدىُّ بن حاتم الطائىّ للأشتر ، فحمل عليه فى طيِّئ ، فاشتدّ القتال جِدًّا ، فدعا علىّ ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركِبَها ، ثم تعصّب بعمامة رسول الله ، ونادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشرى نفسه لله ! إنّ هذا يومٌ له مابعده ، فانتدبَ معه مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ؛ فتقدّمهم علىّ عليه السلام ، وقال :

دُبُّوا دبيبَ النَّمْلِ لَا تفوتُوا   وأَصْبِحــوا أمرَكُمْ أوْ بيِّتُوا (٥)
* حَتّى تَنالُوا الثَّأرَ أو تَمُوتوا *

وحمل وحمل الناسُ كلهم حَمْلةً واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صَفٌّ إلا أزالوه ، حتى أفضَوْا إلى معاوية ، فدعا معاوية بفرسه ليفرّ عليه .

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث فيقول : لمّا وضعتُ رجلى فى الرّكاب ، ذكرت قول عَمرو بن الإطنابة (٦) :

أَبَتْ لى عِفّتِي وَأَبَى بَلَائى   وَأَخْذِى الحَمْدَ بالثّمنِ الرَّبيحِ

---

(١) الأبيات ذكرها نصر بن مزاحم فى وقعة صفين ٤٥١ ، والمسعودى فى تاريخه ٢ : ٣٩٠ .

(٢) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

(٣) رواية المسعودى :

* لَسْتُ مِنَ الْحَىِّ رَبيعٍ أَوْ مُضَرْ *

(٤) انتدب له : خف له .

(٥) فى وقعة صفين ٥٥٩ المنقرى : « وأصبحوا بحربكم » ، وفيما يأتى من شرح النهج (٢:٢٨٦) : « وأصبحوا فى حربكم » .

(٦) الخبر والأبيات فى الكامل (٨ : ٢١٥) ــ بشرح المرصفى ، وأمالى القالى (١:٢٥٨) ، وعيون الأخبار (١:١٢٦) ، والإطنابة : اسم أمه ؛ وهو عمرو بن عامر من بنى الحارث بن الخزرج .

وإقْدامى عَلَى المــــكروهِ نفْسى   وَضَرْبى هامَــــةَ البَطَلِ المُشِيحِ (١)
وَقَوْلى كُلّما جَشَأَتْ وَجاشَتْ :   مَـكانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَريحى (٢)

فأخرجتُ رِجلى من الرّكاب وأقمت ، ونظرت إلى عمرو فقلت له : اليومَ صَبْر وغداً فَخْر ، فقال : صدقت .

قال إبراهيم بن ديزيل : وروى عبدُ الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، عن معاوية ، قال : أخـذتْ بمعْرَفةِ فرَسى ، ووضعت رِجْـلِى فى الركاب للهرَب ، حتى ذكرت شعرَ ابن الإطْنابة ، فعدت إلى مقعدى ، فأصبتُ خير الدُّنيا ، وإنى لَراجٍ أنْ أصيب خير الآخرة .

قال إبراهيم بن ديزيل : فـكان ذلك يومَ الهرير ، ثم رفعت المصاحف بعده .

وروى إبراهيم ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ربيعة بن لَقيط ، قال : شَهِدْنا صِفّين ، فمطرتِ السّماء علينا دماً عبيطاً .

وقال : وفى حديث اللّيث بن سعد أنْ كانوا ليَأخذونه بالصِّحاف والآنية . وفى حديث ابن لهيعة : حتى إنّ الصِّحاف والآنية لتمتلئُ ونُهَرِيقها .

قال إبراهيم : وروى عبدُ الرحمن بن زياد ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عمن حدثه ممن حضر صِفّين أنهم مطروا دما عبيطا ، فتلقّاه الناس بالقِصاع والآنية ، وذلك فى يوم الهرير ، وفزِع أهلُ الشام وهمّوا أن يتفرّقوا ، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال : أيّها الناس ، إنما هذه آيةٌ من آيات الله ، فأصلح امرؤٌ ما بينه وبين الله ، ثمّ لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان . فأخذوا فى القتال .

---

(١) فى الـكامل : «واجشامى على المـكروه نفسى» ، والمشيح : المقبل على عدوه ، المانع لما وراء ظهره.
(٢) جشأت وجاشت ، أى ارتفعت من الفزع .

قال إبراهيم : وروى أبو عبد الله المكّىّ ، قال : حدّثنا سُفيان بن عاصم بن كُلَيب الحارثىّ عن أبيه ، قال : أخبرنى ابنُ عباس قال : لقد حدّثنى معاوية أنّه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له أنثى ، بعيدة البطن من الأرض ، ليهرُب عليها ؛ حتى أتاه آتٍ من أهل العراق ، فقال له : إنّى تركتُ أصحاب علىّ فى مثل ليلة الصَّدَر[1] من مِنًى ، فأقمت ، قال : فقلنا له : فأخبِرْنا مَنْ هو ذلك الرجل ؟ فأبى وقال : لا أخبرُكم مَنْ هو .

* * *

قال نصر وإبراهيم أيضاً : وكتب معاويةُ إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ هذا الأمرَ قد طال بيننا وبينك ، وكلٌّ واحدٍ منّا يرى أنه على الحق فيما يطلبُ من صاحبه ، ولن يُعْطِىَ واحدٌ منّا الطاعة للآخر ، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقِىَ أشدّ مما مضى ؛ وإنّا سوف نُسْأَلُ عن ذلك الموطن ، ولا يحاسَبُ [به][2] غيرى وغيرُك ، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعُذْر ، وبراءة وصلاح للأمّة ، وحَقْن الدماء ، وألْفة الدِّين ، وذهاب للضغائن والفِتن ، أن نحكِّم بينى وبينكم حكَمَيْن مَرضيّيْن ، أحدُهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خيرٌ لى ولك ، وأقْطَع لهذه الفِتَن ؛ فاتق الله فيما دُعِيت إليه ، وارض بحُكْم القرآن إن كنت من أهله ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد ، فإنّ أفضل ما شَغَل به المرء نفسه اتّباع ما حَسُن به[3] فعلَه ، واستوجب فضلَه ، وسَلِم من عيبه[3] ،

---

[1] الصدر : اليوم الرابع من أيام منى .

[2] تكملة من وقعة صفين المنقرى .

(٣–٣) وقعة صفين . « ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه » .

وإنّ البغىَ والزورَ يُزريان بالمرء فى دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا ، فإنّه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ؛ ولقد علمتَ أنّك غيرُ مدرك ماقضى فواته ، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ ، وتأوّلوه (١) على الله جَلّ وعَزّ ، فأكذبهم ومتّعهم قليلا ، ثم اضطرهم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذَرْ يوماً يَغتَبِط فيه مَنْ حَمِد عاقبة عَمله ، ويندَم فيه مَنْ أمكن الشيطانَ من قياده [ولم يحادّه] (٢) ، وغرّته الدنيا واطمأنّ إليها . ثم إنّك قد دَعَوْتنى إلى حكم القرآن، ولقد علمتَ أنّك لستَ من أهلِ القرآن ولا حكمَه تريد؛ والله المستعان، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولسْنَا إياك أجَبْنَا ؛ ومَنْ لم يرضَ بحُكْم القرآن فقد ضلّ ضلالا بعيدا (٣) .

فكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ عافانا الله وإيّاك ، فقد آنَ لك أن تُجيب إلى مافيه صلاحُنا وألفة بيننا ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ وأنا أعرفُ حَقّى، ولكنى اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمة، ولم أكثِر فرحا بشىء جاء ولا ذهب ؛ وإنّما أدخلَنى فى هذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغى والمبغىّ عليه ، والأمر بالمعروف والنّهى عن المُنكَر ؛ فدعوْت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ؛ فإنّه لا يجمعُنا وإياك إلا هو ، نحيى ما أحيا القرآن ، ونُميت ما أمات القرآن ؛ والسلام (٤) .

* * *

قال نصر : فكتَب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، يعظه ويُرشده .

---

(١) وقعة صفين : « فتأولوا على الله » .

(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٦٥ ـ ٥٦٦ .

(٤) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ .

أما بعد ؛ فإنّ الدنيا مَشْغَلة عَنْ غَيرِها ، ولن يصيبَ صاحبُها منها شيئاً إلا فتحَتْ له حِرْصاً يزيدُه فيها رغبة ، ولن يستغنيَ صاحبُها بما نَالَ عمّا لم يبلغ (١) ، ومِنْ وراء ذلك فراقُ ماجَمع ، والسعيدُ مَنْ وُعظ بغيره ؛ فلا تُحْبِطْ أبا عبد الله أجْرَك ، ولا تُجار معاوية فى باطله ، والسلام .

فكتب إليه عمرو الجواب :

أما بعد أقول ، فالذى (٢) فيه صلاحنا وألفتُنا الإنابةُ إلى الحق ، وقد جعلْنا القرآن بيننا حكما ، وأجَبْنا إليه، فصبرَ الرّجلُ منّا نفسَه على ماحكم عليه القرآن ، وعَذَره النّاسُ بعد المحاجزة ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ فإنّ الذى أعجبَك من الدنيا مما نازعتْك إليه نفسُك ، ووثقت به منها لمُنْقلِب عنك ، ومفارقٌ لك ؛ فلا تطمئنّ إلى الدنيا فإنّها غَرّارة ، ولو اعتبرتَ بما مضى لحفِظْتَ ما بقى ، وانتفعْتَ منها بما وعظت به . والسلام .

فأجابه عمرو :

أما بعد ، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماما ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبرْ أبا حسن ، فإنّا غير مُنيليك إلا ما أنالك القرآن ، والسلام (٣) .

* * *

قال نصر : وجاء الأشعث إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أرى النّاس إلا قد رَضُوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى مادَعَوْهم إليه من حكم القرآن ؛

---

(١) وقعة صفين : « لم يبلغه » .

(٢) وقعة صفين : « فإن ما فيه صلاحنا » .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ — ٥٧١ .

فإنْ شِئْتَ أتيتُ معاوية فسألتُه مايريد ، ونظرت ما الذى يسأل ؛ قال : فأْتِه إن شئت ؛ فأتاه ، فسأله : يامعاوية : لأىّ شىء رفعتم هـذه المصاحف ؟ قال : لنرْجِـع نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فيها (١) ، فابعثوا رجلا منكم ترْضَوْن به ، ونبعث منّا رجلا ، ونأخذ عليهما أن يَعْمَلا بما فى كتاب الله ولا يَعْدُوانه ، ثم نتَّبع ما اتفقا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحق .

وانصرف إلى علىّ عليه السلام ، فأخبره ، فبعث علىّ عليـه السلام قُرّاءً من أهل العراق ، وبعث معاوية قُرّاءً من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصَّفَّين ، ومعهم المصحف ، فنظروا فيه وتدارسوا (٢) واجتمعوا على أن يُحْيُوا ما أحيا القرآن ، ويُميتوا ما أمات القرآن ، ورجع كلٌّ فريق إلى صاحبه ، فقال أهلُ الشام : إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رَضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرىّ ، فقال لهم علىّ عليـه السلام : فإنّى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أُوَلِّيَه ، فقـال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعر بن فَدَكِىّ فى عصابة من القراء : إنّا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذَّرنا ماوقعنا فيه . فقال علىّ عليـه السلام : فإنه ليس لى برضًا ، وقد فارقنى وخَذّل الناس عنّى ، وهرب منى حتى أمّنتُه بعد أشهر ، ولـكن هذا ابن عباس أُوَلِّيه ذلك . قالوا : والله مانُبالى ، أكنت أنت أو ابن عباس ! ولا نُريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . قال علىّ عليه السلام : فإنى أجعلُ الأشتر ، فقال الأشعث : وهل سَعّر الأرض علينا إلا الأشتر ! وهل نحن إلا فى حُـكْم الأشتر ! قال علىّ عليه السلام : وماحكمه ؟ قال : حكمُه أن يضرب بعضُنا بعضاً بالسيف حتّى يكون ما أردتَ وما أراد (٣) .

* * *

---

(١) وقعة صفين : « فى كتابه » .

(٢) صفين : « وتدارسوه » .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٢ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ ، قال : لما أرادَ الناس عليًّا أن يَضَع الحَكَمَيْن ، قال لهم : إنّ معاويةَ لم يكن لِيَضَعَ لهذا الأمر أحداً هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ؛ وإنّه لا يصلح للقرشىّ إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به ؛ فإن عَمْراً لا يَعْقِدُ عُقْدةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يَحُلّ عُقْدةً إلا عقدها ، ولا يُبرِمُ أمراً إلا نقضه ، ولا يَنقُضُ أمراً إلا أبرمه ، فقال الأشعث : لا والله ، لا يحكُم فينا مُضَريّان حتّى تقومَ الساعة ، ولكن اجعل رجلًا من أهل اليمن إذ جَعَلُوا رجلا من مُضَر ، فقال علىّ عليه السلام : إنّى أخافُ أن يُخدَعَ يمنيُّكم ، فإنّ عَمْراً ليس من الله فى شىء إذا كانَ له فى أمرٍ هوى . فقال الأشعث : والله لأنْ يحكما ببعض ما نكره ، وأحدُهما من أهلِ اليَمَن ، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ فى حكمهما وهما مُضَريّان .

قال : وذكر الشعبىّ أيضاً مثل ذلك (١) .

* * *

قال نصر : فقال علىّ عليه السلام : قد أبيتُم إلّا أبا موسى ! قالوا : نعم ، قال : فاصنَعوا ما شئتم ، فبعثوا إلى أبى موسى – وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرْض (٢) قد اعتزل القتال – فأتاه مولًى له ، فقال : إنّ الناس قد اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : وقد جعلوك حكماً ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر علىّ عليه السلام ، وجاء الأشتر عليًّا ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ألِزّنى (٣) بعمرو بن العاص ، فوالذى لا إله غيره ، لئن ملأتُ عينى منه لأقتلنّه .

---

(١) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٣ .

(٢) عرض : بلد بين تدمر ورصافة الشام .

(٣) ألزه به : ألزمه إياه .

وجاء الأحنفُ بن قيس عليا ، فقال: ياأميرَ المؤمنين ، إنك قد رُميت بحجَر(١) الأرض؛ ومَنْ حارَبَ الله ورسولَه أنفَ(٢) الإسلام ، وإنى قد عجمتُ هـذا الرجل – يعنى أبا موسى – وحلبْتُ أشطُره ، فوجدته كليلَ الشَّفْرة قريب القَعْر ؛ وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجلٌ يدنُو منهم حتَّى يكونَ فى أكفِّهم ، ويتباعدُ منهم حتى يكونَ بمنزلة النَّجْم منهم ،(٣ فإن شئْتَ أن تجعلَنى حَكَما فاجعلنى ، وإنْ شئت أن تجعلَنى ثانيا أو ثالثا(٣ ، فإنّ عمراً لا يعقد عقدة إلا حلَّها ، ولا يُحلّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها .

فعرَض علىّ عليه السلام ذلك على الناس فأبوْه ، وقالوا : لا يكونُ إلا أباموسى(٤) .

* * *

قال نصر : مال الأحنف إلىّ على عليه السلام ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى خَيّرتُك يومَ الجمل أن آتيَك فيمنْ أطاعنى ، أو أكُفّ عنك بنى سعد ، فقلت : كُفّ قومك ، فـكَفى بكفّك نصيرا ، فأقمتُ بأمرك، وإنّ عبد الله بن قيس(٥) رجل قد حلبتُ أشطره، فوجدتُه قريبَ القعر ، كليلَ المُدْية ، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية ، وقد رُميتَ بحجَر الأرض ، وبمَنْ حارب الله ورسوله ، وإنّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكونَ مع النجم ، ويدنُو حتى يكون فى أكُفهم ، فابعثنى ، فوالله لا يحلُّ عنك عقدةً إلاعقدتُ لك أشدّ منها ، فإن قلت : إنّى لست من أصحاب رسول الله ، فابعثْ رجلاً من أصحاب رسول الله ، وابعثنى معه .

---

(١) فى اللسان ٥ : ٢٣٧ : « ويقال : رمى فلان بحجر الأرض ؛ إذا رمى بداهية من الرجال ؛ وفى حديث الأحنف بن قيس : أنه قال لعلى حين سمى معاوية أحد الحكمين عمرو بن العاص : إنك قد رميت بحجر الأرض . . . » .

(٢) أنف كل شيء : أوله ؛ يقال : سار فى أنف النهار ؛ أى أوله .

(٣–٣) وقعة صفين : « فإن تجعلنى حكما فاجعلنى ، وإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانيا أو ثالثا » .

(٤) وقعة صفين ٥٧٤ .

(٥) عبد الله بن قيس هوأبو موسى الأشعرى .

فقال علىّ عليه السلام : إنّ القومَ أتوْنى بعبد الله بن قيس مُبَرْنساً ، فقالوا : ابعث هذا ، رَضِينا به والله بالغ أمره(١) .

* * *

قال نصر : وروى أنّ ابن الـكوّاء ، قام إلى علىّ عليه السلام ، فقال : هذا عبدالله ابن قيْس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى عليه وصاحب مَقاسِم أبى بكر(٢) وعامل عمر ، وقد رضى به القوم ، وعرضْنا عليهم ابنَ عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ظَنُون(٣) فى أمرك .

فبلغ ذلك أهلَ الشام ، فبعث أيمن بن خُرَيم الأسدىّ ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات ، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق :

لَوْ كَانَ لِلقَوْمِ رَأْىٌ يُعْصَمُونَ بِهِ   من الضَّلاَلِ رَمَوْكُمْ بابْنِ عَبَّاسِ
لِلّهِ دَرُّ أبيهِ أيُّمَا رَجُلٍ   مَا مِثْلُهُ لِفصَالِ الْخطْبِ فِى النَّاسِ !
لَـكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِى يَمَنٍ   لاَ يَهْتَدِى ضَرْبَ أخْمَاسٍ لأسداسِ(٤)
إنْ يَخْلُ عمرو بِهِ يَقْذِفْهُ فى لُجَجٍ   يَهْوِى به النَّجْمُ تَيْسًا بين أتياسِ
أبْلِغ لديْكَ عليًّا غيرَ عاتِبهِ(٥)   قولَ امرئٍ لا يرى بالحقِّ من بَاسِ
ما الأشْعَرِىُّ بمأمونٍ أبا حَسَنٍ   فاعْلم هُدِيتَ وليس العَجزُ كالرّاسِ
فاصْدِمْ بصاحِبك الأدنى زعيمَهُمُ   إنّ ابن عَمِّكَ عباسٍ هو الآسى

فلما بلغَ الناسَ هذا الشعر ، طارت أهواء قومٍ من أولياء علىّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس ، وأبتِ القُرّاء إلا أبا موسى(٦) .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٥ .
(٢) صاحب المقاسم : الذى يتولى أمر قسمة المغانم ونحوها .
(٣) الظنون : المتهم ، كالظنين .
(٤) وقعة صفين والمسعودى ٢ : ٤١٠ : « لم يدر ما ضرب أخماس » .
(٥) صفين : « عائبه » .
(٦) وقعة صفين : ٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

قال نصر : وكان أيمن بن خُرَيْم رجـلًا عابدًا مجتهدًا ، وقد كان معاوية جعل له فلسطين ، على أن يُتابعه ويشايعه على قتال علىّ عليه السلام ، فقال أيمن ، وبعث بها إليه :

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رجلًا يُصَلِّى   على سلطانِ آخَر مِنْ قُرَيْشِ
له سلطانُه وَعَلَىّ إثمِى   معاذَ الله من سفهٍ وَطَيْشِ
أَأَقْتُلُ مُسْلِماً فِى غَيْرِ جُرْمٍ   فَلَيْسَ بنافِعِى مَاعِشْتُ عَيْشِى !

قال نصر : فلما رضِىَ أهلُ الشام بعمرو ، وأهل العراق بأبى موسى ، أخذوا فى سَطْرِ كتاب الموادعة ، وكانت صورته :

« هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان » . فقال معاوية : بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثمّ قاتلتُه ! وقال عمرو : بل نكتُبُ اسمه واسم أبيه ؟ إنما هو أميرُكم ، فأما أميرنا فلا . فلما أُعيد إليه الكتابُ أمرَ بمحوِه ، فقال الأحنف : لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين عنك ؛ فإنى أتخوّفُ إن محوتَها ألّا ترجع إليك أبدا ، فلا تمحُها . فقال علىّ عليه السلام : إنّ هذا اليوم كيوم الحُدَيْبِيَة حين كتب الكتّاب عن رسول الله صلى الله عليه : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو ، فقال سُهَيْل : لو أعلم أنّك رسول الله لم أقاتِلْك ، ولم أخالِفْك ، إنى إذاً لظالم لك إن منعتُك أن تطوفَ ببيت الله الحرام وأنت رسوله ؛ ولكن اكتب : « من محمد بن عبد الله » ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه : « يا علىّ ، إنى لرسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ولن يمحوَ عنّى الرسالة كتابى لهم من محمد بن عبد الله ، فاكتبها وامحُ ما أراد محوه ، أمَا إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهَد » .

قال نصر : وقد رُوِى أنّ عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى علىّ عليه السلام ، فطلب منه أن يمحوَ اسمَه من إمْرَة المؤمنين فقصّ عليه وعلى مَنْ حضر قِصّةَ صلح الحُدَيْبِيَة ،

قال : إنّ ذلك الكتاب أنا كتبتُه بيننا وبين المشركين ، واليوم أكتبه إلى أبنائهم ، كما كان رسول الله صلى الله عليه كتبه إلى آبائهم شِبْها(١) ومِثْلا ، فقال عمرو : سبْحان الله ! أتشبِّهنا(٢) بالكفار ، ونحن مسلمون ! فقال عليّ عليه السلام : يابن النابغة ، ومتى لم تكنْ للكافرين وليًّا وللمسلمين عدوًّا ! فقام عمرو ، وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد اليوم . فقال عليّ : أمَا والله إني لأرجو أن يُظهر الله عليك وعلى أصحابك .

وجاءت عِصابة قد وضعتْ سيوفها على عواتقها ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، مُرْنا بما شئتَ ، فقال لهم سهل بن حُنَيف : أيها الناس ، اتّهِموا رأيكم ، فلقد شَهِدْنا صُلْحَ رسول الله صلى الله عليه يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا(٣) .

وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقد رأيتُني يومَ أبي جَنْدَل – يعني الحديبية – ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه لرددته ، ثم لم نَرَ في ذلك الصلح إلا خيرا .

قال نصر : وقد روى أبو إسحاق الشيبانيّ ، قال : قرأتُ كتاب الصلح عند سعيد ابن أبي بُردة في صحيفة صفراء ، عليها خاتمان : خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها ، على خاتم عليّ عليه السلام : « محمد رسول الله » ، وعلى خاتم معاوية « محمد رسول الله » . وقيل لعليّ عليه السلام ، حين أراد أن يكتب الكتابُ بينه وبين معاوية وأهل الشام : أتقِرّ أنهم مؤمنون مسلمون ! فقال عليّ عليه السلام : ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ؛ ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ، ويسمِّي نفسه بما شاء وأصحابه ، فكتبوا :

هذا ما تقاضَى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ بن أبي طالب

---

(١) وقعة صفين : « سنة ومثلا » .

(٢) صفين : « شبهتنا بالكفار ونحن مؤمنون » !

(٣) كتاب صفين ٥٨٢ – ٥٨٣ .

على أهـل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبى سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إنّا ننزل عند حُكم الله تعالى وكتابه ، ولا يجمع بيننا إلا إياه . وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، فإن وَجَد الحكمان ذلك فى كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرقة . والحكمان : عَبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد أخذ الحَكَمان مِنْ علىّ ومعاوية ومن الجندينْ أنّهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار ؛ وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عَهْدُ الله أن يعملوا بما يقضيان عليه ؛ مما وافق الكتاب والسُّنّة ، وإن الأمْن والموادعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين ؛ إلى أن يقَع الحكم ، وعلى كلٍّ واحد من الحَكَمين عَهْدُ الله ، لَيحكُمَنّ بين الأمة بالحق ، لا بالهوى . وأجَلُ الموادعة سنة كاملة ؛ فإن أحبّ الحكمان أن يُعجّلا الحُكم عجّلاه ، وإن تُوفِّيَ أحدُهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً ؛ لا يألو الحقّ والعدل ، وإن تُوفِّيَ أحدُ الأميرين كان نَصْبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضَوْن أمره ، ويحمَدُون طريقته . اللهم إنّا نستنصرُك على مَنْ ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيها إلحاداً وظلماً .

قال نصر : هذه رواية محمد بن علىّ بن الحسين والشعبىّ ، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة :

هذا ماتقاضَى عليه ابن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتُهما فيما تراضيا به من الحُكم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ قضيّة علىّ على أهل العراق ومَنْ كان مِنْ شيعته مِنْ شاهد أو غائب ، وقضيّة معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته مِنْ شاهد أو غائب ؛ إنّنا رضينا أن ننزل عند حُكم القرآن فيما حكم ، وأن نَقِفَ عند أمره فيما أَمَر ؛ فإنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلْنا كتاب الله سبحانه حَكَما بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى

خاتمته ، نحيي ماأحيا القرآن ، ونميت ماأماته ؛ على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن عليا وشيعته رضُوا أن يبعثُوا عبدَ الله بن قيس ناظرا ومُحاكما ؛ ورضيَ معاويةُ وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظرا ومحاكما ؛ على أنّهم أخذُوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد مِنْ خَلْقه لَيتّخِذانِ الكتاب إماما فيما بعثا إليه ، لايعدُوَانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطورا ، ومالم يجداه مسمًّى فى الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه الجامعة ، لايتعمدان لها خلافا ، ولا يتّبعان هوى ، ولا يدخلان فى شبهة ؛ وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضا بما حكما به من كتاب الله وسنّة نبيه ، وليس لهما أن ينقُضَا ذلك ولايخالفاه إلى غيره ؛ وأنهما آمنان فى حُكمهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، مالم يعدُوَا الحق ؛ رضى بذلك راضٍ أوأنكره مُنْكِر . وإنّ الأمة أنصارٌ لهما على ماقَضَيَا به من العَدْل ، فإن تُوفِّى أحدُ الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانَه رجلا ، لايألون عن أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مِثلُ شرط صاحبه ، وإن مات أحد الأميريْن قبل القضاء ، فلشيعته أن يولُّوا مكانه رجلاً يرضون عَدْله . وقد وقعت هذه القضيّة ، ومعها الأمن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكَمَيْن عهد الله وميثاقُه ألّا يألوَا اجتهادا ، ولا يتعمّدا جَوْراً ، ولايدخلا فى شبهة ، ولايعدوَا حُكْم الكتاب ، فإن لم يقبلا برئت الأمة من حُكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضيّة على ماقد سُمِّيَ فى هذا الكتاب من مَواقع الشروط على الحكَمَيْن والأميرين والفريقين ، والله أقرب شهيدا ، وأدنى حفيظا . والناس آمنوُن على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدّة الأجل ، والسلاحُ موضوع ، والسُّبل مخلّاة ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء فى الأمن ، وللحكَمَين أن ينزلا منزلاً عَدْلًا بين أهل العراق والشام ، لايحضرهما فيه إلا مَنْ أحبّا عن ملإٍ منهما وتراضٍ ،

وإنّ المسلمين قد أجّلوا هـذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وُجِّهاله عجّلاها ، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول فى الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهُمْ يَدٌ على مَنْ أراد فيه إلحادا وظُلْما ؛ أو حاول له نَقْضاً . وشهد فيه من أصحاب علىّ عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة ؛ وتاريخ كتابته لليلة بَقِيَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين (١) .

* * *

قال نصر : وحدثنا عَمْرو بن سعيد ، قال : حدَّثنى أبو جَناب ، عن ربيعة الجَرْمىّ ، قال : لما كتبت الصحيفة دُعِىَ لها الأشتر ، ليشهدَ مع الشهود عليه ، فقال: لاصحبتْنى يمينى ولا نفعنى بعدَها الشّمال إن كُتِب لى فى هـذه الصحيفـة اسم على صُلْح أو موادعة ، أوَلَسْتُ على بينة من أمرى ويقين من ضلالة عَدُوّى ! أو لستُمْ قد رأيتم الظَّفر إن لم تُجْمِعوا على الخور ! فقال له رجل [من الناس](٢): والله مارأيتُ ظَفَراً ولا خَوَراً ، هلمّ فأشهِدْ على نفسك ، وأقرِرْ بما كُتِب فى هذه الصحيفة ، فإنه لارغبة لك عن الناس . فقال : بلى والله ، إنّ لى لرغبةً عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة ؛ ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ماأنت عندى بخير منهم ، ولا أحرمَ دما .

قال نصر بن مزاحم : الرجلُ هو الأشعث بن قيس ؛ قال: فكأنما قُصِع(٣) على أنفه الحميم ثم قال : ولكنّى قد رضيتُ بما يرضى به أمير المؤمنين ؛ ودخلتُ فيما دخلَ فيه ، وخرجتُ مما خرجَ منه ، فإنه لايدخلُ إلا فى الهدى والصواب .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٨ ـ ٥٨٦ .

(٢) من صفين .

(٣) القصع : الدلك والضرب . وفى صفين : « الحمم » .

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد عن أبى جناب الكلبىّ عن إسماعيل بن شفيع (١) عن سفيان بن سلمة(٢) ، قال : فلما تمّ الكتاب وشهدتْ فيه الشهود ، وتراضى الناسُ خرج الأشعث ، ومعه ناسٌ بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرِضُها عليهم ، فمرّ به على صفوف من أهل الشام ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضُوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق ، وهُمْ على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضوا به ، حتى مرّ برايات عَنَزة ، وكان مع علىّ عليه السلام من عَنَزة بصفِّين أربعة آلاف مجفَّف (٣) ، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم ، قال فَتَيان منهم: لا حكم إلا لله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما، فقاتلا حتى قُتلا على باب رِواق معاوية — فهما أولُ مَنْ حكّم . واسماهما جَعْد ومَعْدان — ثم مرّ بهما على مُراد ، فقال صالح بن شقيق ، وكان من رءوسهم :

ما لعلىٍّ فى الدّماء قَدْ حَكَمْ لو قاتل الأحزابَ يوْماً ما ظَلَمْ

لا حكم إلا لله ، ولو كره المشركون . ثم مرّ على رايات بنى راسب ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلا لله ، لا نرضى ولا نحكِّم الرجال فى دين الله . ثم مر على رايات تميم ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْمَ إلا لله ، يقضى بالحق وهو خير الفاصلين . فقال رجل منهم لآخر : أمّا هذا فقد طعن طعنةً نافذة . وخرج عروة بن أُديّة، أخو مرداس بن أدّية التميمىّ ، فقال : أتحكِّمُون الرجال فى أمر الله لا حُكْم إلا لله! فأين قتلانا يا أشعث ! ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث ، فأخطأه ، وضرب عَجُز دابته ضربة خفيفةً ؛ فصاح به الناس : أن إملك(٤) يدك ، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه ، فمشى الأحنف إليه ومَعْقل بن قيس ومسْعَر بن فَدَكِىّ ، ورجال من بنى تميم ، فتنصّلوا واعتذروا ، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّى

---

(١) كتاب صفين . « سميع » بالتصغير .

(٢) كتاب صفين : « عن شقيق بن سلمة » .

(٣) المجفف : لابس التجفاف ، وأصله ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة .

(٤) صفين : « أن أمسك » .

عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام ، وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : رضينا ، حتى مَرَرْتُ برايات بنى راسب ، ونَبْذٍ(١) من الناس سواهم ، فقالوا : لا نرضَى ، لا حُكْمَ إلا لله فَمِلْ(٢) بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى نقتلهم . فقال علىّ عليه السلام : هل هى غيرُ رايةٍ أو رايتَين ونَبْذٍ من الناس ؟ قال : لا ، قال : فدعْهم .

قال نصر : فظَنّ علىّ عليه السلام أنّهم قليلون لا يُعبأ بهم ، فما راعهُ إلا نداء الناس من كلّ جهة ومن كلّ ناحية : لا حُكم إلا لله ! الحكم لله يا علىّ لا لك ! لا نَرْضَى بأنْ يُحكِّمَ الرجالُ فى دين الله . إن الله قد أمضى حُكْمَه فى معاوية وأصحابه أن يَقتلوا أو يدخلوا تحت حُكْمنا عليهم(٣) ، وقد كنّا زَلَلْنا وأخطأنا حين رضينا بالحكَمين ، وقد بان لنا زَلَلُنا وخَطَؤنا فرجعنا إلى الله وتُبْنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تُبْنا ، وإلا بَرِئْنا منك . فقال علىّ عليه السلام : ويْحكُم ! أبعدَ الرِّضا والميثاق والعهد نرجع ! أليس الله تعالى قد قال : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾(٤) ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾(٥) ! فأبى علىّ أن يرجع ، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علىّ عليه السلام وبَرِئ علىّ عليه السلام منهم(٦) .

قال نصر : وقام إلى علىّ عليه السلام محمد بن جريش(٧) فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ! فوالله إنى لأخاف أن يُورثَ ذلاًّ ، فقال علىّ عليه

---

(١) نبذ من الناس ، أى عدد قليل منهم .

(٢) صفين : « فلنحمل » .

(٣) صفين : « أو يدخلوا فى حكمنا عليهم » .

(٤) سورة المائدة ١ .

(٥) سورة النحل ٩١ .

(٦) وقعة صفين ٥٨٩ ـ ٥٩٠ .

(٧) كتاب صفين : « محرز بن جريش » ؛ وقال : « وكان محرز يدعى مخضخضا ، وذلك أنه أخذ عنزة بصفين ؛ وأخذ معه إداوة من ماء ؛ فإذا وجد رجلا من أصحاب على جريحا سقاه من اللبن ، وإذا وجد رجلا من أصحاب معاوية خضخضه بالعنزة حتى يقتله » .

السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ! إنّ هذا لا يَحِلّ (١) .

* * *

قال نصر ؛ وحدّثني عمر بن نمير بن وعْلة ، عن أبي الودّاك ، قال : لما تداعَى النّاس إلى المصاحف ، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم ، قال عليّ عليه السلام : إنّما فعلتُ مافعلتُ لِمَا بدَا فيكم من الخَوَر والفَشَل عن الحرب (٢) ؛ فجاءت إليه هَمْدان كأنها ركن حَصِير (٣) فيهم سعيد بن قيس وابنُه عبد الرحمن ؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد : هأنذا وقومي، لانردّ أمرَك (٤) فقلْ ماشئتَ نعمله ؛ فقال: أمَا لو كان هذا قبل سَطْر الصحيفة (٥) لأزلتُهم عن عسكرهم ، أو تنفردَ سالِفَتي (٦) [قبل ذلك] (٧)، ولكن انصرفوا راشدين ، فلعمري ما كنت لأعرِّض قبيلة واحدة للناس (٨) .

* * *

قال نصر : وروى الشعبيّ أنّ عليًّا عليه السلام ، قال يوم صِفِّين حين أقرّ الناس بالصلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليُنيبوا إلى الحقّ، ولا ليُجيبوا (٩) إلى كلمة سواء حتى يُرْمَوا بالمناسر (١٠) تتبعها العساكر ؛ وحتى يُرْجَموا بالكتائب تَقْفُوها الجلائب (١١)،

---

(١) كتاب صفين ٥٩٦ .

(٢) صفين : « لما بدا فيكم الخور والفشل ـ هما الضعف » .

(٣) وفي صفين : « فجمع سعيد بن قيس قومه ، ثم جاء في رجراجة من همدان كأنها ركن حصير يعني جبلا باليمن » .

(٤) صفين . « لا نرادك ولا نرد عليك » .

(٥) صفين : « أما لو كان هذا قبل رفع المصاحف » .

(٦) السالفة : صفحة العنق ؛ وفي حديث الحديبية : « لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتي » ، قال في اللسان : كنى بانفرادها عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت .

(٧) من كتاب صفين .

(٨) كتاب صفين ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٩) صفين : « ليفيئوا » .

(١٠) المناسر : جمع منسر ، بكسر الميم ؛ وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(١١) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش .

وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يَتْلوه الخميس(١) ؛ وحتى يدعوا الخيولَ فى نواحى أرضهم ، وبأحناء مسارِبهم ومسارحهم ؛ وحتى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ ؛ وحتى يَلْقاهم قومٌ صُدُقٌ صُبُرٌ ، لا يزيدُهم هلاكُ مَنْ هَلَك مِن قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جِدّاً فى طاعة الله ، وحِرْصاً على لقاء الله ؛ ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوالنا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليما ، ومُضيًّا على أمَضّ الألم ، وجِدًّا على جهاد العدوّ ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرّجُل مِنّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تَصاوُل الفَحْلين ، يتخالسان أنفسهما أيُّهما يسقِى صاحبَه كأسَ المنون ، فمرة لنا من عدوّنا ، ومرة لعدوّنا مِنّا ، فلما رآنا الله صُدُقًا صُبرًا أنزل بعدوّنا الكَبْت ، وأنزلَ علينا النّصر ؛ ولعمرى لو كنّا نأتى مثل الّذى أتيتم ما قام الدّين ولا عزّ الإسلام(٢) ، [وايمُ اللهِ لتحلُبُنّها دماً ، فاحفظوا ما أقول لكم](٣) .

* * *

وروى نصر عن عمرو بن شَمِر ، عن فضيل بن خَديج ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام لمّا كُتِبت الصحيفة : إنّ الأشتر لم يرضَ بما فى الصحيفة ، ولا يرى إلا قتالَ القوم ؛ فقال علىّ عليه السلام : بَلَى إنّ الأشتر ليَرْضَى إذا رضيتُ ، وقد رضيتُ ورضيتم ، ولا يصلحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديلُ بعد الإقرار ؛ إلا أنْ يُعصَى الله أو يتعدّى ما فى كتابه. وأمّا الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه ، فليس من أولئك ولا أعرفه(٤) على ذلك ، وليت فيكم مثلَه اثنين ، بل ليت فيكم مثلَه واحدا ، يرى فى عدوّى مثل رأيه ، إذًا لخفّتْ مؤنتكم علىّ ، ورجوت أن يستقيم لى بعض أوَدِكم(٦) .

* * *

---

(١) الخميس : الجيش الجرار ؛ سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق .

(٢) كتاب صفين ٥٩٧ ، ٥٩٨ .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) كتاب صفين : « وليس أتخوفه » .

(٥) كتاب صفين ٥٩٨ .

قال نصر : وروى أبو عبد الله زيد الأَوْدِىّ أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أَوْس ، قاتل مع علىّ عليه السلام يوم صفّين ، فأسَرَه معاويةُ فى أَسْرَى كثيرة ، فقال له عمرو بن العاص : اقتُلْهم ، فقال له عمرو بن أوس : لا تقتلنى يامعاوية ، فإنك خالى ، فقامت إليه بنو أَوْد(١) فاستوهبوه ، فقال : دَعُوه ، فلعمرى إن كان صادقا فيما ادّعاه من خئولتى إيّاه ليستغنِيَنّ عن شفاعتكم ؛ وإلّا فشفاعتكم من ورائه ؛ ثم استدناه ، فقال : مِنْ أينَ أنا خالُك ؟ فوالله مابين بنى عبدشمس وبين أَوْد من مُصاهرة ! قال : فإن أخبرتُك فعرفتَ فهو أمانٌ عندك ؟ قال : نعم ، قال : أليستْ أمّ حبيبة(٢) أختك أمّ المؤمنين ؟ فأنا ابنها وأنت أخوها ، فأنت إذاً خالِى . فقال معاوية : لله أبوه ! أما كان فى هؤلاء الأَسْرَى مَنْ يَفطِنُ إلى هذا غيره ! ثم خلّى سبيله(٣) .

* * *

وروى إبراهيم بن الحسين بن علىّ الكسائىّ المعروف بابن ديزيل الهَمْدانىّ ؛ فى «كتاب صفين» ، قال : حدّثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدّثنا عمرو بن محمد ، قال : دعا معاويةُ بن أبى سُفيان عمرو بن العاص ، ليبعثَه حكَما ، فجاء وهو متحزّم ، عليه ثيابه وسيفه ، وحوله أخوه وناس من قريش ، فقال له معاوية : ياعمرو ؛ إنّ أهلَ الكوفة أكرهوا عليًّا على أبى موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمّ إليك رجل طويل اللسان ، كليل المُدْية ، وله بعدُ حَظّ من دِين ؛ فإذا قال فدَعْه يقلْ ، ثم قلْ فأوجز ، واقطع المفصِل ، ولا تَلْقه بكلّ رأيك ، واعلم أنّ خَبْء(٤) الرأى زيادة فى العقل ، فإنْ خوّفك بأهلِ العراق فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوّفك بعلىّ فخوّفه بمعاوية ، وإن

---

(١) أود : بطن فى قيس عيلان .

(٢) أم حبيبة ؛ هى رملة بنت أبى سفيان .

(٣) كتاب صفين ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

(٤) الخبء : ماخبىء وغاب من الشىء ، وفى ج : « خبىء » وهما سواء .

خَوّفك بمصر نخوّفه باليمن ، وإن أتاكَ بالتفصيل فأْتِه بالُجمل . فقال له عمرو : يامعاوية ، أنت وعليّ رجُلا قريش ، ولم تنلْ فى حربك مارجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرتَ أنّ لعبد الله دِيناً ، وصاحبُ الدين منصور ، وايمُ الله لَأُفنيَنّ [عليه][1] عِلّه ، ولأستخرِجنّ خَبْأه[2] ، ولـكن إذا جاءنى بالإيمان والهجرة ومناقب عليّ ، ماعسيتُ أن أقول ! قال : قل ماترى ، فقال عمرو : وهل تَدَعُنى وما أرى ! وخرج مُغضَباً كأنه كره أن يُوصَى ثقةً بنفسه ؛ وقال لأصحابه حين خرج : إنما أراد معاوية أن يصغّر أمرَ أبى موسى، لأنّه علم أنى خادعه غدا ، فأحبّ أن يقول : إن عَمْراً لم يخدَعْ أريباً ، فقد كدتُه بالخلاف عليه . وقال فى ذلك :

يُشَجِّعنى معاويةُ بن حَرْبٍ   كأنّى للحوادثِ مستكينُ
وإنّى عَنْ معـاويةٍ غنيّ   بحمْدِ اللهِ واللهُ المعينُ
وهَوّن أمرَ عبدِ الله عَمْداً   وقال له على ما كان دينُ
فقلتُ له ولم أردُدْ عَلَيـه   مقالتَهُ وللشّا كِى أنينُ
ترى أهلَ العراق يَذُبّ عنهمْ   وَعَنْ جيرانِهِم رَجُلٌ مَهِينُ !
فَلَوْ جهِلُوه لم يجهَل عليٌّ   وغثّ القولِ يحمِلُه السَّمينُ
ولـكن خطبه فيهم عظيمٌ   وفَضْلُ المرء فيهمْ مُسْتَبِينُ
فإنْ أظفَرْ فلم أظفَرْ بِوَغْدٍ   وإنْ يَظْفَرْ فقد قُطِعَ الْوَتِينُ

فلما بلغ معـاوية شعره ، غضب من ذلك وقال : لولا مسيره لـكان لى فيـه رأى ! فقال له عبدالرحمن بن أمّ الحـكم : أمَا والله إنّ أمثاله فى قريش لـكثير ؛ ولـكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه ، فألزمها الغَنَاء عنه ، فقال له معاوية : فأجبه عن شعره ، فقال عبدالرحمن يعيّره بفراره من عليّ يوم صِفّين :

---

(١) تكملة من ج .   (٢) ج : « خبيثة » .

أَلَا ياعمرو عمرو قَبيلِ سَهْمٍ   أَمِنْ طِبٍّ أصابَكَ ذا الْجُنون!
دع البغىَ الذى أصبحتَ فِيه   فإنّ البَغْىَ صَاحِبُه لَعِينُ
ألم تَهْرُبْ بنفسِك من علىّ   بصفّينٍ وأنت بِها ضَنِينُ
حِذاراً أنْ تلاقِيَكَ المنايا   وكلّ فتًى سيُدرِكه المَنونُ
وَلَسْنا عَائبين عليك إلّا   لقولك إنّنى لا أستكِينُ

* * *

قال نصر: ثم إنّ الناس أقبلوا على قَتلاهم فدفنوهم، قال: وقد كان عمر بن الخطاب دعا فى خلافته حابس بن سعد الطائىّ، فقال له: إنّى أريدُ أنْ أولّيَك قضاء حِمْص، فكيف أنت صانع؟ قال: أجتهدُ رأيى وأستشير جلسائى، قال: فانطلِقْ إليها. فلم يمش(١) إلا يسيرا حتى رجع، فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنّى رأيتُ رؤيا أحببتُ أنْ أقصّها عليك، قال: هاتِها، قال: رأيتُ كأنّ الشمس أقبلتْ من المشرق، ومعها جَمْع عظيم، وكأنّ القمر قد أقبل من المغرب ومعه جَمْع عظيم، فقال له عمر: مع أيِّهما كنت؟ قال: كنتُ مع القمر، قال: كنتَ مع الآية الممحوّة، اذهب فلا والله لا تلِى لى عملا، وردّه. فشهد مع معاوية صفّين، وكانتْ رايةُ طيّئ معه، فقتِل يومئذ، فمرّ به عدىّ بن حاتم، ومعه ابنه زيد، فرآه قتيلا، فقال له: ياأبتِ(٢) هذا والله خالى، قال: نعم، لعنَ الله خالك، فبئس والله المَصرع مصرعه! فوقف زيدٌ وقال: مَنْ قتل هذا الرجل؟ مرارا، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل، طُوالٌ يخضِب، فقال: أنا قتلتُه، فقال له: كيف صنعتَ به؟ فجعل يخبره، فطعنه زيد بالرمح فقتله، وذلك بعد أن وضعت الحربُ أوزارها؛ فحمل عليه عدىّ أبوه يسبّه ويشتِم(٣) أمّه، ويقول: يابنَ المائقة، لستُ على دين محمد إن لم أدفعك إليهم، فضرب

---

(١) صفين: «فلم يمض».
(٢) صفين: «ياأبه».
(٣) صفين «ويسب أمه».

زيد فرسَه فلحِق بمعاوية ، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسَه ، فرفع عدىٌّ يديه فدعا عليه ، وقال : اللهمّ إنّ زيداً قد فارق المسلمين ، ولحِق بالملحدين (١) ، اللهم فارمِه بسهم من سهامك لا يُشوِى (٢) — [أو قال لا يخطىء — فإنّ رَمْيَتَك لا تُنْمِى] (٣) ، والله لا أكلّمه من رأسى كلمة أبدا ، ولا يُظِلّنى وإياه سقف أبدا . وقال زيد فى قتل البكرىّ :

مَنْ مبلغٌ أبناء طَيِّ بأنّنى   ثأرتُ بخالى ثُمّ لم أَتأَثَّمِ
تركتُ أخا بكرٍ ينوء بصدْرِهِ   بصِفِّينَ مخضوبَ الجبين من الدّم (٤)
وَذَكّرَنى ثأرِى غَداةَ رأيتُه   فأوْجَرْتُه رُمحِى فخرّ على الفَمِ
لقد غادرَتْ أرماحُ بكرِ بن وائلٍ   قتيلا عن الأهوال ليس بمُحْجِمِ
قتيلاً يظلّ الحىُّ يُثْنون بعدَهُ   عليه بأيدٍ مِنْ نداه وأنْعُمِ
لَقَدْ فُجِعَتْ طىٌّ بحِلْمٍ ونائلٍ   وصاحبِ غاراتٍ ونَهْبٍ مُقَسَّمِ
لقدْ كانَ خالِى ليسَ خال كمثلِه   دِفاعاً لِضَيْمٍ واحتمالا لمغْرَمِ (٥)

* * *

قال نصر : وروَى الشَّعبىّ ، عن زياد بن النَّضْر أنّ عليًّا عليه السلام بعث أربعمائة ، عليهم شُرَيح بن هانىْ الحارثىّ ، ومعه عبدالله بن عباس يصلّى بهم ، [وَ يَلِي أمورَهم] (٦) ، ومعهم أبو موسى الأشعرىّ ، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة (٧) ، ثم إنهم

---

(١) صفين : « المحلين »

(٢) أشوى : رمى فأصاب الشوى — وهى الأطراف — ولم يصب المقتل .

(٣) تكملة من كتاب صفين . ويقال : أنمى الصيد ، إذا رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فمات

(٤) صفين . « مخضوب الجيوب »

(٥) صفين ٥٩٩ — ٦٠٠ ، والمغرم : الدية .

(٦) من كتاب صفين .

(٧) فى كتاب صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فكان إذا كتب على بشىء أتاه أهل الكوفة فقالوا : ما الذى كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم ، فيقولون له : كتمتنا ما كتب به إليك ! إنما كتب فى كذا وكذا . ثم يجىء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدرى فى أى شىء جاء ، ولا فى أى شىء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لغطا ، فأنب ابن عباس أهل الكوفة بذاك وقال : إذا جاء رسول قلتم بأى شىء جاء ؟ فإن كتمكم قلتم : لم تكتمنا؟ جاء بكذا وكذا ، فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر ! » .

خلّوْا بين الحكمين، فكان رأىُ عبدالله بن قيس [أبو موسى (١)] فى عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وكان يقول : والله إن استطعت لأُحْيِيَنّ سنة عمر (٢) .

* * *

قال نصر : وفى حديث محمد بن عبيدالله ؛ عن الجرجانىّ قال: لما أراد أبو موسى المسيرَ قام إليه شُرَيْح بن هانئ ، فأخذ بيده ، وقال : ياأبا مُوسى ، إنّك قد نُصِبْتَ لأمرٍ عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُه ، ولا تُستقالُ فتنتُه (٣)، ومهما تَقُلْ من شىء عليك أو لَكَ ، يَثْبتْ حقه وتُرَ صحتُه وإنْ كان باطلا ، وإنه لا بقاءَ لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشامِ إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تَثْبِيطة أيامَ الكوفة والجمل، فإن تشفعْها بمثلها يكن الظنُّ بك يقينا ، والرجاء منك يأسا ، ثم قال له شُريح فى ذلك :

أبا مُوسَى رُميتَ بِشَرِّ خَصْمٍ　　فلا تُضِعِ العِراقَ فدتْك نَفْسِى
وأعطِ الحقّ شامَهُمُ وخُذْهُ　　فإنّ اليوم فى مَهَلٍ كأَمْسِ
وإنّ غداً يجىء بما عَلَيْهِ　　كذاك الدهر من سَعْدٍ وَنحْسِ (٤)
ولا يخدعْك عمرٌو إنّ عمراً　　عدوّ الله مَطْلَعَ كلّ شمسِ
لهُ خُدَعٌ يَحارُ العقل مِنهَا　　مُموّهةٌ مُزَخْرَفَةٌ بِلَبْسِ
فلا تَجْعَلْ مُعاويةَ بن حَرْبٍ　　كشَيْخٍ فى الحوادثِ غَيرِ نِكْسِ
هداه الله للإسلام فَرْداً　　سوى عِرسِ النَّبِىّ، وأىّ عِرْسِ! (٥)

فقال أبو موسى : ما ينبغى لقومٍ اتّهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا ، أو أجرّ إليهم حقا .

* * *

---

(١) من كتاب صفين .
(٢) كتاب صفين ٦١٤
(٣) كتاب صفين : « ولا يستقال فتقه » .
(٤) فى صفين : « يدور الأمر » .
(٥) كتاب صفين . « سوى بنت النبى » .

وروى المدائنىّ (١) فى '' كتاب صِفِّين '' قال : لما أجمعَ أهلُ العراق على طلب أبى موسى ، وأحضروه للتّحكيم على كُرْهٍ من علىّ عليه السلام ، أتاه عبدُ الله بن العباس ، وعنده وجوهُ النّاس وأشرافهم، فقال له : يا أبا موسى، إنّ الناس لم يرضَوْا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضلٍ لا تشارَكُ فيه ، وما أكثرَ أشباهَك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك؛ ولكنّ أهلَ العراق أبوْا إلّا أن يكون الحَكَم يمانياً، ورأوْا أنّ(٢) معظمَ أهلِ الشام يمانٍ ، وايمُ الله ، إنى لأظنّ ذلك شرًّا لك ولنا ؛ فإنه قد ضُمّ إليك داهية العرب، وليس فى معاوية خَلّة يستحِقّ بها الخلافة ، فإن تقذفْ بحقّك على باطله تدركْ حاجتَك منه ، وإن يطمع باطلهُ فى حقّك يدركْ حاجتَه منك. واعلم يا أبا موسى أنّ معاويةَ طليقُ الإسلام، وأنّ أباه رأسُ الأحزاب، وأنّه يدّعى الخلافةَ من غير مشورة ولا بَيْعة ، فإنْ زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدقَ ؛ استعمله عمر وهو الوالِى عليه ، بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى، ويُوجرُه ما يكره ؛ ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أكثرَ من استعملا ممّن لم يدّعِ الخلافة. واعلم أنّ لعمرٍو مع كلّ شىء يسرُّك خبيثاً يسوءك ؛ ومهما نسيتَ فلا تنسَ أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بَيْعة هدى ، وأنّه لم يقاتلْ إلا العاصين والناكثين .

فقال أبو موسى : رحمك الله ! والله مالى إمامٌ غير علىّ ، وإنى لواقف عندما رأى ، وإنّ حق الله أحبُّ إلىّ من رضاً معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلا بالله .

* * *

وروى البلاذُرىّ(٣) فى كتاب '' أنساب الأشراف '' ، قال: قيل لعبدالله بن عباس:

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى ؛ صاحب التصانيف الكثيرة فى السيرة وأخبار القبائل والخلفاء ، والفتوح والمغازى وغيرها ؛ توفى سنة ٢١٥ الفهرست لابن النديم ١٠٠–١٠٤

(٢) كذا فى ب ، ج ، وفى ا « الآن » .

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ؛ صاحب كتاب البلدان ، وأنساب الأشراف ، توفى سنة ٢٧٩ . الفهرست ١١٣ ، ومعجم الأدباء ٩ : ٨٥

مامنع عليًّا أن يبعثك مع عَمْرو يومَ التحكيم ؟ فقال : منعه حاجزُ القَدر ، ومِحْنة الابتلاء ، وقِصَر المدة ؛ أما والله لو كنت، لقعدت على مَدارج أنفاسه، ناقضا ماأبرم، ومبرما مانَقَض، أطير إذا أسَفّ ، وأسِفّ(١) إذا طار ؛ ولكن قد سَبَق قَدَر ، وبَقِيَ أسف ، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

* * *

وذكر البلاذُرىّ أيضا ، قال : قام عمرو بن العاص بالموسم ، فأطْرَى معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهِده بصِفّين ويوم أبى موسى ، فقام إليه ابن عباس، فقال : ياعمرو ، إنك بعتَ دينَك من معاوية ، فأعطيتَه مافى يدك ، ومنّاك مافى يد غيره؛ فكان الذى أخذه منك فوق الذى أعطاك ، وكان الذى أخذتَ منه دون ما أعطيتَه ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى؛ فلما صارت مصر فى يدك ، تتّبعك بالنّقض عليك والتعقّب لأمرك ، ثم بالعزل لك ؛ حتى لو أنّ نفسَك فى يدك لأرسلتَها . وذكرت يومك مع أبى موسى، فلا أراك فَخَرْت إلا بالغدر، ولا مُنِيت إلّا بالفجور والغِشّ . وذكرت مشاهدك بصِفّين ؛ فوالله ماثقلتْ علينا وطأتك، ولا نكأتْ فينا جرأتك ؛ ولقد كنت فيها طويلَ اللسان، قصيرَ البنان ، آخرَ الحرب إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت. لك يدان: يد لاتقبضها عن شرّ ، ويد لا تبسطها إلى خير، ووجهان: وجه مؤنِس ، ووجه مُوحِش ؛ ولَعمرى إنّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحرِىّ حزنه على ماباع واشترى . أما إنّ لك بيانًا ولكنْ فيكَ خطل ، وإن لك لرأيا ولكن فيك فَشَل؛ وإنّ أصغرَ عيبٍ فيك لأعظمُ عيبٍ فى غيرك.

* * *

قال نصر : وكان النجاشىّ الشاعر صديقا لأبى موسى ، فكتب إليه يحذّره من عمرو بن العاص :

يؤمّلُ أهلُ الشام عَمْراً وإنّني   لآملُ عبدَ الله عندَ الحقائق

---

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض .

وإنّ أبا موسى سيُـدرِك حَقّنا   إذا مارمى عَمْراً بإحدى البَوائِقِ (١)
فلله مايُرْمَى العِراقُ وأهـــلُه   به منــه إن لم يَرْمِهِ بالصّواعِقِ (٢)

فكتب إليه أبو موسى : إنى لأرجو أن يَنْجَلِيَ هـذا الأمرُ ، وأنا فيـه على رضا الله سبحانه .

قال نصر : ثم (٣) إن شريح بن هانئ جَهّز أبا موسى جهازا حسنا، وعظّم أمرَه فى الناس ليشرُفَ فى قومه ، فقال الأعور الشَّنّيُّ فى ذلك يخاطب شُرَيحا :

زَفَفْتَ ابنَ قَيْسٍ زِفافَ العروسِ   شُرَيْحُ إلى دُومــــةِ الْجَنْدَلِ
وفى زَفِّك الأشعرىّ البـــلاءُ   وَمَا يُقْضَ مِنْ حَادِثٍ يَنْزِلِ
وما الأشعـــرىّ بذى إرْبَةٍ   ولا صاحبِ الخُطّــةِ الْفَيْصَلِ (٤)
وَلَا آخِذاً حظّ أهـــلِ العراقِ   ولو قيـــلَ ها خُذْهُ لم يفعلِ
يحاولُ عَمْـــراً وعمرٌو له   خَدَائِعُ يأتى بهـــا من عَلِي (٥)
فإن يحـكُما بالهُـــدَى يُتْبَعَا   وإن يحكما بالهـــوى الأمْيَلِ
يـكُونا كَتَيْسَيْنِ فِى قَفْرَةٍ   أكِيلَىْ نقيفٍ من الحنظلِ (٦)

فقال شريح: والله لقد تَعَجَّلَتْ رجالٌ مَساءتنا فى أبى موسى، وطعنوا عليه بأسوأ (٧) الطّعن ، وظنّوا فيه ما الله عَصَمه (٨) منه ، إن شاء الله .

---

(١) كتاب صفين ٦٨٥ : «الصواعق» ، وبعده فيه :

وَحقّقَهُ حَـــتّى يَدِرَّ وريدُه   ونحن على ذاكم كأحنق حانقِ
على أن عمراً لا يُشَقُّ غُبـارُهُ   إذا ماجرى بالجَهْدِ أهْلُ السوابِقِ

(٢) صفين : « بالبوائق » .   (٣) صفين ٦١٦ .

(٤) صفين : « صاحب الخطبة » .   (٥) من علي ، بياء ساكنة ، لغة فى « عل ».

(٦) الحنظل المنقوف : الذى يكسر ليستخرج حبه .

(٧) كتاب صفين : « بسوء الظن »

(٨) صفين : « عاصمه » .

قال : وسار مع عمرو بن العاص شُرَحبيل بن السِّمط فى خَيْل عظيمة ؛ حتى إذا أمِن عليه خيل أهل العراق ودَّعَه ، ثم قال له : يا عمرو ؛ إنك رجلُ قريش ؛ وإنّ معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تؤتَى مِن عجز ولا مكيدة ، وقد عرفت أنى وطّأتُ هذا الأمرَ لك ولصاحبك ؛ فكنْ عند ظنّى بك . ثم انصرف وانصرف شُرَيح بن هانئ حين أمِنَ خيل أهلِ الشام على أبى موسى ، وودّعه .

وكان آخر مَنْ ودّعَ أبا موسى الأحنفُ بن قيس ، أخذ بيده ، ثم قال له : ياأبا موسى ، اعرف خَطْبَ هذا الأمر ، واعلم أنّ له ما بعده ، وأنك إن أضعت العراق فلا عِراق ؛ اتّق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك ، وإذا لقيت غدا عمرًا فلا تبدأه بالسلام ، فإنها وإن كانت سُنّة إلا أنه ليس من أهلها ، ولا تعطِه يدك فإنها أمانة ؛ وإيّاك أن يُقعِدك على صَدْر الفراش فإنها خُدعة ، ولا تَلْقَهُ إلّا وحده . واحذرْ أن يكلّمك فى بيت فيه⁽¹⁾ مخدع تُخبَأ لك فيه الرجال والشهود . ثم أراد أن يَثُوِّرَ⁽²⁾ ما فى نفسه لعلىّ ، فقال له : فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلىّ ، فليختر أهلُ العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليَختَرْ أهلُ الشام من قريش العراق من شاءوا .

فقال أبو موسى : قد سمعتُ ما قلتَ ، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علىّ .

فرجع الأحنف إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : أخرَجَ أبو موسى والله زُبْدَةَ سِقائه فى أول مَخضه ؛ لا أُرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكِر خَلْعك . فقال علىّ : الله غالب على أمره⁽³⁾ .

* * *

قال نصر : وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبى موسى فى الناس ، فبعث الصَّلَتانُ العبدىّ وهو بالكوفة إلى دُومة الجندل بهذه الأبيات :

---

(1) ا ، ج : « له » .

(2) يثور : « يختبر » ، وفى ا ، ب : « يبلو » ، وفى صفين : « يبور » وكله بمعنى .

(3) كتاب صفين ٦١٦ ، ٦١٧ .

لَعَمْرُكَ لا أُلْفِى مَدَى الدَّهرِ خالعاً   عليًّا بقول الأشعرىّ ولا عمرِو
فإن يحكما بالحقّ نقبلْه منهما   وإلّا أثرناها كراغيةِ البَكْرِ(١)
ولسنا نقولُ الدَّهرَ ذاك إليهما   وفى ذاك لو قلناهُ قاصِمَةُ الظهرِ
ولكن نقول:الأمرُ والنهىُ كلّه   إليه ، وفى كَفّيْه عاقبةُ الأمرِ
وما اليوم إلا مثل أمسِ وإنّنا   لفى وشَلِ الضَّحْضاح أو لجّة البحرِ(٢)

قال : فلما سمع النّاس قول الصَّلَتان شحَذَهم ذلك على أبى موسى ، واستبطأه القومُ وظنّوا به الظّنون ، ومكث الرَّجُلان بدُومة الجَنْدل لا يقولان شيئا . وكان سعد ابن أبى وقّاص قد اعتزّل عليًّا ومعاوية ، ونزل على ماء لبنى سُلَيْم بأرض البادية ، يتشوّف(٣) الأخبار — وكان رجلاً له بأس ورأى ومكان فى قُريش ، ولم يكنْ له هوًى فى علىّ ولا فى معاوية — فأقبل راكبٌ يُوضِع(٤) من بعيد ، فإذا هو ابنه عمر ، فقال له أبوه : مهيَمْ(٥) ؟ فقال : التقَى النّاس بصِفّين ، فكان بينهم ما قد بلغَك حتى تفانَوْا . ثم حكّموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ؛ وقد حضر ناسٌ من قريش عندها ، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ومن أهل الشورى، ومن قال له النبىّ صلى الله عليه : « اتّقُوا دَعْوَته » ، ولم تدخل فى شىء مما تكره الأمة ، فاحضُر دُومَةَ الجَنْدَل ، فإنّك صاحبها غدا . فقال : مهلاً ياعمر ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « تكون بعدى فِتْنة ، خيرُ الناس فيها التقىّ الخَفِىّ » ، وهذا أمر لم أشهد أولَه ، فلا أشهدُ آخرَه ،

---

(١) الراغية : الرغاء ، والبكر : ولد الناقة ، وفى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٣٥٢ : « راغية البكر ، من أمثال العرب ، وعن أبى عمرو . قولهم : كانت عليهم كراغية البكر ؛ أى استؤصلوا استئصالا ، يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار » .

(٢) الوشل : المقدار اليسير من الماء .

(٣) يتشوف الأخبار ، أى يتطلع إليها .

(٤) يوضع فى سيره : يسرع .

(٥) مهيم ، أى ما وراءك وما حالك ؟ وهى كلمة استفهام بلغة اليمن .

ولو كنتُ غامساً يدى فى هذا الأمر لغمستُها مع علىّ بن أبى طالب (١) ؛ وقد رأيتَ أباكَ كيف وهب حقّه من الشورى ، وكَرِه الدّخول فى الأمر . فارتحل عمر ، وقد استبان له أمرُ أبيــه. (٢)

* * *

قال نصر : وقد كان الأجنادُ (٣) أبطأتْ عَلَى معاوية ، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه فى حَرْبه : إنّ الحرب قد وضعتْ أوزارَها ، والتقى هذان الرجلان فى دُومةِ الجندل ، فاقدَموا علىّ .

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجَهْم بن حُذيفة العَدَوِىّ ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُّهرىّ ، وعبد الله بن صفوان الُجمحىّ . وأتاه المغيرة ابن شعبة ــ وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب ــ فقال له : يامغيرة ، ماترى؟ قال : يامعاوية ، لو وَسِعنى أن أنصرَك لنصرتُك ، ولــكنْ عَلَىّ أن آتيَك بأمر الرّجلين . فرحل حتى أتى دُومةَ الجندل ، فدخل عَلَى أبى موسى كالزائر له ، فقال : يا أبا موسى ، ماتقول فيمن اعتزل هذا الأمرَ وكره الدماء ؟ قال : أولئك خيرُ (٤) النّاس ، خَفّت ظهورُهم من دمائهم ، وخَمصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى عمرًا ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكَره الدماء ؟ قال : أولئك شِرار الناس ؛ لم يعرفوا حقًّا ، ولم يُنــكِروا باطلا . فرجع المغيرةُ إلى معاوية ، فقال له : قد ذُقتُ الرّجُلَيْن ، أمّا عبد الله

---

(١) فى كتاب وقعة صفين بعد هذه الكلمة : « قد رأيت القوم حملونى على حد السيف فاخترته على النار ؛ فأقم عند أبيك ليلتك هذه . فراجعه حتى طمع فى الشيخ ، فلما جنه الليل رفع صوته ليسمع ابنه ؛ فقال . . . » وذكر أبياتا مطلعها :

دَعَوْتَ أباكَ الْيَوْم واللهِ لِلّذِى دَعَانِى إليهِ القومُ والأمرُ مُقْبِلُ

(٢) صفين : ٦١٨ ــ ٦٢٠ .

(٣) وقعة صفين : « الأخبار » .

(٤) وقعة صفين : « خيار »

ابن قيس نخالعٌ صاحبَه ، وجاعلُها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهَوَاه [فى](١) عبد الله ابن عمر ،وأماعمرو بن العاص فهو صاحبك الذى تَعرف،وقد ظَنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لايرى أنّك أحقُّ بهذا الأمر منه(٢) .

* * *

قال نصر فى حديث عمرو بن شَمِر ، قال : أقبل أبو موسى على عمرو ، فقال : ياعَمْرو ، هل لك فى أمرٍ هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضًا ؟ نولِّى هذا الأمرَ عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، الذى لم يدخل فى شىء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة . قال:وكان عبدُ الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير قريبيْن يسمعان هذا الكلام ، فقال عمرو : فأين أنت ياأبا موسى عن معاوية ! فأبى عليه أبو موسى ، [قال : وشهدهم عبدالله ابن هشام ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوىّ والمغيرة ابن شعبة](١)، فقال عمرو : ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتِل مظلوماً ؟ قال : بلى ، قال : اشهدوا(٣)، ثم قال: فما يمنعُك من معاوية وهو ولى عثمان ،وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾(٤)؟ ثم إنّ بيتَ معاوية من قريش ماقد علمتَ ، فإنْ خَشيتَ أن يقول الناس : ولَّى معاوية وليستْ له سابقة ؛ فإنّ لك حجّة ؛ أن تقول : وجدته ولِيَّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة، الحسَنَ التدبير؛ وهو أخو أمّ حَبيبة أم المؤمنين ، وزوْج النبى صلى الله عليه ، وقد صحبه ، وهو أحد الصحابة . ثم عرّض له بالسلطان ، فقال له : إن هو وَلِيَ الأمر أكرَمك كرامة لم يكرِمْك أحدٌ قط مثلها ؛ فقال أبو موسى : اتّقِ الله ياعمرو ! أمّا ماذكرت من شرف معاوية ، فإنّ هذا

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) وقعة صفين ٦٢٠ ، ٦٢١

(٣) ب : « اشهد » .

(٤) سورة الإسراء ٣٣

الأمر ليس على الشّرف يُوَلّاه أهـله ؛ لو كان عَلَى الشرف كان أحقَّ الناس بهـذا الأمر أبرهة بن الصبّاح ؛ إنما هو لأهل الدين والفضل ؛ مع أنّى لو كنت أعطيه أفضلَ قريش، شرفًا لأعطيتُه علىَّ بن أبى طالب . وأمّا قولُك : إنّ معاوية ولىّ عثمان فولّه هذا الأمر ؛ فإنى لم أكن أولّيه إياه لنسبته من عثمان ، وأدَع المهاجرين الأولين ، وأمّا تعريضُك لى بالإمْرة والسلطان ؛ فوالله لو خرج لى من سلطـانه ماوليتُه ، وما كنت أرْتَشِي فى الله ، ولـكنّك إن شئَت أحيينا سُنّة عمر بن الخطاب(١) .

قال نصر : وحدّثنى عمر بن سعد عن أبى جناب أنّ أبا موسى قال غير مَرّة : والله إن استطعتُ لأُحْيِيَنّ اسم عمر بن الخطاب ، قال : فقـال عمرو بن العـاص : إن كنت إنمـا تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فمـا يمنعُك من ابنى عبـد الله ، وأنت تعرفُ فضلَه وصلاحه ! فقال : إنّ ابنَك لَرجُلُ صدق ، ولـكنّك قد غمسته فى هذه الفتنة(٢) .

* * *

قال نصر : وحـدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، عن نافع ، قال : قال أبو موسى لعمرو : ياعمرو ، إن شئت ولّينا هـذا الأمر الطيّب ابن الطيّب ، عبـدَ الله ابن عمر ، فقال له عمرو : ياأبا موسى ، إن هـذا الأمرَ لايصلح له إلا رجـل له ضِرْسٌ يأكل ويُطْعِم ، وإنّ عبد الله ليس هناك .

قال نصر : وقد كان فى أبى موسى غفلة(٣) ، فقال ابنُ الزبير لابن عمر : اذهب إلى عمرو ابن العاص فارشُه ، فقال ابن عمر : لا والله لاأرشُو عليها بشىء أبدا ماعشت ، ولـكنّه قال له : إنّ العربَ قدأسندت إليك أمرها بعدماتقارعتْ بالسيوف ، وتطاعَنت بالرماح ، فلاتردّهم فى فتنة ؛ واتّق الله(٤) .

---

(١) وقعة صفين ٦٢٢ ـ ٦٢٣ . (٢) وقعة صفين ٦٢٢ .

(٣) وكذا فى صفين ، وفى الطبرى : « ابن عمر » . (٤) وقعة صفين ٦٢٣ .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أزهر العبسىّ عن النّضر بن صالح ، قال : كنت مع شريح بن هانئ فى غزوة سِجِسْتان ، فحدثنى أن علياً عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العــاص ، وقال له : قُلْ لعمرو إذا لقيتَه : إنّ علياً يقول لك : إنّ أفضلَ الخلق عند الله مَنْ كان العملُ بالحقّ أحبّ إليه وإن نقَصه ، وإنّ أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبّ إليه وإن زاده ؛ والله ياعمرو إنّك لتعلم أين موضعُ الحقّ ، فلِمَ تتجاهل ؟ أ بِأَنْ أوتيت طمعا يسيرا صرت لله ولأليائه عدوًّا ! فكأنْ والله ماقد أوتيت قد زال عنك ، فلا تكن للخائنين خصيما ، ولا للظالمين ظهيرا . أمَا إنّى أعلم أنّ يومَك الذى أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك ، وسوف تتمنّى أنك لم تُظْهِر لى(١) عداوة ، ولم تأخذ على حكم الله رِشْوة . قال شريح : فأبلغتُه ذلك يوم لقيتُه ، فتمعّر وجهه(٢) وقال : متى(٣ كنتُ قابلا مشورة علىّ أو منيبا إلى رأيه ، أو معتدًّا بأمره٣) ! فقلت : ومايمنعُك يابنَ النابغة أن تقبلَ من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيِّهم مشورتَه ! لقد كان مَنْ هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه : فقال : إن مِثْلِى لا يكلّم مثلَك، فقلت : بأىّ أبويك ترغَبُ عن كلامى ! بأبيك الوَشِيظ(٤) أم بأمّك النابغة ! فقام من مكانه وقمت(٥) .

* * *

قال نصر : وروى أبو جناب الكلبىّ أن عمرا وأبا موسى لـمّا التقيا بدُومة الجَنْدل، أخذ عمرو يقدّم أبا موسى فى الكلام ، ويقول : إنك صحِبْتَ رسول الله صلى الله عليه قبلى ، وأنت أكبر منّى سِنًّا ، فتكلَّمْ أنت ، ثم أتكلم أنا ، فجعل ذلك سُنّة وعادة بينهما

---

(١) صفين : « لمسلم » .

(٢) وقعة صفين : « فتمعر وجه عمرو » . وتمعر : تغير وجهه غيظا .

(٣ – ٣) وقعة صفين : « متى كنت أقبل مشورة على أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ! » .

(٤) الوشيظ : الخسيس والتابع .

(٥) وقعة صفين ٦٢٤

وإنما كان مكرا وخديعة واغترارا له أن يقدّمه ، فيبدأ بخلع علىّ ثم يرى رأيه .

* * *

وقال ابن ديزيل فى '' كتاب صفّين '' : أعطاه عمرو صَدْر المجلس ، وكان لا يتكلم قبله ، وأعطاه التقدّم فى الصلاة وفى الطعام ، لا يأكل حتى يأكل ، وإذا خاطبه فإنّما يخاطبه بأجَلّ الأسماء ، ويقول له : ياصاحبَ رسول الله ؛ حتى اطمأنّ إليه ، وظَنّ أنه لا يغشّه .

* * *

قال نصر : فلما انمخضَتِ الزُّبدة بينهما ، قال له عَمْرو : أخبرنى مارأيك ياأبا موسى؟ قال : أرى أن أخلع هذين الرجُلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من شاءوا ، فقال عمرو : الرأى والله مارأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلّم أبو موسى ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ رأيى ورأى عمرو قد اتّفق على أمرٍ نرجو أن يُصلح الله به شأنَ هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدّم ياأبا موسى ؛ فتكلّم ، فقام ليتكلّم ، فدعاه ابن عباس ، فقال له : ويحك ! والله إنّى لأظنّه خَدَعك ؛ إن كنتُما قد اتّفقتُما على أمرٍ فقدّمه قبلَك ليتكلّم به ثم تكلّمْ أنت بعده ؛ فإنّه رجل غَدّار ، ولاآمن أن يكون قد أعطاك الرّضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قمتَ به فى النّاس خالفك ـ وكان أبو موسى رجلا مُغفَّلا ـ فقال : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا !

فتقدم أبو موسى ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد نظرنا فى أمرِ هذه الأمّة ، فلم نر شيئاً هو أصلحُ لأمرِها ولا ألَمّ لشَعْثها من ألّا تتباينَ أمورُها، وقد أجمع رأيى ورأىُ صاحبى على خَلْع علىّ ومعاوية ، وأن يُستقبلَ هذا الأمرُ ، فيكونَ شورى بينَ المسلمين ، يولّون أمورَهم مَنْ أحبّوا ، وإنى قد خلعتُ عليا ومعاوية ؛ فاستقبلوا

أموركم ، وولُّوا مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص فى مقامه : فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبَه ، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه ، وأثبتُ صاحبى معاوية فى الخلافة ، فإنه ولىّ عثمان ، والطالب بدمِه ، وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفّقك الله قد غدرت وفجرت ! إنّما مثلُك ﴿ كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تَحْمِلْ عليه يَلهثْ أوْ تتركْهُ يَلْهَثْ ﴾(١) . فقال له عمرو : إنما مثلك ﴿ كمثلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسْفاراً ﴾(٢) .

وحمل شُريح بن هانئ على عمرو فقنّعه بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شُريح فقنّعه بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهما ، فكان شُريح يقول بعد ذلك : ما ندمتُ على شىء ندامتى ألا أكون ضربتُ عمرا بالسيف بدلَ السوط ، أتى الدهر بما أتى به !

والتمس أصحابُ علىّ عليه السلام أبا موسى فركِب ناقته ، ولحِق بمكة . وكان ابن عباس يقول : قَبح الله أبا موسى ! لقد حذّرته وهديتُه إلى الرأى فما عَقَل . وكان أبو موسى يقول : لقد حذّرنى ابنُ عباس غدْرَة الفاسق ، ولكننى اطمأننت إليه ، وظننت أنّه لا يؤثر شيئا على نصيحة الأمة (٣) .

* * *

قال نصر : (٤ ورجع عمرٌو إلى منزله من دُومة الجندَل ، فكتب إلى معاوية ٤) :

أتتكَ الخلافةُ مَزْفُوفَةً هَنيئًا مريئًا تَقِرّ العيُونا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة الجمعة ٥

(٣) كتاب صفين ٦٢٧ ـ ٦٢٩ مع تصرف .

(٤ ـ ٤) العبارة كما وردت فى كتاب صفين ٦٣٠ : « ولما فعل عمرو مافعل ، واختلط الناس ، رجع إلى منزله ، فجهز راكبا إلى معاوية يخبره بالأمر من أوله إلى آخره ، وكتب فى كتاب على حده ».

تُزَفُّ إليكَ زِفَافَ العروس(١)   بأهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدّارِعِينَا
وَمَا الأشْعَرِىُّ بِصَلْدِ الزِّنَادِ   ولا خامِلِ الذِّكْرِ فى الأشْعَرِينا
وَلَكِنْ أُتيحَتْ لهُ حَيَّةٌ   يَظَلّ الشُّجَاعُ لَهَا مُسْتَكِينا
فَقَالُوا وقلتُ وَكُنْتُ امْرأً   أُجَهْجِهُ بالخَصْمِ حَتَّى يَلِينا(٢)
فَخُذْهَا ابنَ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِها(٣)   فَقَدْ دَافَعَ اللهُ ما تحذرُونا
وَقَدْ صَرَفَ اللهُ عَنْ شَامِكُمْ   عَدُوًّا مبينا وَحَرْباً زَبُونا(٤)

قال نصر : فقام سعد بن قيس الهَمْدانىّ ، وقال : والله لو اجتمعتُما على الهُدَى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه ، وما ضلالُكما بلازم لنا ، وما رجعتما إلا بما بَدَأْتما به ، وإنّا اليوم لَعلى ما كنا عليه أمس .

وقام كُردوس بن هانئ مغضباً ، فقال(٥) :

ألا ليت مَنْ يَرْضَى مِنَ النّاسِ كُلِّهِمْ   بعمرٍو وعبد الله فى لُجّةِ البَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ اللهِ لا حُكْمَ غَيْرِهُ   وبالله رَبًّا والنبىِّ وبالذِّكْرِ
وبالأصْلَعِ الهادِى عَلِىٍّ إمامِنا   رَضِينا بِذاكَ الشَّيْخِ فى العُسرِ واليُسْرِ
رَضِينا بِهِ حيًّا ومَيْتاً ، وإنَّهُ   إمامُ هُدًى فى الحكْمِ والنَّهْىِ والأَمْرِ
فَمَنْ قالَ لاَ قُلْنَا بَلَى إن أمرَهُ   لأفْضَلُ ما نُعْطَاهُ فى ليلةِ القَدْرِ
وَما لابْنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ فى رِقابِنَا   وما بَيْنَنَا غَيْرُ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

---

(١) كتاب صفين « كزف العروس » .
(٢) أجهجه : قال الجوهرى : «جهجهت بالسبع ، صحت به ليكف» .
(٣) كتاب صفين : « على بأسها »
(٤) كتاب صفين : « عدوا شنيا » . وحرب زبون : تزبن الناس ، أى تصدمهم وتدفعهم .
(٥) كتاب صفين ٦٣٠ والعبارة هناك : « وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ، وتكلم كردوس بن هانئ ، فقال : أما والله إنى لأظنك أول راض بهذا الأمر ياأخا ربيعة ، فغضب كردوس فقال » .

وَضربٍ يُزيلُ الهـامَ عَنْ مُستَقَرِّه   وَهَيهَاتَ هَيهَاتَ الرِّضا آخِرِ الدَّهْرِ !
أبت لِيَ أشياخُ الأراقمِ سُبَّـــةً   أُسَبُّ بِهـا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي ٱلْقَبْرِ (١)

وتـكلّم يزيد بن أسَدٍ القسرىّ ـ وهو مِن قوّاد معاوية ـ فقال : يأهل العراق ، اتقوا الله ؛ فإنّ أهونَ ماتردُّنا وإياكم إليه الحرب ما كنّا عليـه بالأمس ؛ وهو الفناء ؛ وقد شَخصتِ الأبصارُ إلى الصّلح ، وأشرفَتِ الأنفسُ على الفَناء ، وأصبح كلّ امرئ يبـكى عَلَى قَتيل ؛ مالـكم رضيتم بأوّلِ أمرِ صاحبكم وكرهتم آخره ! إنّه ليس لحكم وحدَكم الرّضا .

قال : وقال بعض الأشعريّين لأبى موسى (٢) :

أبا مُوسَى خُدِعتَ وَكُنتَ شَيْخاً   قَرِيبَ ٱلْقَعْرِ مَدْهُوشَ ٱلْجَنَانِ
رَمَى عمرٌو صَفَاتَكَ يابنَ قَيْسٍ   بِأَمْرٍ لا تَنُوءُ بِـــهِ اليَـدَانِ
وَقَدْ كُنّا نُجَمْجِمُ عَنْ ظُنُـونٍ   فصرّحَتِ الظُّنُون عن العيـــانِ
فَعَضَّ الـكفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمَـاذَا   يردّ عليـــك عَضُّكَ بالبَنَانِ !

قال : وَشَمِتَ أهلُ الشام بأهْلِ العراق . وقال كَعْبُ بن جُعَيل شاعرُ معاوية :

كأنّ أبـا موسى عَشِيَّـــةَ أذْرُحٍ   يطوفُ بلقمانَ الحكِيمِ يُوَارِبُهْ (٣)
وَلَمَّا تـلاقَوْا فى تُرَاثِ مُحَمَّــدٍ   نَمَتْ بابن هِنْدٍ فى قُرَيْشٍ مَنَاسِبُهْ (٤)
سَعَى بابن عَفَّانٍ لِيُـــدْرِكَ ثَأْرَهُ   وَأَوْلَى عِبَـــــادِ الله بالثّأرِ طَالبُهْ

---

(١) الأراقم : أحياء فى تغلب ، والسبة : العار .

(٢) فى كتاب صفين : « فتشاءم عمرو وأبو موسى من ليلته ، فإذا ابن عم لأبى موسى يقول » .

(٣) كتاب صفين ٦٣٠ ومعجم البلدان ١ ـ ١٦٢ ؛ وأذرح : بلد فى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز ؛ وكان فيها أمر الحـكمين فى أحد القولين ، وثانيهما فى دومة الجندل . ويعنى بلقمان الحـكيم عمرو بن العاص .

(٤) كتاب صفين وياقوت : « مضاربه » .

وَقَدْ غَشِيَتْنَا فى الزُّبَيْرِ غَضَاضَةٌ   وَطَلْحَةُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِ نَوَادِبُهْ
فَرَدَّ ابنُ هِنْدٍ مُلْكَهُ فى نِصَابِهِ   وَمَنْ غَالَبَ الأَقْدَارَ فاللهُ غَالِبُهْ
وَمَا لابنِ هِنْدٍ من لؤىٍّ بن غالبٍ   نظيرٌ وإنْ جاشَتْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ
فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّامِ وافٍ سَنَامُهُ   وهَذَاكَ مُلْكُ القَوْمِ قدْ جُبَّ غارِبُهْ
يُحَاوِلُ عَبْدُ اللهِ عَمْراً وإنَّهُ   لَيَضْرِبُ فى بَحْرٍ عَرِيضٍ مَذَاهِبُهْ
دَحَا دَحْوَةً فى صَدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ   إلى أَسْفَلِ الجبّ الظنون كَوَاذِبُهْ(١)

* * *

قال نصر : وكان علىّ عليه السلام لما خدع عمرو أباموسى بالكوفة ، كان قد دَخَلَها منتظراً مايحكم به الحكَمان ؛ فلما تَمّ على أبى موسى ماتَمّ من الحيلة ، غَمّ ذلك عليًّا وساءه ، ووَجَم له ، وخطب الناس ، فقال :

« الحمدُ للهِ وإن أَتى الدّهر بالَخطْب الفَادِح ، والحدَث الجليل... » الخطبة التى ذكرها الرضىّ رحمه الله تعالى ؛ وهى التى نحن فى شرحها ، وزاد فى آخرها بعد الاستشهاد ببيت دُريد : « أَلَا إنّ هذين الرَّجُلين اللَّذَيْن اخترتموهما قد نَبَذا حُكم الكتاب ، وأحيَيَا ماأمات ، واتّبَع كلّ واحدٍ منهماهواه ، وحَكم بغير حُجَّة ولابيِّنة ولا سُنّة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يُرْشِدِ الله . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم كذا » .

---

(١) الظنون : البئر لايدرى أفيها ماء أم لا ، وفى كتاب صفين :

* إلى أَسْفَلِ المهوى ظنونٌ كَوَاذِبُهْ *

فرد عليه رجل من أصحاب على فقال :

غَدَرْتُم وَكَانَ الْغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً   فَمَا ضَرَّنَا غَدْرُ اللَّئِيم وَصَاحِبُهْ
وَسَمَّيْتُمُ شَرَّ الْبَرِيَّةِ مُؤْمِناً   كَذَبْتُمْ فَشَرُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ كاذِبُهْ

قال نصر : فكان علىّ عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب ، وفرغ من الصّلاة وسلّم ، قال : اللهمّ العن معاوية ، وعمرا ، وأبا موسى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبدَ الرحمن بن خالد، والضحاكَ بن قيس، والوليدَ بن عُقْبة ؛ فبلغ ذلك معاوية ،فكان إذا صلّى لعن عليًّا، وحسنا ، وحسينا ، وابنَ عباس ،وقيس بن سعد بن عبادة ، والأشتر.

وزاد ابن ديزيل فى أصحاب معاوية أبا الأعور السُّلَمِىّ .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا مُوسى كتب من مكّة إلى علىّ عليه السلام : أمّا بعدُ، فإنّى قد بلغنى أنّك تلعنُنى فى الصّلاة ويؤمّن خَلْفَك الجاهلون، وإنّى أقول كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

وروى ابن ديزيل ، عن وَكِيع ، عن فضل بن مرزوق، عن عطية ، عن عبدالرحمن ابن حَبيب ، عن علىّ عليه السلام ، أنه قال : « يؤتَى بى وبمعاوية يوم القيامة ، فنجىء ونختصم عند ذى العَرْش ، فأيّنا فَلَج فَلَج أصحابُه(٢) » .

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القارئ ،عن أبيه ، قال : سئل علىّ عليه السلام عن قَتْلى صفين ، فقال : إنّما الحساب علىّ وعلى معاوية .

وروىَ أيضا عن الأعمش ، عن موسى بن طريف، عن عَبَاية(٣)، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وهو يقول : أنا قسيمُ النار ، هذا لى وهذا لك .

وروى أيضاً عن أبى سعيد الخُدرِىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، دَعْوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مرقَتْ منهم مارقة ؛ يقتلهم أوْلى الطائفتين بالحقّ » .

---

(١) سورة القصص ١٧

(٢) فلج ، أى غلب .

(٣) عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج الأنصارى .

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدّثنا سعيد بن كثير، عن عُفَير، قال: حدثنا ابن لَهِيعة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش الصَّنْعانيّ، قال: جئت إلى أبي سعيد الخُدْريّ، وقد عَمِيَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحبا بك يا حنش المصريّ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «يخرج ناس يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيَهم، يمرُقُون من الدِّين كما يمرُق السهم من الرميّة، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قُذَذه[1] فلا يرى شيئاً؛ سبق الفرثَ والدم، يَصْلَى بقتالهم أوْلى الطائفتين بالله»، فقال حنش: فإن عليًّا صَلِيَ بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليًّا أن يكون أولى الطائفتين بالله!

* * *

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد: حضرتُ الحكومة، فلمّا كان يوم الفَصْل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أُذُنَيْه؛ حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمتُ أن الأمر لا يتمّ لنا مادام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلّمت ابنَ عباس كلمة استطعمتُه جوابها فلم يجب، فكلّمته أخرى فلم يُجب، فكلمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حِوارك الآن، فجبهته، وقلت: يابَني هاشم، لا تتركون بأوكم[2] وكِبْرَكم أبدا! أما والله لولا مكانُ النبوّة لكان لي ولك شأن. قال: فحمِيَ وغضب، واضطرب فِكْرُه ورأيُه، وأسمعني كلاما يسوء سماعه، فأعرضتُ عنه، وقمت فقعدت إلى جانب عَمْرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التِّقوالة[3]، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك. قال:

---

[1] القذذ جمع قذة، وهي: ريش السهم. [2] البأو: التفاخر.

[3] التقوالة: الكثير القول.

فذُهِل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرَّجُلين، حتى قام أبو موسى، فخلع عليًّا.

* * *

وروى الزبير بن بكار فى ''الموفقيّات''، ورواه جميع الناس ممن عُنِى بنقل الآثار والسِّيَر، عن الحسن البصرىّ [قال]: أربع خصال كنّ فى معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرَها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنَه يزيد؛ سكّيراً خمّيرا؛ يلبس الحرير ويَضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر»، وقتله حُجْر بن عدىّ وأصحابه؛ فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر!

وروى فى ''الموفقيات'' أيضاً الخبر الذى رواه المدائنىّ، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبى موسى، وقوله: إن الناس لم يرتضوك لفضلٍ عندك لم تشارَك فيه.. وذكر فى آخره: فقال بعض شعراء قريش:

وَاللهِ مَا كَلّم الأقوامَ مِنْ بَشَرٍ ... بَعْدَ الوَصِىّ علىّ كابنِ عبّاسِ
أوْصَى ابنَ قَيْسٍ بأمرٍ فيه عصمتُه ... لو كان فيها أبو موسى مِنَ النّاسِ
إنى أخاف عليــه مكرَ صاحِبه ... أرْجُو رَجاءَ مخوفٍ شِيبَ باليَاسِ

* * *

وذكر الزّبير أيضاً فى ''الموفَّقيات'' أن يزيد بن حُجَيّة التيمىّ، شهد الجمل وصِفّين ونَهْروان مع علىّ عليه السلام، ثم ولّاه الرَّىّ ودَسْتَبَى (١)، فسرَق من أموالها، ولَحِق بمعاوية، وهجا عليًّا وأصحابَه، ومدح معاوية وأصحابه، فدعا عليه علىّ عليه السلام، ورفع أصحابُه أيديَهم فأمّنوا، وكتب إليه رجل من بنى عمه كتابا يقبّح إليه

---

(١) دستبى، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء والباء المقصورة: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الرى وهمدان. ياقوت.

ماصنع ، وكان الكِتاب شعرا ، فكتب يزيد بن حُجَيّة إليه : لو كنتُ أقول شعرا لأجبتُك ، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث ؛ لاترون معهنّ شيئا مما تحبّون ؛ أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ؛ حتى إذا دخلتم بلادَهم ، وطعنتموهم بالرماح ، وأذقتموهم ألم الجراح ، رفَعوا المصاحفَ فسخِرُوا منكم ، وردّوكم عنهم ؛ فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدّة أبدا . والثانية أنّ القوم بعثوا حَكَما ، وبعثتم حكما ؛ فأمّا حكَمُهم فأثبتَهم ، وأما حكَمُكم فخلعكم ، ورجع صاحبُهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين، ورجعتم متضاغنين. والثالثة أن قرّاءكم وفقهاءكم وفُرسانكم خالفوكم ، فعدوتم عليهم، فقتلتموهم . ثم كتب فى آخر الكتاب بيتين لعقّان بن شُرَحبيل التميمىّ :

أحببتُ أهلَ الشام مِنْ بَيْنِ المَلاَ ... وبكيتُ مِنْ أسفٍ عَلَى عُثمانِ
أرضاً مُقَدَّسةً وقوماً منهمُ ... أهلُ اليقين وتابعو الفُرْقَانِ

وذكر أبوأحمد العسكرى(١) فى كتاب " الأمالى " أن سعدَبن أبى وقّاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلِّم عليه بإمْرَةِ المؤمنين ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقولَ فى سلامك غير هذا لقلت، فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نؤمِّرك، كأنك قد بهجْت(٢) بما أنت فيه يامعاوية ! والله مايسرّنى ما أنت فيه وأنِّى هَرَقْت المِحْجمة(٣) دم. قال : ولكنّى وابن عمّك عليا ياأبا إسحاق قد هَرَقْنا أكثر من محجمة ومحجمتين ، هلمّ فاجلس مَعِى على السرير ، فجلس معه ، فذكر له معاوية اعتزالَه الحرب، يعاتبه ، فقال سعد : إنما كان مثلى ومثلُ الناس كقوم أصابتهم ظُلْمة، فقال واحد منهم لبعيره إخْ ، فأناخ حتى أضاء له الطريق

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى أبو أحمد ؛ أحد أعلام اللغة والأدب ، أخذ عن ابن دريد وطبقته ؛ وصاحب كتاب التصحيف توفى سنة ٣٨٠ : (إنباه الرواة ١ : ٣١٠).

(٢) بهج بالشىء : فرح به . (٣) المحجمة : قارورة الحجام .

فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق(١)، ما في كتاب الله « إخ » وإنما فيه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) ؛ فوالله ما قاتلتَ الباغية ولا المبغيّ عليها . فأخمه .

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في "كتاب صفين"، قال : فقال سعد: أتأمرني أنْ أقاتل رجلا قال له رسول الله صلى الله عليه: « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي » ! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك ؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية : لو كنتُ سمعتُ هذا لما قاتلته .

---

(١) أبو إسحاق كنية سعد بن أبي وقاص . (٢) سورة الحجرات ٩

(٣٦)

ومن خطبة له عليه السلام فى تخويف أهل النّهروان :

الأصلُ :

فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ .

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ ؛ سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ ؛ وَلَمْ آتِ – لا أَبَا لَكُمْ – بُجْراً ، وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ ضُرًّا .

* * *

الشَّرحُ :

الأهضام : جمع هَضْم ؛ وهو المطمئنّ من الوادى . والغائط : ماسَفَل من الأرض .

واحتَبَلكم المقدار : أوقعكم فى الحِبالة .

والبُجْر: الداهية والأمر العظيم. ويروى: «هُجْرا» ، وهو المستقبَح من القول. ويروى «عُرًّا» ، والعُرّ : قروح فى مشافِر الإبل ، ويستعار للداهية .

* * *

[أخبار الخوارج]

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتِلِى الخوارج من الثوابِ ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله . وفى الصِّحاح المتّفق عليها أنّ

أقوال أهل البرية، صلاتُهم أكثر من صلاتكم، وقراءتهم أكثر من قراءتكم، لا يجاوز إيمانُهم تراقيَهم — أو قال: حناجرهم — يمرُقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمِيّة، فاقتلوهم، فإنّ قتلَهم أجر لمن قتلَهم يوم القيامة ».

* * *

وفى ”كتاب صفين“ أيضا للمدائنىّ عن مسروق، أنّ عائشة قالت له لما عرفت أنّ عليا عليه السلام قتل ذا الثُّدَيّة: لعن الله عمرو بن العاص! فإنه كتب إلىّ يخبرنى أنه قتله بالإسكندرية، ألا إنّه ليس يمنعنى ما فى نفسى أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه، يقول: « يقتله خير أمتى من بعدى ».

* * *

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى ”التاريخ“، أنّ عليًّا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثيرٌ من الخوارج، وتخلّف منهم بالنُّخَيْلة وغيرها خَلْق كثير لم يدخلوها، فدخل حُرْقوص بن زُهَير السَّعْدىّ، وزُرْعة بن البُرْج الطائىّ — وهما من رءوس الخوارج — على علىّ عليه السلام، فقال له حُرْقوص: تُبْ من خطيئتك، واخرُج بنا إلى معاوية نجاهده، فقال له علىّ عليه السلام: إنى كنت نهيتُكم عن الحكومة فأبيتم، ثم الآن تجعلونها ذنبا! أما إنّها ليست بمعصية، ولكنّها عَجْز من الرأى، وضَعف فى التدبير، وقد نهيتُكم عنه، فقال زُرْعة: أما والله لئن لم تَتُبْ من تحكيمك الرجال لأقتلنّك(١) أطلُبُ بذلك وجه الله ورضوانه، فقال علىّ عليه السلام: بؤسًا لك ما أشقاك! كأنّى بك قتيلاً تَسْفِى عليك الرياح! قال زُرْعة: وَدِدْتُ أنه كان ذلك(٢).

قال: وخرج علىّ عليه السلام يخطُب النّاسَ فصاحوا به من جَوانب المسجد:

---

(١) الطبرى: « قاتلتك ».

(٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٧٢.

لا حُكم إلا لله ، وصاح به رَجُلٌ [منهم واضع إصبعه فى أذنيه ، فقال](١) : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢) ، فقال له علىّ عليه السلام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(٣) .

* * *

وروى ابن ديزيل فى كتاب " صفين " ، قال: كانت الخوارج فى أوّل ما انصرفت عن رايات على عليه السلام تُهدِّد الناس قتلا ، قال : فأتت طائفةٌ منهم على النّهر إلى جانب قَرية ، فخرج منها رجل مذعوراً آخذاً بثيابه ، فأدركوه فقالوا له : رَعَبْنَاك ؟ قال: أجل ؛ فقالوا له : قد عرَفْنَاك ، أنت عبد الله بن خَبّاب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه ، قال : نعم ، قالوا: فما سمعت من أبيك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه ؟

قال ابن ديزيل : فحدّثهم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « إنّ فتنةً جائية ، القاعدُ فيها خير من القائم . . . » الحديث .

وقال غيره : بل حدّثهم: « إنّ طائفة تمرُق من الدين كما يمرُق السَّهم من الرميّة ، يقرءون القرآن ، صلاتهم أكثر من صلاتكم ...» الحديث . فضربوا رأسه ، فسال دمُه فى النهر ، ما امذقرّ ، (أى ما اختلط بالماء) ، كأنّه شِراك ، ثم دَعَوْا بجارية له حُبلى فبقرُوا عمّا فى بطنها .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال: عزَم علىّ عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرُورية(٤) ، وكان فى أصحابه منجِّم فقال له : ياأمير المؤمنين ، لا تَسِر فى هذه الساعة ،

---

(١) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٢) سورة الزمر ٦٥

(٣) سورة الروم ٦٠ والخبر فى الطبرى ٥ : ٧٣

(٤) الحرورية : نسبة إلى حروراء : قرية على ميلين من الكوفة ؛ كان اجتماع الخوارج فيها . فنسبوا إليها .

وسِرْ على ثلاث ساعات مضيْن من النهار ؛ فإنّك إنْ سرت فى هذه الساعة أصابك وأصحابَك أذًى وضُرٌّ شديد ، وإن سرتَ فى الساعه التى أمرتُك بها ظَفِرت وظهرت ، وأصبْت ما طلبْتَ . فقال له علىّ عليه السلام : أتدرِى ما فى بَطْن فَرَسى هذه ؛ أذكر هو أم أنثى ؟ قال : إن حسَبتُ عَلِمْت ، فقال علىّ عليه السلام : مَنْ صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ... ﴾ (١) الآية ، ثم قال عليه السلام :

إن محمدا صلى الله عليه ما كان يدّعى علم ما ادّعيت علمه ؛ أتزعُم أنك تَهْدِى إلى الساعة التى يصيب النفعَ مَنْ سارفيها ، وتصرِفُ عن الساعة التى يَحيق السوء بمن سار فيها ! فمَنْ صدّقك بهذا فقد استغنَى عن الاستعانة بالله جَلّ ذكره فى صَرْف المكروه عنه . وينبغى للموقِن بأمْرِك أن يولّيَكَ الحمد دونَ الله جلّ جلاله ، لأنّك بزعمك هَدَيْته إلى الساعة التى يُصِيب النفعَ مَنْ سار فيها ، وصرفتَه عن الساعة التى يَحِيق السوء بمَنْ سار فيها ؛ فمن آمن بك فى هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضِدًّا ونِدًّا . اللهم لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا ضُرّ إلا ضُرّك ، ولا إله غيرك . ثم قال : نُخالف ونسيرُ فى الساعة التى نُهيتَنا عنها ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيّها النّاسُ ، إياكم والتعلّم للنّجوم إلّا ما يُهْتدَى به فى ظُلُمات البر والبحر ، إنما المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالكافر ، والكافر فى النار . أما والله لئن بَلغَنى أنّك تعمل بالنّجوم لأخلدنّك السجنَ أبدا ما بقِيتُ ، ولأحرِمنّك العطاءَ ما كان لى من سلطان .

ثم سار فى الساعة التى نهاهُ عنها المنجِّم ، فظفِرَ بأهل النّهر وظهر عليهم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرَنا بها المنجّم لقال الناس : سارَ فى الساعة التى أمَر بها المنجّم فظفِر وظهر ، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه منجّم ، ولا لنا من بعده ؛ حتى فتح الله علينا بلاد كِسْرَى وقَيْصر . أيها الناس ، توكّلوا على الله وثِقُوا به ، فإنه يكفى ممّن سواه .

---

(١) سورة لقمان ٣٤ .

قال : فروى مُسلم الضَّبى عن حَبّة العُرَنِىّ ، قال : لما انتهينا إليهم رمَوْنا ، فقلنا لعلىّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد رمَوْنا ، فقال لنا : كُفّوا ، ثم رموْنا ، فقال لنا عليه السلام : كُفّوا ، ثم الثالثة ، فقال : الآن طابَ القتالُ ، احملوا عليهم .

وروى أيضا عن قَيْس بن سعد بن عبادة أنّ عليا عليه السلام لما انتهى إليهم ، قال لهم : أقيدونا بدم عبد الله بن خَبّاب ، فقالوا : كُلّنا قتله ، فقال : احملوا عليهم .

* * *

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابُ " الأوائل " أنّ أول من قال : « لا حُكْمَ إلا لله » ، عُرْوة بن حُدَيْر ، قالها بصِفّين ؛ وقيل : زيد بن عاصم المحارِبىّ . قال : وكان أميرُهم أوّلَ ما اعتزلوا ابنَ الكَوّاء ، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبىّ — وكان أحد الخطباء — فقال لهم عند بيعتهم إياه : إيّاكم والرأىَ الفَطير(١) ، والكلامَ القَضِيب(٢) ، دعوا الرأى يَغِبُّ(٣) ، فإن غُبُوبه يكشف للمرء عن قُضّته(٤) ، وازدحام الجواب مَضِلّة للصواب ، وليس الرأى بالارتجال ، ولا الحزم بالاقتضاب، فلا تدعونّكم السلامة من خطأ مُوبِق ، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته . إنّ الرأى ليس بنَهْنَهِىّ(٥) ، ولا هو ما أعطتك البديهة ، وإنّ خَمِيرَ الرأى خيرٌ من فطيره ؛ وربّ شىء غابُّه خير من طَرِيّه ، وتأخيرُه خير من تقديمه .

* * *

وذكر المدائنىّ فى كتاب " الخوارج " قال : لما خرج علىّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابه ممن كان على مقدّمته يركُض ؛ حتى انتهى إلى علىّ عليه السلام ،

---

(١) الرأى الفطير : الذى يبدو بديها من غير تروية ، خلاف الخمير .

(٢) الكلام القضيب : المرتجل .

(٣) يغب ، أى يمضى عليه وقت .

(٤) القضة : العيب .

(٥) النهنهى : نسبة إلى النهنه ، وهو الثوب الرقيق النسج .

فقال : البشرى يا أميرَ المؤمنين ! قال : ما بُشراك ؟ قال : إنّ القوم عَبروا النهر لَمّا بلغهم وصولُك ، فأبْشِر ؛ فقد منحك الله أكتافَهم ؛ فقال له : آللّه أنت رأيتَهم قد عبروا ! قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات ، فى كلّها يقول : نعم ، فقال علىّ عليه السلام : والله ما عَبَروه ولن يعبرُوه ؛ وإن مصارعهم أَدُون النطفة ؛ والذى فَلَق الحبّة ، وبرأ النسمة ، لن يبلغوا الأَثْلاث ولا قصر بَوَازِن ، حتى يقتلَهم الله ، وقد خاب من افترى . قال : ثم أقبل فارس آخر يركُض ، فقال كقول الأول ، فلم يكترث علىّ عليه السلام بقوله ، وجاءت الفرسان تركُض ، كلّها تقول مثلَ ذلك ؛ فقام علىّ عليه السلام فجالَ فى متن فرَسه . قال : فيقول شابّ من الناس : والله لأكونَنّ قريبا منه ، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سِنانَ هذا الرمح فى عينه ؛ أيدّعى علم الغيب ! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كَسَروا جفونَ سيوفهم ، وعرقبُوا خيلهم ، وجَثَوْا على رُكَبهم ، وحكّموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زَجل فنزل ذلك الشابّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت شككتُ فيك آنفا ، وإنى تائب إلى الله وإليك ، فاغفر لى ، فقال علىّ عليه السلام : إن الله هو الذى يغفر الذنوب ، فاستغفره .

***

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى "الكامل" قال : لما واقفهم علىّ عليه السلام بالنّهروان ، قال : لاتبدءوهم بقتال حتى يبدءوكم ، فحمل منهم رجل على صفّ علىّ عليه السلام ، فقتل منهم ثلاثة ؛ ثم قال :

أُقتّلُهُمْ وَلَا أَرَى عَليًا ولو بدا أوجرتُه الخَطِّيّا (١)

فخرج إليه علىّ عليه السلام فضربه ، فقتله ، فلما خالطه سيفُه ، قال : يا حبّذا الرَّوْحة إلى الجنة ! فقال عبد الله بن وهب : والله ماأدرى إلى الجنة أم إلى النار ! فقال رجل منهم

---

(١) أوجرته الخطى : طعنته بالرمح .

من بنى سَعْد : إنما حضرتُ اغترارا بهذا الرجل – يعنى عبد الله – وأراه قد شكّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألفٌ منهم إلى جهة أبى أيوب الأنصارى ؛ وكان على ميمنة علىّ عليه السلام، فقال علىّ عليه السلام لأصحابه: احملوا عليهم ؛ فوالله لا يُقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة(١). فحمل عليهم فطحنهم طحنا، قُتل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية(٢).

* * *

وذكر أبو العباس – وذكر غيره أيضا – أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لما وجّه إليهم عبدَ الله بن عباس ليناظرَهم قال لهم : ما الذى نَقَمتم على أميرِ المؤمنين؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميرا، فلما حكّم فى دين الله خَرَج من الإيمان؛ فليتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ إليه(٣)؛ قال ابن عباس: ما ينبغى لمؤمن لم يشُبْ إيمانه بشكّ أنْ يُقِرَّ على نفسه بالكفر، قالوا : إنه حكّم، قال: إنّ الله أمر بالتحكيم فى قتل صَيْد، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾(٤)، فكيف فى إمامةٍ قد أشكلتْ على المسلمين! فقالوا : إنه حُكِم عليه فلم يَرْض، فقال : إنّ الحكومة كالإمامة، ومتى فَسَق الإمام وَجَبت معصيتُه؛ وكذلك الحكَمان لَمّا خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض : اجعلوا احتجاجَ قريش حُجّةً عليهم؛ فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(٥)، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾(٦).

قال أبو العباس : ويقال: إنّ أولَ مَنْ حكّم عروة بن أُدَيّة – وأُديّة جدّة له جاهلية – وهو عروة بن حُدَيْر، أحد بنى ربيعة بن حنظلة. وقال قوم : أولُ من حكّم رجل من بنى

---

(١) فى الكامل : « ولا يفلت » .

(٢) الكامل ٣ : ١٨٧ .

(٣) ب : « نعد له » .

(٤) سورة المائدة ٩٥

(٥) سورة الزخرف ٥٨

(٦) سورة مريم ٩٧ ، والخبر فى الكامل ٣ : ١٦٥ .

محارب بن خَصَفَة بن قَيْس بن عَيْلان ، يقال له سعيد . ولم يختلفوا فى اجتماعهم(١) على عبدالله بن وهب الراسبيّ ، وأنه امتنع عليهم ، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلّا به ، فكان إمام القوم ، وكان يُوصف برأى . فأمّا أوّلُ سيف سُلّ من سيوف الخوارج فسيف عُروة بن أُدَيّة ، وذلك أنه أقبل على الأشعث ، فقال له : ماهذه الدنيّة ياأشعث ؟ وماهذا التحكيم ؟ أشرطٌ أوثقُ من شَرط الله عزّ وجلّ ! ثم شَهَر عليه السيفَ ، والأشعثُ مولٍّ ؛ فضرب به عَجُز بغلته .

قال أبو العباس : وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نَجَوْا من حرب النَّهْروان ، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية ، ثم أُتِىَ به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبى بكر وعمر فقال : خيرا ، فقال له : فما تقولُ فى أمير المؤمنين عثمان وفى أبى تراب ؟ فتولّى عثمانَ ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل فى أمر علىّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكُفر ، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبًّا قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه ؛ فقال له : أوّلك لِزِنْية(٢) وآخرك لِدَعْوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربّك . فأمر به فضُربتْ عنقه ، ثم دعا مولاه فقال له : صفْ لى أمورَه ، قال : أأُطنب أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال : ماأتيته بطعام بنهار قطّ ، ولافرشت له فراشا بليل قطّ(٣) !

قال أبو العباس : وسبب تسميتهم الحرورية أنّ عليا عليه السلام لما ناظرَهم بعد مناظرة ابن عباس إياهم ، كان فيما قال لهم : ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفعُوا المصاحف قلت لكم : إنّ هذه مكيدةٌ ووَهْن(٤) ، وأنهم لو قصدوا إلى حُكْم المصاحف لأتونى ، وسألونى(٥) التحكيم ! أفتعلمون أنّ أحداً كان أكرهَ للتحكيم منى ؟ قالوا : صدقت ، قال : فهل تعلمون أنّكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أنّ حُكْمَهما نافذ ماحكما

---

(١) الكامل : « إجماعهم » .

(٢) لزنية ، يشير إلى ما كان من أبى سفيان فى جاهليته من غشيانه أمه سمية .

(٣) الكامل ٣ : ١٧٩ — ١٨١

(٤) ب : « مكيدة وهن » .

(٥) الكامل : « ثم سألونى » .

بحكم الله ، فمتى خالفاه ، فأنا وأنتم من ذلك برآء ، وأنتم تعلمون أنّ حُكْمَ الله لا يعدُونى؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وكان معهم فى ذلك الوقت ابن الكَوّاء(١) ، قال : وهذا من قَبْل أن يذبحوا عَبْد الله بن خَبّاب ، وإنما ذبحوه فى الفُرْقة الثانية بكَسْكر(٢) ، فقالوا له : حكّمت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأنّا كنا كَفَرْنا ، ولكنا الآن تائبون فأقِرّ بمثل ما أقررنا به ، وتُبْ ننهضْ معك إلى الشام ، فقال : أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر بالتحكيم فى شِقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب كأرنب يساوى نصف درهم ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ! فقالوا له : فإنّ عَمْراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : « هذا ما كتبه عبد الله علىّ أمير المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت : « علىّ بن أبى طالب » ، فقد خلعت نفسك ، فقال : لى فى رسول الله صلى الله عليه أسوةٌ حين أبَى عليه سُهَيل بن عمرو أن يكتب : « هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُهيل بن عمرو » ، وقال له : لو أقررتُ بأنك رسولُ الله ما خالفتُك ، ولكنى أقدّمك لفضلك ؛ فاكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال لى : يا علىّ ، امحُ « رسول الله » ، فقلت : يا رسول الله ، لا تشجّعُنى نفسى(٣) على محو اسمك من النبوة ، قال : فقضى عليه ، فمحاه بيده ، ثم قال : « اكتب محمد بن عبد الله » ، ثم تبسم إلىّ وقال : يا علىّ ، أما إنك ستسام مثلها فتعطِى ، فرجع معه منهم ألفان من حَرُوراء وقد كانوا تجمّعوا بها ، فقال لهم علىّ : ما نسمّيكم ؟ ثم قال : أنتم الحَرُورية ، لاجتماعكم بحَرُوراء(٤) .

* * *

وروى جميعُ أهل السِّيَر كافةً أنّ عليا عليه السلام لما طَحن القوم طلب ذا الثُّدَيّة طلباً

---

(١) ابن الكواء ، هو عبد الله بن الكواء ؛ من بنى يشكر بن بكر بن وائل .

(٢) كسكر : كورة بين الكوفة والبصرة .

(٣) الكامل : « لا تسخو نفسى » . (٤) الكامل ٣ : ١٨١ ، ١٨٢ .

شديداً ، وقلَب القتلَى ظَهْراً لبطن ، فلم يقدر عليه ، فساءه ذلك ، وجعل يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبْت ، اطلبوا الرجل ، وإنه لفى القوم ؛ فلم يزل يتطلّبه حتى وجده ، وهو رجل مُخْدَجُ اليد (١) ، كأنها ثديٌ فى صدره .

* * *

وروى إبراهيم بن ديزيل فى كتاب " صفين " عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، قال : لما شَجَرهم علىّ عليه السلام بالرّماح ، قال : اطلبوا ذا الثُّدَيّة ، فطلبوه طلبا شديدا ، حتى وجدوه فى وَهْدَةٍ من الأرض تحت ناسٍ من القتلى ، فأُتِىَ به ، وإذا رَجُلٌ على ثَدْيه مثل سَبَلات (٢) السّنّور ، فكبّر علىّ عليه السلام ، وكَبّر الناس معه سرورا بذلك .

وروى أيضا عن مسلم الضّبىّ عن حَبّة العُرَنىّ ، قال : كان رجلا أسود مُنْتِن الريح ، له ثدى كثدى المرأة ، إذا مُدّت كانتْ بطول اليد الأخرى ، وإذا تركت اجتمعت وتقلّصتْ ، وصارت كثدى المرأة ، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة ، فلما وجدوه قطعوا يده ، ونصبوها على رُمْح . ثم جعل علىّ عليه السلام يُنادِى : صدق الله وبلّغ رسوله ؛ لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غَرَبت الشمس أو كادت .

وروى ابن دِيزيل أيضا ، قال : لما عِيلَ (٣) صبرُ علىّ عليه السلام فى طلب المخدَج ، قال : ائتونى ببغلة رسول الله صلى الله عليه ، فركبها واتبعه الناس ، فرأى القتلَى ، ويقول : اقلِبوا ، فيَقلِبون قتيلا عن قتيل ، حتى استخرجوه ، فسجد علىّ عليه السلام .

وروى كثير من الناس أنّه لما دعا بالبغلة ليركبها ، قال : ائتونى بها فإنها هادية ، فوقفتْ به على المخدَج ، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين .

وروى العوّام بن حَوْشب عن أبيه ، عن جدّه يزيد بن رُوَيم ، قال : قال علىّ عليه

---

(١) مخدج اليد ، أى ناقص اليد .

(٢) السبلة : ماعلى الشارب من الشعر ، وجمعه سبلات .

(٣) عيل صبره : أعوزه الصبر .

السلام : يُقتَلُ اليومَ أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الثُّدَيَّة ، فلما طُحِن القومُ ورام استخراج ذِي الثُّدَيَّة فأتبعه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قَصَبة، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه ، وقال : اطرح على كلّ قتيل منهم قَصَبة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديه ، وهو راكب خَلْفي، والناس يتبعونه حتى بَقِيَتْ في يدي واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه أربَد ، وإذا هو يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، فإذا خريرُ ماء عند موضع دالية ، فقال : فَتِّش هذا ففتشته ، فإذا قتيل قد صار في الماء ، وإذا رجلُه في يدي ، فجذبتها ، وقلت : هذه رِجْلُ إنسان ، فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرِّجْلَ الأخرى ، وجررناه حتى صار عَلَى التراب، فإذا هو المخدَّج ، فكبّر عليّ عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد ، فكبّر الناس كلهم .

وقد روى كثير من المحدّثين أن النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوما : «إنّ منكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن ، كما قاتلت عَلَى تنزيله » ، فقال أبو بكر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا » ، فقال عمر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا ، بل خاصف النعل » ، وأشار إلى عليّ عليه السلام .

* * *

وقال أبو العباس في "الكامل" : يقال : إنّ أوّلَ مَنْ لَفظ بالحكومة ولم يُشِدْ (١) بها رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ ، من بني صَرِيم ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويعرف بالبُرَك ؛ وهو الذي ضرب آخرا معاوية عَلَى أَلْيَتِه ، يقال : إنه لما سمع بذكر الحكمين ، قال : أيحكّم أميرُ المؤمنين الرجالَ في دين الله ! لا حُكْم إلا لله ، فسمعه سامع ، فقال : طَعَن والله فأنفذ .

قال أبو العباس : وأول من حكّم بين الصّفين رجلٌ من بني يَشْكُر بن بكر

---

(١) لم يشد ، من أشاد به ، إذا رفع صوته .

ابن وائل ، كان من أصحاب علىّ عليه السلام ، فحمل عَلَى رجل منهم فقتله غِيلة ، ثم مرق بين الصَّفين يُحكِّم ، وحمل عَلَى أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع إلى ناحية علىّ عليه السلام ، فخرج إليه رجل من هَمْدان فقتله ، فقال شاعر هَمْدان :

وَمَا كَانَ أَغْنَى اليَشْكُرِىَّ عن الَّتِى   تَصَلَّى بِهَا جَمْراً من النَّارِ حَامِيَا
غَداة ينادى والرماحُ تَنُوشُهُ   خلعتُ عليًّا بادئًا ومعاويا (١)

قال أبو العباس: وقد روى المحدّثون (٢) أن رجلا تلا بحضرة علىّ عليه السلام: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (٣) ، فقال علىّ عليه السلام : أهلُ حَرُوراء منهم .

قال أبو العباس: ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا اختلافَ فيه أنه قاله : - وكان يردّده - أنهم لما ساموه أنه يُقِرّ بالكفر ، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام ، فقال: أبعدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقّه فى الدين أرجع كافرا ! ثم قال :

يا شاهِدَ اللهِ عَلَىَّ فاشْهَدِ   أَنِّى عَلَى دِينِ النبىِّ أَحْمَدِ
* مَنْ شَكَّ فى اللهِ فإنِّى مُهْتَدِ (٤) *

وذكر أبو العباس أيضاً فى " الكامل " أن عليًّا عليه السلام فى أولِ خُروج القوم عليه ، دعا صعصعة بن صُوحان العبدىّ - وقد كان وجّهه إليهم - وزياد بن النَّضر الحارثىّ ، مع عبدالله بن عباس ، فقال لصعصعة : بأىّ القوم رأيتَهم أشدَّ إطافة (٥)؟ قال: بيزيد بن قيس الأرحبىّ ، فركب علىّ عليه السلام إلى حَرُوراء ، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مَضْرِب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبل

---

(١) تنوشه : تتناوله .
(٢) فى الكامل : « وجاء فى الحديث » .
(٣) سورة الكهف ١٠٤ .
(٤) الكامل ٣ : ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٥) إطافة ، مصدر أطاف بالشىء ؛ إذا أحاط به .

عَلَى الناس ، فقال : هذا مَقَامُ مَنْ فَلَجَ (١) فيــه فَلَجَ يوم القيامة . ثم كلّمهم وناشدهم ، فقالوا : إنّا أذنبْنا ذنبا عظيما بالتّحكيم ، وقد تُبْنا ، فتب إلى الله كما تُبْنا نَعُدْ لك . فقال علىّ عليه السلام : أنا أستغفر الله من كلّ ذنب ، فرجعوا معــه وهم ستة آلاف ، فلما استقروا بالـكوفة أشاعوا أنّ عليًّا عليه السلام رجع عن التحكيم ، ورآه ضلالا ، وقالوا : إنّما ينتظر أميرُ المؤمنين أن يسمَن الـكُراع (٢) وتُجْبَى الأموال ، ثم ينهضُ بنا إلى الشام. فأتى الأشعثُ عليًّا عليــه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيتَ الحـكومة ضلالا والإقامة عليها كفرا ، فقام علىّ (٣) عليه السلام يخطب ، فقال : مَن زعم أنّى رجعت عن الحـكومة فقد كَذَب ، ومَنْ رآها ضَلالا فقد ضلّ ؛ فخرجت حينئذ الخوارجُ من المسجد فحـكّمت (٤) .

* * *

قلت : كلّ فساد كانَ فى خلافة علىّ عليه السلام ، وكلّ اضطراب حَدَث فأصلُه الأشعث ، ولولا محاقّته (٥) أمير المؤمنين عليه السلام فى معنى الحـكومة فى هذه المرّة لم تـكن حربُ النّهرَوان ، ولـكانَ أميرُ المؤمنين عليــه السلام ينهضُ بهم إلى معاوية ، ويملك الشام ؛ فإنه صلوات الله عليه حاول أن يَسلُك معهم مسلك التّعريض والمواربة ؛ وفى المَثل النبوىّ صلوات الله على قائله : « الحرب خُدْعة » ، وذاك أنّهم قالوا له : تُبْ إلى الله

---

(١) عبارة الـكامل : « من فلج فيه فلج يوم القيامة ؛ أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ! قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنـكم أكرهتمونى حتى قبلتها ! قالوا : اللهم نعم ، قال : فلم خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد لك ، فقال على . . . » ، والفلج : الظفر والانتصار .

(٢) الـكراع : اسم للخيل

(٣) الـكامل : « فخطب على الناس » .

(٤) الـكامل ٣ : ٢١٠ – ٢١٢ .

(٥) المحاقة : أن يقول كل واحد من الطرفين : « أنا أحق » ؛ هذا أصلها ، والمراد المحاجة والمجادلة .

مما فعلت ، كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملة مُرْسَلة يقولها الأنبياء والمعصومون ، وهى قوله : « أستغفر الله من كلّ ذنب » ، فرضُوا بها وعدّوها إجابةً لهم إلى سؤلهم ، وصفَتْ له عليه السلام نيّاتُهم ، واستخلصَ بها ضمائرَهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافا بكفر أو ذنب ، فلم يتركْه الأشعثُ ، وجاء إليه مستفسرا وكاشفا عن الحال ، وهاتكا سِتْر التورية والكناية ، ومُخرجا لها من ظلمة⁽١⁾ الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسِد التدبير ، ويُوغِر الصدور ، ويعيد الفتنة ؛ ولم يستفسرْه عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دَخَن⁽٢⁾ ، ولا ترقيقا عن صَبُوح⁽٣⁾ ، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما فى نفسه ، ولا يترك الكلمة عَلَى احتمالها ، ولا يطويها عَلَى غرّها⁽٤⁾ ، فخطب بما صَدَع به عن صورة ما عنده مجاهرة ، فانتقض ما دبّره ، وعادت الخوارج إلى شُبْهتها الأولى ، وراجعوا التحكيم والمُروق ؛ وهكذا الدول التى تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال ، يُتاحُ لها أمثال الأشعث من أولى الفساد فى الأرض ، ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾⁽٥⁾ .

* * *

قال أبو العباس : ثم مضى القومُ إلى النّهروان ، وقد كانوا أرادوا المضىّ إلى المدائن ، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا فى طريقهم مُسلما ونصرانيًّا ، فقتلوا المسلمَ لأنّه عندهم كافر ؛ إذ كان على خلاف معتقدهم ، واستوصَوْا بالنصرانىّ ، وقالوا : احفظوا ذمّة نبيّكم⁽٦⁾

---

(١) ب : « مظلمة » ، تصحيف ، صوابه من ا ، ج .

(٢) هدنة على دخن مثل ، والهدنة فى الأصل : اللين والسكون ، ويطلق على المصالحة . والدخن : تغير الطعام . وانظر الميدانى ٢ : ٣٨٢ .

(٣) أصل المثل : « عن صبوح ترقق » ، والصبوح : مايشرب صباحا ، وترقيق الكلام تزيينه ، يضرب لمن كنى عن شىء ويريد غيره . وانظر الميدانى ٢ : ٢١ .

(٤) أصل المثل : « طويت الثوب على غره » أى كسره .

(٥) سورة الأحزاب ٦٢ .

(٦) الكامل : ٣٠ : ٢١٢

قال أبو العباس : ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل فى رُفقةٍ فأحسوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودَعُونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابُك ؟ فقال: قومٌ مشركون مستجيرون بكم ، ليسمعوا كلامَ الله ، ويفهموا حدوده ، قالوا : قد أجَرْناكم ، قال : فعلّمُونا ، فجعلوا يعلّمُونهم أحكامهم ، ويقول واصل : قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامْضُوا مصاحَبين ، فقد صرتم(١) إخواننا ، فقال : بل تُبْلغُونَنا مأمننا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾(٢) ، قال : فينظر(٣) بعضُهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن(٤) .

* * *

قال أبو العباس : ولقِيَهم عبد الله بن خَبّاب فى عنقه مصحف ، على حِمار ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إنّ هذا الذى فى عُنُقك لَيأمرُنا بقتلك ، فقال لهم : ما أحياه القرآن فأحيُوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نخلة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعا . وعرض لرجل منهم خِنزِيرٌ فضربه فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، وأنكَرُوا قتل الخِنزير ، ثم قالوا لابن خَبّاب : حَدِّثنا عن أبيك ، فقال : إنى سمعتُ أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ستكون بعدى فتنة

---

(١) الكامل : « فإنكم إخواننا » .

(٢) سورة التوبة ٦ .

(٣) الكامل : « فنظر بعضهم الى بعض » .

(٤) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بَدَنُه ، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فكُنْ عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل» ، قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ قبل التحكيم ، وفى عثمان فى السنين الستّ الأخيرة ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ بعد التحكيم والحُكومة ؟ قال : إنّ عليا أعلم بالله وأشدُّ توقِّيًا على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنّك لست تتّبع الهدى ، إنما تتبعُ الرجال على أسمائهم ، ثم قرّبوه إلى شاطئ النهر ، فأضجعوه فذبحوه(١) .

قال أبو العباس : وساوَمُوا رجلا نصرانيًّا بنخْلة له ، فقال : هى لكم ، فقالوا : ما كنا لنأخذها إلّا بثمن ، فقال : واعجباه ! أتقتلون مثل عبد الله بن خَبّاب ، ولا تقبلون جَنَا نخلة إلا بثمن(١) !

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى ، قال : طُعن واحدٌ من الخوارج يوم النّهروان ، فمشى فى الرمح ، وهو شاهر سيفه ، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله ، وهو يقرأ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾(٢) .

وروى أبو عبيدةَ أيضا ، قال : استنطقهم علىّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خَبّاب ، فأقرّوا به ، فقال : انفردوا كتائبَ لأسمع قولكم كتيبة كتيبة ، فتكتّبوا كتائبَ ، وأقرّت كلُّ كتيبة بمثل ما أقرّتْ به الأخرى ؛ من قتل ابن خَبّاب ، وقالوا : ولنقتلنّك كما قتلناه ؛ فقال علىّ : والله لو أقرّ أهلُ الدنيا كلّهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم ؛ ثم التفت إلى أصحابه ، فقال لهم : شُدّوا عليهم ؛ فأنا أوّل من يشدّ عليهم . وحَمَل

---

(١) الكامل ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) سورة طه ٨٤ .

بذى الفقار حملةً منكرةً ثلاث مرات ، كلّ حملةٍ يضرب به حتى يعوجَّ متْنُه ، ثم يخرج فيسوّيه بركبتيه ، ثم يحمل به حتى أفناهم .

وروى محمد بن حبيب ، قال : خَطَب علىّ عليه السلام الخوارج يوم النّهر ، فقال لهم : نحن أهلُ بيت النبوّة ، وموضع الرسالة ، ومختلَف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، ومعدِن العلم والحكمة ، نحن أفق الحجاز ، بنا يلحَق البطىء ، وإلينا يرجع التائب ؛ أيها القومُ ، إنى نذيرٌ لكم أن تُصبِحُوا صَرْعى بأهْضام هذا الوادى ... إلى آخر الفصل .

◆

(٣٧)

ومن كلام له عليه السلام يجرى مجرى الخطبة :

الأَصْلُ :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا ، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا ، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا ، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً ، وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً ، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا ، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا .

كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ ؛ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ ، وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ ؛ اَلذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ .

رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَّمْنَا لِلّهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي ؛ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ؛ وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه فصول أربعة ، لا يمتزج بعضها ببعض ، وكلّ كلام منها ينحو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى التقطها من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر ، قاله بعد وقعة النّهروان ، ذكر فيه حاله منذ توفّى رسول الله صلى الله

عليه وآله ، وإلى آخر وقت ؛ فجعل الرضىّ رحمه الله تعالى ما التقطه منه سَرْداً ، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصدا واحدا .

* * *

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله : « واستبددت برهانها » ؛ يذكُر فيه مقاماتِه فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أيامَ أحداث عثمانَ ، وكَوْن المهاجرين كلّهم لم ينكِروا ولم يُواجهوا عثمانَ بما كان يواجِهُهُ به وينهاه عنه ؛ فهذا هو معنى قوله : « فقمت بالأمر حين فَشِلوا » ، أى قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه . والفَشَل : الخَوَر والجُبْن .

قال : « ونطقتُ حين تمتعوا » ، يقال: تمتع فلان ؛ إذا تردّد فى كلامه من عِىّ أو حَصَر (١) .

قوله : « وتطلّعتُ حين تقبّعوا » ، امرأةٌ طُلَعَة قُبَعَة ، تَطلع ثم تقبَع رأسها ، أى تدخله كما يقبَعُ القنفذُ ، يدخُل برأسه فى جلده ، وقد تقبّع الرجُل ، أى اختبأ ، وضدّه تطلّع .

قوله : « وكنت أخفضَهم صوتا ، وأعلاهم فَوْتا » يقول : علوتُهم وفتّهم وشأوتُهم سَبْقا ، وأنا مع ذلك خافِض الصوت ، يشير إلى التواضع ونفى التكبّر .

وقوله : « فطرت بعنانها ، واستبددت برهانها » يقول : سبقتهم ، وهذا الكلامُ استعارة من مُسابقة خَيْل الحلْبة . واستبددت بالرهان ، أى انفردت بالخَطَر (٢) الذى وقع التراهُنُ عليه .

* * *

الفصل الثانى فيه ذكر حاله عليه السلام فى الخلافة بعد عثمان ، يقول : كنتُ لمّا وَليتُ الأمر كالجبل لا تحرّكه القواصِف ، يعنى الرياح الشديدة ، ومثله العواصف .

والمهمز : موضع الهمز ؛ وهو العيب ، وكذاك المغمز .

---

(١) ج : « من عى وحصر » .

(٢) الخطر : السبق الذى يترامى عليه فى الرهان .

ثم قال : « الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوىّ عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه » ؛ هذا آخر الفصل الثانى ، يقول : الذليل المظلوم أقُوم بإعْزازه ونَصْره ، وأقوّى يدَه إلى أن آخذ الحقّ له ، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التى كان عليها قبل أن أقومَ بإعزازه ونصره ، والقوىّ الظالم أستضعِفه وأقهرُه وأذلّه إلى أن آخذَ الحقّ منه ، ثم يعود إلى الحالة التى كان عليها قَبْل أن أهتضِمَه ، لاستيفاء الحق .

* * *

الفصل الثالث من قوله : « رضينا عن الله قضاءه » ، إلى قوله : « فَلاَ أَكُونُ أوّلَ مَنْ كَذَب عليه » ؛ هذا كلامٌ قاله عليه السلام لمّا تفرّس فى قوم من عسكره أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبىّ صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحِم والغائبات ، وقد كان شكّ منهم جماعة فى أقواله ؛ ومنهم مَنْ واجهه بالشكّ والتهمة(١) .

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام علىّ بالأمور الغَيبيّة]

روى ابن هلال الثقفىّ فى كتاب " الغارات " عن زكريا بن يحيى العطّار ، عن فُضَيْل ، عن محمد بن علىّ ، قال : لما قال علىّ عليه السلام : سَلُونى قَبْل أن تفقِدونى ، فوالله لا تسألونى عن فئة تُضِلّ مائة ، وتَهدِى مائةً إلا أنبأتكم بناعِقها وسائقها ، قام إليه رجل فقال : أخبِرْنى بما فى رأسى ولِحْيَتى من طاقة شَعْر ، فقال له على عليه السلام : والله لقد حدّثنى خليلى أنّ على كلّ طاقة شَعْرٍ من رأسك مَلَكاً يلعنُك ، وأنّ على كلّ طاقة شعر مِنْ لحيتك شيطانا يُغويك ؛ وأنّ فى بيتك سَخْلا يقتلُ ابنَ رسول الله صلى الله عليه — وكان ابنُه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلا يحبو — وهو سنان بن أنس النَّخَعِىّ .

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالىّ ، عن سويد بن غفلة أنّ عليا عليه السلام ، خطب ذات يوم ، فقام رجل من تحت مِنْبره ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّى مررتُ بوادى

---

(١) انظر الكلام عن الفصل الرابع ص ٢٩٥ .

القُرى ، فوجدتُ خالد بن عُرْفطة قد مات ، فاستغفر له ، فقال عليه السلام : والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حِمار . فقام رجل آخر من تحت المِنْبر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حِمار ، وإنى لك شيعة ومحبّ ، فقال: أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنّك لحبيب بن حمار ؟ فقال : إى والله ! قال : أما والله إنّك لحامِلُها ولتحمِلنّها ، ولتدخُلَنّ بها من هذا الباب ـ وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة .

قال ثابت : فوالله ما مِتّ حتى رأيتُ ابنَ زياد ، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن علىّ عليه السلام ، وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته ، فدخل بها من باب الفيل .

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البَجَلىّ ، قال : أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهىّ ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : قال على عليه السلام على المنبر : ما أحدٌ جرت عليه المواسى إلا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؛ فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له : فما أنزل الله تعالى فيك ؟ فقام الناس إليه يضربونه ؛ فقال : دعوه ، أتقرأ سورة هود؟ قال: نعم ، قال: فقرأ عليه السلام: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾(١) ثم قال : الذى كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه ، والشاهد الذى يتلوه أنا .

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جُبير ، قال : خطب علىّ عليه السلام فقال فى أثناء خطبته : « أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، لا يقولها أحدٌ قبلى ولا بعدى إلا كذب ؛ ورِثْتُ نبىَّ الرحمة ، ونكحْتُ سيدة نساء هذه الأمة ، وأنا خاتم الوصيين » .

---

(١) سورة هود ١٧ .

فقال رجل من عَبْس : [و] مَنْ لا يُحسِنُ أن يقول مثل هذا ! فلم يرجع إلى أهله حتى جُنّ وصُرِع ، فسألوهم : هل رأيتم به عَرَضا قبل هذا ؟ قالوا : ما رأينا به قبل هذا عَرَضا.

وروى محمد بن جبلة الخيّاط ، عن عِكْرمة ، عن يزيد الأحمسىّ أنّ عليا عليه السلام كان جالسا فى مسجد الكوفة ، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حُرَيث ؛ إذ أقبلت امرأة مختمِرة لا تُعرف ، فوقفت فقالت لعلىّ عليه السلام : يامَنْ قتل الرجال ، وسفك الدماء وأيتمَ الصبيان، وأرمل النساء ! فقال عليه السلام : وإنّها لهى هذه السَّلْقَلَقة الجِلعة المَجِعةُ ، وإنها لهى هذه؛ شبيهة الرجال والنساء ، التى ما رأتْ دماً قطّ ؛ قال : فولّت هاربة منكِّسة رأسَها ، فتبعها عمرو بن حريث ، فلما صارت بالرَّحبة ، قال لها : والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل ، فادخلِى منزلى حتى أهبَ لك وأكسوَك ، فلما دخلتْ منزلَه أمر جواريَه بتفتيشها وكشْفها ونَزْع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها ، فبكتْ وسألتْه ألا يكشِفها ؛ وقالت: أنا والله كما قال ، لى رَكَب النساء ، وأُنثيان كأنثى الرجال ؛ وما رأيت دماً قطّ . فتركها وأخرجها. ثم جاء إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : إنّ خَليلى رسولَ الله صلى الله عليه أخبرنى بالمتمرِّدين علىّ من الرجال والمتمرِّدات من النساء إلى أن تقومَ الساعة .

قلت : السَّلْقَلَقة : السَّليطة، وأصله من السَّلْق وهو الذئب، والسِّلْقة : الذئبة. والجِلعة المَجِعة : البذيئة اللسان . والرَّكَب : مَنبِت العانة .

وروى عثمان بن سعيد ، عن شريك بن عبد الله ، قال : لما بلغ عليًّا عليه السلام أنّ الناسَ يتّهمونه فيما يذكره من تقديم النبىّ صلى الله عليه وآله وتفضيله [إياه] على النّاس، قال: أنشدُ اللهَ مَنْ بَقِىَ ممّن لقى رسول الله صلى الله عليه وسمع مقاله فى يوم غَدير خُمّ(١) إلّا قام

---

(١) خم : واد بين مكة والمدينة عند الجحفة ، به غدير عرف به .

فشهد بما سمع ، فقام ستة ممن عن يمينه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم ، وهو رافع بيدىْ علىّ عليه السلام : « مَنْ كنتُ مولاه فهذا علىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعاد من عاداه ، وانصُر مَنْ نصره ، واخذُل مَنْ خذله ، وأحبّ مَنْ أحبّه ، وأبغِضْ مَنْ أبغضه » (١) .

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التّيمىّ ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، قال: قام أعْشَى هَمْدان (٢) — وهو غلام يومئذ حَدَث — إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب ويذكر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماأشبه هذا الحديث بحديث خُرافة ! فقال على عليه السلام : إنْ كنتَ آثماً فيما قلتَ ياغلام ، فرماك الله بغلام ثَقيف ! ثم سكت ، فقام رجال فقالوا : ومَنْ غلامُ ثَقيف يا أمير المؤمنين؟ قال : غلام يملِك بلدتَكم هذه لا يتركُ لله حرمةً إلا انتهَكها ، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه ، فقالوا : كم يملكُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين إن بلغها ، قالوا : فيُقتَلُ قتلا أم يموت موتا ؟ قال : بل يموتُ حَتْفَ أنفه بداء البَطْن ، يثقب سريره لكثرة مايخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيتُ بعينى أعْشَى باهلة ، وقد أحضِر فى جملة الأسرى الذين أسِروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدى الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شعرَه الذى يحرِّض فيه عبدَ الرحمن على الحرب ، ثم ضرب عنقه فى ذلك المجلس .

وروى محمد بن على الصوّاف ، عن الحسين بن سفيان ، عن أبيه ، عن شُمير بن سَدير الأزدىّ ، قال : قال علىّ عليه السلام لعمرو بن الحمِق الخُزاعىّ : أين نزلت ياعمرو؟ قال:

---

(١) نقله المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) ، وتحدث عن طرقه هناك .

(٢) أعشى همدان ، أسره الحجاج ثم قتله ؛ وانظر الأغانى ٦ : ٥٨ — ٦٢ .

فى قومى ، قال: لا تنزلنّ فيهم، قال : فأنزلُ فى بنى كِنانة جيرانِنا؟قال : لا ، قال : فأنزل فى ثَقِيف ؟ قال : فما تصنع بالمَعرّة والجرة ؟ قال : وماهما ؟ قال: عُنُقان من نار ، يخرجان من ظهر الـكوفة ، يأتى أحدهما على تميم وبكر بن وائل ؛ فقلّما يُفلِت منه أحدٌ ، ويأتى العنق الآخر ، فيأخذ على الجانب الآخر من الـكوفة ، فقلَّ مَنْ يصيبُ منهم، إنما يدخل الدارَ فيحرِق البيتَ والبيتين . قال : فأين أنزِل؟قال : انزِل فى بنى عمرو بن عامر ، من الأزد ـ قال : فقال قوم حضروا هـذا الـكلام : ماتراه إلّا كاهنـا يتحدّث بحديث الـكَهَنَة ـ فقال : ياعمرو ، إنك المقتول بعدى ؛ وإنّ رأسَك لمنقول ؛ وهو أوّلُ رأسٍ ينقل فى الإسلام ؛ والويل لقاتِلك ! أما إنّك لا تنزل بقوم إلا أسلموك برُمّتك(١) ؛ إلا هذا الحىّ من بنى عمرو بن عامر من الأزد ، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخْذُلوك ؛ قال : فوالله مامضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحمِق فى خلافة معاوية فى بعض أحياء العرب، خائفا مذعورا ، حتى نزل فى قومه من بنى خُزاعة ، فأسلموه ، فقتِل وحُمِل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام ؛ وهو أوّلُ رأس حُمِل فى الإسلام من بلد إلى بلد .

* * *

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدىّ عن حَبّـة العرنىّ ، قال : كان جويرية بن مِسهر العبدىّ صالحا ، وكان لعلى بن أبى طالب صديقا ، وكان علىّ يحبّه، ونظر يوما إليه وهو يسير ، فناداه: ياجويرية، الحقْ بى ، فإنى إذا رأيتك هَوِيتُك؛ قال إسماعيل بن أبان: فحدّثنى الصبّاح ، عن مسلم عن حَبّة العُرنىّ، قال : سرنا مع على عليه السلام يوما فالتفت فإذا جُويرية خَلْفه بعيدا ، فناداه : ياجُويرِية ، الحقْ بى لا أبالك ! ألا تعلم أنّى أهواك وأحِبّك! قال : فركَض نحوه، فقال له : إنى محدِّثك بأمور فاحفظها، ثم اشتركا فى الحديث سرًّا ، فقال له جُويرية : ياأمير المؤمنين ، إنى رجلٌ نسِىّ (٢)، فقال له : إنى أعيدُ عليك

---

(١) أسلموك برمتك ، أى أسلموك بجميع ما معك .

(٢) النسى : الـكثير النسيان .

الحديثَ لتحفظه ، ثم قال له فى آخر ماحدّثه إياه : ياجويرية ، أحبِب حبيبنَا ما أحبّنا ، فإذا أبغضنا فأبغِضْه ، وأبْـغِض بغيضَنا ما أبغضَنا ، فإذا أحبّنا فأحبّه .

قال : فـكان ناسٌ ممن يشكّ فى أمر على عليه السلام يقولون : أتراه جعل جُوَيرية وصيّه كما يدّعى هو من وصية رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له ، حتى دخل على علىّ عليه السلام يوما ، وهو مضطجع ، وعنده قوم من أصحابه ، فناداه جويرية : أيّها النائم ، استيقظ ، فلتُضْرَبنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ، قال : فتبسّم أميرُ المؤمنين عليه السلام ؛ قال : وأحدّثك ياجويرية بأمرك ؛ أما والّذى نَفْسى بيده لتُعتَلَنّ(١) إلى العُتُلّ الزنيم ، فليقطعنّ يدَك ورِجْلَك وليصلبنّك تحت جذع كافر ، قال : فوالله مامضت إلا أيّام على ذلك حتى أخذ زياد جُويرية ، فقطع يدَه ورِجْلَه وصَلَبه إلى جانب جذع ابن مكعبر ، وكان جِذْعا طويلا ؛ فصلَبه على جِذْع قصير إلى جانبه .

وروى إبراهيم فى كتاب " الغارات " ، عن أحمد بن الحسن المِيثمىّ ، قال : كان ميثم التّمار مولى علىّ بن أبى طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بنى أسد ، فاشتراه علىّ عليه السلام منها وأعتقه ، وقال له : مااسمك ؟ فقال : سالم ، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه أخبرنى أنّ اسمَك الّذى سماك به أبوك فى العجم « مِيثَم » ، فقال : صـدَق الله ورسوله ، وصدقتَ ياأمير المؤمنين، فهو والله اسمى ، قال : فارجع إلى اسمك ، ودَعْ سالما، فنحن نـكنيك به ؛ فـكناه أبا سالم . قال : وقد كان قد أطلعه علىّ عليه السلام على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فـكان ميثم يحدّث ببعض ذلك ، فيشكّ فيه قوم من أهل الـكوفة ، وينسُبون علياعليه السلام فى ذلك إلى المخرقة(٢) والإيهام والتدليس؛ حتى قال له يوما بمحضَرٍ من خَلْق كثير من أصحابه ، وفيهم الشاكّ والمخلِص : ياميثم ،

---

(١) يقال : عتله عتلا ؛ إذا أخذه بمجامعه وجره جرا عنيفا .

(٢) المخرقة : اختلاق الـكذب .

إنك تُؤخَذ بعدى وتُصلب ، فإذا كان اليوم الثانى ابتدر مُنْخِراك وفمك دماً ، حتى تَخضب لحيتك ، فإذا كان اليومُ الثالث طعِنْت بحربة يُقضى عليك ، فانتظِر ذلك . والموضع الذى تصْلَب فيه على باب دار عمرو بن حريث ؛ إنك لعاشر عشرة أنت أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهّرة — يعنى الأرض — ولأرِيَنَّك النَّخْله التى تُصْلَب على جِذْعها ، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين ، وكان مِيثم يأتيها ، فيصلِّى عندها ، ويقول : بورِكتِ مِنْ نخلة لكِ خُلِقتُ ، ولى نبتِّ ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علىّ عليه السلام ، حتى قُطِعت ، فكان يَرْصُد جذعها ، ويتعاهده ويتردّد إليه ، ويبصره ، وكان يَلْقَى عمرو بن حريث ، فيقول له : إنّى مجاورُك فأحسِنْ جوارى ، فلا يعلم عمرو مايريد ، فيقول له : أتريدُ أن تشترِىَ دار ابن مسعود ، أم دار ابن حكيم !

قال : وحجّ فى السَّنَة التى قتل فيها ، فدخل على أمّ سلمة رضى الله عنها ، فقالت له : مَنْ أنت ! قال : عِراقىّ ، فاستنسبَتْه ، فذكر لها أنه مولى علىّ بن أبى طالب ، فقالت: أنت هيثم ، قال : بل أنا ميثم (١) ، فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يوصى بك عليًّا فى جوف الليل ، فسألها عن الحسين بن علىّ ، فقالت : هو فى حائط (٢) له ، قال : أخبريه أنّى قد أحببتُ السّلام عليه ، ونحن ملتقُون عند ربّ العالمين ، إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه ، وأريد الرجوع ، فدعتْ بطِيب فطيّبت لحيته ، فقال لها : أما إنها ستخضب بدم ، فقالت : مَن أنبأك هذا ؟ قال : أنبأنى سيدى ، فبكت أمُّ سلمة ، وقالت له : إنه ليس بسيّدك وحدَك ؛ هو سيّدى وسيد المسلمين ، ثم ودّعته .

---

(١) ميثم ، ضبطه صاحب القاموس بكسر الميم .
(٢) الحائط : البستان .

فقدم الكوفة ، فأخِذ وأدخِلَ على عُبيد الله بن زياد . وقيل له : هذا كان من آثرِ النّاس عند أبى تراب ، قال : وَيحكم ! هـذا الأعجمىّ ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربُّك ؟ قال : بالمرصاد ، قال : قد بلغنى اختصاصُ أبى تراب لك ، قال : قد كان بعضُ ذلك ، فما تريد ؟ قال : وإنه ليقال إنّه قد أخبرك بما سَيَلْقاك ، قال : نعم ؛ إنّه أخبرنى ، (1قال : ماالذى أخبرك أنى صانع بك1) ؟ قال : أخبرنى أنّك تصلُبنى عاشر عشرة وأنا أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، قال : لأخالفنّه ، قال : ويحك ! كيف تخالفُه ؛ إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله عن جبرائيل ، وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذى أُصْلَب فيه أين هو من الكوفة ؟ وإنّى لأوّل خَلق الله أُلجِم فى الإسلام بلجام كما يُلْجَم الخيل . فحبسه وحبس معه المختار بن أبى عبيدة الثقفىّ ، فقال مِيثَم للمختار ـ وهما فى حبس ابن زياد : إنّك تُفلِت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام ، فتقتل هذا الجبّار الذى نحن فى سجنه(2) ، وتطأ بقدمك هذه على جَبْهته وخَدّيه . فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتلَه طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيدالله بن زياد ، يأمره بتخلية سبيله ؛ وذاك أن أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألتْ بعلَها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع ، فأمضى شفاعته ، وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد ، فوافى البريد ، وقد أخرج ليضرب عنقه ، فأطلق . وأما مِيثم فأخرج بعده لِيُصْلَب ؛ وقال عبيد الله : لأمْضِيَنّ حكم أبى تراب فيه ، فلقيَه رجل ، فقال له : ما كان أغناك عن هـذا ياميثم ؟ فتبسم ، وقال : لهـا خلقتُ ، ولى غُذِيتُ ؛ فلما رُفِع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث ، فقال عمرو : لقد كان يقول لى : إنى مجاورك ، فكان يأمر جاريته كلّ عشية أن تكنُس تحت خشبته وترشّه ، وتجمّر بالمجمر تحته ، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بنى هاشم ، ومخازى

(1 ـ 1) ساقط من ا

(2) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حبسه » .

بنى أميّة ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هـذا العبد ، فقال : ألجموه ، فألجم ، فكان أول خَلق الله ألجِم فى الإسلام . فلما كان فى اليوم الثانى فاضت مُنخراه وفمه دما ، فلما كان فى اليوم الثالث طُعِن بحربة فمات .

وكان قَتْلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام .

قال إبراهيم : وحدّثنى إبراهيم بن العباس النَّهْدِىّ ، حدّثنى مبارك البَجَلىّ ، عن أبى بكر بن عياش ، قال: حدثنى المجالد ، عن الشّعبى ، عن زياد بن النضر الحارثى ، قال: كنتُ عند زياد ، وقد أتى برشيد الهجَرىّ - وكان من خَواصّ أصحاب علىّ عليه السلام - فقال له زياد : ماقال خليلُك لك إنّا فاعلون بك ؟ قال : تَقْطَعُون يدىّ ورِجْلىّ ، وتصلُبوننى ، فقال زياد : أمَا والله لأكذِّبنّ حديثه ؛ خلّوا سبيلَه ، فلما أراد أن يخرُجَ قال : ردُّوه ، لانجد شيئًا أصلحَ مما قال لك صاحبُك ؛ إنّك لاتزال تبغى لنا سوءا إن بقيت ؛ اقطعوا يديْه ورجلْيه ؛ فقطَعوا يديه ورجليْه ، وهو يتكلّم ، فقال : اصلُبوه خَنْقا فى عُنُقه ، فقال رشيد: قد بقى لِى عندكم شىء ماأراكم فعلتموه ، فقال زياد : اقطعوا لسانَه ، فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال : نَفِّسُوا عَنّى أتكلّمْ كلمة واحدة ، فنفّسوا عنه ، فقال : هـذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرَنى بقطع لسانى . فقطعوا لسانه وصلبوه .

وروى أبو داود الطَّيَالسىّ ، عن سليمان بن رُزَيق ، عن عبد العزيز بن صُهيب ، قال: حدثنى أبو العالية ، قال : حدّثنى مزرع(١) صاحبُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: لَيُقبِلَنّ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداء ، خُسِف بهم . قال أبو العالية : فقلت له : إنّك لَتُحدِّثُنِي بالغيب ! فقال : احفَظْ ماأقوله لك ، فإنما حدَّثنى به الثِّقة علىّ بن أبى طالب . وحدثنى أيضا شيئًا آخر : لَيُؤخَذَنّ رجل فليقتلنّ ولَيُصْلَبَنَّ بين شُرْفتيْن من شُرَف المسجد؛ فقلت له : إنّك لَتُحَدّثُنِي بالغيب ! فقال : احفَظْ ماأقول لك ؛ قال أبو العالية : فوالله ماأتتْ

---

(١) مزرع ، ذكره صاحب تنقيح المقال ٢ : ٢١٠ ، ولم يزد على ما نقله من خبره هنا .

علينا جُمعة حتى أخذ مزرع ، فقتل وصُلِب بين شرفتين من شُرَف المسْجِد .

قلت : حديث الخَسْف بالجيش قد خرّجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يَعُوذ قومٌ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء(١) خُسِف بهم » ، فقلت : يارسولَ الله ، لعلّ فيهم المكرَه أو الكاره ،فقال : « يُخْسَف بهم ،ولكن يحشرون » ـأو قال : « يُبْعَثون على نياتهم(٢) يوم القيامة » .

قال : فسئِل أبو جعفر محمد بن على : أهى بيداء من الأرض ؟ فقال : كَلّا والله إنها بيداء المدينة . أخرج البخارى بعضه وأخرج مسلم الباقى(٣) .

وروى محمد بن موسى العَنَزِىّ ، قال : كان مالك بن ضَمْرة الرؤاسىّ من أصحاب علىّ عليه السلام، وممن استبطن من جهته علما كثيرا ، وكان أيضا قد صَحِب أبا ذرّ ، فأخذ من علمه ، وكان يقول فى أيام بنى أمية : اللهم لاتجعلنى أشْقَى الثلاثة ، فيقال له : وما الثلاثة ؟ فيقول : رجلٌ يرمَى من فوق طَمارٍ(٤) ، ورجل تُقطعُ يداه ورجلاه ولسانه ويصلب،ورجل يموت على فراشه . فكان من الناس مَن يهزأ به ، ويقول : هذا من أكاذيب أبى تراب .

قال : وكان الذى رُمِى به من طَمارٍ هانىء بن عُرْوة(٥) ، والذى قُطِع وصلب رشيد الهجرىّ ، ومات مالك على فراشه .

* * *

الفصل الرابع وهو من قوله : « فنظرت فى أمرى .. » إلى آخر الكلام ، هذه كلمات

---

(١) البيداء : كل أرض ملساء لاشىء فيها . (٢) لفظ مسلم : « ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته » .

(٣) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٠٩ . (٤) طمار ، كقطام : المكان المرتفع .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى معجم البلدان ٦ : ٥٨ أن الذى رمى به من طمار مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، أمر بإلقائه عبيد الله بن زياد ، وأنشد :

فإن كُنْتِ ماتَدْرِينَ ماالموتُ فانظرى إلى هانئٍ فى السُّوقِ وابن عَقِيل
إلى بَطَلٍ قد عَقّر السّيفُ وجهَه وآخرَ يَهْوِى مِنْ طَمار قتيل .

مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه كان معهودا إليه ألّا ينازِعَ فى الأمر ، ولا يثيرَ فتنة ، بل يطلبه بالرفق ؛ فإن حصَل له وإلا أمسك .

هكذا كان يقول عليه السلام ، وقوله الحق ، وتأويلُ هذه الكلمات : فنظرت فإذا طاعتِى لرسول الله صلى الله عليه ، أى وجوب طاعتى ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

قد سَبَقَت بيعتى للقوم ؛ أى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه علىّ ، ووجوب امتثالى أمرَه سابقٌ على بَيْعَتى للقوم ، فلا سبيل لى إلى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أمرَنى بها .

وإذا الميثاق فى عُنُقى لغيرى ؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ علىّ الميثاق بترك الشِّقاق والمنازعة ، فلم يحلّ لى أن أتعدّى أمرَه ، أو أخالف نَهيَه .

فإن قيل : فهذا تصريح بمذهب الإمامية .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين ؛ لأنّهم يزعمون أنه الأفضل والأحقّ بالإمامة ، وأنّه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أنّ الأصلح للمكلّفين من تقديم المفضول عليه ، لكان مَنْ تقدّم عليه هالكا ، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أنّ الإمامة حقّه ، وأنه أولى بها من الناس أجمعين ، وأعلمه أنّ فى تقديم غيره وصَبْره على التأخّر عنها مصلحةً للدين راجعة إلى المكلّفين ، وأنّه يجب عليه أن يُمسك عن طلبها ، ويُغضِى عنها لمن هو دون مَرْتَبته ، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يخرِجه تقدّم مَنْ تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحقّ . وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى بهذا ، وصرّح به تلامذتُه ، وقالوا : لو نازع عَقِيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ سيفه لحكمنا بهلاك كلّ

من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه ، ولكنّه مالك الأمر ، وصاحب الخلافة ؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها ، وإذا أمسك عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها ، وحكمه فى ذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت عنه فى الأخبار الصحيحة أنه قال : « علىّ مع الحق ، والحق مع علىٍّ يدور حيثما دار » ، وقال له غير مرة : « حربُك حربى وسِلْمك سِلْمى » .

وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندى ، وبه أقول .

(٣٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا⁽¹⁾ الضَّلَالُ ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى .

فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذان فصلان ، أحدهما غير ملتئم مع الآخر ، بل مبتور عنه ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطا ، ومراده أن يأتيَ بفصيح كلامه عليه السلام ، وما يجري مجرَى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقعُ في الفصل الواحد الكلامُ الذي لا يناسِبُ بعضُه بعضا ؛ وقد قال الرضيّ ذلك في خطبة الكتاب⁽²⁾ .

* * *

أما الفصل الأول فهو الكلام في الشُّبْهة ، ولماذا سمِّيت شبهة ، قال عليه السلام : « لأنّها تُشْبِه الحقّ » ؛ وهذا هو محضُ ما يقوله المتكلّمون ؛ ولهذا يسمّون ما يحتجّ به أهلُ الحقّ دليلا ، ويسمون ما يحتجّ به أهل الباطل شُبهة .

قال : « فأمّا أولياء الله فضياؤهم في حلّ الشبهة اليقين ، ودليلُهم سَمْتُ الهُدى » ؛ وهذا حقّ لأنَّ من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَة ، وراعى الأمور اليقينيّة ، وطلَب المقدِّمات المعلومة قطعا ، انحلّت الشُّبْهة ، وظهر له فسادهامِنْ أين هو ؟ ثم قال : «وأما أعداء الله فدعاؤهم

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) الجزء الأول ص ٥٣ .

الضّلال ، ودليلهم العَمَى ، وهذا حقّ ؛ لأن المبطِل ينظر فى الشُّبْهة ، لا نظر مَنْ راعى الأمور اليقينية ، ويحلّل المقدمات إلى القضايا المعلومة ؛ بل يَغْلِبُ عليه حبّ المذهب ، وعصبية أسلافه ، وإيثار نصره مَنْ قد ألزم بنصرته ، فذاك هو العمى والضلال ، اللّذان أشار أمير المؤمنين إليهما ، فلا تنحلّ الشبهة له ، وتزداد عقيدته فسادا ، وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية الكلامَ فى توليد النظر للعلم ؛ وأنه لا يولِّد الجهل .

* * *

الفصل الثانى ، قوله : « فما ينجُو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاءَ مَنْ أحبّه » ؛ هذا كلام أجنبىّ عمّا تقدم ، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٤

(٢) سورة النساء ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ٣٤ .

(٣٩)

ومن خطبة له عليه السلام

الأَصْلُ :

مُنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ ، لَا أَبَا لَكُمْ ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً ، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا ، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً ، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَأْرٌ ، وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَام .

دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ؛ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

قوله عَلَيه السَّلام : « مُتَذَائِبٌ » أى مُضْطَرِب ؛ مِن قولهم : تَذَاءَبَتِ الرِّيحُ ، أَىْ اضْطَرَبَ هُبُوبهَا ، وَمِنه سُمِّيَ الذِّئْبُ ذِئْباً لِاضْطِراب مِشْيَته .

* * *

الشَّرحُ :

مُنِيتُ ، أى بُلِيتُ . وتُحْمِشُكم : تُغْضِبُكم ، أحمشه أى أغضبه . والمستصرِخ : المستنصر . والمتغوِّث : القائل : واغوثاه !

و ْجرة : صوت يردّده البعير فى حَنْجَرته ؛ وأكثرُ مايكون ذلك عند الإعياء والت ب . والجمل الأَسَرّ : الذى يَكرُ كِرتِه دَبَرة(١) . والنِّضو : البعير المهزول والأدْبَر : الذى به دَبَر ؛ وهو المعقور من القَتَب وغيره.

هذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى غارة النّعمان بن بشير الأنصاريّ على ين التّمر(٢) .

* * *

[أمر النعمان بن بشير مع علىّ ومالك بن كعب الأرحبىّ]

ذكر صاحبُ الغارات أنّ النعمانَ بن بشير قَدِم هو وأبو هريرةَ على علىٍّ عليه السلام من ند معاوية ، بعد أبى مسلم الخَوْلانىّ ، يسألانه أن يدفع قَتلةَ عثمان إلى معاوية ليُقيدَهم بعثما ؛ لعلّ الحرب أنْ تُطفَأ ؛ ويصطلح الناس ؛ وإنما أراد معاويةُ أن يرجعَ مثلُ النّعم ، وأبى هريرة من عند علىّ عليه السلام إلى الناس ، وهمْ لمعاويةَ عاذرون ولعلىّ لائم ن ؛ وقد علِم معاوية أنّ عليًّا لا يدفع قَتلةَ عثمان إليه ، فأراد أن يكون هذان يشم ان له عند أهل الشام بذلك ، وأن يظهر عذره ، فقال لهما : ائتيا عليًّا فانشُداه الله ، وسَا ه بالله لَمَا دفعَ إلينا قتلةَ عثمان ؛ فإنّه قد آواهم ومنعهم ؛ ثم لا حربَ بيننا وبينه ، فإن بى فكونوا شهداء الله عليه .

وأقبلا عَلَى الناس فأعلماهم ذلك ، فأتيا إلى علىّ عليه السلام ، فدخلا عليه ، فقال له أبو ريرة : ياأبا حَسَن، إنّ الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا ؛ أنتَ ابنُ عمّ محمد رسو ، الله صلى الله عليه ؛ وقد بعثَنا إليك ابنُ عمّك معاوية ، يسألك أمرا تسكُن به هذه

---

(١) الكركرة ، بالكسر : زور البعير . والدبرة : قرحة الدابة .

(٢) عين التمر : بلدة فى طرف البادية ؛ على غربى الفرات .

الحرب ، ويُصلح الله تعالى ذاتَ البين ؛ أن تدفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه ، فيقتلَهم به ، ويجمع الله تعالى أمرَك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتَسْلم هذه الأمة من الفتنةوالفرقة . ثم تكلّم النعمانُ بنحوٍ من ذلك(١) .

فقال لهما : دَعَا الكلام فى هذا ؛ حدِّثنى عنك يانعمان ، أنت أهدى قومِك سبيلا ؟ يعنى الأنصار ، قال : لا ، قال : فكلّ قومِك قد اتّبَعنى إلّا شُذّاذاً ؛ منهم ثلاثة أو أربعة ؛ أفتكون أنت من الشُّذاذ ! فقال النعمان : أصلَحك الله ، إنّما جئتُ لأكونَ معك وألزَمَك ؛ وقد كان معاويةُ سألنى أن أؤدِّىَ هذا الكلام ، ورجوتُ أن يكونَ لى موقف أجتمِع فيه معك ، وطمعتُ أن يُجْرِىَ اللهُ تعالى بينكما صلحا ؛ فإذا كان غير ذلك رأيُك ، فأنا مُلازمك وكائن معك .

فأما أبو هريرةَ فلحِق بالشام ، وأقام النعمانُ عند علىّ عليه السلام ، فأخبرَ أبوهريرة معاويةَ بالخبر ، فأمره أن يُعلِم الناس ، ففعل ، وأقام النعمان بعدَه شهرا ، ثم خرج فارّا من علىّ عليه السلام ، حتى إذا مرّ بعين التَّمْر أخذه مالك بن كعب الأرحبى — وكان عامل علىّ عليه السلام عليها — فأرادَ حبسه ، وقال له : مامرّ بك بيننا(٢) ! قال : إنّما أنا رسولٌ بلّغتُ رسالةَ صاحبى ، ثم انصرفت ، فحبسه وقال : كما أنتَ ؛ حتى أكتبَ إلى علىّ فيك . فناشده ، وعظُم عليه أن يكتبَ إلى علىّ فيه ، فأرسل النعمانُ إلى قَرَظة بن كعب الأنصارىّ — وهو كاتب عين التَّمْر يجبِى خراجَها لعلىّ عليه السلام — فجاءه مسرعا ، فقال لمالك بن كعب : خلِّ سبيلَ ابن عمى ؛ يرحمك الله ! فقال : ياقَرَظَة ؛ اتق الله ولاتتكلّم فى هذا ، فإنه لو كان من عُبّاد الأنصار ونُسّاكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين .

فلم يزلْ به يقسِم عليه حتى خلّى سبيلَه ، وقال له : ياهذا ، لك الأمان اليوم والليلة .

---

(١) ب : « هذا » .

(٢) ب : « هاهنا » .

وغدا ، والله إنْ أدركتُكَ بعـدَها لأضربنّ عنقك ، فخرج مسرعا لا يلوى على شىء ، وذهبتْ به راحلتهُ ، فلم يدرِ أين يتسكّعُ من الأرض ثلاثة أيام ، لا يعلم أين هو ! فكان النعمان يحدِّث بعـد ذلك ، يقول : والله ما علمتُ أين أنا ، حتّى سمعت قول قائلة تقول وهى تطحَن :

شَرِبْتُ مع الجوزاءِ كأساً رَوِيّةً (١) وأُخْرَى مع الشِّعرى إذا ما استقلّتِ
مُعتّقةً كانت قريشٌ تَصُونُهــا فلمّا استحلّوا قتــلَ عثمانَ حلّتِ

فعلمتُ أنى عند حىّ من أصحاب معاوية ، وإذا الماء لبنى القَيْن، فعلمت أنى قد انتهيتُ إلى الماء (٢) .

ثم قدِم على معاوية فخبّره بما لَقِىَ ، ولم يزل معه مصاحباً ؛ لم يجاهِدْ عليا ، ويتتبّع قتلة عثمان؛ حتى غزَا الضّحاكُ بنُ قيس أرضَ العراق؛ ثم انصرف إلى معاوية؛ وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة : أمَا من رجل أبعثُ به (٣) بجريدة خيل ؛ حتى يُغِيرَ على شاطئ الفرات ، فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق ! فقال له النعمان : فابعثنِى ؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّة وهوًى ـ وكان النعمان عثمانيا ـ قال : فانتدب على اسمِ الله ، فانتدبَ ونَدَب معه ألفَىْ رجل ، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات ، وألّا يُغير إلا على مَسْلَحة ، وأن يعجّل الرجوع .

فأقبلَ النعمانُ بن بشير ؛ حتى دنا من عين التَّمْر ، وبها مالك بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ماجَرى (٤) ، ومع مالك ألفُ رجل؛ وقد أذِن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها ، فكتب مالك إلى علىّ عليه السلام : أما بعد ؛ فإنّ النعمان ابن بشير ، قد نزَل بى فى جمع كَثيف ، فرَ رأيَك ، سدّدك الله تعالى وثبتك . والسلام .

فوصل الكتابُ إلى علىّ عليه السلام ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) ب : « ردية » ، وصوابه من ج . (٢) كذا فى الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها «الأمان» .
(٣) ب : « معه » . (٤) ب : « ماذكرناه » .

اخرجُوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به فى جمع من أهل الشام ؛ ليس بالكثير ؛ فانهضوا إلى إخوانكم ، لعلّ اللهَ يقطعُ بكم من الكافرين طرَفا . ثم نزل .

فلم يخرجوا ، فأرسل إلى وُجُوههم وكُبَرائهم ، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير ، فلم يصنعوا شيئًا ، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها ، فقام عليه السلام ، فقال : ألا إنى مُنيت بمَنْ لا يطيع . . . الفصل الذى شرحناه إلى آخره ، ثم نزل .

فدخل منزله ، فقام عدىّ بن حاتم ، فقال : هذا والله الخِذلان ؛ على هذا بايعْنا أميرَ المؤمنين ! ثم دخلَ إليه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ معى من طيّئ ألفَ رجل لا يعصوننى ؛ فإن شئتَ أن أسير بهم سرت . قال : ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن اخرج إلى النُّخَيلة فعسكر بهم . وفرض علىّ عليه السلام لكلّ رجل سبعمائة ؛ فاجتمع إليه ألفُ فارس ، عدا طَيِّئا أصحاب عدىّ بن حاتم .

وورد عَلَى علىّ عليه السلام الخبرُ بهزيمة النّعمان بن بشير ونُصْرة مالك بن كعب ؛ فقرأ الكتاب على أهل الكوفة ، وحمِد الله وأثنى عليه ، ثم نظر إليهم وقال : هذا بحمْدِ الله وذمّ أكثركم .

* * *

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير ؛ قال عبدالله بن حوزة الأزدىّ : قال : كنتُ مع مالك بن كعب حين نَزل بنا النعمان بن بشير ، وهو فى ألفين ؛ وما نحن إلّا مائة فقال لنا : قاتلُوهم فى القرية ، واجعلوا الجُدُر فى ظهوركم ، ولا تلقُوا بأيديكم إلى التهلكة ؛ واعلموا أنّ الله تعالى ينصُر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الكثير . ثم قال : إنّ أقرب مَنْ ها هنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قَرَظة بن كعب

ومِخْنَف بن سُلَيم ؛ فاركض إليهما ، فأعلِمْهما حالنا ، وقل لهما : فلينصُرانا ما استطاعا (١) ، فأقبلتُ أركض ؛ وقد تركتُه وأصحابَه يرمون أصحابَ ابن بشير بالنَّبْل ، فمررت بقَرَظة فاستصرختُه ، فقال : إنّما أنا صاحبُ خراج ؛ وليس عندى من أعِينه به . فمضيت إلى مِخْنَف بن سليم ، فأخبرته الخبر ، فسرّح معى عبد الرحمن بن مخنف فى خمسين رجلا ، وقاتل مالكُ بن كعب النعمانَ وأصحابه إلى العصر ، فأتيناه وقد كسَر هو وأصحابُه جفونَ سيوفهم، واستقبلوا الموت (٢) ، فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أنْ رآنا أهلُ الشام، وقد أقبلْنا عليهم ؛ فأخذوا ينكُصون عنهم ويرتفعون ، ورآنا مالكٌ وأصحابه ، فشدّوا عليهم حتى دفعوهم عن القَرْية ، فاستعرضناهم ، فصرعنا منهم رجالًا ثلاثة ، وارتفع القومُ عنا ، وظنُّوا أنّ وراءنا مددا ؛ ولو ظنّوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا، وحال الليل بيننا وبينهم ، فانصرفوا إلى أرضهم . وكتب مالك بن كعب إلى علىّ عليه السلام:

أما بعدُ ، فإنّه نزل بنا النعمان بن بشير فى جَمْع من أهل الشام ، كالظاهر علينا ، وكان عُظْم (٣) أصحابى متفرّقين ، وكنّا للذى كان منهم آمنين ؛ فخرجنا إليهم رجالًا مصلِتين (٤) ، فقاتلناهم حتى المساء ، واستصرخنا مِخْنف بن سُليم، فبعث إلينا رجالًا من شيعة أمير المؤمنين وولده ؛ فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا ؛ فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم ، فأنزل الله علينا نصرَه ، وهزم عدوّه ، وأعزّ جنده . والحمد لله رب العالمين ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

* * *

---

(١) كذا فى ا ، ح ، وفى ب : « بما استطاعا » .
(٢) ب : « واستسلموا للموت » .
(٣) عظم الشىء ؛ أى معظمه .
(٤) يقال : أصلت الرجل السيف ؛ إذا جرده من غمده .

وروى محمد بن فرات الجرْمِيّ ، عن زيد بن على عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام فى هذه الخطبة : أيها الناس ، إنى دعوتكم إلى الحقّ فتوليتم عنى ، وضربتكم بالدِّرّة فأعييتمونى ؛ أما إنه سَيَليكم بعدى ولاةٌ لا يرضَوْن عنكم بذلك حتى يعذّبوكم بالسياط وبالحديد ، فأمّا أنا فلا أعذّبكم بهما ؛ إنه من عذّب الناس فى الدّنيا عذّبه الله فى الآخرة ؛ وآية ذلك أن يأتيَكم صاحبُ اليمن، حتى يحلّ بين أظهركم ؛ فيأخذ العمال وعمال العمال (١)؛ رجل يقال له يوسف بن عمرو ؛ ويقوم عند ذلك رجل منّا أهلَ البيت ، فانصروه فإنه داع إلى الحق .

قال : وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام .

---

(١) ساقطة من ب .

(٤٠)

ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » قال :

الأصْلُ :

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا باطل ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ (١) . وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ ٱلْمُؤْمِن ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا ٱلْكَافِر ، وَيُبَلِّغُ ٱللهُ فِيهَا ٱلْأَجَل ، وَيُجْمَعُ بِهِ ٱلْفَيْءُ ، وَيُقَاتَلُ بِهِ ٱلْعَدُوُّ ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُل ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ .

وفى رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال :

حُكْمَ ٱللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ .

وقال :

أَمَّا ٱلْإِمْرَةُ ٱلْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا ٱلْإِمْرَةُ ٱلْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا(٢) الشَّقِيُّ ؛ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ .

* * *

[اختلاف الرأى فى القول بوجوب الإمامة]

الشّرْحُ :

هذا نصٌّ صريح منه عليه السلام ؛ بأنّ الإمامةَ واجبة ؛ وقد اختلف الناس فى هذه

---

(١) ب : « لا إمرة إلا لله » وما أثبته عن ا ، ج ومخطوطة النهج .

(٢) ا : « بها » .

المسألة فقال المتكلّمون كافّة : الإمامة واجبة ؛ إلّا مايحكى عن أبى بكر الأصمّ من قدماء أصحابنا أنها غيرُ واجبة ؛ إذا تناصفت الأمة ؛ ولم تتظالم .

وقال المتأخّرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمة؛ لأنه إذا كان لا يجوز فى العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم ؛ فقد قال بوجوب الرياسة على كلّ حال ؛ اللّهم إلا أن يقول : إنه يجوز أن تَستقيم أمورُ الناس من دون رئيس ؛ وهذا بعيد أن يقوله ؛ فأما طريق وجوب الإمامة ماهى ؟ فإن مشايخَنا البصريّين رحمهم الله يقولون : طريق وجوبها الشرع ، وليس فى العقل ما يدلّ على وجوبها .

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى : إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة ؛ وهو قول الإمامية ، إلا أنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرياسة ، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرياسة عَلَى المكلّفين ، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضارّ دنيوية . والإمامية يُوجبون الرياسة عَلَى الله تعالى ، من حيث كان فى الرياسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابِق مايقوله أصحابنا ، ألَا تراه كيف علّل قوله : « لابدّ للناس من أمير » ، فقال فى تعليله : «يُجمَع به الفىء ، ويقاتَل به العدوّ وتُؤمّن به السُّبل ، ويؤخذ للضعيف من القوىّ » ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا .

فإنْ قيل : ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام، فكيفَ يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون : « لا إمرة » !

قيل : إنهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لاحاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَ الله بن وهب الرّاسبىّ .

* * *

فإن قيل : فسّروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام .

قيل : إنّ الألفاظ كلّها ترجع إلى إمرة الفاجر .

قال : يعمل فيها المؤمن ، أى ليست بمانعة للمؤمن من العمَل ، لأنه يمكنه أن يصلّىَ ويصوم ويتصدّق ؛ وإن كان الأمير فاجرا فى نفسه .

ثم قال : « ويستمتع فيها الكافر » أى يتمتّع بمدته ، كما قال سبحانه للكافرين : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (١) .

ويبلّغ الله فيها الأجل، لأنّ إمارة الفاجر كإمارة البرّ، فى أنّ المدة المضروبة فيها تنتهى إلى الأجل المؤقت للإنسان .

ثم قال : « ويُجمَع به الفىء ، ويُقاتَل به العدو، وتأمن به السبل ، ويُؤخذ به للضّعيف من القوىّ » ، وهذا كلّه يمكن حصوله فى إمارة الفاجر القوىّ فى نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إنّ الله ليؤيّد هذا الدّينَ بالرجُل الفاجر »، وقد اتفقت المعتزلة عَلَى أنّ أمراء بنى أميّة كانوا فُجّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد . وكان الفىء يُجْمَع بهم ، والبلاد تُفْتَح فى أيامهم ، والثغورُ الإسلامية محصنة مَحُوطة ، والسُّبُل آمنة، والضعيف منصور على القوىّ الظالم ؛ وما ضرّ فجورُهم شيئا فى هذه الأمور.

ثم قال عليه السلام : فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريحَ برّ بموته، أو يُستَراح من فاجر بموته أو عزله .

فأما الرواية الثانية ، فإنّه قد جعل التقىّ يعمل فيها للإمرة البرّة خاصة (٢) .

وباقى الكلام غنىّ عن الشرح .

* * *

---

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) كذا فى ج ، وهو الوجه ، وفى ب : « يعمل فيها التقى الإمرة خاصة » .

[من أخبار الخوارج أيضاً]

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدّث فى كتاب " صِفّين " ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن خالد بن حميد المصرىّ ، عن عمر مولى غَفْرة ، قال : لما رجع علىّ عليه السلام من صِفّين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى جَمُّوا⁽¹⁾ ، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حَرُورَاء ، فنادَوْا : لا حكمَ إلا لله ولو كره المشركون ؛ ألا إنّ عليًّا ومعاوية أشركا فى حُكْم الله .

فأرسل علىّ عليه السلام إليهم عبدَ الله بن عباس ، فنظر فى أمرِهم وكلّمهم ، ثم رجع إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : ما رأيت ؟ فقال ابنُ عباس : والله ما أدرِى ما هم ! فقال له علىّ عليه السلام : رأيتَهم منافقين ؟ قال : والله ما سيماهُم بسِيما المنافقين ؛ إنّ بينَ أعينهم لأثرَ السجود ، وهم يتأوّلون⁽²⁾ القرآن . فقال علىّ عليه السلام : دَعُوهم ما لم يسفِكوا دما ، أو يغصِبوا مالا ، وأرسل إليهم : ما هذا الذى أحدثتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نخرُجَ نحن وأنت ومَنْ كان معنا بصِفّين ثلاث ليال ، ونتُوب إلى الله من أمرِ الحَكَمين ، ثم نسير إلى معاوية ، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه . فقال علىّ عليه السلام : فهلا قلتم هذا حين⁽³⁾ بعثْنا الحَكَمين ، وأخذنا منهم العهد ، وأعطيناهمُوه ! ألا قلتم هذا حينئذ ! قالوا : كنا قد طالت الحرب علينا ، واشتدّ البأس ، وكَثُر الجراح ، وخلا الكُراع والسلاح ، فقال لهم : أفحِين اشتدّ البأس عليكم ، عاهدتم ، فلما وجدتُم الجَمام قلتم : ننقضُ العهد ! إنّ رسول الله كان يفى للمشركين ، أفتأمرُونى بنقضِه !

فمكثوا مكانَهم لا يزالُ الواحد منهم يرجع إلى علىّ عليه السلام ، ولا يزال الآخر

---

(١) الجَمام ، بالفتح : الراحة . (٢) ا : « ويتأولون » .
(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حيث » .

رج من عند علىّ عليه السلام ، فدخل واحد منهم عَلَى علىّ عليه السلام بالمسجد ، الناس حوله ، فصاح : لا حُكم إلا لله ولو كره المشركون ، فتلفّت الناس ، فنادَى : حكم إلا لله ولو كره المتلفّتون ، فرفع (١) علىّ عليه السلام رأسَه إليه ، فقال : حكم إلا لله ولو كره أبو حسن . فقال علىّ عليه السلام : إن أبا الحَسَن (٢) لا يكره ن يكون الحكم لله (٢) ، ثم قال : حكم الله أنتظر فيكم ، فقال له الناس : هلا مِلْتَ ا أمير المؤمنين عَلَى هؤلاء فأفنيتَهم ! فقال : إنهم لا يفنوْن ، إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة .

وروى أنَس بن عِياض المدنىّ ، قال : حدثنى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن أبيه عن جَدّه ، أنّ عليًّا عليه السلام كان يوما يؤمّ الناس ، وهو يجهَر بالقراءة ، فجهر ابنُ الكوّاء من خلفْه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾(٣) ، فلما جهر ابنُ الكوّاء وهو خلفه بها سكت علىّ ، فلما أنهاها ابنُ الكواء عاد علىّ عليه السلام ، فأتم قراءته ، فلما شرع علىّ عليه السلام فى القراءة أعاد ابن الكوّاء الجهر بتلك الآية ، فسكت علىّ ، فلم يزالا كذلك يسكت هذا ، ويقرأ ذاك مرارا ، حتى قرأ علىّ عليه السلام : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(٤) ، فسكت ابن الكوّاء ، وعاد عليه السلام إلى قراءته .

---

(١) ب : « فرجع » ، وما أثبته عن ا ، ج .
(٢ ـ ٢) ب : « لا يكره أن يكون الحكم إلا لله » .
(٣) سورة الزمر ٦٥ .
(٤) سورة الروم ٦٠ .

(٤١)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصلُ :

إنّ(١) ٱلْوَفَاءَ تَوْءَمُ ٱلصِّدْقِ ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَىٰ مِنْهُ ، وَما(٢) يَغْدِر مَنْ عَلِمَ كَيْفَ ٱلْمَرْجِعُ .

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ ٱلْغَدْرَ كَيْساً ، وَنَسَبَهم أَهْلُ ٱلْجَهْلِ فِيهِ إِلَىٰ حُسْنِ ٱلْحِيلَةِ .

مَالَهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ ! قَدْ يَرَى ٱلْحُوَّلُ ٱلْقُلَّبُ وَجْهَ ٱلْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ وَنَهْيِهِ ، فَيَدَعُهَا رَأْىَ عَيْنٍ بَعْدَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي ٱلدِّينِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقال : هذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، وهما توءمان ؛ وإنما جُعل الوفاء توءم الصدق ؛ لأنّ الوفاء صدقٌ فى الحقيقة ؛ ألَا تَرى أنّه قد عاهد عَلَى أمرٍ وصدق فيه ولم يُخْلِف ؛ وكأنهما أعمّ وأخصّ ، وكل وفاء صدق وليس كلّ صدقٍ وفاء ، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسميةُ الوفاء صدقا فلأمرٍ آخر ؛ وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول ، ولا يكون الصدق إلاّ فى القول ؛ لأنّه نوع من أنواع الخبر ، والخبر قول .

---

(١) قبلها فى مخطوطة النهج : « أيها الناس » .

(٢) ب « ولا » .

ثم قال : « ولا أعلم جُنّة » أى درعا . أوقَى منه ، أى أشدّ وقاية وحفظا ، لأنّ الوفىّ محفوظ من الله ، مشكور بين الناس .

ثم قال : « وما يغدر مَنْ عَلِمَ كيف المرجع » ، أى مَنْ علم الآخرة وطوَى عليها عقيدته ، منعه ذلك أن يغدِر ؛ لأنّ الغدر يُحْبِط الإيمان .

ثمّ ذكر أنّ الناس فى هذا الزمانِ ينسبون أصحاب الغدر إلى الكَيْس ، وهو الفِطْنة والذكاء ، فيقولون لمن يَخدَع ويغدِر ، ولأرباب الجريرة والمكر : هؤلاء أذكياء أكياس ؛ كما كانوا يقولون فى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وينسُبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحّة التدبير .

ثم قال : « ما لهم قاتلَهم الله » ! دعاء عليهم .

ثم قال : قد يَرى الحوّل القلّبُ وجهَ الحيلة ، ويمنعه عنها نهىُ الله تعالى عنها ، وتحريمه بعد أن قَدَر عليها ، وأمكنه . والحوّل القلّب : الذى قد تحوّل وتقلّب فى الأمور وجرّب ، وحنّكته الخطوب والحوادث .

ثم قال : « وينتهز فُرْصتها » ، أى يبادر إلى افتراصها ويغتنمها . مَنْ لاحريجة له فى الدين ، أى ليس بذى حَرَج ، والتحرّج : التأثم . والحريجة : التقوى ؛ وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته ، مَلَكَ أهلُ الشام الماء عليه ، والشريعة بصفّين ، وأرادوا قتلَه وقتلَ أهل العراق عطشا ؛ فضاربهم على الشريعة حتى مَلَكها عليهم ، وطردَهم عنها ، فقال له أهل العراق : اقتُلْهُم بسيوف العطش ، وامنعهم الماء ، وخذهم قَبْضًا بالأيدى ؛ فقال : إنّ فى حدّ السيف لغنًى عن ذلك ، وإنى لا أستحلّ منعَهم الماء . فأفرَجَ لهم عن الماء فوردوه ، ثم قاسمهم الشريعة شطرَيْن بينهم وبينه . وكان الأشتر يستأذنه أن يبيِّت(١) معاوية ، فيقول :

---

(١) يقال : بيت العدو ، أى قصده فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، وهو البيات .

إنّ رسول الله صلى الله عليه نهى أن يُبَيَّتَ المشركون ، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخُلق الأبيّ .

أراد المضاء أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبدالله⁽¹⁾ .

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلّيَ لأبي جعفر المنصور بعضَ أعمالٍ بفارس ، فقال له : هل عندك مال ! قال : لا ، قال : آلله ؟ قال : آلله . قال : خلّوا سبيله ، فخرج ابن قَحْطبة ،وهو يقول بالفارسة : ليس هذا من رجال أبي جعفر . وقال لعبد الحميد بن لاحق : بلغني أن عندك مالا للظلمة ، يعني آل أبي أيوب المورياني كاتب المنصور ، فقال : مالهم عندي مال ، قال : تُقسِم بالله! قال : نعم ، فقال : إن ظهرَ لهم عندك مال لأعدّنك كذابا ⁽²⁾ .

وأرسل إلى طلحة الغدريّ ـ وكان للمنصور عنده مال ـ : بلغنا ؛ أنّ عندك مالا فأتنا به ، فقال : أجل ، إنّ عندي مالا ، فإن أخذتَه مني أغرمَنيه أبو جعفر ، فأضرب عنه .

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة ،وكان القوم أصحابَ دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنما يطلبونها ليقيمُوا عمود الدين بالإمرة فيها، فلم يستقم لهم ، والدنيا إلى أهلها أميل .

* * *

---

(١) هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ؛ دخل البصرة على عهد أبي جعفر المنصور ودعا الناس إلى أخيه محمد بن عبد الله فبايعه كثيرون من أهلها، ثم استولى على الأهواز وواسط ، ولم يزل بها حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام ، فأرسل إليه أبو جعفر قائده عيسى بن موسى ، فخرج إبراهيم لملاقاته ؛ والتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى ، وقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ ، والمضاء أحد رجاله . مقاتل الطالبيين ٣١٥ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤٥) .

(٢) مقاتل الطالبيين ٣٣٣ .

[الأخبار والأحاديث والآيات الواردة فى مدح الوفاء وذم الغدر]

ومن الأخبار النبوية المرفوعة فى ذم الغَدْر : « ذمة المسلمين واحدة ، فإن جارت عليهم أمة منهم ، فلا تَخْفِروا جوارها ، فإنّ لكل غادر لواء يعرَف به يوم القيامة »(١).

وروى أبو هريرة ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يبيع طعاما فسأله: كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأمر أبا هريرة أن يدخِل فيه يدَه ، فأدخلها فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منّا من غشّ » .

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملك آخر : أطلِعْنِي على سِرّ صاحبك ، فقال : أيها الملك ، إنّا لا نستحسن الغدر ، وإنه لو حُوِّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه ، ولكان سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهيَيْن عنه .

مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

وقّع جعفر بن يحيى على ظهر كتابٍ كتبه علىّ بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد ، يسعى(٢) فيه بالبرامكة ، فدفعه الرشيدُ إلى جعفر ، يمنّ به عليه ، وقال : أجِبْه عنه ، فكتب فى ظاهره : حبّب الله إليك الوفاء يا أخى فقد أبغضتَه ، وبغّض إليك الغدَر فقد أحببتَه ، إنّى نظرت إلى الأشياء حتى أجدَ لك فيها مشبها فلم أجد ، فرجعت إليك ، فشبّهتك بك ؛ ولقد بلغ من حسن ظنّك بالأيام أنْ أمّلت السلامة مع البغى ، وليس هذا من عاداتها . والسلام .

كان العهد فى عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كتَبَه السفّاح ، فلما طالت أيامُ المنصور ، سامه أن يخلع نفسَه من العهد ، ويقدّم محمداً المهدىّ عليه ، فكتب إليه عيسى :

بَدَتْ لِى أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُها   أرى ما بدا منهـا سيُمطِرُكُمْ دَمَا

---

(١) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٣٠ عن الحاكم ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) السعى هنا : الوشاية .

وَمَا يعلَمُ العـــالِي مَتَى هبطـاتُه   وإن سار فى ريح الغُرورِ مُسَلَّمـــا

أبو هريرة يرفعه : « اللهمّ إنى أعوذ بك من الُجوع فبئسَ الضّجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة ! » .

وعنه مرفوعا : « المكر والخديعة والخيانة فى النار » .

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب ، عند زوال أمره : أرى أن تصير إلى هؤلاء ، فلعلّك أن تنفَعنى فى مخلفى ، فقال : وكيف لِى بعلْم الناس جميعاً أنّ هذا عن رأيك ! إنّهم لَيقولون كلّهم : إنى غَدَرْتُ بك ، ثم أنشد :

وغَدْرِى ظاهرٌ لاشكّ فيه   لمبصره وعذرِى بالْمَغيبِ

فلما ظفر به عبد الله بن علىّ ، قَطَع يديه ورجْليه ، ثم ضرب عُنقه .

كان يقال : لا يغدِر غادر إلّا لصغرِ هِمّته عن الوفاء ، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره فى جَنْب نَيْل المكارم .

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : الوفاء لأهل الغدر غَدْر ، والغدرُ بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى .

قلت : هذا إنّما يريد به إذا كان بينهما عَهْد ومُشارطة ، فغدَر أحد الفريقين ، وخاس بشرْطه ، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولا يفى به .

ومن شعر الحماسة ، واسم الشاعر العارق الطائىّ (١) :

---

(١) واسمه أيضاً قيس بن جروة الطائى ؛ والأبيات فى ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ . قال الشارح : « كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفضا ، فمر بطيء — وكانوا فى ذمته — بكتاب عقدا كتبه لهم ، وعهدأحكمه معهم ، فقال زرارة بن عدس له : أبيت اللعن ! أصب من هذا الحى شيئا . قال : ويلك ! إن لهم عقداً لا يجوز لنا تخطيه . فأخذ زرارة يهون أمر العهد عليه ، ويحسن الإيقاع بهم ، فلم يزل يفتل له فى الذروة والغارب معه لشيء كان فى نفسه على طيء ، حتى أصاب أذواداً ونساء ، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت بها الأبيات إلى عمرو بن هند ، فتوعد عارقا وحلف أنه يقتله ، فاتصلت مقالته بعارق ، فقال هذه الأبيات» .

مَنْ مبلغٌ عَمْرَو بن هِنْدٍ رسالةً   إذا استحقَبتْها العيسُ جاءتْ من البُعْدِ (١)
أيوعِدُنى والرَّمْلُ بينى وبينَه   تبيَّنْ رُوَيدا ماأمامَةُ من هِنْدِ (٢)
ومِنْ أجَأ حَوْلى رِعانٌ كأنّها   قنابِل خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومِنْ وَرْدِ (٣)
غدرتَ بأمرٍ كنتَ أنت اجْتَرَرْتَنا   إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعهْدِ (٤)

قال أبو بكر الصديق : ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه كنّ عليه : البغى والنّكْث والمكر ؛ قال سبحانه : ﴿ يأيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ (٥)، وقال : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (٦)، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (٧)

---

(١) استحقبتها : حملتها فى الحقائب .

(٢) أيوعدنى ، الاستفهام على طريق التقريع واستعظام الأمر .

(٣) أجأ : أحد جبلى طيء ، وثانيهما سلمى . والرعان : جمع رعن ؛ وهو أنف يتقدم من الجبل . والقنابل جماعات الخيل ، قال التبريزى : « جعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .

(٤) فى حماسة المرزوقى « اجتذبتنا » . وفى التبريزى : « دعوتنا » .

(٥) سورة يونس ٢٣ .

(٦) سورة الفتح ١٠ .

(٧) سورة فاطر ٤٣ .

(٤٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَخْوَفَ مَاأَخَافُ عَلَيْكُم اثنتان : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَل ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَة .

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَاقَدْ وَلَّتْ حَذَّاء؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا. أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ؛ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُون ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَل .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

أقول : الحذَّاء : السَّريعة ، ومن النَّاس من يَرْويه : « جَذَّاء » بالجيم والذَّال ، أى انقَطَع دَرُّها وَخَيْرُها .

* * *

الشّرحُ :

الصُّبابة : بقية الماء فى الإناء . واصطبّها صابُّها ، مثل قولك : أبقاها مُبقيها أو تركها تاركها ؛ ونحو ذلك ، يقول : أخوَف ماأخافه عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل ، أمااتّباع الهوى فيصدّ عن الحق ؛ وهذا صحيح لاريب فيه ، لأنّ الهوى يُعمى البصيرة ، وقدقيل :

بك الشيء يُعمى ويُصِمّ ، ولهذا قال بعض الصالحين : رحِم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى ؛ و الك لأنّ الإنسان يحبّ نفسَه ، ومن أحبّ شيئا عَمِيَ عن عيوبه ، فلا يكاد الإنسانُ ح عيبَ نفسه ، وقد قيل :

أَرَى كلّ إنسانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِه وَيَعْمَى عن ٱلْعَيْبِ الَّذِى هُوَ فِيهِ

فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم ، علماً منهم أنّ هوى النفس اتِها يُعميها عن أن تُدْرِكَ عيبَها ، وما زال الهوى مُرْدياً قتّالا ، ولهـذا قال سبحانه : وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى ﴾⁽¹⁾ ، وقال صلى الله عليه وآله : « ثلاثٌ مُهلِكات : حٌّ مُطاعٌ ، وهوًى متَّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »⁽²⁾ .

وأنت إذا تأملت هلاك مَنْ هلك من المتكلمين كالمجبرة والمرجِئة، مع ذكائهم وفطنتهم اشتغالهم بالعلوم ، عرفت أنه لا سبب لهلاكهم إلا هوى الأنفس ، وحبّهم الانتصار للمذهب لذى قد ألفوه ، وقد رأسوا بطريقه ، وصارت لهم الأتباع والتلامذة ، وأقبلت الدنيا عليهم، عدّهم السلاطين علماء ورؤساء ، فيكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله ، ويحبون الانتصار تلك المذاهب والآراء التى نشئوا عليها ، وعرفوا بها ، ووصلوا إلى ماوصلوا إليه بطريقها، يخافون عار الانتقال عن المذهب ، وأن يشتفيَ بهم الخصوم ويقرّعهم الأعداء ؛ ومن أنصفَ علِم أنّ الذى ذكرناه حقّ . وأما طولُ الأمل فينسِى الآخرة ؛ وهذا حقّ ،لأن الذهن إذا انصرف إلى الأمل، ومدّ الإنسان فى مداه ، فإنه لا يذكر الآخرة ، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدنيا ، وما يرجو حصوله منها فى مستقبل الزمان .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ .

(٢) كذا أورد الحديث مختصراً ، ونقله السيوطى فى الجامع الصغير (١ : ٢٣٦) بهذه الرواية : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ؛ وثلاث درجات ؛ فأما المهلكات نشح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات . . . » إلى آخر الحديث .

ومن كلام مِسعر بن كِدام : كم مِن مُسْتَقبِل يوما ليس يستكمِلُه ، ومنتظرٍ غدا ليس من أجَلِه ! ولو رأيتم الأجل ومسيرَه أبغضتم الأملَ وغروره .

وكان يقال : تسويف الأمل غِرار ، وتسويل المحال ضِرار .

ومن الشعر المنسوب إلى علىّ عليه السلام :

غَرّ جَهُولًا أملُهْ   يموتُ مَنْ جا أجلُهْ
وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ   لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ
وَمَا بقاء آخِرٍ   قَدْ غَابَ عَنْهُ أوّلُهْ
والمرء لا يصحَبُهُ   فى الْقَبْرِ إلا عَمَلُهْ

وقال أبو العتاهية :

لا تأمَنِ الموتَ فى لحظٍ وَلَا نَفَسٍ   ولو تمَنّعْتَ بالُحجّاب والحرَس(١)
واعْلَمْ بأنّ سِهَامَ الموتِ قَاصِدَةٌ   لِكُلِّ مدّرع مِنّا ومُتّرِسِ
مابالُ دينك تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ   وَثَوْبُ لُبْسِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدّنَسِ !
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إنّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِى عَلَى الْيَبَسِ

ومن الحديث المرفوع : « أيّها النّاس إنّ الأعمالَ تُطوَى ، والأعمار تَفْنى ، والأبدانَ تَبْلَى فى الثرى ، وإن الليل والنهار يترا كضَان ترا كُضَ الفرقدين ، يقرّبان كلَّ بعيد ، ويُخْلِقان كل جديد ؛ وفى ذلك ماألْهَى عن الأمل ، وأذكرك بحُلول الأجل » .

وقال بعض الصالحين : بقاؤك إلى فناء ، وفناؤك إلى بقاء ، فخذ من فنائك الذى لا يبقى ، لبقائك الذى لا يفنى .

وقال بعضهم : اغتنم تنفُّس الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذِكْرَ المعاذير والعلَل ؛ ودع تسويفَ الأمانى والأمل ؛ فإنك فى نفسٍ معدود ، وعمرٍ محدود ، ليس بممدود .

وقال بعضهم : اعمل عَمل المرتحل ، فإنّ حادىَ الموت يحدُوك ليوم لا يعدوك .

---

(١) ديوانه ١٣٣ .

ثم قال عليه السلام : «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذّاء » بالحاء والذال المعجمة ؛ وهى لسريعة ، وقطاة حذّاء : خفّ ريشُ ذَنَبها ، ورَجُل أحذّ ، أى خفيف اليد ، وقد رُوِى « قد أدبرت جذّاء » بالجيم ؛ أى قد انقطع خَيْرُها ودَرّها .

ثم قال : إن كل ولد سيلْحَق بأمّه يوم القيامة ، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا .

ثم قال : «اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » ، وهذا من باب المقابلة فى علم البيان(١) .

---

(١) هنا آخر الجزء الثانى فى نسخة ا ، وفيها بعد هذه الكلمة : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة »

(٤٣)

ومن كلام له عليه السلام ، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام ، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجليّ :

الأَصْلُ :

إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَلَـكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً ، وَٱلرَّأْيُ مَعَ ٱلْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَـكُمُ ٱلْإِعْدَادَ .

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا ٱلْأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ ⁽١⁾ إِلَّا ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْكُفْرَ ⁽٢ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ ٢⁾ .

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً ، وَأَوْجَدَ النَّاسَ ⁽٣⁾ مَقَالًا فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

أَرْوِدوا ، أى ارفُقوا ، أَرْوَدَ فى السَّير إرواداً ، أى سار برِفْق ، والأَناة : التثبّت والتأنّى . ونهيه لهم عن الاستعداد ، وقوله بعد : « ولا أكره لـكم الإعداد » غيرُ متناقض ، لأنه كره منهم إظهار الاستعداد والجَهْر به ، ولم يـكره الإعداد فى السّر ، وعلى وجه الخفاء

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا : « فلم أر إلا القتال » ، وفى ج : « فلم أرلى إلا القتال »

(٢ ـ ٢) كذا فى ب ، وهو ساقط من ا ، ج .

(٣) مخطوطة النهج . « للناس » .

والكتمان ؛ ويمكن أن يقال إنّه كره استعداد نفسه ، ولم يكره إعداد أصحابه ؛ وهذان متغايران . وهذا الوجهُ اختاره القطب الراونديّ .

ولقائل أن يقول : التعليلُ الذى علّل به عليه السلام يقتضى كراهيَة الأمرين معا ، وهو أن يتّصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السّلم إلى الحرب ؛ بل ينبغى أن تكونَ كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولَهم وآلات حربهم أوْلَى؛ لأنّ شياع ذلك أعظمُ من شياع استعداده وحده ، لأنه وحدَه يمكن أن يكتم استعداده ، وأما استعداد العساكر العظيمة ، فلا يمكن أن يُكتَمَ ، فيكون اتّصاله وانتقاله إلى أهل الشام أسرَع ، فيكون إغلاق الشام عن باب خيرٍ إن أرادوه أقرب ؛ والوجه فى الجمع بين اللفظتين ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : « ضربت أنفَ هذا الأمر وعينَه » ، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء فى البحث والتأمّل والفِكر ؛ وإنما خَصّ الأنف والعين ، لأنهما صورة الوجه ، والذى يتأمّل من الإنسان إنما هو وجهه .

وأما قوله : « ليس إلّا القتالُ أو الكفر » فلأنّ النهىَ عن المنكَر واجبٌ على الإمام ، ولا يجوز له الإقرار عليه ، فإن تركَه فسَق ، ووجبَ عزلُه عن الإمامة .

وقوله : «أو الكفر» من باب المبالغة؛ وإنماهو القتال أو الفِسْق ، فسمّى الفِسْق كفرا تغليظا وتشديداً فى الزجر عنه .

وقوله عليه السلام : « أوجد النّاس مقالا » ، أىْ جعلَهم واجدين له (١) .

وقال الراونديّ : أوجد ها هنا بمعنى «أغضب» . وهذا غير صحيح ، لأنه لا شيء ينصب به « مقالا » إذا كان بمعنى « أغضب » . والوالى المشار إليه عثمان .

---

(١) عبارة ابن ميثم : « أى جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا » .

[ذكر ما أورده القاضى عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه ، وما يقوله أصحابنا فى تأويلاتها ، وما تكلَّم به المرتضى فى كتاب " الشافى " فى هذا المعنى ، فنقول :

إنّ قاضىَ(١) القضاة رحمه الله تعالى ، قال فى " المغنى " قبل الكلام فى تفصيل هذه الأحداث كلاما مجملا ، معناه أنّ كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمرٍ متيقَّن يقتضى العدولَ عنها ، يبيّن ذلك أنّ مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولِّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطريقة ، وإن غاب عَنّا . وقد عرفنا أنّهُ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًّا على حالته ، ويجوز أن يكون منتقلا ، ولم يقدح هذا التجويز فى وجوب ماذكرناه .

ثم قال : فالحدث الذى يُوجِب الانتقال عن التعظيم والتولّى إذا كان من باب محتمَل لم يجز الانتقال لأجله . والأحوال المتقرّرة فى النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولّاه أقوى فى باب الإمارة من الأمور المتجدّدة ؛ فإنّ مثلَ فرقد السَّبَخىّ(٢) ، ومالك ابن دينار(٣) لو شوهدا فى دارٍ فيها منكَر لَقَوِىَ فى الظّنّ حضورهما للتغيير والإنكار ؛

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدانى ، صاحب كتاب «المغنى» فى الجدل ؛ وإمام أهل المعتزلة فى زمانه ، توفى سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية ٣ : ٢١٩ .

(٢) السبخى ، بفتح السين والباء الموحدة ، وفى آخرها خاء معجمة : منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى ، من زهاد البصرة ، ومات سنة ١٣١ معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) هو أبو يحيى مالك بن دينار ، ؛ وكان من كبار الزهاد والوعاظ ؛ روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين ، توفى سنة ١٣٠ . صفة الصفوة ٣ : ١٩٧ .

أو على وجه الإكراه أو الغلط ؛ ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُـلِم من حاله الاختلاط بالمنكر لجوّز حضوره للفساد ؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله .

ثم قال : واعلم أن الـكلامَ فيما يُدّعى من الحدَث والتغيّر فيمن ثبت توليه ؛ قد يكونُ من وجهين :

أحدُ هما : هل علم بذلك أم لا ؟

والثانى : أنّه مع يقين حصوله : هل هو حَدَثٌ يؤثّر فى العدالة أم لا ؟

ولا فرق بَيْن تجويز ألّا يكون حـدث أصلا ، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألّا يكون حدثا .

ثم قال : كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنّه فعله على أحد الوجهين ، وكان يغلِبُ على الظّن صدقه لوجب تصديقه ، فإذا عرف من حاله المتقررة فى النّفوس مايطابق ذلك جرَى مجرى الإقرار ؛ بل ربما كان أقوى ؛ ومتى لم نسلك هذه الطريقة فى الأمور المشتبهة لم يصحّ فى أكثر من نتولّاه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا ، فإنّا لو رأينا من يُظنّ به الخـير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق لـكان ذلك من باب المحتمل ؛ فإذا كان لو أخبر أنّها أخته أو امرأته اوجب ألا نحول عن توليه ، فـكذلك إذا كان قد تقدّم فى النّفوس سترُه وصلاحه ؛ فالواجب أنْ نحمِلَه على هذا الوجه .

ثم قال : وقول الإمام له مزّية فى هذا الباب ؛ لأنه آكد من غيره ، وأمّا ما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه وإن لم يـكن مقطوعا به يؤثّر فى هذا الباب ، ويكون أقوَى مما تقدّم .

ثم قال : وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة ؛ ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلاما مُجملا ؛ يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتـكلم عن تفصيلها .

قال : وذلك أنّ شيخنا أبا علىّ(١) رحمه الله تعالى قد قال : لو كانت هذه الأحداث مما تُوجِب طعنا على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا يُنصَب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته ؛ فإنه لا خلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه ، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه ، فلما علمنا أنّ طلبَهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبلُ والتمكن قائم ، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث .

قال : وليس لأحدٍ أن يقول : إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك ؛ لأنّ المتعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التمكّن من نفسه ، ومن التصرّف فى سلطانه ؛ خصوصا والخصوم يدّعون أنّ الجميعَ كانوا على قول واحد فى خَلْعه والبراءة منه .

قال : ومعلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها وقتِل ، بل كانت تحصل من قَبْل حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يُوجِب الخلع والبراءة لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه ؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم .

قال : فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءة والخلعُ من أول الوقت الذى حصَل منه ما أوجب ذلك ، وألّا ينتظر حصول غيره من الأحداث ، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدّ إلا وينتظر غيره .

ثم ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقّنوا الأحداث منه يُوجب نسبةَ الجميع إلى الخطأ والضلال . ولا يمكنهم أن يقولوا : إنّ علمهم بذلك إنما حصل فى الوقت الذى حُصِر ومُنِع ؛ لأنّ من جملة الأحداث التى يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال ؛ بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت ؛ وإنما يمكنهم أن يتعلّقوا فيما حدث فى هذا الوقت بما يذكرونه من

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، شيخ المعتزلة . توفى سنة ٣٠٣ . شذرات الذهب ٢ : ٢٤١ .

حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبى سَرْح بالقتل ، وما أوجب كون ذلك حدثا يوجِبُ كونَ غيره حدثا ، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل ؛ واحتمالُ المتقدِّم للتأويل كاحتمال المتأخّر .

ثم قال : وبعد ؛ فليس يخلو من أن يَدّعوا أنّ طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم ؛ فإن ادّعَوْا ذلك فى بعض الأمة ،فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالُها بلا خلاف ، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمة ، وإن ادعَوْا فى ذلك الإجماع لم يصح ؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومَنْ كان ينصره ، ولا يمكن إخراجه من الإجماع ، بأن يقال : إنه كان على باطل ؛ لأن بالإجماع يتوصّل إلى ذلك ، ولم يثبت.

ثم قال : على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنّها كانت بين فريقين ؛ أمّا مَنْ نصره ، فقد رُوِى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار : ائذن لنا بنصرك. ورُوِى مثل ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة والمغيرة بن شعبة ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ إلا إنه لو ضُيِّق عليهم الأمر فى الدفع ماقعدوا ، بل المتعالَم من حالهم ذلك .

ثم ذكر مارُوِى من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه ، وأنه لما قُتِل لامَهما عليه السلام على وصول القوم إليه ، ظنا منه أنهما قَصّرا .

وذكر أنّ أصحابَ الحديث يروون عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : «ستكونُ فتنة واختلاف ، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى» . ومارُوِىَ عن عائشة من قولها: « قُتِل والله مظلوما » .

قال : ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث فى ذلك ؛ لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه ؛ نحو دعواهم أن جميعَ الصحابة كانوا عليه ؛ لأنّ ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد ؛ وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ماثبت من أحواله السليمة ،ووجوب توليه .

قال : ولا يجوز أن يعدَل عن تعظيمه وصحّة إمامته بأمور محتمَلة ؛ فلاشىء مماذكروه إلّا ويحتمل الوجه الصحيح .

ثم ذكر أنّ الإمام أن يجتهدَ برأيه فى الأمور المنُوطة به ، ويعمل فيها على غالب ظنّه؛ وقد يكون مصيبا ، وإن أفضتْ إلى عاقبة مذمومة .

فهذه جملة ماذكره قاضى القضاة رحمه الله تعالى فى " المغنى " من الكلام إجمالا فى دفع مايُتعلق به على عثمان من الأحداث(١) .

* * *

[رد المرتضى على ماأورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى فى " الشافى(٢) " ، فقال :

أما قوله : « مَنْ تثبت عدالته ووجب توليه إمّا قطعا أو على الظاهر ؛ فغير جائز أن يُعَدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقّن » ؛ فغير مسلّم لأن مَنْ نتولاّه على الظاهر ، وثبتت عدالتُه عندنا من جهة غالب الظنّ ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضى غالبَ الظنّ دون اليقين ؛ ولهذا يؤثّر فى جَرْح الشهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين؛وإن كانت مظنونة غير معلومة . وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التى لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتى نرجعَ عما كنا عليه من القول بعدالتهم ؛ وإن لم يكن كلُّ ذلك متيقّنا ، وإنما يصحّ ماذكره فيمنْ ثبتتْ عدالته على القَطْع ووجب توليه على الباطن؛ فلايجوز أنيؤثّر فى حاله مايقتضى الظّنّ ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم ، والدلالة لا تقابل الأمارة .

فإن قال : لم أردْ بقولى إلّا بأمرٍ متيقّن أن كونه حدثًا متيقّن ؛ وإنما أردت تيقُّنَ وقوع الفعل نفسِه .

قلنا : الأمرَانِ سواء فى تأثير غَلَبة الظنّ فيهما ، ولهذا يؤثّر فى عدالة مَنْ تقدمتْ

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٣ ، ٢٦٤ مع تصرف فى العبارة .

(٢) كتاب الشافى فى الإمامة والرد على كتاب المغنى . طبع فى العجم سنة ١٣٠١ .

عدالته عندنا على سبيل الظنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتكاب القبائح(١) إذا كانوا عدولا، وإن كانتْ أقوالهم لاتقتضِى اليقينَ ، بل يحصل عندها غالبُ الظنّ . وكيف لانرجع عن ولاية مَنْ توليناه على الظّاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضى ظاهرُها خلافَ الولاية ، ونحن إنما قلنا بعدالته فى الأصل على سبيل الظاهر ! ومع التجويز لأن يكون ماوقع منه فى الباطن قبيحا لايستحقّ به التولّى والتعظيم ، ألا ترى أنّ مَنْ شاهدْناه يلزمُ مجالسَ العلم ، ويكرّر تلاوة القرآن ، ويدمِنُ الصلاةوالصيام والحج ، يجب أن نتولّاه ونعظّمه على الظاهر !وإن جوّزنا أن يكون جميعُ ماوقع منه مع خبث باطنه ، وأن غرضه فى فعله القبيح فلم نتولّه إلا على الظاهر . ومع التجويز ، فكيف لانرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة ! فأما مَنْ غاب عنّا وتقدمت له أحوال تقتضى الولاية ، فيجب أن نستمرّ على ولايته ؛ وإن جوزنا على الغيبة أن يكون منتقلا عن الأحوال الجميلةالتى عهدناها منه ؛ إلا أنّ هذا تجويز محض لاظاهر معه يقابل ماتقدّم من الظاهر الجميل ، وهو بخلاف ماذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر ، وإن كان فى كلّ واحد من الأمرين تجويز .

قال : وقد أصاب فى قوله : « إنّ مايحتمل لاينتقل(٢) له عن التعظيم والتولّى » إن أراد بالاحتمال مالا ظاهر له ، وأمّا ماله ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لايسمىّ محتملا . وقد يكون مؤثرا فيما ثبت من التولى على الظاهر على ماذكرناه .

قال : فأما قوله : « إنّ الأحوال المتقررة فى النفوس بالعادات فيمن نتولّاه تؤثّر مالايؤثر غيرها ، وتقتضى حَمْل أفعاله على الصحّة والتأوّل له » ؛ فلا شك أنّ ماذكره مؤثّر وطريق قوىّ إلى غلبة الظنّ ، إلا أنّه ليس يقتضى مايتقرّر فى نفوسنا لبعض مَنْ نتولاه على الظاهر أن نتأوّل كلّ مايشاهَد منه من الأفعال التى لها ظاهر قبيح ، ونحمِل الجميعَ على

---

(١) الشافى : « قبيح » .

(٢) الشافى : « لايجوز أن ينتقل له » .

أجمل الوجوه ، وإن كان بخلاف الظاهر ، بل ربما تبين الأمرُ فيما يقع⁽¹⁾ منه من الأفعال التى ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر فى أحواله المقرّرة ، ونرجع بها عن ولايته ؛ ولهـذا نجد كثيرا من أهلِ العدَالة المتقرّرة لهم فى النفوس ، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لاتثبت له فى وقت من الأوقات عدالة ، وإنّما يكون ذلك بمـا يتوالى منهم ويتـكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة .

قال : فأمّا مااستشهد به من أنّ مثل مالك بن دينار لوشاهدناه فى دارٍ فيها منـكَر لقوِىَ فى الظنّ حضورُه لأجل التغيير والإنـكار⁽²⁾ ، أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه فى هـذا الباب ؛ فصحيح لايخالِف ماذكرناه ؛ لأنّ مثل مالك بن دينار ممن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالا بعدحال ،لايجوز أن يَقدَح فيه فعل له ظاهر قبيح ، بل يجب لما تقدّم مِنْ حاله أن نتأوّل فعله ، ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأنّ الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة ، فتجعلُها قاضية على الفعل والفعلين ،ولهذا متى توالت منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتـكرّرت، قدحت فى حاله، وأثرّت فى ولايته ، كيف لايـكون كذلك وطريق ولايته فى الأصل هو الظنّ والظاهر، ولابدّ مِنْ قدح الظاهر فى الظاهر ، وتأثير الظن فى الظن على بعض الوجوه .

قال : فأما قوله : « فإنّ كلّ محتمل لوأخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظنّ صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه ، فمتى عرف من حاله المتقرّرة فى النفوس مايطابق ذلك ، جَرَى مجرى الإخبار⁽³⁾ » ؛ فأوّل مافيه أنّ « المحتَمل » هومالاظاهر له من الأفعال، والذى يكون جواز كونه قبيحا كجواز كونه حسنا ، ومثل هذا الفعل لا يقتضى ولاية

---

(١) الشافى : « فيما يرجع منه » .
(٢) الشافى : « التنكير » .
(٣) الشافى : « الإقرار » .

ولا عداوة ، وإنّما يقتضى الولاية ماله من الأفعال ظاهر جميل ، ويقتضى العداوة ماله ظاهر قبيح .

فإن قال : أردتُ بالمحتمَل ماله ظاهر ، لكنه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره .

قيل له : ماذكرتَه لا يسمى محتمَلا ؛ فإنْ كنت عنيتَه فقد وضعت العبارة فى غير موضعها ، ولاشكّ فى أنّه إذا كان ممّن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقُه، وحمل الفعل على خلاف ظاهره ؛ فإنّ الواجب لما تقرّر له فى النفوس أن يُتأوّل له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل ، إلّا أنه متى توالتْ منه الأفعال التى لها ظواهر قبيحة، فلابدّ أن تكون مؤثرة فى تصديقه، متَى خُبّرنا بأن غرضَه فى الفعل خلاف ظاهره ، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأوّل .

وضربه المثل بأنّ من نراه يكلّم امرأة حسناء فى الطريق إذا أخبر أنها أختُه أو امرأته فى أنّ تصديقه واجب، ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامَه لها على أجمل الوجوه ؛ لما تقدم له فى النفوس — صحيح، إلّا أنه لابد من مراعاة ماتقدم ذكره، من أنه قد يقوَى الأمر لقوّة الأمارات والظواهر إلى حدٍّ لايجوز معه تصديقه ولا التأول له، ولولا أنّ الأمر قد ينتهى إلى ذلك لما صحّ أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة ، ولامن العدالة إلى خلافها؛ لأنّه لاشىء مما يفعله الفسّاق المتهتكون إلاويجوز أن يكونَ له باطن بخلاف الظاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز ؛ يبين صحة ماذكرناه أنّا لو رأينا من يُظنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق ويداعبها ويضاحكها لظننّا به الجميل مرة ومرات ، ثم ينتهى الأمر إلى ألّا نظنه . وكذلك لو شاهدناه وبحضرته المنكر ، لحملنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غير ذلك من الوجوه الجميلة. ثم لابدّ من انتهاء الأمر إلى أن نظنّ به القبيح ولا نصدقه فى كلامه .

قال : ثم نقول (١) له : أخبرْنا عمّن شاهدناه من بُعْد وهو مفترِش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرَم ، وأنّ لها فى الحال زوجاً غيره ، وهو ممن تقررت له فى النفوس عدالةٌ متقدّمة ، ماذا يجب أن نظنّ به ؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته ، أم نحمله على أنه غالط ومتوهِّم أنّ المرأة زوجته، أو على أنه مكرَه على الفعل، أو غير ذلك من الوجوه الجميلة!

فإن قال : نرجع عن الولاية ، اعترف بخلاف ماقصده فى الكلام ، وقيل له : أىّ فَرْق بين هذا الفعل وبين جميع ماعددناه من الأفعال وادّعيت أنّ الواجب أن نَعدل عن ظاهرها ؟ وماجواز الجميل فى ذلك إلا كجواز الجميل فى هذا الفعل .

وإن قال : لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته (٢) ، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة.

قيل له : أرأيت لو تكرّر هذا الفعل وتوالى هو وأمثاله حتى نشاهده حاضرا فى دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها ، وكلّ هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرَهًا وفى أنه القبيح بعينه غالطا ، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها ؟ فإن قال: نستمرّ ونتأوّل ، ارتكب مالاشبهة فى فسادِهِ ، وألزم ماقد قدّمنا ذكره من أنّه لاطريق إلى الرجوع عن ولاية أحد ، ولو شاهدنا منه أعظمَ المناكير . ووقف أيضًا على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظنّ دون القطع، فكيف لانرجع عنها لمثل هذا الطريق ، فلابدّ إذنْ من الرجوع إلى مابيناه وفصلناه فى هذا الباب .

قال : فأمّا قوله : « إن قول الإمام له مزية ؛ لأنه آكد من غيره » فلا معنى له ؛ لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية ، من حيث كان معصوما مأمون (٣) الباطن، وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين؛ فأىّ مزية له فى هذا الباب !

---

(١) ب « ثم يقال » .

(٢) الشافى : « الولاية » .

(٣) الشافى : « معصوما مأمونا باطنه » .

وقوله : « (١) إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعا عليه يؤثِّر فى هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم » غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن تأثيرَ ما ينقل إذا كان يقتضى غلبة الظنّ لا شبهة فيه ؛ فأما تقويتُه على غيره فلا وجه له ؛ وقد كان يجب أن يبين من أى الوجوه يكون أقوى .

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضى القضاة رحمه الله تعالى .

تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة (٢)

---

(١) الشافى ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(٢) هذا نهاية نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ج : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ، بحمد الله ومنه وصلى الله على محمد وآله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

٢٦ – من خطبة له عليه السلام يذكر فيها العرب بما كانوا عليه قبل البعثة ، وشكواه من انفراده بعدها ، وذمه لمن بايع بشرط ١٩ ، ٢٠ ، ٦٠
٢٧ – من خطبة له فى الحث على الجهاد وذم المتقاعدين ٧٤ ، ٧٥
٢٨ – من خطبة له فى إدبار الدنيا وإقبال الآخرة والحث على التزود لها ٩١
٢٩ – من خطبة له فى ذم المتخاذلين ١١١
٣٠ – من خطبة له فى معنى قتل عثمان رضى الله عنه ١٢٦
٣١ – من كلام له لما أنفذ عبد الله بن العباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيه إلى طاعته ١٦٢
٣٢ – من خطبة له فى ذم الدهر وحال الناس فيه ١٧٤ ، ١٧٥
٣٣ – من خطبة له عند مسيره لقتال أهل البصرة ١٨٥
٣٤ – من خطبة له فى استنفار الناس إلى أهل الشام ١٨٩ ، ١٩٠
٣٥ – من خطبة له بعد التحكيم ٢٠٤
٣٦ – من خطبة له فى تخويف أهل النهروان ٢٦٥
٣٧ – من كلام له يجرى مجرى الخطبة ، يذكر ثباته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢٨٤
٣٨ – من خطبة له فى معنى الشبهة ٢٩٨
٣٩ – من خطبة له فى ذم المتقاعدين عن القتال ٣٠٠
٤٠ – من كلام له للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » . ٣٠٧
٤١ – من خطبة له فى مدح الوفاء وذم الغدر ٣١٢
٤٢ – من خطبة له يحذر الناس فيها من اتباع الهوى وطول الأمل ٣١٨
٤٣ – من خطبة له وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجلى ٣٢٢

---

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

صفحة

بعث معاوية بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن ٣ – ١٨
حديث السقيفة ٢١ – ٦١
أمر عمرو بن العاص ٦١ – ٧٣
استطراد بذكر كلام لابن نباته فى الجهاد ٨٠
غارة سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار ٨٥ – ٩٠
نبذ من أقوال الصالحين والحكماء ٩٣ – ١٠٣
استطراد بلاغى فى الكلام على المقابلة ١٠٣ – ١١٠
غارة الضحاك بن قيس ونتف من أخباره ١١٣ – ١٢٥
اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله ١٢٩ – ١٦١
من أخبار الزبير وابنه عبد الله ١٦٦ – ١٧٠
استطراد بلاغى فى الكلام على الاستدراج ١٧٠ – ١٧٣
فصل فى ذكر الآيات والأخبار الواردة فى ذم الرياء والشهرة ١٧٨ – ١٨٢
فصل فى مدح الخمول والجنوح إلى العزلة ١٨٢ – ١٨٤
من أخبار يوم ذى قار ١٨٧ – ١٨٨
أمر الناس بعد وقعة النهروان ١٩٣ – ١٩٧
مناقب على وذكر طرف من أخباره فى عدله وزهده ١٩٧ – ٢٠٣
قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج ٢٠٦ – ٢٦٠
أخبار الخوارج ٢٦٥ – ٢٨٣
الأخبار الواردة عن معرفة الإمام على بالأمور الغيبية ٢٨٦ – ٢٩٥

---

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

صفحة
أمر النعمان بن بشير مع على ومالك بن كعب الأرحبى ٣٠١ – ٣٠٥
اختلاف الرأى فى القول بوجوب الإمامة ٣٠٧ – ٣٠٩
من أخبار الخوارج أيضا ٣١٠ – ٣١٢
الأخبار والأحاديث الواردة فى مدح الوفاء وذم الغدر ٣١٤ – ٣١٧
ذكر ماأورده القاضى عبد الجبار من دفع ماتعلق به الناس على عثمان من الأحداث ٣٢٤ – ٣٢٨
رد المرتضى على ما أورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان . ٣٢٨ – ٣٣٣